بسم الله الرحمن الرحيم

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة

يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة

العدد التاسع والعشرون

يناير ٢٠٠٦م

المراسلات : ترسل البحوث والمقالات باسم السيدة الأستاذة الدكتورة ليلى عبدالجواد إسماعيل رئيس التحرير على العنوان التالي : كلية الآداب ـ جامعة القاهرة (قسم التاريخ) بريد الأورمان ـ محافظة الجيزة.

All Correspondence to be directed to : Editor-in Chief : Prof. Laila A. Esmaeel, Cairo University, Faculty of Arts, Orman, Giza, A.R.E.

قواعد النشر

- ترحب المؤرخ المصري بنشر الأبحاث والدراسات الأصلية ذات المستوى الجاد بعد التحكيم، فضلاً عن مراجعات وعرض الكتب الجديدة.
- تقبل المؤرخ المصري للنشر الأبحاث التاريخية والحضارية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد الصفحات عن ٣٠ صفحة مسجلة على ديسك كمبيوتر وفق برنامج (Word) مع نسخة مطبوعة على ورق حجم A4 بما في ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع، على أن تكتب الهوامش في نهاية البحث.
- المؤرخ المصري لا تنشر بحوثًا سبق أن نشرت أو معروضة للنشر في مكان آخر، وتقوم رئاسة التحرير بإخطار المؤلفين بإجازة بحوثهم للنشر بعد عرضها على هيئة التحكيم.
- تحتفظ المؤرخ المصري لنفسها بحق قبول أو رفض الأبحاث أيًا كان قرار هيئة التحكيم.
- النشر في المؤرخ المصري متاح لأعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية.
- الآراء الواردة بالمؤرخ المصري تعبر عن وجهة نظر أصحابها.

شكر للسادة الأساتذة الذين شاركوا في تحكيم هذا العدد، وهم وفقًا لترتيب البحوث بالمجلة، على التوالي :

١- أ.د. محمد فهمي عبدالباقي

٢- أ.د. محمد محمد أمين

٣- أ.د. منى حسن محمود

٤- أ.د. حورية عبده سلام

٥- أ.د. ليلى عبدالجواد إسماعيل

٦- أ.د. وسام عبدالعزيز فرج

٧- أ.د. محمود عرفة

٨- أ.د. عبدالعليم أبو هيكل

محتويات العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيز قارئ مجلة المؤرخ المصري :

هذا هو العدد الأخير الذي أشرف بتقديمه لكم؛ وبرئاسة تحريره، لأن القاعدة المعمول بها في قسم التاريخ هي أن يرأس تحرير المجلة رئيس مجلس القسم وسوف تنتهي مدة رئاستي لمجلس قسم التاريخ في إبريل ٢٠٠٦م بعد أن شرفت بتوليها على مدار ست سنوات كاملة بدأت من إبريل عام ٢٠٠٠م.

وبهذه المناسبة آمل أن تستمر مجلة المؤرخ المصري في أداء رسالتها في ظل رئاسة زميلي الأستاذ الدكتور محمد بركات البيلي الذي خلفني في رئاسة مجلس قسم التاريخ، ودعواتي له بالتوفيق والسداد، كذلك آمل أن يحظى هذا العدد وهو التاسع والعشرون من مجلة المؤرخ المصري بقبول قارئيه خاصة وأنه عدد دسم، يحتوي على عدد كبير من البحوث والدراسات التاريخية القيمة والجادة، يقدر بأحد عشر بحثًا في فروع التاريخ القديم والوسيط والحديث والإسلامي، وهي بحوث ثرية، بذل كاتبوها عرب ومصريون جهدًا كبيرًا في إعدادها، فلهم مني جزيل الشكر، والشكر موصول للسادة الأساتذة الذين شاركوا في تحكيم هذه البحوث.

والله أسأل التوفيق والسداد والعون من أجل العمل على استمرار رفعة مجلة المؤرخ المصري ورقيها وازدهارها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس التحرير

أ.د. ليلى عبدالجواد

أبو للو فى ضوء الوثائق البردية والنقشية بمصر إبان العصرين البطلمى والرومانى

د. رضا عبدالجواد رسلان
كلية الآداب ــ جامعة المنصورة

حظى الإله أبوللو على مكانة مرموقة فى الديانة اليونانية، ونجح فى احتلال الصدارة بالعصر الكلاسيكى وكذا فترة تأسيس المستعمرات اليونانية من خلال وحى دلفى، وتنبؤات كاهنات بيثيا، وذلك على الرغم من اعتباره إلها أجنبيا وافدا عليها سواء من الشرق أو الشمال[1]، ولكنه سرعان ما انصهر فى بوتقة المعتقدات والأفكار الهيللنية التى جردته من ثيابه الوافده.

قدمه هوميروس بأنه إله مطلق القوة مثل الآلهة البدائية، حكيما، متزنا (Iliad,V.٤٤ff)، وارتبط بالذئاب(Aesch,Ag.١٢٥٧)، وحصد الموت للأخيين لاستهزائهم بكاهنه خريسيس، وارتبط بالطب، وحمل الكثير من الألقاب الدينية التى تجسد دوره فى منح الحياة ونقيضها، فهو الحامى من الشرور والأمراض (αλεξιακακος) (Hom, IL.X-٢٠) وأيضا (Αποτροπαιος) (Aristoph.Eq.١٣٠٧) وخلعت عليه ألقاب مرتبطة بالضوء، والشمس (Plut.mor. ٣٩٣-d-ff)، وكذا تفسير القوانين والطهارة النفسية (Καθαρασιος) وتناسخ الأرواح، ومفارقة الروح للجسد، والحارس للبوابات (Αγυιευς) وهو المشهور أيضا باسم الديلى نسبة إلى جزيرة ديلوس التى ورد فى الأساطير أنه ولد فيها هو وأخته أرتميس من الجبارة ليتو ووالدهما زيوس.

عرف أيضا بالبيثى لنجاحة فى قتل الأفعى بيثون، وحمل لقب الليكى نسبة إلى ليكيا بآسيا الصغرى، ولقب (νομιος) باعتباره حامى للرعاه وارتبط بالشعائر الدينية الواجبة لتطهير الجسد، والروح، ولهذا ارتبط بالشرائع، والمدونات القانونية

فحمل صفة الواضح، والمحدد، والمقيس، أى المضاد لصفات الغامض، ومن مواعظة على جدران معبده فى دلفى " إعرف نفسك "، "إياك والإفراط "، "اكبح جماح نفسك"، "إلزم حدك"، " صن لسانك، " اطع أولى الأمر"، "إسجد للألهه "، "لاتباهى بقوتك"، "إخضع المرأة لسيطرتك"، ولهذا فهو يكره الطغاة : وقد اختلفت أيضاً الأراء حول تفسير اسمه، فهل هو مشتق من كلمة بمعنى حظائر الغنم، وهذا يفسر علاقته بالرعاه أو مشتق من لفظ بمعنى الإجتماعات العامة وبخاصة لدى الإسبرطيين، أو أنه صفة أو لقب مشتق من كلمة بمعنى شجرة الحور أو من الشمس، ونسجت حول مولده وخصوماته وغرامياته التى كانت لاتنتهى دائما بنهايات سعيدة بل إن معظمها وأوسعها شهرة ينتهى بنهاية مفجعة، سواء أكان المحبوب فتى أم فتاة (هيباكنثيوس) دافنى – كاساندرا)[٢]. ومن خلال دراسة أبوللو الدينية بشكل عام، فستلمس مدى تطور عبادته منذ عصور ما قبل النبوءة الدلفية ولكن العصر الهللينستى قد زاحم الوحى بطقوس أخرى لتحقيق الإطمئنان الروحى.

وقد حرص الباحث على تلك المقدمة الموجزة عن عبادة أبو للو بصفة عامة لكى نرى مدى انتشار عبادته فى مصر والدور الدينى الذى لعبه فى خضم المعتقدات الأخرى سواء المصرية أو اليونانية أوعبادة سرابيس والملوك والملكات وعبادة الأباطرة، والآلهه الاجنبية الوافدة، واليهودية، والمسيحية . وننتقل الآن إلى صلب موضوع الدراسة على النحو التالى :

أولا : عبادة أبوللو بمصر قبل العصر البطلمى :

كان الإله أبوللو من بين أهم الآلهة اليونانية التى جاءت مع الاستقرار الإغريقى بمصر بصفة عامة، وبمدينة نقراطيس فى العصر الصاوى بصفة خاصة حيث تم تأسيس معبدا له بنقراطيس عن طريق إغريق مليتوس الذين كانوا يمثلون الغالبية العظمى لسكانها، وقد تم تأريخ هذا المعبد بحوالى ٦٨٠ ق.م، وهو نفس المعبد الذى تم تجديدة فى نفس الموقع فى القرن الخامس ق.م. ولكنه كان فى هذه المره أكثر إتساعاً، ويعكس ثراء المدينة، فقد كانت تيجانه، وأعمدته على الطراز الدورى، ومشيده بالرخام الذى تم إستيراده من آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه[٣].

ولنرصد بعض المواقف الرسمية لحكام مصر بالعصر الصاوى التى تبرز إحترامهم لأبوللو، أو قد تكون الدوافع السياسية لكسب ود الأغريق المقيمين بمصر هى الأقرب إلى الصواب، ولكنها فى النهاية تعكس مدى شعبية أبوللو وسط المجتمع اليونانى المقيم فى مصر بالعصر الصاوى .

الموقف الأول : قيام نخاو بإرسال الملابس العسكرية التى كان يرتديها فى حربه ضد الكلدانيين فى (٦٠١/٦٠٠ ق.م) إلى معبد أبوللو فى ديدما، وهو معبد أيونى قد لعب دورا رئيسيا فى النبوات لإغريق آسيا الصغرى[٤].

الموقف الثانى : إرسال أمازيس ما يعادل وزنه ألف تالنت من الشب للاتحاد الامفكتيونى لإعادة تشييد منطقة دلفى التى إحترقت فى ٥٣٠ ق.م[٥]. وعثر بداخل معبد أبوللون بنقراطيس على بعض الإهداءات التى تبرز لنا بعض ألقابه الدينية . ولعل أهمها هو ذلك النقش الخاص بأهل مليتوس، وفيه ينعتون أبوللو بصفة (Μιλισιος)[٦]، وكذا وردت إشارة أخرى تمنحه لقبا أخر هو(Φανιος)[٧]، أى جالب الضوء، ونعلم أنه قد حمل بعض الصفات فى عبادته بصفة عامة تربطه بالضوء والشمس، وقد قام أحد المتعبدين بتقديم ساعتان[٨] للشمس، كقربان للإله أبوللو الذى عبد بصفته جالبا للضوء.

وهكذا نرى مدى أهمية عبادة أبوللو بمصر قبل العصر البطلمى من خلال وجود معبده بالمدينة ونقوش الإهداءات التى تم العثور عليها وكرست من أجله فى مدينة نقراطيس.

ثانيا : مناطق عبادة أبو للون إبان العصرين البطلمى والرومانى :

ظل معبد أبوللو بنقراطيس يؤدى واجباته الدينية فى العصر البطلمى، ولانعلم هل استمر كذلك إبان العصر الرومانى أم لا ؟ ووردت إشارة لاحتفال خاص بأبوللو أيضا فى نقراطيس سنعالجها بالتفصيل بعد ذلك .. وهناك نقش أيضاً لمعبد أبوللو فى ممفيس[٩] فى العصر البطلمى، ولكن يجب التنويه إلى أن معبد أبوللون هذا قد ثار حوله جدلا كثيرا، حيث رأى البعض أن النقش قد ذكر اجتماعا لجالية الأيدوميين فى معبد أبوللو، حيث كان المعبد مزخرفا، وكانت له طقوس خاصة

يحب على الكهنة مراعاتها سواء فى القرابين أو الأضاحى، أو المـآدب، وعلـى ضوء ذلك اتجهت بعض التفسيرات إلى أن المعبد كان لأبوللو الإغريفـى، بينمـا إعترض بعض العلماء وذكروا أن المقصود هنا هو الإله كـوس إلــه الايـدوميين الأعظم . وقد لعب هذا المركز دورا هاما فى حياة الساميين، فإنه فضلا عن كونه مركزا دينيا، فقد كان أيضا مركزا لحياتهم السياسية والإجتماعية، أى أنه صـوره للإله كوس المتأغرق فى صورة أبوللو . وأميل إلى الإعتقاد بأن هذا المعبد كـان مشيداً لأبوللو، ولاتوجد أى عوائق دينية تحـول مـن إهتمـام الأيـدوميين بـه، وإجتماعاتهم بداخله، سواء أكان هدفهم عبادة أبوللو أو الإله كوس المتـأغرق فـى صورة أبوللو فلم يكن هناك إعتراض دينى على دخولهم فى المعبد(١٠).

وكذلك عثر على بعض النقوش المتعلقة لأبوللو بالإسكندرية فـى العصـر البطلمى(١١) بالسيرابيوم ،وسوف نعالجها لاحقا وعثـر لـه أيضـاً علـى نقـش بكوبتوس(١٢).

وإذا انتقلنا إلى العصر الرومانى فمن المفترض أن مناطق عبادته فى العصر البطلمى مثل نقراطيس، وممفيس، وكوبتوس قد إستمرت، ولكنها فرضية تخمينيـة ربما تكشفها الوثائق المستقبلية، وتعد أوكسيرنيخوس(١٣) من أبرز مناطق عبادته فى تلك الفترة حيث عثر على محتويات بداخل معبده بأوكسيرنيخوس تتمثل فى بعض التماثيل البرونزيه للإله أبوللو، وأوان زجاجية، ومذابح، وبوابات، ولعـل وجـود المذابح يشير إلى وجود الأضـاحى والقـرابين ،وهنـاك وثيقـة برديـة أيضـاً (P.oxy.254,75/6 A.D.) وفيها نجد إشارة إلى أمونيوس بن ليكيوس الكـاهن للمعبودات (زيوس – هيرا – ابوللو – كورى – ديونيسوس). ولحسن الحظ فقـد عثر على تمثالين محفوظين بالمتحف المصرى من البرونز(١٤) بصـورة شـاب واقف، عار، وعاقد الرأس بعصبة، ينظر جهة اليمين، الشعر مصفف مسـترسل، فوق الجبهة، ومفروق من المنتصف، ومن الخلف معقوف بشكل دائـرى، ولـذلك يستنتج أن الفنان عمل هذا التمثال ليرى من كل جهة ويرجح أنه من النصف الأول من القرن الثانى الميلادى . وهناك تمثال آخر من البرونز، وهو جالسـا عـارى الجسد إلا من وشاح على الكتف والذراع اليسرى، ويرتدى جراب، علـى الكتـف

الأيمن وحذائه برقبه عاليه، مصفف الشعر مجعدا، الإله ينظــر لليســار، وتظهــر ملامح الوجه واضحة، فيظهر الإجهاد الذى تعرض له الإلــه، ويرجح أنـــه مـــن عصر نيرون أى أواخر القرن الأول الميلادى .

وحملت ديمات انتينوبوليس إشارة لبعض ألقابة الدينية، وهو لقب(Κτιστης) الذى يعكس رغبة الامبراطور هادريان بتشبهه بأبوللو باعتباره مؤسسا للمـــدن(١٥). وعثر على وثيقة بردية خاصه باحتفال له فى مدينة سايس، وهرموبوليس ماجنـــا ،سوف نتشير إليهما بالتفصيل لاحقاً فى احتفالاته، وعثر علـــى نقـــش(١٦) بمدينـــة بطلمية من عصر تراجان بمناسبة ترميم معبد اسكليبيوس وهيجيـــا بـــه إشـــارات لأبوللو، وهو مايجعل افتراض عبادته بالمدينة أمرا محتملا، وخاصـــة أن باجنـــال يربط بين العبادات ببطلمية وأسماء الأفراد، حيث وجدت أسماء مشتقة من إسم الإله مثل أبوللونيوس وأبوللونيا(١٧). وقبل أن نختتم هذه النقطة المتعلقة بمناطق عبادتـــه بمصر فيجدر الإشارة إلى نقطة هامة ،هى إستمرار شعبية منطقة أبوللـــو بـــدلفى كمنطقة مقدسة مثل اليوسيس لـــديميتر، ودودونـــا لزيـــوس، ومنـــاطق الألعـــاب والمهرجانات الرياضية والدينية كالألعاب الأوليمبية والنيمية والبيثية، حيث توجـــد قائمة بأسماء لبعض الفائزين فى المسابقات الرياضية فى العصر البطلمى . فنجـــد أبوللو دوروس المقيم(١٨) بمصر، يقدم قربانا لأبوللو بدلفى، بمناسبة فوزه بالألعاب البيثية، وهو عبارة عن قرص برونزى، وهو مافعله أيضا بعض الفائزين فى نفس الألعاب، وقد إستمر هذا الإرتباط أيضا فى العصر الرومانى، وظلت شعبية دلفـــى الدينية مستمرة فى نقوش البعض منهم، حيث قام الرياضى الرومانى روفـــوس(١٩) بالإشتراك فى مهرجانات الرياضية الكابيتولية والأولمبية والبيثية التى تهمنا فى هذا الصدد بدلفى. أى ظلت الإحتفالات الدينية والألعاب الرياضية مقصدا لهـــم خـــلال العصرين الهيلينسى والإمبراطورى .

ثالثاً : رموز أبوللو ومخصصاته المقدسة :

تم تصوير بعض رموز أبوللو الدينيـــة علـــى عملـــة العصـــرين البطلمـــى والرومانى، وبصفة خاصة عملة العصر الرومانى التى استخدمت تصويره بشـــكل واسع، وقد رأيت أنه من الأفضل عدم إغفال تلك النقطة رغم اعتمادها على العملة

والتمثالين البرونزيين فقط اللذان أظهرا بعض تلك المخصصات نظرا لغياب الأدلة الوثائقية فى تلك النقطة.

الصقر :

ظهر الصقر على عملة كل من نيرون وفسياسيان، ودوميتيان، وتراجان ومن المعروف أن الطيور قد إرتبطت إرتباطا كبيرا بالآلهة الإغريقية، فلقد كان الصقر من رموز أبوللو، والبومه من رموز أثينا، والحمام من رموز أفروديتى، والنسر من رموز زيوس ،ولعبت الطيور المقدسة دورا كبيرا فى دلفى، وخاصة فـــى تفســـير النبوات[٢٠]، ولكن أعتقد أنه هناك مشكلة خاصة بتصوير الصقر، والتأكيد على أنها من بين رموز أبوللو، فقد تكون من نصيب حورس المصرى الذى إقترن به الصقر أو لأبوللو نفسه، وبالتالى أصبح هناك صعوبة فى التفريق بـــين صـــقر حـــورس، وصقر أبوللو[٢١].

نبات الغار :

ظهر تصوير أبوللو مرتديا إكليل الغار[٢٢]. ونعلم من سيرته الإلهية مع دافنى مدى إرتباطه بهذا النبات، والنباتات الأخرى، التى انعكست فـــى صـــفاته وألقابـــه الدينية، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

اللقب	المصدر
Εριφυλλος	Hesych.
Δαφνηφορος	Paus.IX,10,4
Αλσηνος	Dumont,inscr.de la thrace,P.62.
Μυριναιος	Schol-Nic
Φιλαδαφνος	Eur.Fr.480
Πλατανιστιος	Paus.IX,34,6.

- تم تصوير يورجيتيس الأول برموز أبوللو على حلى زجاجى حيث يتوج الملك بإكليل الغار ويمسك القوس ،والجعبة وهى من رموز أبوللون كما أشرنا من قبل (٢٦).

- بطلميوس فيلوباتور – حملت عملة فيلوباتور خصائص أبوللو وظهر مع الربة أرتميس وهى أخته التوأم وفسرها البعض على أنها تعكس الملك فيلوباتور وزوجته ارسينوى الثالثة (٢٧).

- اهتم بطلميوس الثامن كما يشير بوليبوس بأبوللو فى قورينى، ولا نعلم هل شمل هذا الاهتمام مصر ايضاً (٢٨).

وقد زاد صيته إلى حد ما على عمله العصر الإمبراطورى بمصر ولكنها لاتقارن بالألهة الإغريقية الأخرى وخاصه بديونيسوس وسرابيس بل وحورس المصرى، وعموما فقد وجدنا أغسطس يصوره على عمله بل يحمل أحد ألقابه وهو (Aktaios)(٢٩) بعد انتصاره البحرى على ماركوس انطونيوس فى موقعة اكتيوم. فهذه الصفة تعنى الساحلى، وقد تكرر ظهوره بنفس الصفة فى عهد الامبراطور نيرون(٣٠)، مضافا إليها لقباً جديدا، وطرازا معروفا باسم (Πυθιος)(٣١) أى أن عهد نيرون شهد إهتماما خاصاً بأبوللو . وعثر على بعض العملات الخاصة بتصويره واقفا فى عملة تراجان، وهادريان، وفى عصر أنطونيوس بيوس، عثر على طراز عملة أبوللو (Μιλεσιον)(٣٢).

خامسا :علاقة أبوللو بحورس وسرابيس والآلهه الإغريقية الأخرى :

أبوللو – حورس :

إقترن أبو للون بحورس، كما نعلم طبقا لما ذكره هيرودت باعتبار أن كلا منهما إله للشمس (Hdt.II.144) ويشير بلوتارخوس إلى هذه النظرة فيذكر أن إسمه نفسه يعنى الشمس (Plut. Mor. 393.d.ff) وكذا هليوس (Paus.VIII,46,3) ولكن من الممكن ان نضيف أيضا أن كل منهما قد إرتبط بالقوة والشباب، فقد اشتهر أبوللو باللقب التالى :

(αει Καλος και αει νεος)

(Callim, Hymn to Apollo, 36)

أبوللو دائما جميل وشباب أيضا

وعثر على نماذج فى نقراطيس لأبوللو وهى تمثله عاريا فى الطراز الفنـــى المعروف باسم (Kouroi) فى هيئة شاب عارى تماما[٣٣].

وكذا إرتبط كل منهما بالطيور المقدسة وخاصة الصقر وتوجد بعض الأراء حول وجود بعض المؤثرات المصرية على عبادة أبوللو فى دلفى[٣٤].

أضف إلى ذلك أن بوزانياس قد أطلق علـــى حـــورس. أبوللـــو المصـــرى .(Paus 11,27.6)

وأما فيما يتعلق بأبوللو نفسه، وعلاقته بسرابيس والآلهة الاغريقية الآخـــرى فنلاحظ إشارات نادرة عن دوره الذى يمكن أن نوجزه على النحو التالى :

- عثر على وثيقة من أرشيف زينون (P.Cairo Zen.,V, 59806) تعكس علاقته بالطب والصحة حيث يخص نيكاتور بالدعاء بالصحة لابوللونيـــوس نظرا لاشتقاق اسمه من الإلهه ولهذا فهو يؤكد له بأن الإله يحفظ صحة كل من يتباركون باسمه [٣٥]، وعلى أيه حال فقد كان اســـم أبوللونيـــوس مـــن الأسماء الشائعة طيلة العصرين البطلمى والرومانى، وســـوف نعـــود إلـــى هـــذه الألقـــاب الدينية بعد ذلك ونجـــد فـــى تكريسه من العصر البطلمـــى ظهور أبوللو مع أرتميس وليتو، وهيراكليس، (OGIS, 53(SB 885، وهى كما يرى فريزر [٣٦] وأتفق معه فى الرأى أنه خليط من الآلهه التى لايوجـــد لها علاقة إلا فى نفس الكارى أبوللونيوس وكأنه أراد يناجى بمشاعره كافـــة الآلهة المحببه إلى نفسه، والشائع فى عبادة أبوللو هو إقترانـــه مـــع أختـــه أرتميس وهو ما حدث فى ديلوس واريتريا، ولكن نادرا ما اقترن بهيراكليس، ولكنه كثيراً ماقترن بأخته ارتميس وأمهما ليتو وعلى سبيل المثال لا الحصر فى ميســـنيا. وقد اتخذت ليتو لقب (Eutektne)،وعثر لهـــا علـــى معبـــد بالإسكندرية طبقا لإشارة ساتيرون [٣٧].

- عثر أيضا بالإسكندرية على بعض النقوش المتعلقة بأبوللو داخل السيرابيوم براقوده، ويرى فريزر ان وجود نقش لبوللو فى منطقة السـيرابيوم تعنـى وجود صله بينه وبين سرابيس، وأنه أخذ أحـد خصائصـه وهـى النمـو والخصوبة، أو ربما أخذ دوراً فى العالم الآخر بوجوده على تل السيرابيوم، وعثر له أيضا على نقش بكوبتوس فى العصر البطلمى يربط بينـه وبـين إيزيس وسرابيس، وهذا ما يدعم رأى فريزر على قيام أبوللو بدور فى العالم الآخر [٣٨]، ولكن شهرة اقترانهما فى العبادة غير متعارف عليه بشكل واضح وكبير، فمن المعروف ان سرابيس قد إقترن بالإلـه بلـوتو اليونـانى (Diod. 1,25,2) وديس باتير الرومـانى (Tacitus, Historiae IV,84.) وأيضا علاقته بأوزيريس حيث يشـير بلوتارخوس صـراحة إلى المطـابقة بين سيرابيس واوزيريس (Plut.De is et os, 28)، وارتـبط بديونيسوس واسكلبيوس ولم ترد إشارة عن أقترانه بأبوللو. بل أن سيرابيس نفسه قد حصل على بعض ألقاب أبوللو، وخاصة كإلـه للشـمس وتفسـير الأحلام [٣٩]، والطب والعالم الآخر، وهو ما أضعف من شعبيته .

- وعثر أيضا بالاسكندرية نفسها فى تاريخ لاحق على نقش يربط بين أبوللـو وكورى [٤٠] التى تؤكد إرتباطه بالعالم الآخر، وربما إحتفال للموساى ربما له علاقة بأبوللو.وهذا يفسر على أنه لعب دوراً أساسيا فى العالم السفلى ومـن المعروف أبوللو كاله مطهر من الدم يتجه بنظره إلى أسـفل الأرض (عـالم الموتى) ،ولهذا عرف عنه أنه الإله الذى يجمع النقيضين، فهو إله أوليمبـى مـرتبط بالسـماء (Olympios) وإلـه سـفلى مـرتبط بالعـالم الآخـر (Chthonios) [٤١] .

وتختتم علاقة أبو للون بالآلهه بوجود جمعية خاصة بالإله أبوللو تم التعرف عليها من خلال نقش عثر عليه فى البهنسا، ومحفوظ بمتحف الإسكندرية Inv-26-Cat-132)) وفيه نجد " باسيون ابن (.....) أحد أعضاء جمعية أبو للون، أهـدى (هذا التمثال) إلى انوبيس، العام الثامن، ٨ طوبة .وهنا نلاحظ وجود علاقة من أحد أعضاء أبوللو يهدى هذا التمثال لأنوبيس . وقد وردت كما سبق الإشـارة ظهـور

أبوللو مع كورى، وهذا يجعل فرضية دوره فى العالم السفلى . ولا توجـد لـدينا معلومات حول شروط الإنضواء فى هذه الجمعية الدينية، وإن كنت لدينا معلومات من جمعيات دينية أخرى، وعلـى سـبيل المثـال لا الحصـر جميعـة زيـوس هيبسيستوس، وما بداخلها من تعليمات ذات طابع اجتماعى ودينى .وجميعة فنـانو ديونيسوس (P.Oxy.2476,LL05-7,II,AD) فى عصر الإمبراطور هادريـان، فهو لايجوز ارغامهم على إستضافة أغراب، والا يسجنوا ولا توقع عليهم عقوبـة الإعدام ، وحق تقديم القرابين فى شكل جماعى ،وأن لا يطلب منهم تقديم ضامنين عند الاقتراض . ولكن الإشارة الخاصة بجماعة أبو للون لاتدلنا على تفاصيل قـد تساعدنا على فهم دورها الدينى والإجتماعى[٤٢].

ألقاب أبوللو الدينية :

تقتصر الدراسة على ألقاب أبو للون الدينية بمصر فى العصـرين البطلمـى والرومانى فى ضوء الوثائق البردية والنقوش وبعض الأشارات الأخرى من خلال طراز العملة، ولن نتعرض لتفاصيل ألقابه الأخرى[٤٣] فى بلاد اليونان فهى كثيرة، ومرتبطة بعلاقته الزراعية والنباتات والوحى، ودلفى، وتأسيس المدن، والموسـيقى والرقص، والطب، ومنع الحسد والشرور والتقويم والحيوانات والشواطئ . وفيمـا يتعلق بألقاب أبوللو التى أحتفظ بها بمصر طيلة العصريين البطلمـى والرومـانى فيمكن ان نوجزها على النحو التالى :

ألقاب تمجيدية (شرفيه) :

حصل أبوللو أثناء عبادته بمصر على بعض الألقاب التمجيديـة والشـرفيه، وهى كثيرة فى بلاد اليونان، وحملتها معظم الآلهـة الإغريقيـة بـل والمصـرية وسيرابيس فى ضوء الوثائق والنقوش أى لم تكن قاصرة على إله بعينه، ومن أبرز تلك الألقاب التى إحتفظ بها أبو للون فى مصر :

اللقب	المصدر
اللقب الأول : (الملك اللورد) Αναξ	SB,8681.6

اللقب الثانى : (الأعظم) Μεγιστος	SB,8388,2,II,BC,8830

وهما لقبان ضمن مجموعة كبيرة حصل عليها بصفة عامة فى عبادته، ولعل أبرزها على سبيل المثال لا الحصر:-

Δεσποτης	Kaibel,ep.1040,Menandri,Fr 31
Κυριος	V. Δεσποτης
Σεμνος	V. Αναξ
Αγνος	Pind.Py.9,112(64)
Μακαρ	Orph.H.34,1;27

وكانت هذه الألقاب غالبا لا تأتى منفرده، وهو ما نلمسه هنا أيضا، فصفة (Αναξ) قد وردت مع صفة (ανικητος) وكذا صفة (Μεγιστος) قد وردت مع صفة(Αρορις) ولم ترد منفردة إلا فى حالات نادره.

ألقاب تتعلق بنمو النبات والنضارة :

حصل أبوللون فى عبادته بمصر على اسمين أو صفتين فى العصر البطلمى هى صفة أبوللو (Βλαδους) الطرى أو المندى، والأخرى صفة (Υλατης) المرتبط بالغابات (S.B, ,II,BC)، ونعلم أن أبوللون فى مناطق عبادته باليونان وخارجها ،قد حصل على كثير من الصفات المرتبطة بالزراعة والنباتات والخضره والنماء على النحو التالى :

Εριφυλλιος	Hesych
Μυρτωος	CIG,,11,5138
Δαφνηφορος	Paus IX 10.4
Πλατανος	Paus 34.6.
Κισσιος	Vernick R.E.Apollo, col,72.

القاب تتعلق بالزراعة :

حصل أبوللون على لقب واحد (Αροριϛ) فهو مشتق مــن(Αροτριοs) (أى حارث الأرض) (SB,8389,II.BC) وهو لقب قد أشــار لــه أورفيــوس (Orph.Hymn 34.3) ومن الألقاب الكثيرة التى حملها ذات صــله بالزراعـــة خارج مصر :

Εναργοϛ	Paus.VII,32,4.
Εργοτηϛ	Hdt.IV,109,5

ألقاب ذات طابع سياسى (حربى) :

أشتهر أبو للون رغم هدوء طباعه، وموسيقاه الحالمة، وقدرته علـــى التنبــؤ بقسوة الانتقام ولهذا حمل بعض الصفات التى تشير إلى ذلك ومن بينها بمصر إبان العصر الرومانى لقب (Ανικητοϛ) (SB, 8681,6,Rom.)، وهو لقب كمـــا نعلم نؤكده، العملة، وخاصة أن أغسطس قد حمل هذا اللقــب، وبعــض الأبـــاطرة كهادريان .ونعلم أن معظم ملوك المملكة السليوقية ،قد إتخذوا هذا اللقــب، ومـــن المعروف أن أبوللو، وخاصه وحى دلفى قد لعب دوراً كبيراً فى الحروب اليونانية وتحريك الأهداف السياسية .

ومن خلال دراسة الألقاب سنلمس بعض الألقاب التالية التى وردت أيضا لها أشارات نادرة :

أبوللو -Φοιβοϛ :

يحمل أبوللون صفة فويبوس بمصر فى نقراطيس قبل العصر البطلمى، وهى صفة متعلقة بالضوء، وهى من أبرز صفاته التى وردت فى كثير من المصادر فى بلاد اليونان وخارجها طيلة عبادته على النحو التالى :

Hom, A 43, theo, Id, 17,67, Arist, av-716, Nonn, D. 233, Arist,Ran, 754, Plut, 87, Pind-Py 3,11

أبوللو – Αιγυπτοϛ :

حمل أبو للو صفة (Paus.11.276)(Αιγυπτος)، ونعلم أنه قد إقتـــرن بحورس.

أبوللو – Πυθιος :

تم التعرف علـــى صـــفة أبوللـــو البيثـــى مـــن خـــلال إشـــارة برديـــة (Oxy. 2476,III,A.D)، وكذا من طراز عملة نيرون، وهو من ألقابه المرتبطـــه بعبادته بدلفى، وفى مناطق أخرى ببلاد اليونان مثل كنيدوس وكورينثا ،واسبرطه، وميجارا.

أبو للو – Ακταιος :

وهو لقب يربط أبوللو بالبحر، وقد حملة أغســطس منـــذ إنتصـــاره علـــى ماركوس انطونيوس فى اكتيوم وقد سكت عمله فى عهد نيرون تحمل طابع ابوللو اكتيوس وهى إحدى صفاته المتعلقة بالبحر (SB, 7747).

أبوللو – Πρωτος :

حصل على لقب أبوللو الأول من خلال نقـــــش عـــــثر عليه فى المنيا) (SB,7747 من منتصف القرن الثالث ق.م.

أبو للو – Λυκιος :

حصل أبو للون بمصر على لقب أبو للو الليكى إى الذئب من خلال نقش قد عثر عليه فى طيبه وبداية القرن الثالث ق.م. (SB,683) وهو من الألقاب التـــى حصل عليها بشكل كبير فى المصادر، وأطـــــلق على بعض المـــدن بمصـــر هذا الإسم .

أبوللو– Κτιστης :

حصل أبو للون على هذا اللقب Κτιστης مـــن خـــلال إحـــدى ديمـــات انتينوبوليس، وهو ما يشير إلى اهتمام هادريان بإحدى ألقابه أى المؤسس بإعتباره شيدا للمدن مثل أبو للو الذى حصل على هذه الصـــفة باعتبـــاره مؤسســـا للمـــدن

والمستعمرات اليونانية، وقد وصفه بنداروس بهذه الصفة (Pind .Nem. 5,81) باعتباره مؤسسا لقوريني.

أبوللو - Μιλεσιος :

كانت ميليتوس من أبرز المدن اليونانية التى ساهمت فى تاسيس نقــراطيس ولهذا عثر على هذا اللقب الذى ينعت به أبوللو داخل نقراطيس بشكل كبير، وقــد سكت عملة كما أشرنا إلى هذه الصفة فى عهد الإمبراطور هادريان .

أعياد وإحتفالات أبوللو :

تكاد تنعدم الوثائق بخصوص أعياد أبوللو رغم توافرها لقرينــه المصــرى حورس، الذى تفوق عليه مرة أخرى فى نصيب أعياده طبقا للتقويم المصرى لمولده فى إدفو، وإسنا، التى كانت تستمر لعدة أيام . ويرى بلوتارخوس أن عملية إقتران أبوللو بحورس ظلت معروفة فى مصر الرومانية . ونعود لأعياد أبوللــون فنجــد إشارة واضحة طبقا لكتابات أثنايوس عن إحتفال لأبوللو فــى مدينــة نقــراطيس فىالعصر البطلمى (Athenaeus, IV,149,DE.) ويرتدى الحاضرون فى هذا اليوم للإحتفال ملابسهم ذات اللون الأبيض، ويقفون وأيديهم متشابكة أو متقاربــه، ويصبون النبيذ فى كئوس . وكان يوجد مناد يتصرف كالكاهن حيث يقوم بتــرانيم الطقوس المعتادة، ثم يجلس الجميع، ويتسلم كل فرد نصيبه من النبيذ، فيمــا عــدا كاهنا أبوللو وديونيسوس فهما يأخذان كميات مضاعفة بعد ذلك عن الكميات التى تم توزيعها، ويتسلم كل فرد من المدعوين عند العشاء رغيفا من الخبز الأبيض وقطعة من لحم الخنزير، وكمية من الخضروات، وقطعة من الجبن ن وتينا مجففا وكعكا، وكان الكهنة هم الذين يتعهدون بإحضار أى مأكولات معهم، ويأكلون هذا الطعــام فقط، والبقايا كان يأخذها العبيد، كما أنه لم يكن يسمح لأى إمرأه أن تشارك فى هذا الإحتفال فيما عدا العازفات : وتوجد إشاره بريدة تقع ضمن قائمة بتقــويم لأعيــاد مدينة سايس، ويقدم تاريخ ثانى من شهر مسرى (٢٦ يوليو) للإله أبوللو، وذكرت أنه يوافق عيد حورس الجديد ولكن هذا يتنافى مع الواقع الزمنى لإحتفالات حورس التى كانت تقع فى شهر (Phormouthi) وفى يــوم ٢٨. ولاتوجــد أى تفاصــيل

حول طبيعة ومراسيم إحتفاله، بل من المرجح أنـــه لحـــورس فـــى تقـــويم جديـــد (P.Hibeh.27) وتوجد إشاره أخرى لإحتفال أبوللو فى العصر الرومـــانى فـــى هرموبوليس ماجنا دون ذكر اى تفاصـــيل حـــول مراســـم وطقـــوس الاحتفـــال .(P.oxy.3473,II.AD.)

ومن الملفت أن آلهات الموساى التسع الشـــقيقات وهـــن حاميـــات الغنـــاء، والفنون، والعلوم، والشعر، والموسيقى، والذى كان أبوللو مرتبطا بهم، كما نعلـــم، ويعزف معهن بقيثارته الذهبية قد كان نصيبهن فى الوثائق أكثر من أبوللو، ففـــى الوثيقة (P.S.I.528) إشارة إلى إحتفالات الموساى فـــى القـــرن الثالـــث ق.م، ووردت الإشارة فى بردية Vandoni,Festa,59= P.Hibeh II,21,26

نشير إلى إحتفالات الموساى أربع مرات، ومن أشهر الوثائق أيضـــا وثيقـــة (SB,6319) حيث تغطى بعض التفاصيل حول الإستعداد للإحتفال بتجهيز النبيـــذ والأكاليل والموسيقى .

وفى وثيقة (P.Hibeh, II,24) إشارة إلى عـــرض موســـيقى، وبعـــض العروض التمثيلية ويبدو أن الإحتفال كان فى حضور بعض الشخصيات الاداريـــة الكبيرة بمصر فى العصر البطلمى الإدارية حيث كان بإحدى النـــوادى ،وحضـــره الاويكونوموس وكاتبين ملكيين واحتفل ببعض الآلهة ارتميس وهرميس وأفرديتى وهيراكليس . وفى العصر الرومـــانى نجـــد هرموبـــوليس مباحثـــا فـــى وثيقـــة (P.Amh.706) إشـــارة للموســـيقى فـــى إحتفـــالات الموســـاى بينمـــا نجـــد (BGU III,716,10) إحتفالا للموساى، ويبدو أن هرميس وايزيس قد لعب دورا بارزا فى تلك الإحتفالات . وكما يتضح فليس هناك إشارات واضحة عـــن أعيـــاد وإحتفالات أبوللو المشهورة ببلاد اليونان.

والخلاصة التى تقدمها تلك الدراسة حول الإله أبوللو بمصر إبان العصـــرين البطلمى والرومانى باعتباره إلها يونانيا أو بمعنى آخر أوليمبيا، فيلاحظ أنه لم يحظ على شعبيه كبيره بمصر مثل غيره من الآلهـــه الأوليمبيـــه الأخـــرى، وخاصـــة ديونيسوس، وزيوس، وأفروديتى، واسكليبيوس، وديميتر، وبرسيفونى، وهـــرميس،

وذلك على الرغم من شعبيته الكبيرة بنقراطيس قبل العصر البطلمى وفيما يلى محاولة لتفسير الدوافع التى أدت إلى أفول نجمه عن بلاده الأصليه باليونان، وشهرته بدلفى التى ذاع صيتها بالنبوات فى حياتهم اليونانية، وخاصة فى تأسيس المستعمرات اليونانية على النحو التالى :

- عدم تطابق سيرابيس (٤٤) مع أبوللو وذلك على الرغم من أقترانه بأوزير أبيس المصرى، وبلوتو (هاديس) اليونانى ،حيث اخذ سرابيس مخصصات كل من ديونيسوس، واسكلبيوس، وهليوس، وجوبيتر، ولم تمدنا المصادر والوثائق والنقوش عن إقترانه بأبوللو مما أضعف من شعبيته أو حظوظه داخل مصر وخارجها، وبالتالى يمكن أن نخمن هذا فى ضعف عبادته بمصر.

- عدم تحمس البيت المالك البطلمى لأبوللو(٤٥) مثل ديونيسوس الذى ذكر ملوك البطالمة أنهم يتحدرون من نسل المعبود ديونيسوس، وأكدها يورجتيس الأول فى ضوء نقش ادوليس، وإتخذ فيلوباتور وأوليتس لقب ديونيسوس الجديد وكذا ماركوس انطونيوس، ولعبت نقابة فنانى ديونيسوس فى العصر الرومانى بمصر دورا بارزا وخاصة فى عصر هادريان، وسفيروس، وهو الأمر الذى لم يتحقق لأبوللو فى العصرين البطلمى والرومانى وذلك على عكس ماحدث له من شهره باعتباره الاله الرئيسى والرسمى فى قورينى والمملكة السليوقية التى لعب فيها أبوللو دوراً رئيسياً مثل ديونيسوس بمصر.

- إحتفاظ أبوللو بشعبيته وشهرته فى دلفى باعتبارها منطقة مقدسه ظلت تجذب المتعبدين فى كل أنحاء العالم اليونانى، والرومانى، وهو مالمسناه بمصر فى العصرين البطلمى والرومانى من خلال بعض الأمثله حتى ولو كانت قليله، فإنها تعطى الإنطباع على أن أبوللو بدلفى سيشد له الرحال من كل المعتنقين لعبادته، وهو مايضعف من شعبيته خارج دلفى.

- لم ترتبط المدن اليونانية الجديدة بمصر إبان العصرين البطلمى والرومانى (الاسكندرية – برايتيوم – انتينبوليس – بطلمية) بأى علاقة بأبوللو رغم

شهرته فى دلفى ودوره البارز فى تأسيس المستعمرات اليونانية خارج بلاد اليونان.

- كان الإله المصرى حورس الذى تطابق أبوللو معه ،وحمل إسمه مناطق عبادته، منافسا قويا، بل جذب الإغريق والرومان بإسم هاربوكرانيس، ونال شهرة بمصر إبان العصرين البطلمى والرومانى وتم تشيد المعابد له فى العصر البطلمى فى إدفو وإسنا وخارجها وهذا أيضا يضعف من شعبيته أبوللو اليونانى.

- جذبت مناطق الوحى، وشهرة او غموض طقوس الديانة المصرية وبعض الآلهة اليونانية مثل الديوسكورى فى باخياس كثيرا من المتعبدين بمصر طيلة العصر البطلمى والرومان ،ولم نسمع فى ضوء الوثائق والنقوش عن قيام أبوللو بدور فى هذا الصدد.

- إنتشرت بمصر مناطق وآلهه للوحى، وأبرزها وحى أمون بسيوه، والعجل أبيس والتمساح فى الأقليم الأرسينويتى، وتماثيل للآلهه تصدر أصواتا بالتنبؤات مثل رغ حوراختى ونبؤات الأحلام وخاصة سيرابيس ولعل أبرز المناطق فى العصرين البطلمى والرومانى :

Tebtynis, Sokonpaiou, Nesos, Oxyrhynchos, Antinoe, Bacchias, Geblen, Elephantine, Thebes , Hermopolis, and Fayoum, other are of unknown provenance.

- وهذا يجعل من إختصاص أبوللو كمفسر للتنبؤات بمصر صعبا فى خضم هذه المناطق الملغمه بالأسرار لمعظم الآلهة المحلية المصرية، ونادرا لآلهة ذات طابع يونانى.

الحواشى

١- لمعرفة المزيد عن موطن أبوللو :

Hronz," les quatre autels, Hittites hieraglyphiques D'Emri Ghazi et d'Eski Kista," Archiv Orientalni,8 (1936) P.171; M.P.Nilsson, Geschichte der Griechischen Religion,1,PP.559FF; T.B.L.Webster, From Mycenae to Homer, London,1964., P.48. ; J.Tréheux, "la réalite" historique des offrandes hyperboreennes, studies Robison, II,1953,PP. 758-774.

٢- لمعرفة المزيد من التفاصيل حول الإله أبوللو بصفة عامة وعبادته :

عبد اللطيف احمد على، العصر الهيــــلادى ،النهضة العربية ،١٩٧٦ ص ص،٣٢٠- ٣٢٧.

H.M.Parke, D.E.Wormell, the Delphic oracle, oxford, 1956; J.James, The Ancient Gods, London,1960, PP.244-5; K.Wernicke, Apollon, R.E,II (1890) PP.1FF. ; W.Burkert, Greek Religion, Oxford, 1985; F.Graf "Apollon" Delphinia M.H,36 (1979), PP.2-22.

٣- لمعرفة المزيد من التفاصيل إرجع :

Hdt.II.178; F.Petrie, Naukratis, London,1886; E.A.Gardiner, Naukratis, II, London,1888; D.Mallet, Les Rapports des Grecs avec l'Egypte de la conquete de Campyse celle D'Alexander 331, BIFAO,48 (1922); A.Bernand, Le Delta Egyptien d'apres les textes Gres,11, BIFAO,19 ,(1940); V.Bissing, Naucratis, ABSA,38-9 (1957), pp.64 ; S-Younis, Hellenic Minorities in ancient Egypt During the late Period. (Ca 664-332 B.C) unp.ph. Thesis in Egyptology , Cairo university,1995.

4- Hdt.II.159, Braun, CAH III,P. 49.

5- Hdt.II-180,A.lloyd, Herodotus, Book,II, Commentary, 99-182, leiden, Brill, 1988,P.232.

ولمعرفة حريق المعبد إرجع :

H.Parke and ; D-Wormell, The Delphic oracles, 1, Oxford, 1956, PP. 143.F.

6- CF,Bernand, Op-Cit, P-649,no,72, P.661,no,180, P- 62,no,198,p-663,no199.

7- Petrie, Naukratis,I,P.55.

8- Ibid. P. 16.

9- Otto, Priester und tempel, 1,P.395.

10- J.G.Milne, Greek Inscriptions Cat.Gen.du Mus.du Caire, Oxford, 1905,N.33027, P. 20.

11- P.M.Fraser, Ptolemaic Alexandria, II, Oxford, 1972,P.196, N. 38.

12- Ibid, P. 177 Nos.38-39.

13 P.Oxy. 3473 , II/III A.D.

١٤- فتحية دابور، دراسة لمجموعات تماثيل الألهة المعدنية من العصر اليوناني –الروماني بمتحف القاهرة والوجه البحرى ،رسالة ماجيستير غير منشورة، آداب طنطا، ١٩٩٧ (صورة رقم ١٢أ + ١٢ب فى كتالوج الصور الخاص بالرسالة).

١٥- عن ديمات انتينوبوليس إرجع إلى :

رضا رسلان، مدينة انتينوبوليس فى العصر الرومانى، رسالة ماجيستير غير منشورة، الاسكندرية، ١٩٨٣.

16- S.B.,670,II, A.D.

17- R.Bagnall, Cults and names of Ptolemais Upper Egypt Orientalia Lovaniensia,Periodica , 84 (1998) ,11 PP.1098-99.

18- Prosopographic Ptolemaic, II, Stud, Hell ,17, 288-97, cf , Bull. Ins, Eg., 31, (1919), P.300.

19- S.B.,5725 ,= Vandoni, Feste, P. 119.

٢٠- عن ارتباط الصقر والغراب وبعض الطيور بأبوللو ارجع إلى :

D.A.W.,Thompson, A Glossary of Greek Birds, Oxford, 1936; J.Pollard, Birds in Greek life and Myth, Londres,1971.

٢١- لمعرفة تفاصيل كثيرة حول حورس إرجع :

E.A.W,Budge,The Gods of the Egyptians, New York., 1903.

22- J.Tondriau, Rois lagides comparés ou identifiés à des divinités , chron-d' Eg., 1948, (33), P. 131.

23- Ibid, PP 129 : 131.

٢٤- إرجع الى حاشية رقم ١٤.

25- Otto, Ptolemaica, Munchen, 1939, PP. 5-16.

26- A.Furtwangler, Die antiken Gemmen, 3, Vols, Berlin – Leipzig, 1900, Taf. XXXII. No.15.

27- J.N.Svoronos, Νομισμα, Nos, 1137- 1138.

٢٨- عن اهتمام بطلميوس الثامن بأبوللو فى قورينى :

G.HöLBL,A History of the Ptolemaic Empire, London , New York, 2001, Trans, T.Saavedra, P. 88-9.

29- Mattingly, Roman Coins, P. 156 and B.M.Emp.1.

30- Milne, Catalogue (2), P. XXXV.

31- B.M.C.Emp. III, PP. 131.

32- Poole, Catalogue, P. XLIII.

33- M.Richter, Kouroi, Archaic, Greek youths, London,1968.

٣٤- عن عبادة أبوللون فى دلفى :

Th. Homolle, Ressemblance De L'omphalos delphique avec quelques Representations Egyptienne, Rev.Et. Gr. 32 (1979), 339-38.

اضف إلى ذلك ان بوزانياس قد اطلق على حورس أبوللون (Paus.II.27.6).

35- H.I.Bell, Popular Religion in Graeco-Roman Egypt,JEA,34, (1948), p. 85.

36- Fraser, Op.Cit. P. 329.

٣٧- تم عبادة أبوللون مع أرتميس سويا فى كثير من المناطق :

Wernicke, R.E.,S.V., Apollon., cols. 33-5 Ibid, S.V.Artemis, cols, 1367-2. leto, Ennann; sauer,R.E.SV. leto, Cols, 1950-80, For Delos, Inscr, Delos 2334; Roussel DCA,PP. 206. For Eretria,IG, XII,9. 97-9 ; E.S.Shields, Cults of Eubaea (1929).

38- Fraser Op.Cit. PP. 196-197.

39- Cf. Fraser, Current Problems Concerning the Early History of the Cult of sarapis, Opusc.Athen, VII, 1967, 23-45.

40- Letronne, Rec.I,P. 417 , No. XXXVII,

٤١- عبد اللطيف أحمد على، المرجع السابق، ص ٣٢٩-٣٣٠.

٤٢- لمعرفة المزيد من التفاصيل إرجع إلى :

M.Muszynski, les associations religieuses en Egypt, Orientalia lovaniensia periodica, 8, 1974`.P. 170. sq.;

وقد أشار نوك إلى هذه النقابة او الجماعة ضمن قائمة لالهة مصرية ويونانية لالهة مختلفة فى مصر كهيراكليس فى فيله وحتحور بادفو وهاربوكراتيس بتيبتونيس وأفروديتــى وثيرمــوثيس بالإسكندرية

A.D.Nock, The Gild of Zeus Hypsistos, Harv.th. R 29 (1936) 430-431.

43- C.F.H.Bruchmann, Epitheta Deorum, Leipzig, 1883, PP. 19-31.

وقد اعتمد البحث على هذه الدراسة بشكل مباشر.

٤٤- لمعرفة المزيد من التفاصيل عن عبادة سيرابيس ارجع إلى :

P.M.Fraser, Two studies on the cult of sarapis in the Hellenistic world, Op. Ath III, lund, 1960,PP.1- 53; J.E.Sambaugh, sarapis under the early ptolemies, leiden, 1972; S.A.Takacs, Isis and sarapis in the Roman

world, leiden, 1995; L.Vidman, Sylloge inscriptionum religionis isiacae et sarapiacae, RGVV 23, Berlin, 1969.

٤٥- لمعرفة المزيد عن ديونيسوس ارجع :

J.Tondriau, les thiases dionysiques royaux de la cour ptolemaiques, chron d' Egypte, 21 (1946),77 la dynastie ptolemaique et la religion dionysiaque,chron d' Egypte,25,(1945), PP. 283-326.

الفكر العسكرى الرومانى بين الدفاع والهجوم والتوسع حتى نهاية الحرب البونية الثانية ٥٠٩ـ ٢٠٢*

د. رجب سلامة عمران
مدرس التاريخ القديم
كلية الآداب ــ جامعة بني سويف

إن قصة توسع روما وتحولها خطوة بخطوة سيدة لإقليم لاتيوم الموجودة بــه ثم سيدة لإيطاليا ككل، ورويداً رويداً تتسع الدائرة، وتمتد الحدود حتى اضحت روما سيدة البحر المتوسط بعد أن كونت إمبراطورية كان هذا البحر مركزاً لها. لقد كان هذا التحول طفرة جديدة فى سجل الاستعمار العسكرى لم يســبق لــه مثيــل فــى التاريخ، ووصل بوحدة البحر المتوسط[١] إلى منتهاها. وتحول البحر المتوسط الى مجرد بحيرة داخلية mare internum للرومان وبحر مغلــق mare clausum، أو كما كانوا يفاخرون دائما "بحرنا mare nostrum"[٢] . لأن كل البلادالمطلــة عليه اصبحت تقع داخل النفوذ الرومانى وأصبح هذا البحر نــواة للإمبراطوريــة الرومانية.

فهل قصة التوسع هذه تمت من خلال خطط موضوعة وفكر رومانى خالص له أسبابه ودوافعه، أم أنها كانت عبارة عن تجاوب- أى رد فعــل- مــن جانــب الرومان لعدة تحديات أفضت بهم فى نهاية المطاف إلى هذا الوضع كما يدعى تينى فرانك٣- فى مؤلفه القيم (الاستعمار الرومانى)- وغيره من المــؤرخين أصــحاب المدرسة التبريرية. ولعل رأى فرانك هذا يُعد انعكاساً لما نظمــه فرجيــل شــاعر الرومان الكبير حين قال: إن قدرنا أن نتوسع بلا حدود imperio sine fine. أى أن قدر الرومان أن يتوسعوا ويغزوا العالم المسكون. إن هذة العبارة تكشف عن ما يمكن ان نسميه غطرسة القوة وكأننا أمام شعب قوى فتى لايعرف حــدوداً يقــف عندها[٤]. وقد ترددت أصداء نفس المعنى عند نفس الشاعر فى موضع آخر[٥] حين

خاطب بنى جلدته قائلاً :

" لكن أنت أيها الرومانى ضع نصب عينيك أن تسود الشعوب بسلطانك، فتلك هى رسالتك أن تفرض سُنة السلام وتصفح عن المقهورين وتقهر المتجبرين ".

وكأن فرجيل كان مؤمنا إلى حد بعيد بقدرية التوسع الرومانى وبالتالى فالعسكرية الرومانية فى حروبها كانت تتصرف بيد القدر.

ولعل نقطة البداية هى السؤال عن سبب اختيار فترة العصر الجمهورى لدراسة الفكر العسكرى الرومانى خلالها، ويمكننا طرح أسباب هذا الاختيار من خلال عدة عوامل يمكن تلخيصها فى الآتى :

١- يمثل العصر الجمهورى فترة التكوين الأولى لروما، وضعت خلاله اللبنات الأولى للفكر الاستعمارى الرومانى وكان بمثابة الانطلاقة الحقيقية. كذلك تميز الفكر العسكرى خلال بدايات هذا العصر بالبدائية وافتقاد الخصوبة، وبالتالى فقوة الرومان فى تطوير أنفسهم واحتلال ما حولهم وتكييف ظروفهم العسكرية على حسب ما يواجهون من أعداء تعكس مدى التقدم سواء فى المعدات أو التحركات أو التكتيك العسكرى نفسه بالقياس إلى الفترات التالية. وبنجاح الرومان فى الاستفادة من الأزمات فى تطوير فكرهم العسكرى أصبحت العسكرية الرومانية-خلال العصور اللاحقة- هى المرجع والملهم لكل القادة العسكريين الأوربيين وعلى رأسهم نابليون الذى كانت تواريخ روما هى ملهمته الأولى.

٢- ادعى الرومان أن مدينتهم كانت محاطة بالأعداء من كل جانب، وكان عليهم الدفاع عن وجودهم وإثبات الذات خلال هذا الطور الدقيق لاسيما وأنهم اكتسبوا عداء معظم المدن نتيجة لدفاعهم عن حريتهم وطردهم للأتروسكيين، واختيارهم لنظام حكم جديد غير الملكى البغيض الذى ارتبط بالاحتلال الاتروسكى لهم. لذلك كان عليهم تبنى المبدأ الشهير " نكون أولا نكون ".

٣- ظهور عدد من الشخصيات والقادة الأكفاء خصوصاً خلال القرن الأخير من العصر الجمهورى والذين قادهم التطاحن فيما بينهم من أجل كسب أكبر قدر من التأييد الداخلى إلى التوسع الخارجى وكسب المزيد من الأراضى، وضم شعوب

جديدة إلى الكيان الرومانى. ويرتبط بهذه الجزئية دخول تطورات جديدة من حيث تكوين وبنية الجيش الرومانى ذاته، ومن حيث انصراف ولاء الجند للقائد وليس للدولة الرومانية وهو نظام أظهر ابتلاع روما لممالك الشرق الهلينستى كما لو كان سلسلة من الصراع بين القادة لا أكثر.

٤- سبب التوقف عند نهاية الحروب البونية أن الفكر الرومانى الذى تلا هذه المرحلة لم يختلف كثيراً عما سبقه واستدار الرومان لاحتلال الشرق الهلينستى وابتلاع ممالك الأسكندر الأكبر بنفس المعايير وبنفس الذرائع التى احتلوا بها غرب البحر المتوسط، فجوهر الفكر العسكرى الرومانى خلال تلك المرحلة لم يختلف كثيراً عما سبقه لذلك لم نجد هناك ضرورة لإعادة سرد أحداث استيلاء روما على الشرق. كذلك كان ابتلاع روما لممالك الشرق الهلينستى محوراً لدراسة أكاديمية على قدر كبير من الأهمية وقد استفاضت فى علاج هذه الجزئية. ورغم مرور وقت على هذا العمل فلا يزال فريداً فى معالجته لتوجه روما صوب الشرق. لذلك آثرنا التوقف عند نهاية الحرب البونية الثانية مكتفين بإحالة القارىء العزيز لهذا العمل(٦).

يجدر بنا ان نتلمس الموقع الجغرافى الذى هيأ للرومان التوسع وكفل لها البقاء. ولنبدأ أولاً بالوعاء الدى حوى روما وهو إيطاليا التى احتلت موقعاً متوسطاً بين أشباه الجزر الأربع فى شمال البحر المتوسط (أسبانيا-إيطاليا-البلقان-آسيا الصغرى)، وكان هذا الموقع قد هيأها لأن تكون مقراً طبيعياً لأى إمبراطورية تقوم فى هذا البحر. وجدير بالذكر أن إيطاليا تدير ظهرها للشرق وتتجه بها ظروفها الطبيعية اتجاهاً جغرافياً واضحاً ناحية الغرب حيث أسبانيا وشمال إفريقيا. وتمتع ساحلها الغربى والجنوبى بموانىء طبيعية طيبة حرم منها الساحل الشرقى. وقد نعمت السواحل الغربية بخصوبة عالية سمحت بقيام تجمعات سكنية. لذلك ولهذه العوامل كان توجه إيطاليا للغرب على اعتبار أنه مجالها الحيوى. وتكاد تلامس إيطاليا – بسواحلها الجنوبية– جزيرة صقلية(٧).

وهنا يبادرنا سؤال نصه: لماذا نعمت روما دون غيرها من مدن الغرب الإيطالي بتكوين إمبراطورية وتوسعت إلى هذا الحد؟

لقد كان موقع روما الجغرافى أحد أهم مقومات التوسع، حيث إن موقعهــا على التيبر كان أفضل مكان فى إيطاليا من الناحية الاستراتيجية لأن اتصالها بالبحر كان سهلاً ميسوراً. كذلك كان السبيل أمامها مفتوحاً إلى وسط إيطاليا عن طريــق وادى نهر التيبر وهو المدخل الطبيعى الوحيد من البحر. وتبعد روما عــن البحــر بمسافة كافية تجعلها فى مأمن من إغارات القراصنة، ومع ذلك فهى قريبة منه قرباً يتيح لها الاتصال بشعوب أخرى عن طريق السفن[٨]. كذلك هيأ لهــا ذات الموقــع مناعة كمركز دفاعي طيب خصوصاً وأنها كانت محاطة بالأعداء من كل جانــب؛ فالأتروسكيين من الشمال ومدن اللاتين كانت تناوىء روما من آن لآخــر، ومــن الشرق كانت هناك قبائل الأيكوى والفولسكى البربرية التى كانت تســكن الأبنـــين وتشكل خطراً دائماً على روما.

لقد كانت المدينة-روما- ذاتها مبعث زهو للرومـــان حتـــى أن المـــؤرخين الرومان استخدموا عبارة ترد فيها كلمة " المدينة urbus"، وكأن لم يكن هناك مدينة تُذكر سواها. والعباره هى " منذ تأسيس المدينة ab urbe condita" وأصبح هــذا - تاريخ تأسيس المدينة ٧٥٣- تاريخا ثابتا. ولاشك في أن ماتنطوى عليـــة هــذه العبارة من الزهو والفخر لمدينتهم روما التى نجحت فى ان تتحدى الأتروسكيين فى الشمال والوسط، والإغريق فى الجنوب، وتوحد شبه الجزيرة الإيطالية ككل تحــت زعامتها على أساس متين، فلم يحدث أن نجحت مدينة دولة فى بسط سيادتها سواء على مثل هذا النطاق أم على مثل هذا الأساس، ويصبح أسمها علماً على إيطاليــا بأسرها دون غيرها من المدن[٩].

طور الدفاع من أجل التوسع :

كانت أول خطوات روما هو تخلصها من الحكم الملكى[١٠] عام ٥٠٩ عندما ثاروا على الملك تاركوينوس سوبربوس (المتغطــرس) Tarquinius Superbus آخر الملوك الأتروسكيين الذين حكموا روما[١١]، وبذلك تخلصت روما من الاحتلال الأتروسكى. وقد تم طرد أبناء الملك ايضا حيث تبعه اثنان منهم إلى مدينة كـــايرى Caere الأتروسكية، وتم إقامة نظام سياسى جديد، وقد اعتبر هــذا النظـــام أمـــراً عاماRes publica، وكان على قمته قنصلان يتم انتخابهما سنوياً لمدة عام من قبل

الشعب[١٢]. وإعلاءً لقيمة المواطن الرومانى وحرصاً على حياتة وكرامتة التى كانت مهدرة أثناء الحكم الملكى البغيض ؛ صدر أول قانون فى الجمهورية بعد طرد الملوك نص على أنة لا يجوز لأى موظف سام أن يعدم أو حتى يجلد مواطناً رومانياً إذا مارس حقه فى الدفاع عن نفسه[١٣].

تعرض النظام الوليد لأول اختبار صعب دفاعاً عن وجوده وكيانه، وبالتالى كانت روما فى موقف الدفاع. وذلك عندما تقدم تحالف المدن الأتروسكية بقيادة لارس بورسينا Lars Porsena لإعادة الملك الطريد بالقوة. نجح هذا التحالف فى حصار روما، والاستيلاء على بعض ممتلكاتها على الضفة اليمنى لنهر التيبر، وأرغم الرومان على تقديم مالديهم من حديد سوى ما يستخدموه فى الزراعة. كان هذا أول موقف صعب تعرضت له الجمهورية الرومانية الوليدة، ونجح الرومان فى الدفاع عن وجودهم فى مواجهة قوة الأتروسكيين. استجمع الرومان قواهم وألحقوا بالمعتدين هزيمة نكراء عند أريكيا عام ٥٠٥، على أثر الهزيمة انسحب المعتدون من لاتيوم[١٤].

تكمن مهارة الرومان الحقيقية فى تعلمهم من المحن والكوارث التى تمر بهم، فقد تعلموا من أزمة تحالف المدن الأتروسكية أن لهم شركاء فى إقليم لاتيوم وهم اللاتين. لذا كانَ لابد أن تكسب روما ودهم حتى تأمن جانبهم وتؤمن البيت من الداخل لأن ثمة مصير مشترك يربطها باللاتين، لذلك عقدت معهم اتفاقية تبادل بمقتضاها الطرفان الحقوق. وأفضت هذه الاتفاقية أيضاً إلى قيام حلف عسكرى ضمنت روما بمقتضاه تعاون اللاتين فى أى مجهود حربى قادم، كذلك جعلت منهم درعاً بشرياً لحمايتها من الشعوب البربرية مثل الأيكوىAequi والفولسكى Volsci فى جبال الأبنين. أبرمت هذه الإتفاقية عام ٤٩٣ ونسبت إلى القنصل الرومانى سبوريوس كاسيوسSpurius Cassius لذلك عُرفت باسم معاهدة كاسيوسFoedus Cassium، وكانت لاتزال محفورة على لوحات برونزية فى السوق العامة حتى أيام شيشرون. وقد أعطى ديونيسوس الهاليكارناسى[١٥] ملخصاً لها ذكر فية أن هذه المعاهدة مثال رائع على معاهدة عُقدت بين طرفين متساويين Foedus aequum، على الرغم من أن روما عقدت المعاهدة مع جميع المدن

اللاتينية مجتمعة. ولعل أهم خطوة فى هذه المعاهدة هى توحيد القانون الخاص(١٦) وهومايدل على مدى التقدم الحضارى. كذلك لابد من أن نعترف أن المدينة القوية- داخل أى اتحاد بوجة عام- كانت دائما تتملكها الرغبة الدائمة فى احتلال مركز الزعامة وهو ما ينطبق على روما. لذلك تعتبر هذه المعاهدة أول انتصار تحققة روما فى فن الحكم والسياسة(١٧). وكنتيجة لهذه المعاهدة أصبحت روما ولاتيوم شيئاً واحداً، وخاضت روما ومعها مدن الحلف حروباً ضد قبائل الأيكوى والفولسكى التى كانت تسكن جبال الأبنين وتشكل خطراً على السهل بما فية روما نفسها، إلى جانب إغاراتهم وغزواتهم الحدودية على إقليم لاتيوم. بعد سنوات من المناوشات بين هذه القبائل وبين روما نجحت روما فى هزيمتهم وضم مدينتهم الحصينة أنتيوم Antium وتحويلهم إلى حلفاء(١٨).

طروادة الإيطالية :

تعنى مدينة طروادة الكثير والكثير بالنسبة لليونان وتغنى بها الشاعر الكبير هوميروس فى ملحمتيه الخالدتين الألياذه والأوديسه. من الملاحظ أن كُتاب الرومان وشعراءهم عمدوا إلى نسج التاريخ الرومانى على غرار مثيله اليونانى وأدخلوا علية حكايات وأساطير شبيهة بالتاريخ اليونانى. لذلك حاولوا إيجاد معارك كبيرة تظهر أمجاد وبطولات الرومان كما هو الحال بالنسبة لليونان، ونسجوا بعض الأساطير حول حصار مدينة أو أخرى لإبراز مثل هذا الجانب. وطروادة محل الحديث هنا ليست طروادة الآسيوية بل هى مدينة فيبى Veii(١٩) أقوى المدن الأتروسكية على الإطلاق التى كانت تقع على بعد حوالى ٩ أميال شمال روما. وكانت هذه المدينة كبيرة ونعم أهلها بالرخاء والثراء من مكاسب تجارتهم المزدهرة، وهذا دعم رغبتها فى حرية الملاحة فى نهر التيبر والوصول الى البحر. الصراع إذاً كان صراع حياة أو موت بين روما وفيبى من أجل السيطرة على نهر التيبر وضفتيه ومصبه، ولو أن روما هُزمت فى هذا الصراع لقاست الأمرين ولاقت نفس المصير التى واجهته فيبى بعد هزيمتها على يد الرومان بعد حصار دام عشر سنوات، وسقطت فيبى عام ٣٩٦ بعد حصار طويل أشبه ما يكون بحصار اليونان لطروادة. وعندما ظفرت روما بالمدينة تم تقسيمها إلى

مساحات صغيرة وزعت على المواطنين الرومان، وهو إجراء لعله يشير الى افتقاد روما لمساعدة الحلف فى حصار هذه المدينة. وقد كـــان لســـقوط هـــذه المدينـــة الأتروسكية العظيمة نتائج مهمة منها :

(أ) مضاعفة مساحة نفوذ روما التى اصبحت بمقتضى هذا النصر أكبر مدينة فى لاتيوم .

(ب) أدى تقسيم ممتلكات مدينة فيبى إلى مساحات صغيرة وتوزيعها على الجنـــود إلى زيادة قوة الجيش، وأصبح الجنود مُلاكاً للأراضى. والحق إن وضع مثل هذه الثروة فى يد الشعبيين -غير المؤثرين حتى هذه اللحظة- أعطت دفعـــة لاتقاوم للحزب الديمقراطى داخل روما. وجدير بالذكر أنه خلال العشـــرين سنة التالية لتوزيع أراضى فيبى حصل العامة على حـــق تـــولى المناصـــب العامة فى الدولة الرومانية. وتكمن أهمية هذا الحدث بالنسبة للفكر الرومانى الاستعمارى أنه فى المستقبل أصبح الحزب الديمقراطى داخل روما هو الذى يطالب بالتوسع والاستعمار[٢٠].

على أية حال كان صراع روما مع فيبى -من وجهة نظرنا- صـــراعاً مـــن أجل امتلاك أسباب القوة: أى مصب نهر التيبر والاتجار فيه. وبالإنتصـــار علـــى فيبى عرفت روما طريق التوسع وأصبح لها ميناء آمن أجتذب تجاراً من صـــقلية وقرطاجة وأتروريا. وقد تعلمت روما من خلال احتكاكها بالإغريق والقرطـــاجيين والأتروريين العديد من الدروس الدبلوماسية أملتها ضرورة عقد معاهدات تجاريـــة مع رجال على قدر أكبر من الثقافة والحضارة. كذلك فإن هذا الاحتكاك بهؤلاء أدى إلى مقدم أفكار سياسية وعسكرية جديدة، وهذه الأفكار بدورها شـــكلت ممارســـات إيجابية للرومان، إلى جانب ما وفرته لهم أيضاً من تراكم الثروات؛ وكـــل هـــذة مكاسب لم تتح لسكان المدن الداخلية[٢١].

محنة الغال :

لم يفتأ الرومان أن يفيقوا من نشوة الانتصار حتى تعرضوا فى فترة تكوينهم إلى خطر داهم كاد أن يقضى عليهم؛ ونعنى خطر الغال. والغال هم مجموعة من

القبائل(تقريبا ثمانى قبائل) التى استقرت فى شمال إيطاليا حتى عرف هذا الإقليم باسم بلاد الغال على هذه الناحية من جبال الألب وهى ترجمة حرفية للأسم اللاتينى Gallia Cisalpina . وكانت أهم نتيجة ترتبت على استقرارهم هى فقدان الاتروسكيين لمناطق نفوذهم فى وادى البو، فضلا عن أن هذا الإقليم الشمالى أصبح مكمن خطر وتهديد لبقية إيطاليا(٢٢). وتقدم الغال صوب روما نفسها حتى هزموا جيوش الرومان وحلفاءهم هزيمة نكراء على ضفاف نهر أليا Allia أحد فروع نهر التيبر. حدثت هذه الكارثة على الأرجح عام ٢٨٧ (وربما عام ٣٩٠) وعلى بعد حوالى ستة عشر كيلو متراً من روما. لذلك أصبح الطريق مفتوحاً إلى روما لاسيما وأن الناجين قد فروا إما إلى مدينة فيبى القريبة ليتحصنوا بها أو إلى روما ليخبروا السناتو بالهزيمة. وكانت أخبار وحشية الغال قد وصلت إلى روما، لذلك فعندما وصل الغال إلى روما وجدوا بواباتها مهجورة بلا حراس لأن السناتو أتخذ قراراً شجاعاً وهو نقل الرجال والشباب والأسلحة وعدد كبير من النساء والشيوخ والأطفال إلى أعلى القلعة لمقاومة الغال. وتجلت صلابة الرومان وشجاعتهم فى موقف أعضاء السناتو حيث يظهر معدن الرومان الأصيل ووفاؤهم لألهتهم وقت المحن، لقد أبى عليهم-رجال السناتو- كبرياؤهم أن يهربوا. فجلسوا فى وقار كالآلهة فوق مقاعدهم العاجية بعد أن وضعوا على أكتافهم عباءتهم السناتورية، واتخذوا مجالسهم فى ساحة المدينة وفى حدائق منازلهم ناذرين أنفسهم لألهة العالم السفلى من أجل إنقاذ الشعب الرومانى. هكذا ضرب رجال السناتو المثل فى التضحية بالذات ومواجهة الموت من أجل سلامة الشعب الرومانى(٢٣).

وقد أخذت الدهشة الغاليين لأنهم عندما رأوا هؤلاء الشيوخ بوقارهم وشعرهم الأبيض وهدوئهم الملائكى حسبوهم ملائكه، أوعلى حد تعبير ليفيوس حسبوهم "تماثيل للالهه" لأنهم كانوا أشبه بتماثيل الآلهة موضوعة فى مكان مقدس. وكانت الشرارة الأولى لاندلاع القتال عندما تحسس أحد الغاليين لحية أحد الشيوخ الذى ضربه بعصاته العاجية فصرعه فى الحال، وهنا بدأ القتال وحدثت مذبحة لأعضاء السناتو وقتل عدد كبير منهم فى حين استبسل الرومان وصمدوا فى الدفاع عن القلعه بينما ظل الغال محاصرين لهم، إلا أن الغال ضاقوا ذرعا بالحصار لذلك قبلوا فدية من روما وا نسحبوا تاركين وراءهم ذكرى لن تُمحى من ذاكرة

الرومان، وظل الرومان لقرون يعتبرون ان هذا اليوم –الذى يوافق فى حسباتهم يوم الثامن عشر من يوليو– يوماً نحساً dies negra و يتشاءمون منة[٢٤].

كانت محنة الغال قاسية على الرومان، لأن روما تتعرض للحصار والتهديد من جانب شعب أجنبى، لذلك أخذ الرومان على عاتقهم مهمة التوسع وبالتالى اتسم عنصر الهجوم بأنه أصبح يرمى أكثر مما تستلزمه ضرورات الدفاع –خصوصا بعد الكارثة المروعة التى نزلت بالجمهورية الرومانية والتى كادت أن تقضى عليها قضاءً مبرما[٢٥]. أدرك الرومان ضرورة أن يكونوا دولة قوية حتى لا تبتلعهم الدول الأقوى، وإن لم يمتدوا فسوف يتقلصوا؛ من هنا نعتقد أن محنة الغال كانت بمثابة النذير للرومان وبعدها كانت هناك سياسة غير معلنة من جانب الرومان تقضى بالتوسع والتمدد. وقد اقتضت هذه السياسة ثلاث معالم:– أولها تحديد حدود آمنة (لاتيوم)، وثانيهما هى حدود وصول؛ أى يصل إليها النفوذ الرومانى ويكون فى مأمن (إيطاليا)، وأخيراً وليس بآخر حدود توسع وتمدد (حوض البحر المتوسط). على هذا الأساس أصبح هناك ثلاثة خطوط لسياسة روما العامة وهى أمن، ونفوذ، وتوسع.

تعود الرومان على الإستفادة من المحن التى تمر بهم، وقد علمتهم محنة الغال دروساً كثيرة أهمها :

١– ضرورة إعادة النظر فى تكوين الجيش لأن جيشاً من البطارقة الأشراف وحدهم غير قادر على الوفاء بكل الأمور العسكرية الدفاعية والهجومية. كذلك ساهمت فى بلورة معنى الجندية حيث تلا ذلك (عام٣٦٧) تطورات دستورية داخل روما فتحت بمقتضاها الوظائف العليا أمام العامة للمشاركة بإيجابية فى الدفاع عن روما. وحيث إن روما كانت –قبل غزوة الغال– تعتمد على الرجال وليست الأسوار، لذلك تم إحاطة المدينة بسور دفاعى لحمايتها نُسب بطريق الخطأ إلى الملك سيرفيوس تولليوس فعرف باسم "سور سرفيوس"[٢٦].

٢– عودة الروح والوعى للرومان، فقد لحق بالمدينة دمار شامل ومجاعة بين الناجين من الموت الذين برزوا من بين الأنقاض. إلى جانب عودة الكهنة وهم يحملون تماثيل الآلهة، التى قالوا إنهم دفنوها حتى لا يصل إليها العدو البربرى. لقد

كانت عودة هذه التماثيل بمثابة عودة الروح المعنوية والوعى للرومان، لذلك شـمر الجميع عن ساعد الجد لإعادة بناء مدينتهم إلى الحالة التى كانت عليها قبل غـزوة الغال البربرية[٢٧]. كان انتشار تشييد المعابد للآلهه أهم علامـات رخـاء ونـضج المدينة بعد انسحاب الغال وكأن الرومان يكافئون آلهتهم التى وقفت بجانبهم وقاتلت معهم فى أصعب اللحظات[٢٨].

٣- ضرورة أن تعيد روما صياغة علاقاتها بحلفائها اللاتين وهو مـا نـتج عنة اتفاقية أو تسوية ٣٣٨ التى تعتبر إحدى العلامـات المميـزة لتـاريخ رومـا الاستعمارى، والتى كانت بداية لدمج سهل لاتيوم والمستوطنات اللاتينيـة سياسـياً وإجتماعيا، بل بداية لتوحيد وربط إيطاليا بكامل شعوبها وأجناسها تحت قيادة رومـا اللاتينية، ثم كان على إيطاليا الموحدة اكتساح حـوض البحـر المتوسـط وبنـاء الإمبراطورية.

روما والسامنيون :

السامنيون هم إحدى القبائل الجبلية التى تسكن مرتفعات الأبنين Apennines الجنوبية وتسيطر على مساحة شاسعة من الأرض تمتد من ساحل الأدرياتى مـارة بشمال روما وجنوباً حتى خليج تارنتوم. وكان الـسامنيون عنـصراسكانياً يتميـز بالشراسة وحب القتال. وفى لغتهم الوطنية كانوا يطلقون على أنفسهم اسم السابينيين Sabines. وكانت القبائل السمنية تعيش حياة القبائل البدائية متعاونة فيما بينها على رعى قطعان الماشية والأغنام، وزراعة المساحات الضيقة من أراضـيهم الجبليـة. ولما كانت ظروفهم الحياتية صعبة ولا تكفى لأعدادهم الغفيرة، فقد اضطروا للتوسع والاستيلاء على السهول مثل سهل كمبانيا فى الغرب - حيث أقام الإغريق معظـم مستوطناتهم-، وسهل لوكانيا فى الجنوب وبذلك راحوا يدفعون الفولوسكيين أمامهم مما كان سبباً فى الحرب بينهم وبين الرومان. هكذا كان السامنيون خطـراً دائمـاً يهدد أمن وسلامة المستوطنات الإغريقية فى جنوب إيطاليا. إلى جانب أن الحـدود السامنية الرومانية كانت ملتهبة بسبب الزيادة المستمرة فى عدد السكان، والمعروف لدى المؤرخين ان السامنيين اعتادوا إرسال الفائض من السكان للبحث عـن أرض جديدة كل عام وعرفت هذه العملية باسم Ver Sacrum[29].

وقد وصف ليفيوس[٣٠] الصراع بين روما والسامنيين بأنه كان صراعاً من أجل السيطرة على إيطاليا. إن التحول فى موقف روما من الدفاع الصرف إلى الهجوم كان وليد الرغبة فى تأمين كيان روما. وقد تعلموا ان الهجوم خير وسيلة للدفاع لذلك جاء تدخلهم فى إقليم كمبانيا عام ٣٤٣ عندما هاجم السامنيون مدينة سيديكنى Sidicine الواقعة جنوب كابوا، مما أتاح لروما التدخل وجر السامنيين للقتال الذى اسفر عن هزيمة السامنيين. ونتيجة لهذه الحرب ضمت روما سهل كمبانيا كله حتى سهل لاتيوم بعد أن طلب السامنيون عقد صلح مع روما عام ٣٤١[٣١]. وما من شك فى أن هذا الانتصار أتاح لروما أن تخطو خطوة جديدة لبلوغ هدفها فى تأمين كيانها. بيد أن الموقف الذى اتخذه الرومان فى كمبانيا ينبىء عن ظهور عامل جديد فى السياسة الرومانية وهو عامل التوسع. إن روما لم تستطع مقاومة إغراء الأراضى الكمبانية فتخلت نهائياً عن موقف الدفاع وضربت صفحاً عن قانون الحرب الفتيالى[٣٢]، بل تمادت فى خرق هذا القانون حين نقضت المعاهدة التى تربطها بالسامنيين. إن تدخل روما بهذا الشكل فى كمبانيا يؤكد بشكل ظاهر على وجود عنصر الهجوم فى السياسة الرومانية[٣٣].

بعد الحرب السامنية وضم سهل كمبانيا كله كان فى مقدور روما تحقيق مكاسب أكبر لكن كانت هناك مشكلة مُلحة تتطلب أن تلتفت إليها روما؛ ألا وهى ترتيب البيت من الداخل حتى تتمدد أكثر وأكثر، ونعنى بها مشكلة اللاتين.

روما ومدن العصبة اللاتينية :

كانت محنة احتلال الغال لروما فرصة طيبة لكشف حقيقة نوايا حلفاء روما – اللاتين– الذين تميز موقفهم بالسلبية، بل جاهرت بعض المدن بخروجها على العصبة، وأعلنت تحديها لروما وتلقت المساعدة من الشعوب المعادية لروما. وكانت هذه المدن قد شعرت بوطأة تحكم روما وسيطرتها على كل أمور العصبة. وبالفعل كانت روما قد أمعنت فى إستغلال موارد العصبة لصالحها، بل حرمتهم من أى مكاسب حققتها ولم تجعل لهم أى نصيب منها. فكرت روما جدياً فى ابتلاع هذه المدن. وكان الرومان بارعين فى إحداث التوازنات وتأمين جانبهم. لذلك تحالفت روما مع السامنيين عام ٣٥٠، وفى عام٣٤٨ تحالفت أيضاً مع قرطاجة أكبر قوة

بحرية حينذاك، وقد تفاوضت روما فى هذه المعاهدة باسم العصبة. وفقاً لبنود هـذه الاتفاقية تعهدت قرطاجة بعدم التعرض للمدن اللاتينية طالما بقيت علـى ولائهـا لروما، والأغرب من هذا تعهدها بأن تعيد إلى سيطرة رومـا أى مدينـة لاتينيـة متمردة تسقط فى يديها(٣٤). ولعل بنود هذه الاتفاقية تبين أن روما كانت تتوقع ثورة المدن اللاتينية داخل إقليم لاتيوم، لذلك أبرمت هذه الاتفاقية بهدف التفرغ لتصـفية وابتلاع هذه المدن. وكانت شرارة اصطدام اللاتين مع روما هى استغلال اللاتـين لاشتباك روما مع السامنيين وثاروا على روما، وطالبوا بالمساواة لأن رومـا لـم تتحالف معهم بل سيطرت عليهم، وانضم اليهم فى ثورتهم على روما أهالى كمبانيا حلفاء روما الجدد. استمرت الحرب مع مدن العصبة ثلاث سنوات، وخرجت روما منها منتصرة. وكان على كل مدينة أن تقبل الشروط التى وضعتها رومـا -فيمـا عرف باتفاقية ٣٣٨- التى تعاملت مع كل مدينة على حدة بعد أن أعلنت من جانبها حل العصبة، وجردت مدنها من خصائص الاتحاد الفيدرالى وأدمجت مدن لاتينيـة مثل نومينتومNomentum وتوسكولوم Tusculum وأريكيا Aricia ولانوفيـوم Lanuvium فى الدولة الرومانية، وصار الباقى بما فيها المستوطنات اللاتينيـة – التى كانت بمثابة نقاط حدودية ومخافر أمامية- حلفاء يلتزمون بتلبية مطالب روما العسكرية، بل إن روما جردتهم من حقوق التجارة والزواج المشترك فيمـا بيـنهم واقتصر ممارسة هذه الحقوق بين كل مدينة وروما فقط. وبذلك نجحت روما فـى تفتيت العلاقات بين هذه المدن بعضها وبعض، وفى المقابل ربطتهم بها وحدها(٣٥). وكنتيجة لبنود هذه الاتفاقية أصبح كل اللاتين يخدمون فى القوات المساعدة كحلفاء من الناحية النظرية، وإن كانوا فى حقيقة الأمر رعايا. هكذا تنطق بنود المعاهـدة بأنها وضعت وفرضت بالقوة من طرف واحد هو طرف روما. وتعد هذه المعاهدة بلاشك نقطة تحول مهمة فى تاريخ روما الإستعمارية، وكان مرد هذا الخطوة هـو التحول فى موقف روما من الشقيقة الحامية لشقيقاتها فى الحلف والمدافعة عـنهن إلى صاحبة سياسة الإرغام علي الإدماج بالقوة، بل إنها فرقت فى التعامل مع كـل مدينة حسب ولائها لروما فى الامتيازات. ولاشك فى أن هذه التفرقة فى المعاملـة كانت تجسيداً عمليا للمبدأ الرومانى الشهير القائل "فرق تسد divide et impera " والذى التصق بسياسة روما فى تعاملها مع معظم الشعوب التى غزتها وكان أحـد

أهم أسس السياسة الرومانية فى علاقاتها الخارجية. على الجانب الآخر فقد كان اهم نجاح حققته روما فى علاقتها بالمدن اللاتينية هى اتباع سياسة الاستيعاب والاحتواء لهذه المدن وتجلى هذا فيما استفادت به هذه المدن من الاتفاقية. لقد تكفلت بالحماية والدفاع عن هذه المدن ضد أى عدوان خارجي، وضمن مواطنوها حماية القانون المدنى لهم فى تعاملهم مع الرومان، إلى جانب تمتعهم بالسيادة الذاتية لإدارة شئون أنفسهم. وكان هؤلاء المواطنون دون الجنسية الرومانية الكاملة يطمحون فى الحصول عليها كاملة مستقبلاً إذا ما أحسنوا التعامل مع روما. وبذلك نجحت روما فى ربطهم بها عاطفياً وكسب ولائهم تعلقا بأمل رضا روما ومنحهم حق الجنسية الكاملة. وقد ثبت نجاح سياسة الاستيعاب هذه والاحتواء الرومانية إذ بقى هؤلاء اللاتين على ولائهم لروما حتى فى أحلك ساعات صراعها مع القبائل السامنية أو مع بيرهوس أو أثناء حرب هانيبال[٣٦]. هكذا نجحت روما فى ترتيب بيتها من الداخل وأصبحت سيدة لاتيوم وأكبر قوة فى إيطاليا، كل هذا أعطاها القوة لكى تتمدد وتتوسع داخل إيطاليا.

طور الهجوم :

يشتمل هذا الطور على دراسة محاولات الفكر العسكرى الرومانى فى التوسع والتمدد فى إيطاليا كلها حتى تنجح روما فى ابتلاع إيطاليا ككل كما نجحت من قبل فى ابتلاع لاتيوم. والنتيجة النهائية هو أن تتوحد إيطاليا ككل تحت سيادة روما اللاتينية، ويصبح حديثنا عن إيطاليا ككل مختزلاً فى الحديث عن روما.

يُعتقد أن اتفاقية ٣٣٨ هى البداية الحقيقية لروما الإستعمارية لأنها كانت بداية لصهر سهل لاتيوم والمستوطنات اللاتينية سياسياً واجتماعياً فى كيان واحد، كما أنها كانت بداية لتوحيد وربط إيطاليا تحت زعامة روما. ومعلوم أن حدود روما وصلت إلى خليج نابولى جنوباً نتيجة لنجاح روما فى إقناع مدن كمبانيا بالدخول فى تحالف معها وأصبحت هذه المدن جزءاً من الدولة الرومانية، وخدم مواطنوها فى الفرق الأساسية، وفى المقابل شعرت مدن كمبانيا بحاجتها إلى حماية روما لصد عدوان السامنيين.

كان إدماج روما لمدن لاتيوم مقدمة طبيعية واستعداداً لاستئناف حربها مع

السامنيين خصوصاً فى مرحلتها الثانية التى أستغرقت حوالى ٤٢ عاماً(٣٢٧-٣٠٣)، تلك الحرب الضروس التى صورها ليفيوس على أنها صراع حياة أو موت من أجل السيادة على إيطاليا؛ روما أم السامنيين٣٧. كانت أسباب استئناف الحرب كامنة لدى الطرفين، وكان اندلاعها متوقفاً على أى ذريعة، وبالفعل كانت الذريعة هى رغبة الطرفين فى السيطرة على مدينة نابولى Neapolis ذات الأهمية التجارية الكبيرة للسامنيين، وقد استولى عليها الرومان. وسادت حالة جمود من اللاسلم واللا حرب بين الجانبين. كسر حالة الجمود هذه قنصلا روما عام ٣٢١ عندما حاولا المسير بجيشهما -الذى أعيد تنظيمه- إلى جنوب كمبانيا، ودخلا سامنيوم عند ممر الشعاب الكوديانية Fauces Caudinae الواقعة بين كابوا Capua وبنفينتيوم Beneventum . وقد رغب القنصلان فى الوصول إلى المناطق المفتوحة الخلفية التى يستطيعان من خلالها حصار السامنيين، والحصول على مساعدة حلفائهم فى أبوليا. لكن الجيش السامنى أجهز عليهما، ونكل بهما تنكيلاً شديداً فيما عُرف بكارثة شعاب كاوديوم العسكرية. من هنا أصبح السامنيون فى موقف قوة وبالتالى أملى قائد الجيش على القنصلين شروطاً مهينة منها الانسحاب من إقليم سامنيوم وكمبانيا وإخلاء الحاميات والقلاع المحيطة بإقليم سامنيوم وكمبانيا. هكذا رغب السامنيون – من خلال هذه الشروط – التفاوض مع الرومان كأنداد لهم. عند عودة الجيش الى روما اجتمع القنصلان مع السناتو للتصديق على بنود الصلح مع السامنيين، لكن السناتو رفض بنود هذا الاتفاق، وأعاد القنصلين إلى السامنيين وفاءً للعهد ليفعل قائد السامنيين بهما ما يشاء، وبالفعل انتقم من القنصلين لأن بقية الجيش لم تعد معهما[٣٨].

لقد كان الرومان جادين في الاستفادة من الهزيمة من السامنيين، لاسيما ان السناتو الروماني مكون من رجال علمتهم الخبرة أن الهزيمة فى معركة واحدة من حرب طويلة هي مجرد حادث مؤسف. هنالك شمر الرومان عن ساعد الجد وطوروا من تكتيكاتهم العسكرية، وتعلموا حرب الجبال والمرتفعات، ثم أعادوا تقسيم الفرقة الرومانية لتحارب في ثلاثة صفوف بثلاثة طرق وأسلحة مختلفة. كذلك طور الرومان من أسلوب التدريب بحيث أصبح يجمع بين التراث الإغريقى

العسكري –الذي كان يقوم على فيلق Phalanx المشاة الثقيلة الذى اخترعه فيليب الثانى المقدونى – وبين خرب الجبال، ومن جهة ثانية درسوا التكتيك الذى كان يستخدمة السامنيون. وفى ذات الإتجاه أنشأوا الطرق العسكرية المعبدة خاصة طريق أبيوس الذى يربط بين روما وكابوا وذلك بهدف تسهيل تحركات الجيش تحت أى ظرف. هذا إلى جانب المحاولة الناجحة من جانب روما لتطويق السامنيين من خلال السيطرة على أبوليا التى كان يسكنها عدد من القبائل الإيطالية دفعتها القبائل السامنية أمامها ليستقر بها المقام فى أبوليا، وقد رحبت هذه القبائل بالرومان. على هذا عندما عادت روما إلى الحرب كانت قد نجحت في تطويق السامنيين من جهة أبوليا(٣٩). شكل السامنيون حزباً لحرب روما من الأتروسكيين والأومبريين والغال، وقد لقى هذا الحزب هزيمة نكراء عند سنتينوم Sentinum عام ٢٩٥ في إقليم اومبريا، وبذلك أجبرت روما كل القبائل السامنية على الدخول معها في حلف والتنازل عن قدر كبير من أرضها لروما. ثم التفتت روما لكل من الغال والأتروسكين وهزمتهم أيضا، وباتت الجبهة الشمالية مهددة إلي وقت قهرت فية روما القبائل الغالية وضمت أراضيها إليها وعرفت باسم الأرض الغاليةAger Gallicus.

وقد اقترح نقيب العامة جايوس فلامينيوسG. Flaminius توزيع هذه الأرض على المواطنين الرومان ممن يرغب فى امتلاك مساحة من الأرض وذلك بعد تقسيمها إلى مزارع صغيرة لكن السناتو رفض هذا الاقتراح، مما دعا فلامينيوس إلى حمل اقتراحة إلى الجمعية القبلية التى وافقت على الاقتراح. وقد فُسر هذا التوجه على انه سوف يحدث خللاً فى البناء الاجتماعى لروما حتى أن بوليبيوس أعتبره أول خطوة فى فساد الناس(٤٠). والواقع أن أهمية هذا الإجراء تكمن فى عاملين: أولهما أن عادة توزيع الأراضى التى تستولى عليها الجيوش الرومانية كانت قد توقفت لبعض الوقت. أما ثانيهما– وهو الأخطر بطبيعة الحال – إن توزيع الاراضى على العامة جعلت التوجه الاستعمارى ضرورة وشكل هؤلاء قوة دفع للفكر الرومانى الاستعمارى خلال العقود التالية لأن روما كانت فى حاجة إلى المزيد من الأراضى لتمليكها لهؤلاء، كذلك فإن هذه العملية تثبت رعاية الدولة لمواطنيها بشكل كبير؛ وتجلت هذه الرعاية فى أبهى صورها خلال تربيونية آل جراكوس٤١. إجمالاً نؤكد أن الحرب الغالية منحت الرومان الإعداد النفسى والبدنى

اللازمين لمشروعهم ومغامرتهم فى غزو وسيادة العالم(٤٢).

كذلك نجحت روما في تطوير منطقة البحر الادرياتى التي كانت تسكنها قبائل الايكـــوى Aequi، والمارســـيين Marsi، والفســـتين Vestini، والمـــاركونى Marrucani وقد أظهرت هذه القبائل صداقة لروما أثناء حروبها مع الســـامنيين، ولم تقم بأى محاولة لسد طريق ابيوس الذي يربط روما بأبوليا أو السيطرة عليـــه، لذلك كافأهم السناتو الرومانى بعد انتهاء الحرب السامنية بمعاهدات كحلفاء دائمين، مع استثناء عدو روما القديم وهى قبيلة الأيكوى التى كانت صـــغيرة العـــدد وقـــد هاجمتها روما عام ٣٠٤ بتهمة الخيانة – وفقا لما أورده ليفيوس –. وقد تم تفريغ أرض الأيكوى من سكانها حيث أقامت عليها روما مستوطنتين لاتينيتين فيما بـــين عامي ٣٠٣، ٢٩٨. وقد كشفت النتيجة النهائية لانتصار روما أنها أصبحت تمتلك القوة لإجبار كل مدينة– من نهر الأرنو شمالاً حتى بلاد اليونان العظمى فى جنوب إيطاليا– على تحديد موقفها؛ إما مع روما أو ضدها(٤٣). هكذا بسطت روما سيادتها علي معظم أجزاء إيطاليا إلا الجنوب الذى أنتشرت فيه المســـتعمرات الإغريقيـــة – منذ القرن السابع قبل الميلاد– وعُرف بإسم بلاد الإغريـــق العظمـــى Magna Graecia .

على هذا كان الجنوب الذى يسكنة الإغريق مشكلة أخرى وتحدٍ جديد كـــان علي الرومان مواجهته نتيجة لسياستهم الاستعمارية الهادفة لابتلاع الجنوب، ولكنه تحدٍ من نوع جديد لأن روما كان عليها–هذه المرة– ان تواجه جيوشاً خارجية من بلاد اليونان الاصلية حيث دأبت المستوطنات الإغريقية–خصوصا تارنتوم زعيمة المدن الاغريقية فى جنوب إيطاليا– على الاستنجاد بالقادة الإغريق للوقـــوف فـــي وجه مناوئيها في جنوب إيطاليـــا. كانـــت مدينـــة تـــارنتوم Tarentum أشـــهر المستوطنات الإغريقية على الإطلاق وأشدها بأسا، وبسبب امتلاكها أكبر أســـطول فى المياة الإيطالية، لذلك أخذت على عاتقها رد العدوان عن إغريـــق إيطاليـــا٤٤. وجدير بالذكر أن انتصار روما على السامنيين أفزع تارنتوم خوفا مـــن عواقـــب ازدياد قوة روما، وتدخلت تارنتوم للتوفيق بين السامنيين وروما فى حـــوالى عـــام ٣١٤، لكن روما رفضت تدخلها وأقامت مستوطنة فنوسيا Venusia بالقرب منها.

اندلعت شرارة الحرب عندما أغرقت تارنتوم بعض سفن الاسطول الروماني المتمركزة في مدينة ثورى Thurii في خليج تارنتوم، بل إنها اعتبرت ظهور هذه السفن في هذة المنطقة خرقاً لشروط معاهدة بين الطرفين (٣٣٤) نصت علي عدم دخول السفن الحربية الرومانية خليج تارنتوم، ثم هاجم جيش تارنتوم مدينة ثوري وطرد الحامية الرومانية[٤٥]. وكانت هذه الحامية الرومانية قد رابطت فى ثـورى عندما هاجمها اللوكانى Lucani ، فاستنجدت ثورى بروما التى بدورها لبث النداء وأرسلت جيشاً هزم اللوكانى وطردهم خارج المدينة، ثم ترك حامية رومانية لحماية المدينة٤٦. على أثر ذلك طلبت مدن أخـرى مثـل لـوكرى Lucri وريجيـوم Rhegium أن ترابط بها حاميات رومانية مماثلة. وقد أثـار هـذا الأمـر قلـق ومخاوف تارنتوم وغيرها من المدن الإغريقية التي عانت كثيـراً مـن هجمـات وتعديات هذه المدن، وزاد من مخاوفها أن دعم روما لها سـوف يـدعمها أكثـر ويمنحها القوة لشن حملات متزايدة عليها[٤٧].

وكان رد فعل روما- على إغراق أسطولها- هو طلب ترضية مناسـبة أى تعويض عن هذا العمل العدائى لكن تارنتوم رفضت وبالغت فى عدوانها فاعتـدت على سفراء روما وأهانتهم[٤٨]. والحق إن مبعث هذا الرد المخيب للآمـال مـن جانب تارنتوم يكمن فى شعور تارنتوم بقوتها على أثر حضـور القائـد الكـفء بيرهوس[٤٩] Pyrrhus ملك إبيروس Epirus – أشهر قواد الإغريق فى عصره- لنجدتها، إلى جانب نجاح تارنتوم في الحصول علي تأييد بعض المدن المجاورة لها التي كانت راغبة في مهاجمة روما لأى سبب ؛ حيال هذا الرد لم يجد الرومان بدا من إعلان الحرب[٥٠].

كان العالم اليونانى بعد الأسكندر يغص بالقواد الأكفاء ذوى المواهب العظيمة والطموح الأعظم، وكان بيرهوس ملك إبيروس (٣١٩-٢٧٢) من هؤلاء، ويتشبه بالأسكندر الأكبر ولدية جيش مدرب علي نظام الفيلق المقدوني Phalanx وأحضر معة عدداً من الفيلة المُحاربة التي لم يكن للرومان بها عهد من قبل[٥١].

وصل بيرهوس الي إيطاليا عام ٢٨٠ وبالفعـل ألحـق الهزيمـة بـالجيش الرومانى عند هراقلياHeraclea، ومن هناك تقدم باتجاه روما حتى وصـل إلـي

حدود لاتيوم، وأرسل سفيره لمفاوضة الرومان وهو في موضع قوة. لكن السـناتو الرومانى كان له رد أخر، فقد رد ابيوس كلوديوس-الملقب بـالأعمى- السياسـي المخضرم على السفير قائلاً " إن روما لا تتفاوض مع العدو طالما تطأ أقدامة أرض إيطاليا "(٥٢). هنا دلالة مهمة جداً وهي حديث أبيوس كلوديوس عن أرض إيطاليا، وليست أرض روما وبذلك توحد المفهومان (إيطاليا - روما) في كيان واحد وهـذا المفهوم يدعمة موقف حلفاء روما حيث تماسكوا وظلوا علي ولائهم لروما. إذ أن بيرهوس توقع بتقدمة صوب روما أن حلفاء روما سوف ينقلبون عليها وينفضـون من حولها، لكنة لم يدرك أن روما استطاعت بناء علاقات دبلوماسية صـلبة مـع حلفائها وهي بذلك تستطيع الاعتماد عليهم، وكان هذا درسا له ولهانيبال من بعـده. قفل بيرهوس راجعا الي الجنوب والتقى بجيش رومـاني آخـر عنـد اسـكولوم Asculum في أبوليا وا نتصر علية، لكنه كان انتصاراً بلا جدوى مكلفـاً وغيـر حاسم. عرض بيرهوس الصلح على الرومان مرة ثانية، وكاد الرومان ان يقبلـوا الصلح لكن عرضاً قرطاجياً حال دون ذلك، فقد عرضت قرطاجـة علـى رومـا المساعدة بالمال والسفن مما شجعها على رفض الصـلح ومواصـلة القتـال مـع بيرهوس. وتطورت العلاقات الطيبة بين قرطاجة وروما إلى حد إبـرام معاهـدة عسكرية من أجل تنسيق المواقف لمواجهة بيرهوس، لاسيما أن قرطاجـة كانـت تخشى تدخله فى صقلية(٥٣). وهذا ماحدث بالفعل إذ أن بيرهوس قرر فجـأة تـرك إيطاليا، وذهب إلى صقلية (٢٧٨- ٢٧٥) لنجدة الإغريق هنـاك مـن سـيطرة قرطاجة، وقد حقق نجاحاً في مهمتة فى صقلية، لكن الإغريق انقلبوا عليـة فقـرر العودة إلى إيطاليا، ولقيه جيش روماني جيد التنظيم عند بنفنتـوم Beneventum عام٢٧٥ ولقي بيرهوس هزيمة ساحقة دفعته إلى مغادرة إيطاليا(٥٤).

لقد كان بيرهوس أول قائد يونانى عظيم واجه الرومان وهزمـوه فـى النهاية(٥٥)، وقد اضطر إلي مغادرة إيطاليا عائداً بخفي حنين تاركاً رومـا أوطـد مركزاً مما كانت علية في أي وقت مضى، وأكثرسيطرة علي كل شبه الجزيرة بعد أن استغلت فرصة غيابه في صقلية وأدبت الشعوب التي أيدته. وضـمت إغريـق إيطاليا الذين رفضوا تلبية نداء تارنتوم التى ضمتها روما هى الاخرى فى وقت لاحق، هكذا ضمت روما الميناء البديع والقلعة المنيعة والأسطول الفخم حتى أنه لم

يواف عام ٢٦٥ إلا وكانت شبه الجزيرة الإيطالية بأجمعها تعترف بسيادة روما.

إن حرب روما مع بيرهوس باعتبارها آخر المراحل لإقرارالوحدة الإيطالية يتعلق بها نقطتان فى غاية الأهمية بحيث إنه كان لهما أكبر الأثر فى توجهات روما المستقبلية وهما :

١- ظلت ذكرى غزوة هذا الملك القادم من الشرق حية فى أذهان الرومان بحيث أنها أثارت ريبة الرومان فى توجهات وسلوك فيليب الخامس ملك مقدونيا لاسيما التقارب الذى حدث بينه وبين هانيبال أثناء الحرب البونية الثانية. وكان إفشال خطط التحالف بين هانيبال وفيليب أحد اهم المحاور التى نفذها الرومان ببراعة خلال الحرب البونية الثانية وكانت سببا رئيساً فى حصار هانيبال داخل ايطاليا وإضعاف شوكته وهو ما كان مقدمة لازمة لتحقيق النصر خلال هذه الحرب المريرة.

٢- ظهرت هناك ضرورة ملحة من جانب روما للاهتمام بالبحر الأدرياتى وذلك بسبب أن روما لم ترث تارنتوم من حيث السيطرة على المدن الإغريقية فقط؛ بل ورثت ايضاً العلاقات التجارية التى كانت قائمة بين هذه المدن ومدن الشرق. من هنا كان دافع روما للاهتمام بالبحر الأدرياتى الذى كان بحراً ضيقاً ذا شاطئين متقاربين بحيث يكون ضرورياً أن تقوم بين شاطئية علاقات ما ؛ إما سلماً او حرباً. كذلك كان بحراً مغلقاً لأن عرض مضيق اوترنتو Otranto الذى يربطة بالبحر المتوسط- لايزيد على ستة وعشرين ميلاً، وبالتالى كانت الملاحة فى هذا البحر تحت رحمة القوة التى تتحكم فى شاطئية. إلى جانب هذا كان البحر يموج بنشاط القراصنة اللاليريين مما كان يهدد سلامة إيطاليا. بعد انتصار روما على بيرهوس وضم تارنتوم كان عليها مواجهة هؤلاء القراصنة وذلك لحماية تجارتها مع المدن الشرقية.

٣- كان أهم نتيجة لحرب بيرهوس أنها لم تكن تتمة لإحكام روما سيطرتها على إيطاليا فحسب، بل كانت بداية الانطلاق لروما إلى خارج حدود إيطاليا. وحدث أن عقدت روما اتفاقية مع ملك مصر بطليموس الثانى فيلادلفوس عام ٥٦٢٧٣. وبغض النظر عن هدف وطبيعة هذه الاتفاقية، إلا أن لها دلاله كبيرة حيث أضحت

روما قوة كبيرة لها ثقلها وتأثيرها داخل إيطاليا وخارجها، كما اصبح لهـا صـلات بممالك الشرق الهلينستى[٥٧].

٤ – لقد كانت الحرب مع بيرهوس(٢٨٠-٢٧٥) عظيمة الفائدة للرومـان إذ كانت هذه هي أول مرة يواجة فيها الرومان قائد يونانى عظـيم مثـل بيرهـوس، وجيوش خارجية منظمة تنظيما دقيقا وأسلحة لم يعهدها الرومان (كالفيلة مـثلا)؛ وهذا مكن الرومان من اكتساب خبرة كبيرة. كذلك اكدت ولاء حلفاء روما لرومـا، إلى جانب أنها أبرزت الروح القتالية العالية للرومان، ومدى مهارة الرومـان فـي تطوير أنفسهم. وها هي شهادة بيرهوس نفسه الذي قال " لو كان هـؤلاء جنـودي لهزمت العالم " وذلك بعد ان هاله أن قتلى الرومان تلقوا الجروح فـي صـدورهم. وقد صدق حدس بيرهوس إذ غزا الرومان العالم وأستعمروه[٥٨].

لكننا نتساءل: لماذا أقحمت روما نفـسها فـي صـراع بـين دول الجنـوب الإيطالي؟

يعتقد البعض أن تحالف روما مع ثوري كان السبب في الحرب مع تـارنتوم. لكننا نرى أن الرومان كانوا يعلمون علم اليقين أن التحالف مع ثوري كـان عبـارة عن طريق يقود في نهايته إلى الدخول في حرب مع تارنتوم، وهذا أمر غايـة فـي الجرأة من جانب روما طالما أنها كانت تعلم جيدا أن من عادة تـارنتوم الاسـتنجاد بالقادة الإغريق لمساندتها في نزاعها في جنوب إيطاليا. إن تحالف روما مع ثـوري كان ضرورياً بالنسبة لروما، ومع ذلك لم يكن سببا للحرب؛ بل كان الذريعة التـي نشبت بسببها الحرب بين روما وتارنتوم، لأن دوافع الحرب كانـت كامنـة داخـل العقل الرومانى وذلك لضرورة التوسع والتمدد. إن روما كانت ترغـب فـي هـذه الحرب حتى تتمكن من بسط نفوذها، ومده حتي آخر موطئ قدم في شبه الجزيـرة الإيطالية. الحق إن طبيعة الفكر العسكرى الرومانى بلغت طور التوسع، ولم تكـن روما تعبأ أو تهاب أى قوى داخل أو خارج إيطاليا. إن دخول روما هذا المعترك لم يكن عفويا أو من قبيل المصادفة، لأن روما كانت جادة فى تأكيد سـيطرتها علـى شبه الجزيرة الإيطالية ككل، ويؤكد هذا أن روما كانت جادة فـى تطـوير نفـسها وجيشها بعد كل صدام استعداداً للمرحلة التالية.

إذاً على من تقع تبعة التحالف مع ثوري؛ وبالتالى ما أفضت إليه من الحرب مع بيرهوس، وماأعقبها بعد انتصار روما وسيطرتها علي جنوب إيطاليا وتوسعها حتي غدت وجها لوجة مع القرطاجيين في صقلية؟ يقال إن السناتو فكـر بتـرو وثبات في التحالف مع ثوري لأنه خشى الحرب مع الفيالق الإغريقية التـي نالـت نفس الشهرة المعروفة عنها أيام الأسكندر الاكبر. وقد برّ أ تينى فرانـك سـاحة السناتو ورجاله من تبعة اتخاذ قرار تلبية نداء ثوري والتحالف معها، لأن السـناتو في ذلك الوقت كان قد بلغ درجة عالية من الخبرة بحيث إنه كان على دراية كاملة بتوابع مثل هذا القرار. وفى المقابل حمل فرانك الجمعية الشعبية المسئولية، حيـث إن الجمعية الشعبية – التى نالت كل حقوقها بحلول عام ٢٨٧– هي التي صوتت لصالح هذا التحالف في حين عارض السناتو. والدليل علي صحة هذا الافتـراض جاء من اشارة لدى بليني[٥٩] الذى أشار إلي أن أهل ثورى أقاموا تمثالا علي شرف أحد نقباء العامة المدعو إيليوس ÆLIUS الذي لعب دوراً مهماً في فـك حصـار اللوكاني لمدينة ثورى. إن تدخل نقيب العامة وإقامة نصب له يعني بـلا شـك أن الجمعية الشعبية كانت قد أمسكت بالأمور في يدها، ويدعم هذا ظهور عـدد مـن الترابنة الأقوياء ممن كان لهم نفوذ في مثل تلك المواقف[٦٠]. بعيداً عن هذا الجدل الميتافيزيقى عن مسئولية السناتو أم الجمعية الشعبية؛ فإن النتيجة النهائية هى الأهم ؛ فقد أضحت روما سيدة إيطاليا ككل. وكان وجودها في منطقة ريجيوم أقصـي طرف في الجنوب الإيطالي سببا في وقوفها علي مقربة من الأحداث الجارية فـي جزيرة صقلية والتى كانت تشهد صراعاً بين القرطاجيين وسراقوصة ، ولم يكـن هناك ما يمنع من دخولها في حلف أو معاهدات في صقلية. وجاء عليها وقت لم تستطع الوقوف صامتة إزاء الأحداث الجارية فى الجزيرة لأنها أصبحت معنية بهذه الأحداث بحكم وجودها فى جنوب إيطاليا. لكن عدم الصمت هنا قـد يـدخلها فـي صراع جديد، ولكنه فى هذة المرة كان صراعاً ما بين إمبراطورية كبيرة ودولـة مرهوبة الجانب بسطت نفوذها علي شمال أفريقيـا وجزيـرة صـقلية ألا وهـي قرطاجة.

وقبل الولوج في هذا الصراع المحموم الذى مكن الرومان من بسط سيطرتهم علي غرب البحر المتوسط ، لابد أن نعود إلى أسلوب روما فـي توحيـد الكيـان

الإيطالي ككل تحت زعامتها حتى أضحي هناك تطابق في مفهومين أساسيين وهما: روما وإيطاليا، اللتان أصبح يربطهما مصير مشترك. فمن الآن فصاعدا إذا قلنا روما؛ فنحن نقصد إيطاليا ككل الموحدة تحت زعامة روما، وإذا قلنا إيطاليا؛ فنحن نعني إيطاليا الرومانية بنفوذها وقوتها. إن مرد هذا التوحد يعود إلى قدرة الرومان على توحيد كل إيطاليا علي اختلاف شعوبها وقبائلها وأجناسها باعتبارها دولة إيطالية واحدة تحت زعامة روما اللاتينية، وهذا التوحيد -لكل إيطاليا- لم يحدث منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية(٤٦٧م) مرة آخرى إلا فى مطلع العصر الحديث (عام ١٨٧٠م)عندما تشكلت الدولة الإيطالية الحديثة.

شمل الاتحاد الإيطالي كل إيطاليا من ارمينيوم وبيزا شمالا حتى ريجيوم وبرنديزي جنوبا، وظل هذا الحلف قائما حوالي ٢٠٠ عام حتى الحرب الأهلية التي حصل بعدها سكان إيطاليا علي حريتهم. لقد اتحدت إيطاليا باعتبارها دولة رومانية فى شكل حلف فيدرالي من الناحية الصورية علي الأقل تحت حماية وتوجيه روما. وكان من المفترض أن يكون هناك مجلس فيدرالي يصرف شئون هذا الحلف أو الاتحاد، لكن الواقع أنه كان يقوم بهذا الأمر مجلس السناتو الروماني، والأغرب من ذلك أن كل إمكانيات وموارد الحلف وضعت تحت سيطرة روما. ولم يكن لأحد أو لأى مدينة أن تتذمر كما حدث من قبل مع ذلك الحلف الذي كونته روما في نشأتها الباكرة مع مدن لاتيوم، لكن هذا الاتحاد كان موقف المدن الأخرى فيه موقف المهزوم لأنه وإن كانت بعضها دخلته مختارة ؛ إلا أن واقع الأمر كان غير ذلك، وإن شئنا الدقة كان كل هؤلاء رعايا أكثر من كونهم شركاء لذلك فرضت روما سيطرتها على الحلف. وأيا كانت العلاقات الداخلية ووضع الحلفاء اللاتين أو الايطاليين أوغيرهم من المواطنين الرومان وقانونية وضعهم؛ فإن ما يهمنا هنا هو أن قيام مثل هذا الحلف أو الاتحاد كان بمثابة الخطوة الأخيرة في توسع روما وتمددها داخل إيطاليا وبه أصبحت سيدة إيطاليا بلا منازع مهما كانت نوعية العلاقة أو التبعية بين بقية المدن وروما[٦١].

لقد أعطى هذا الاتحاد نوعاً من الوحدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لكل إيطاليا، وكان واحداً من أهم معالم التاريخ القديم. وكان خلقا جديدا فريدا في

نوعه يختلف عن الكثير من الاتحادات أو الروابط المعروفة فى العالم القديم مثـــل رابطة إسبرطة، واتحاد الدول الهلينية المعروف باسم رابطة أو عصـــبة كورنثـــة، والعصبة الأيتولية والآخية، أومن نوع إمبراطورية أثينا في عصر بركليس؛ لكنـــه كان في النهاية خلقا جديداً خلط العديد من هذه القواعد في حلف فريد من نوعه(٦٢).

كان هناك ملمحان مهمان لسياسة روما تجاة المدن الإيطالية؛ اولهما: الإدماج بحيث تدمج روما وتصهر هذه الكيانات المتفرقة داخل كيان الجمهورية الرومانية؛ وثانيهما: نظام التحالف مع هذه المدن بحيث تنعم كل مدينة داخليا بقوانينها ونظمها الخاصة مع التزامها بالتبعية العسكرية وارتباطها مع روما بمعاهدة. وقـــد أصـــبح الخاضعون للفئة الأولي مواطنين رومان في حين أصبحت الفئـــة الثانيـــة حلفـــاء Socii. وقد أظهر الرومان مهارة فائقة فى تكوين حلفهم العسكرى الذى لم يكن فى واقع الأمر إلا إمبراطورية رومانية فى إيطاليا. وتتجلى هذه البراعة فى جـــانبين: أولهما هو أنهم لم يعاملوا الحلفاء جميعاً طبقاً لنسق موحد وإنما تبعاً لحظ كل حليف من الحضارة، وثانيهما هو أنهم بقدر عنادهم فى متابعة حروبهم كـــانوا أســـخياء متسامحين مع أعدائهم بعد هزيمتهم(٦٣).

على الجانب الآخر كان أهم ما قدمتة روما لإيطاليا الموحدة تحت زعامتهـــا هو السلام الرومانى Pax Romana الذى كان بديلاً طبيعياً لحالة الحرب التـــى كانت سائدة قبل سيادة روما. وأصبحت إيطاليا قوة مرهوبة الجانب مما جعل الغزاة الأجانب بعد بيرهوس-عدا هانيبال- يتوقفون حيث امتدت الجيـــوش الرومانيـــة، وكانت السواحل آمنة بفعل انتشار سلسلة المستوطنات الرومانية. اختفت الحـــروب الداخلية والنزاعات الحزبية داخل المدن الإيطالية،و قامت روما -التى اســـتطاعت أن تسود بقوتها العسكرية- بدور القاضى والشرطى فى آن واحد، وتعمـــدت عـــدم إعطاء هذه المدن الفرصة للتجمع والتحالف ضدها، وعودت الجميع على الوفاء لها والا تحاد والوقوف خلفها لأنها نجحت فى ربط كل المدن والقبائـــل بهـــا. وعلـــى النقيض من هذه الحاله كان وضع المدن والقبائل مع بعضها البعض وهو تطبيـــق عملى للمبدأ الرومانى الشهير فرق تسد.

إن نجاح الفكر العسكرى الرومانى خلال طور الهجوم فى التوسع وابـــتلاع

إيطاليا ككل وتوحيدها فى كيان واحد بزعامة روما يمكن رده إلى عـدة عوامـل، وكانت هذه العوامل هى الأداة المنفذة لهذا الفكر خلال هذه المرحلـة، إلـى جانـب كونها- هى نفسها- التى ضمنت لروما النجاح فى توسعها الخارجى أيضاً. وهـذا النجاح كان له أيضاً جانبان ؛ أحدهما عسكرى الذى كان ثمرة مـن ثمـار سـلامة التقدير والمثابرة وعدم الاستسلام للهزيمة؛ وثانيهما سياسي وكان ثمرة مـن ثمـار سلامة التقدير وضبط النفس المقرونين بإرادة لاتلين وإدراك عميق لمصالح رومـا الحقيقية الدائمة[٦٤]. أما عن مجموعة العوامل فيمكن إستعراضها على النحو التالى:

١ – الاستفادة من الموقع الجغرافى :

تعلم القادة الرومان كيف يستفيدون من المعطيات الجغرافية الذى مكنتهم مـن أن يبعثوا بالجيوش شمالاً وجنوباً وشرقا للضرب فى أماكن متفرقة فى آن واحـد. لقد يسر العامل الجغرافى للقوات المقاتلة أن تعمل فى خطوط داخليـة، وأن تفـرق بين خصومها، وأن تهزم كل منهم على حدا[٦٥].

٢ – السناتو الرومانى كمؤسسة ضامنة وداعمة للتوسع :

لقد كان السناتو رأس مال من التجربة وذا خبرة قومية ومـسئولية فـى إدارة شئون الدولة مدنياً وعسكرياً، وأشبه ما يكون ببيت الحكمـة الرومانيـة، ومركـز أعصاب الجمهورية. وقد كان السناتو ضامنا لأى توسع وكان يتألف من رجال على قدر كبير من الخبرة العسكرية لأنهم سبق لهم أن تولوا القنصلية وقادوا الجيـوش، وهذا فى رأينا سر نجاح هذا المجلس. فكان مركزاً للخبرة فى الـشئون الـسياسية والعسكرية فى آن واحد من خلال تمسكه بمبدأ التفـاوض وإقامـة العلاقـات مـع العناصر الارستقراطية فى المدن الايطالية. ولعب رجال السناتو أدوارا فـى غايـة الأهمية أثناء المحن التى مرت بها روما، إلى جانب دورهم البارز فى الإنـشاءات العسكرية. ونضرب مثلاً بأبيوس كلاوديـوس كـايكوس[٦٦] Appius Caecus Claudius الذى لعب دوراً مهماً أثناء المحن التى واجهت روما وكـادت تعـصف بها مثل أزمات السامنيين والغال والحرب مع بيرهوس، كذلك تبنى سياسة إنـشاء الطرق العسكرية المعبدة لتسهيل حركة الجيش، وإنشاء طريق مهـم جـدا عـرف باسمه Via Appia الذى يربط ما بين كابوا وروما[٦٧].

٣- النزعة الدينية لدى الرومان :

تميز الرومان بورغهم؛ أى أنه دوما كانت هناك علاقة صحيحة بينهم وبين آلهتهم، تلك الكائنات العلوية التى تقوم على حماية الدولة الرومانية. وكان تحقيق السلام الإلهى Pax Deoum مشروطاً بإيمان المواطنين الرومان بالآلهة وعبادتهم لها وإقامة الطقوس والشعائر الدينية على أكمل وجه. إن الشجاعة والرحمة والعدل والتقى، وإن كانت صفات الحاكم المثالى، فإنها أيضاً ترسم الفضائل التى يجب أن يتحلى بها اى فرد من عامة الناس. وقد كانت لهذه الفضائل الرومانية أو الشجاعة الرومانية-بسالة وسمو وشجاعة- الفضل الأول فى تجاوز الرومان لأزماتهم. وكان الرومان دائمى الشعور بالحاجة إلى رضاء الآلهة التام الذى سيكون أقرب منالاً وأوفر بركة لو أظهر المواطنون عرفانهم بالجميل واعترفوا بفضل الآلهة، واحتشدوا بمعابدها الرومانية،و بذلك يستدرون عطفها وينالون رضاها[٦٨].

كذلك فإن الصفات الدينية التى أسبغها فرجيل على آينياس وبالتالى على أغسطس تنطبق على كل الشعب الرومانى. وأهم هذه الصفات على الإطلاق هى صفة التقوى pietas، وقد ضخم فرجيل فى معناها لتتضمن مفهوماً أوسع، فتصبح الولاء للأسرة، وتقوى الآلهة، والشعور العميق بالواجب نحو الأمة، والإيمان بمصير روما العظيم. فكل الرومان كانوا عميقى الشعور بالواجب ومؤمنين بمصير روما وعظمتها، وأتقياء ولديهم ولاء كامل لآلهتهم[٦٩]. لعب الدين دوراً حاسماً فى تفوق الرومان ونجاحهم،لأنهم أظهروا تمسكهم بالدين فى أحلك الظروف حتى إبان الهزة العنيفة للسناتو بفعل إصلاحات آل جراكوس، وبعد مقتل جايوس أجرى تطهير دينى للمدينة من الدماء التى سُفكت، ورُمم معبد ربة الوئام. تسلل مجهول فى جنح الظلام ودوّن عبارة تقول "لقد بنت رعونة الخصام معبداً لربة الوئام"[٧٠].

إن نصيب العوامل المختلفة مجتمعة فى نجاح روما لايوازى بأى حال من الأحوال ما أسهمت به صفات الرومان وتدينهم فى هذا الشأن. لقد اتصف الرومان بالصبر والجلد والصلابة والقدرة على تحمل المشاق والوحدة وتقديم المصلحة العامة فوق أى اعتبار حين تهدد الوطن أزمة خارجية[٧١].

كذلك كانت هناك بعض الهيئات او الجماعات الدينية التي كانت مهمتها الإشراف على العلاقات الخارجية وإعلان الحرب فى حالة فشل محاولات الحصول على ترضية مناسبة. وقد عرفت هذه باسم الفيتاليس Fetials. وهم حماة العهود والمواثيق مع الشعوب الأجنبية، وكانوا بمثابة كهنة على درجة سفراء. أما عن دورهم فقد كانوا معنيين بطلب الإصلاح ويعلنون الحرب ويقرون السلام، ويبدوا أن نطاق عملهم لم يكن محدداً بالشعوب التى كانت تربطها بروما علاقات من خلال المعاهدات، بل امتدت إلى كل من لم يعلن الحرب على روما من خلال أفعال محددة. وكان يعين أربعة منهم لبحث مسألة التعويضات(٧٢).

٤- **الإنشاءات العسكرية :**

أولاً : المستعمرات الحصينة (التكتيك الاستعمارى) :

تميز الرومان منذ بدايتهم بتفوق ملموس فى وضع أسس التكتيك الاستعمارى وخدمة أهدافهم واستراتيجيتهم العامة. ويتمثل هذا الاتجاة فى نجاح روما فى تأمين المناطق المفتوحة عن طريق إنشاء الطرق العسكرية والمستعمرات الحصينة،إلى جانب إنشاء معسكرات ميادين القتال. وهى سياسة ظلت ملتصقة بالفكر الرومانى العسكرى على مدى تاريخة. بعد عام ٣٣٨ ق.م كان نشر المستوطنات الرومانية فى كافة أنحاء إيطاليا إحدى المعالم الرئيسة فى سياسة روما. وكان الهدف الأساسى من هذا الاتجاه هو حراسة الأماكن الاستراتيجية وحماية روما من العدو الخارجى(الغاليين شمالاً، والسامنين شرقاً)، والمساعدة على الهجرة وتخفيف وطأة زيادة السكان بضم أراضى جديدة. ويبدأ إنشاء المستوطنة حين يتم مصادرة جزء من المنطقة الخصبة الصالحة للزراعة وذلك بهدف جذب المستوطنين وتشجيعهم على الإقامة والاستقرار(٧٣). وقد تمركزت سياسة إنشاء هذه المستوطنات فى ثلاثة محاور؛ المحور الأول هو الساحل الغربى لإقليم لاتيوم من أجل حماية شواطئه وموانيه كبديل عن الأسطول الدفاعي. ومن الشرق جاءت فكرة المحور الثانى خصوصاً فى كمبانيا وأبوليا بهدف إقامة حلقة من القلاع الحصينة فى وجة القبائل السامنية التي تسكن الشرق فى منطقة سامنيوم. والمحور الثالث فى الشمال فى منطقة أومبريا وذلك بهدف منع الغال من التسلل(٧٤). ونسوق هنا ثلاث امثلة من

أهم هذه المستعمرات هي :

أ- مستعمرة نارنيا Narnia التي أسست عام ٢٩٩ ق.م. في وادي التيبر الأعلى على طريق فلامينوس العسكري Via Flaminia وكانت هذة المستعمرة بمثابة نقطة حراسة أمامية تربطها بروما مواصلات سريعة لصد عدوان الأتروسكيين والغال. تقع هذه المستعمرة جنوب أومبريا وقد حدد ليفيوس تاريخ إنشائها إلى عام ٢٩٩، لكن فرانك Frank يعتقد أنها تعود لتاريخ بعد هذا لأن روما كانت تواجة متاعب ومصاعب في هذا الإقليم حتى بعد معركة سنتينيوم ٢٩٥(٧٥).

ب- مستعمرة فريجلاي Fregellae أسست عام ٣٢٨ في مكان يقع على بعد سبعين ميلا إلى الجنوب الشرقي من روما على الطريق اللاتيني Via Latina فيما وراء حدود لاتيوم نفسها. وكانت تسيطر على الممرات الواصلة بين لاتيوم وكمبانيا، وتحتل بقعة جميلة على مقربة من التقاء نهرين، ونعمت برخاء عظيم على مر الزمن، لكن هذا الرخاء زال عام ١٢٥عندما هبت المستعمرة ثائرة في وجة روما على الرغم من انها اثبتت ولاءها الكامل لروما اثناء حرب بيرهوس وكذلك ضد هانيبال(٧٦).

ج- فنوسيا Venusia أنشئت عام ٢٩١ وهي مستعمرة كبيرة تقع على طريق أبيوس في أبوليا على حدود سامنيوم ولوكانيا،ومن الجنوب على بعد حوالي ثلاثين ميلا شمال تارنتوم.

و قد ذكر ديونيسوس الهاليكارناسي أنه كان يسكنها عشرون الف مستوطن(٧٧).

وقد تركز معظم المستوطنات في المناطق التي فتحها الرومان وذلك بهدف الحفاظ على المكاسب الإقليمية التي أحرزوها وكذلك الوثوب منها لإحراز مكاسب أوسع.وقد برهنت حروب الرومان مع السامنيين ومع بيرهوس على مدى أهمية المستعمرات بوصفها قواعد لصد الهجمات المعادية وكذلك للانقضاض منها على العدو، وإذا كانت المعسكرات العسكرية قد أنشئت في مواقع استراتيجية لخدمة أغراض عسكرية كحراسة معابر الأنهار (مثل فريجلاي على نهر ليريس وانترامنا

على أحد روافد التبر الشمالية) أو منافذ الممرات الجبلية (مثل البـا فوقنتيـا Alba Fucentia واريمينوم) أو مفارق الطرق (مثـل ايـسرنيا وفنوسـيا) أو المواقـع الصالحة لرسو السفن على الشاطىء (مثل انتيوم وتاراقينا وسـنا الغاليـة) فإنهـا أسهمت كذلك فى حل مشكلتين توأمين كان إقليم لاتيوم يعانى منهما.وهمـا مـشكلة ازدحام السكان ومشكلة الحاجة الى ارض زراعية[٧٨].

ثانيًا : إنشاء الطرق العسكرية :

كانت الطرق الرومانية عملا رومانياً فذاً وينم عـن العقليـة الرومانيـة ذات النزعة العملية الخالصة. فقد نجحت روما فى ربط أجزاء إيطاليا بها حتـى غـدت روما هى المركز الذى تتفرع منه كل الطرق بحيث إن كل الطرق كانت تؤدى إلى روما كما يقول المثل الشهير الذى يثبت بما لايدع مجالاً للشك مهارة الرومان فـى إنشاء هذه الطرق، وهو ما تكشف عنـه أيـضاً خريطـة الطـرق والمـستعمرات الرومانية.

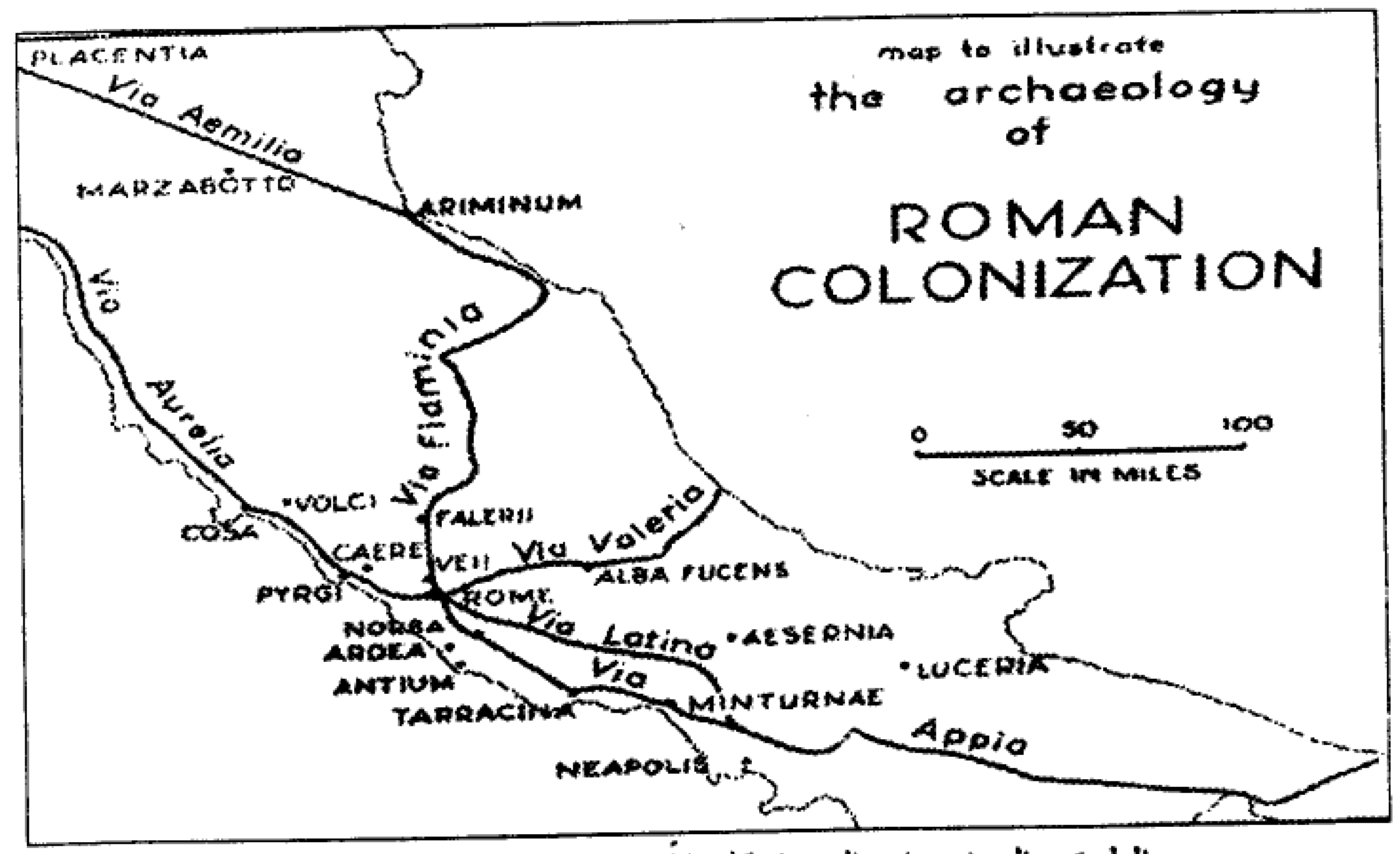
وقد قدر لهذه الطرق أن تصبح يوما ما أخطر أثراً فى هيكل الإمبراطوريـة الرومانية من الخطوط البحرية، ومن الفرق العسكرية التى عسكرت فى أنحاء شتى من الإمبراطورية[٧٩]. وقد كان للتقدم فى العلوم التطبيقية دوره فى إنشاء الطـرق، ذلك أن دواعى الحرب اقتضت إنشاء طريقين كانا الحلقة الاولى فى شبكة الطـرق التى امتدت على مر الزمن لتغطى إيطاليا كلها. وهـذان الطريقـان همـا طريـق أبيوس، وطريق اللاتين اللذان أنشأهما الرومان لييسرا لهم إرسال قوات إلى كمبانيا وحدود سامنيوم فى أى فصل من فصول السنة، وتجلى أثرهما استراتيجيا من حيث إنهما جعلا الرومان أقدر من ذى قبل على سرعة نقل جنودهم[٨٠].

و طريق أبيوس بدأ فى إنشائه الكنسور أبيوس كلوديوس كـايكوس عـام ٣١٢، وهو أول الطرق الرومانية الكبيرة التى لعبت دوراً كبيراً فى نشر النفـوذ والحضارة الرومانية. وهو الطريق الرئيسى الذى يربط روما بجنوب إيطاليا ومـا وراءها[٨١]. يتكون هذا الطريق من أربع طبقـات، إحـداهما مـن أحجـار الفلـج والأخرى من الحصى والزلط والثالثة من الأسمنت، والطبقة الرابعة مدرجة بعناية. ومن دقة ومهارة الإنشاء أن هذا الطريق يعبر الأنهار بقنـاطر أو جـسور ممهـدة

ويسير فوق المستنقعات على سدود مبنية على شكل البواكى. وقد مثل هذا الطريــق فى جميع الأحوال شريانا حيويا صالحا لانتقال الناس والبضائع بين روما وكمبانيــا. وبعد حرب بيرهوس تم مد هذا الطريق إلى برنديزي وبالتالى أصبح طولـــه ٢٣٤ ميلا[٨٢]. وكذلك تم إنشاء طريق شمالى كبير وهو طريق فلامينــوس بــين رومــا واريمينيوم وطوله ٢٣٠ ميلاً وقد لعب هذا الطريق دوراً مهماً فى غزو بلاد الغــال فيما وراء جبال الألب. وأنشأ هذا الطريق جايوس فلامينوس عام ٨٣٢٢٠. لقد كان الهدف الأول من إنشاء هذه الطرق الكبرى هو هدف استراتيجى فى المقام الأول إذ كانت روما ترمى إلى تحقيق سلامة وسرعة انتقال الجنود والمــؤن بمــا يواكــب الأهداف العسكرية[٨٤].

ثالثا : معسكرات القتال :

لقد أفاد الرومان من إنشاء هذه المعسكرات فى ميادين القتال من حيث إنهــا جعلتهم أكثر أمناً وسلاماً. وخير مثال لهذه المعسكرات: المعسكر الرومانى الحصين الذى أقيم قبل معركة اسكولوم، وقد تجلت أهميته فى إنقاذ فلول الجــيش الرومـــانى بعد الهزيمة فى هذه المعركة من أن يقطعها إربًا إربــاً مطـــاردوهم مـــن جــيش بيرهوس(٨٥).



الطرق والمستعمرات الرومانية(نقلاً عنMacKendrick1976)

الجيش الرومانى :

كان الجيش هو الأداة الطيعة التى نفذت الفكر الاستعمارى الرومانى ومكنت روما من بسط سيادتها وإقرار نفوذها. كان الجيش الرومانى فى عهد الملوك يتكون من ٣٠٠٠ راجل و٣٠٠ فارس يؤخذون بالتساوى من القبائل الثلاث القديمة. أى أن كل قبيلة كانت تقدم قوة مؤلفة من ١٠٠٠راجل بقيادة ضابطهم الذى كان يحمل لقب tribunus militum، إلى جانب فصيلة تتألف من ١٠٠ فارس تحت إمرة ضابطهم tribunus celerum .ويبدو أن هذا النظام ظل متبعاً خلال النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، ثم أدخل عليه تعديل بسيط تم بمقتضاه مضاعفة عدد الفرسان بحيث أصبح ٦٠٠ فارس قسمت إلى ست مئينات centuriae (أى ست وحدات قوة كل منها ١٠٠ فارس، وتم تقسيم المشاة أيضاً إلى ثلاثين مئينا. وكان تكوين هذة الوحدات قائماً أساساً على البطارقة وذلك لقدرتهم على تجهيز أنفسهم بالخيول والأسلحة اللازمة. وبالتالى كان الجيش يتكون من جنود من المواطنين غير محترفين أى يتم استدعاؤهم عند الحاجة، وكان كل مواطن يتمتع باللياقة البدنية يخضع للخدمة العسكرية كجزء من التزاماته تجاه الدولة. وبالتالى كان يتحمل تبعات ونفقات الخدمة من جيبه الخاص لأن فلسفة الخدمة حينذاك كانت جزءاً من التزاماته تجاه الدولة وبالتالى فهى غير مأجورة[٨٦].

يعزى إلى الملك سيرفيوس توليوس Servius Tullius – أحد ملوك الأتروسكين القدماء الذين حكموا مدينة روما خلال منتصف القرن السادس قبل الميلاد – انه أجرى إصلاحاً عسكرياً كان الأساس فى نشوء الجمعية المئوية. ارتكزت فكرة هذا الإصلاح العسكرى المنسوب إليه[٨٧] على أساس الثروة والوضع الاجتماعى أى تجنيد كل المواطنين الرومان للعمل فى الجيش حسب الطبقات الاجتماعية وحسب مقدرة كل طبقة اقتصاديا. وبناءً على ذلك كان المواطنون الأغنياء فى مقدمة الجيش لأنهم كانوا يستطيعون تجهيز أنفسهم بالسلاح الجيد والخيول، فى حين كان الفقراء فى المؤخرة لعدم قدرتهم على امتلاك الخيول والأسلحة الثقيلة . ويذكر أن سرفيوس قسم الشعب الرومانى–أغنياء وفقراء– إلى ١٩٣ وحدة مئويةcenturia، وكل وحدة– كما يتضح من اسمها– تتكون من مائة

محارب. وكان كل فرد يقف وفقاً للامتيازات الاجتماعية لطبقتــه. وكــان النــبلاء يشكلون ثمانى عشرة وحدة مئوية وهى سلاح الفرســان الــذى يتقــدم الوحــدات الأخرى، ويلى ذلك باقى الجيش الرومانى الذى يشمل ١٥٧وحدة مئويــة، مقســمة حسب الوضع الطبقى لرجالها إلى خمس مجموعات تبدأ بــأغنى رجــال الطبقــة المتوسطة الذين كان لهم ثمانون وحدة مئوية، ويتدرج الوضع إلى رجــال الطبقــة المتوسطة. كما كان الجــيش يشــتمل علــى وحــدتين مئــويتين مــن الصــناع الفنين Fabrum ووحدتين أخريين من عــازفى النفيــر Cornicium وضــاربى الطبول Tupicinum أما الوحدة المائة والثلاث والتسعون فقد كانت تتكــون مــن المواطنين المعدمين الذين لا يملكون شراء سلاح وقد أطلق عليهم لقــب المنجبــين Proletarii لأنهم لا يقدمون للوطن شيئاً سوى إمداده بالخلف وإثرائــه بالرجــال. ومقابل ذلك فقد كان لهم حق التصويت فى الجمعية المئوية Comitia centuriata. ونتيجة لقيام تنظيم الجيش على الثروة الشخصية فقد كان هذا التنظيم يتغيــر بعــد إجراء التعداد. كانت الوحدة الأساسية فى الجيش الرومانى هى الفرقةlegio التــى كانت تتألف من ٥٠٠ من المشاة و٣٠٠ من الفرسان، ومــع ذلــك فقــد كشــفت المواجهات مع بيرهوس وكذلك هانيبال أن الفرق الرومانية لم ترق إلــى مســتوى الجيوش المدربة المحترفة[٨٨].

خُوّل القنصلان سلطة الإمبريوم والتى كان يحــق لهمــا بمتقضــاها قيــادة الجيوش، وكان السناتو الرومانى يتولى أثناء الحرب تحديد أعداد القوات اللازمــة وكذلك ما يلزمها من نفقات. كانت القنصلية فى المقام الاول سلطة عســكرية لأن حاملها يتمتع بالسلطة العسكرية Imperium militare وهو الحــق الدســتورى لتسيير الجيوش. وهذة السلطة لاتصبح نافذة المفعــول إلا خــارج أســوار رومــا الوهميةExtra pomerium. وكانت الانتصارات العسكرية التى يحققها القنصــل تكسبه شهرة كبيرة وهتــاف الجنــود مــن أجــل مــنحهم لقــب قائــد منتصــر Imperator[89].

وكانت خطط تحريك القوات تتبع الأساليب اليونانية، ولعل اليونانيين أنفسهم قد نقلوها عن الأتروسكيين. أما عن التشكيل أثناء المعركة فقد كانت هنــاك ثلاثــة

خطوط للقتال تقوم على أساس فئات السن: أولهـا الشـبان الـذين كـانوا رمـاة الرماح hastati، وثانيهما المشاة الثقيلة التسليح الرئيسيةprincipes، ثـم قـدامى المحاربين فى الاحتياطى triarii. ويتلخص دور سلاح الفرسان فى حماية أجنحـة تشكيلات المشاة، من هنا كان هذا الجيش صالحاً للقتال فـى الأراضـى السـهلة المنبسطة. أما مقدرة هذا الجيش على القتال فى الأراضى الوعرة والجبال فلم تكن على نفس الدرجة العالية من الكفاءة، لذلك تطلب القتال فى جبل سـامنيوم إعـادة تشكيل هذا الجيش مع إعطائة قدراً أكبر من المرونة. لتحقيق هذا الغرض تم تقسيم الفرقة إلى كتائب manipuli لها القدرة على العمل باعتبارها جماعـات مسـتقلة. بالإضافة إلى القوات المساعدة التى كانت تقدمها الحلفاء(٩٠). لكن هذا الجيش كـان يحمل بين طياته بعض عوامل الضعف التى كانت لابد ان تتكشف بسرعة؛ منهـا على سبيل المثال كان الجنود يعوزهم الكثير من التدريب الكافى على الـرغم مـن شجاعتهم وبسالتهم التى أشاد بها بيرهوس بعد موقعة هراقليا ٢٨٠. وكان الجنود كذلك طواقين إلى إنهاء الحرب والعودة إلى مزارعهم. وأهم من ذلـك أن القيـادة العليا كانت تعانى من نقائص خطيرة وقد يتصادف أن يكون أحد القنصـلين قائـداً قديراً، غير أن هناك الكثير من الأمور التى كانت تحول دون أن تتـوافر المقـدرة والكفاءة لكل منهما. وقد كان من الممكن بطبيعة الحال أن يُستدعى رجل ذو سجل مشرف فى ميدان القتال فى حالة الطوارئ لينصب قنصلاً أو دكتاتوراً، كما كـان الحال مع كاميلوس Camillus أثناء حصار مدينة فيبى(٩١). أضف إلى هذا أيضـاً أن هذا النظام لم يكن ليفى بالغرض مع إطالة فترة وتعدد ميادين القتال بعيداً عـن روما؛ لذلك كانت هنالك عدة مواجهات رئيسة فرضت على الرومان تطوير أنفسهم عسكرياً، وهى :

حصار فيبى: ذكرنا من قبل أنه لم يكن اى من الجنود يتقاضـى راتبـا أو اجرا لأن الرومان اعتبروا الخدمة فى الجيش حقا على كل مواطن يتمتع بامتيازات المواطنة فيها، ومن ثم سيطر النبلاء على الجيش. ونتيجة للتطورات العسكرية التى تطلب القتال البقاء لأسابيع طويلة بعيدا عن الحدود مما جعل المعدمين لا يقـدرون على الإنفاق على أنفسهم طوال هذه الفترة لذلك أدخل نظام الرواتب Stipendium

كمقابل لتعويض الجنود ع الأسلحة والنفقات خصوصاً أثناء حصار مدينة فيي. وكانت هذه خطوة تلتها خطوات فى تكوين جيش محترف لروما(٩٢).

حصار الغال لروما: أثبتت الغزوات الغالية أن جيشاً يتكون من البطارقة الأشراف وحدهم لا يستطيع أن يفى بالأعباء العسكرية المتزايدة، لذلك زيد عدد المواطنين الرومان ممن ألقى على عاتقهم عبء الخدمة العسكرية. وبالتالى زيد عدد المشاة إلى ٤٠٠٠ مقاتل، وأعيد تنظيم المشاة بحيث أصبحوا ينتظمون فى صفوف متراصة تؤلف كتلة صلبة متلاحمة، هكذا حفزت هذه النكبة الرومان على إعادة تنظيم الجيش وزيادة قوته(٩٣).

حرب السامنيين: تعلم الرومان خلال هذه الحرب – وبعد التدريب الشاق – فنون وأساليب الحرب فى الجبال والمرتفعات، إلى جانب الإلمام بالتراث الإغريقى العسكرى الذى كان يقوم على الفيلق الإغريق. وأعادوا تقسيم الفرقة الرومانية لتحارب فى ثلاثة صفوف بثلاثة طرق وأسلحة مختلفة. كذلك كان لابد أن يتطور الفكر العسكرى بوضع استراتيجية معينة تهدف إلى محاصرة السامنيين فى الجبال وتمزيق قواتهم والسيطرة على الممرات الرئيسة وذلك بإقامة القلاع، وكان من أقوى إجراءتهم أثراً حرمان السامنيين من مراعيهم الشتوية بالاستيلاء على السهول(٩٤). وخلال هذه الحرب ايضاً زاد الرومان عدد المشاة فى الجيش، فأصبحوا يؤلفون أربع فرق عدد كل منها ٤٢٠٠ مقاتل، وفرضوا على المدن الحليفة الإسهام بعدد مماثل من المقاتلين، وبالتالى زادت قوة الجيش(٩٥).

الحرب مع بيروس ومواجهة الفيالق الإغريقية: كان الجيش الرومانى يقاتل فى تشكيل الفرق الثقيلة، كما أن جنود الرومان لم يحاربوا متلاصقين مثلما فعل جنود الفيالق. جاء. بيرهوس إلى إيطاليا بجيش من المرتزقة الإغريق يضم ٢٠،٠٠٠ جندى وهم أقدر المحترفين على القتال فى زمانهم، وعشرين من الفيلة التى لم يكن للرومان عهد بها من ذى قبل، وكان جيشه منظم على نسق الفيالق الإغريقية ذائعة الصيت(٩٦).

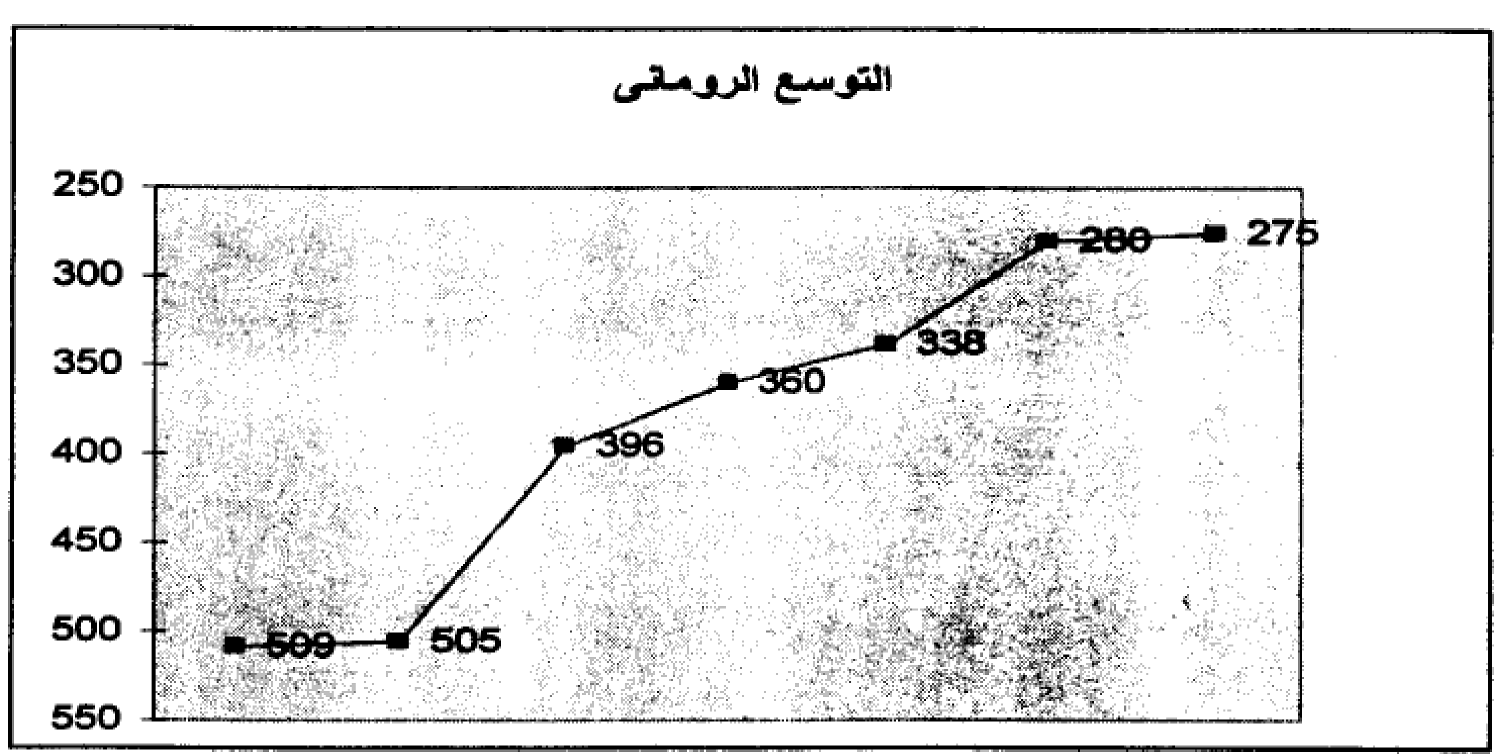
وإذا ما راجعنا قوة هذا الجيش الرومانى فى ضوء الأحوال السائدة فى إيطاليا خلال القرن الرابع ندرك أنه كان أقواها، إلى جانب كونه اكتسب العديد من

المهارات والفنون، وليس أدل على هذا من مواجهة حماس وشراسة الغال، وكذلك تكتيكات السامنين القوية المحكمة، ناهيك عن ما كان يتمتع به بيرهوس من خبرة، واحتراف جنوده وفيالقه الإغريقية. وقد نجح الجيش الرومانى فى الانتصار والتفوق عليهم جميعاً. إن الجيش الرومانى كان دائماً وتحت أى ظرف مشتبك فى قتال فى أى مكان حتى لو كان هذا القتال من نوع المناوشات الحدودية، فهل طبيعته تـدل على انه كان جيش حرب ؟ بادىء ذى بدء نقرر إن جيش الحرب عبارة عن قوة متحركة يتم تجنيد افرادها من أجل رد اعتداءات معينة،. وربما يكون أفـراد هـذه القوة ممن ليسـت لـديهم خبـرة أوعلـى قـدر ضـئيل منهـا، وجـزء مـنهم – أو غالبيتهم– يتم تسريحه بعد إنتهاء هذه الظروف الطارئه.

و استناداً لهدا التعريف وإلى ما سبق أن أوردناه عن الجيش الرومانى نقول إن جيش الجمهورية الرومانية كان جيش حرب، وهنا نجد نـوع مـن التنـاقض الظاهرى. إن روما كانت فى حرب مستمرة ومع ذلك فإن الجيش كان يتكون مـن مجندين كانوا يسرحون عندما تنتهى الأزمه. لكن بداية من عام ١٧٦ بدأت رومـا تترك فرق عسكرية لها فى أسبانيا. ولسنا فى حاجة للتأكيد على أن معظم الفـرق العسكرية التى تم تكوينها خلال الحروب الأهلية تم تسريحها مع إنتهاء هذه الحرب لزوال سبب وجودها وبالتالى فقدت مبرر اسـتمرارها[٩٧]. إن الدولـة الرومانيـة الناشئة تعرضت لعدد من المحن والإختبارات أوجبت عليها اتخاذ خطوات من أجل زيادة الجيش كماً(عدد المحاربين) وكيفاً (الكفاءة القتالية والمهـارات التكتيكيـة). نخلص هنا إلى أن زيادة عدد الجنود باطراد وإدخال تطويرات مستمرة عليه زادت من قدراته الهجومية والدفاعية وبالتالى فهو جيش حرب.

إن توسع الرومان فى شبه الجزيرة بالتدريج حتى أتموا بسط سيادتهم عليهـا يوحى بأن ذلك كان ثمرة سياسية ثابتة مرسومة قام على تنفيذها جيل بعد آخر من ساسة الرومان. لكن استعراض الأحداث ينفى هذا وهو ما دعا إليـه كثيـر مـن المؤرخين إلى نفى وجود أى فكر استعمارى لدى الرومان وأن جميع الحروب التى خاضتها روما كانت فى موقف الدفاع الصرف؛ بعبارة أخرى أى ان الرومان كانوا فى حالة رد الفعل وليس الفعل. وروجوا لفكرة أن كثيراً من الحروب التى خـاض

الرومان غمارها كانت حروباً دفاعية فى المقام الأول، وإذا كانت هذه الحروب قد أفضت إلى اتساع رقعة إقليمهم أو اتساع نطاق نفوذهم فإن ذلك لم يكن هدفاً فى حد ذاته. ولعلنا نتفق معهم فى أن هذه الفكرة تنطبق بوجه خاص على حروبهم السابقة على غزوة الغال فى عام٣٨٧، لكن بعد هذا التاريخ تنامى نفوذ الرومان وتطـــور فكرهم العسكرى إلى الدفاع من أجل التوسع(٩٨)، وهو مايوضحة الشـــكل البيـــانى التالى.



طور التوسع

ليس ممكنا أن نتناول الفكر العسكرى الرومانى خلال طـــور التوســـع دون المرور بآلية اتخاذ القرار– ونعنى قرار الحرب بالطبع– داخل السناتو الرومانى. وهذه الآلية هى جماعة الفيتاليسFetials(99). كانت جماعة الفيتاليس عبـــارة عـــن جهاز مكون من ٢٠ كاهناً، وكانوا يُختارون من الأسر النبيلة، ويخـــدمون مـــدى الحياة. وكانوا – شأنهم شأن كل الكهنة– يقدمون فقط النصيحة وليس لهم أن يتخذوا قراراً. وهم عبارة عن هيئة كهنوتية شبه سياسية مهمتها الإشراف على المراســـم الخاصة بإعلان الحرب رسميا عندما يرفض العدو تعويض الضرر والتصديق على المعاهدات بعد عقدها، كما كانت تشكل ما يشبه المحكمة العاجلة للنظر فى المسائل والمنازعات الدولية وتسليم اللاجئين السياسيين(١٠٠). ويعزى إنشاء هذه الجماعـــة

إلى أحد ملوك روما مثل نوما أو انكيوس ماركوس أو توليوس هوستيليوس، ويدعم هذا الرأى أنه عند إتمام بنود اى معاهدة كان يـــتم ذبـــح خنزيـــر بســـكين مـــن الصوان[١٠١].

لقد ارتبط أداء هذه الجماعة الكهنوتية بمجموعة من الصيغ والعبارات التى كانت تُتلى فى كل مناسبة، وهذه العبارات صيغت بشكل يربط مـــا بـــين الـــدين والسياسة بما يؤكد على حق ومشروعية أى إجراء تتخذه روما وتُظهـــر – هـــذه الصيغ – أيضاً أن روما كانت دائماً فى موقع المدافع وليس العكس. وتعليل ذلك أن القانون – فى تلك الفترة الباكرة من تاريخ الرومان – كان وثيق الصلة بالدين. وكان التصديق على مبدئيات القانون الدولى ذا شكل دينى تجرى فيه مراسم خاصة القصد منها إقناع الشعب واسترضاء وجدانه وضميره[١٠٢]. ومن أمثلة هذه العبارات مـــا يلى :

عند إعلان الحرب :

قبل إعلان الحرب كانت هيئة الفيتاليس – وهى جماعة من الخبراء – مطالبة بإجراء التحريات اللازمة لتقرير مدى إمكانية إخضاع النزاع للحل الســـلمى دون اللجوء للسلاح. وبناءً على ذلك كان الفيتاليس يرفعون تقريرهم إلى الســـناتو بمـــا وجدوه. وكيما تكون الحرب عادلة كان لابد من وجود سبب عادل، وكان إعـــلان الحرب يتم وفقاً لطقوس معينة. وكان مبعوث روما يستخدم فى طلبه الصيغة التالية مخاطبا الإله جوبيتر: (إذا طلبت أن يستسلم هؤلاء الرجال لى وكان مطلبى منافياً للدين وللعدالة إذاً فلا تدعنى أنعم بالعودة إلى وطنى ثانية)[١٠٣]. وفى حالة تقـــاعس المعتدى عن تقديم التعويض الملائم؛ يُمهل ثلاثين (او ثلاثة وثلاثين) يوماً وبعـــدها يتولى مبعوث الفيتاليس إعلان الحرب حيث لم يبق إلا استخدام القوة ضده، وكانت الصيغة المستخدمة عندئذ هى: (فلتسمح لى يا جوبيتر وأنت يا يانوس كويرنيوس، وأنتِ يا آلهة السماء جميعاً وياآلهة العالم السفلى، إنى أشهدك على أن هذا الشـــعب (وهنا يذكر اسمه) غير عادل، وانه لا يقدم تعويضاً عادلاً، لكننا نستشير كبار السن منا فى وطننا بشأن هذه الأمور لنرى السبيل إلى استخلاص حقنـــا)[١٠٤]. وعلـــى الجانب الآخر فى حالة شكوى أى من حلفاء روما من ضرر وقع بهم من جانـــب

الرومان؛ كان هؤلاء الفيتاليس يتحرون الأمر بدقة وفى حالة تأكدهم من صحة الشكوى يقبضون على المتسبب فى هذه الشكوى ويرسلونه إلى الطرف الآخر المتضرر[١٠٥].

عند عقد المعاهدات :

كانت هذه الجماعة تتولى أيضاً عقد المعاهدات فى أعقاب إنتهاء الحرب، وكان يتولى أحد أفرادها تلاوة صيغة القسم التالية: (فإذا خرق الرومان هذا الصلح مع سبق النية للشر عندهم، إذا فلتنزل ضربتك يا جوبيتر بالشعب الرومانى مثلما أضرب أنا الآن هذا(القربان)، ولتكن ضربتك له أعظم(من ضربتى) مثلما أنت أعظم فى قوتك[١٠٦]. وعند إتمام بنود المعاهدة يرسل اثنان من الفيتاليس إلى الطرف الموقعة معه المعاهدة ويتلوانها بصوت عالٍ ويعلنان أن اللعنة تقع على روما إذا كانت هى البادئة بعدم تنفيذ بنودها. وتتم الطقوس بذبح خنزير بسكين من الصوان[١٠٧]. كان عليهم ايضاً أن يراعوا أن هذه المعاهدات تتم وفقاً للتقاليد الدينية وإذا ما اكتشفوا أنها تمت خلافاً لما نصت عليه الطقوس الدينية عليهم أن يعيدوا الأمور إلى نصابها الصحيح[١٠٨].

إن دراسة جماعة الفيتاليس والطقوس التى كان افرادها يتبعونها تكشف عن عدد من الملاحظات على قدر كبير من الأهمية :

١- تكشف لنا هذه الجماعة عن روح قانون الحرب Ius belli لروما فى نشأتها الباكرة. وتوحى الطقوس التى كان يؤديها أفرادها بتكريس حالة من السلم فى العلاقات الدولية بين روما وجيرانها حيث أن الرومان لم يكونوا أبداً فى حالة هجوم، وإنما كانوا فى حالة دفاع؛ فروما لم تكن أبداً هى البادئة بالعدوان لأنه لم يكن هناك مبرر لاشتباك الرومان فى حرب إلا أن تكون هذه الحرب رداً على عمل جائر كخرق معاهدة أو غزو مباشر أو مساعدة عدو. إن روما كانت فى موقف دفاعى صرف وإنها خاضت هذه الحروب دفاعاً عن نفسها أو عن حلفائها. وهذا ما ورد بشكل أو بآخر عند بعض المفكرين الرومان مثل شيشرون حين قال :

- إن الدولة العظيمة (أوالمثالية) لاتخوض حرباً أبداً إلا من أجل الدفاع عن

شرفها وسلامتها)[١٠٩].

- وفى موضع ثان يقول (إن الحروب التى تُخاض دون استثارة هى حروب جائرة لأن حربا تحاض من أجل الانتقام أو الدفاع هى وحدها الحروب العادلة)[١١٠].
- إن الشعب الرومانى بحمايته حلفاءه قد أحرز سيادة على العالم كله[١١١].
- وفى موضع آخر يرى ان أى نزاع قابل للحل بإحدى طريقتين؛ أولاهما الحوار – و هذه طريقة الرجال– وثانيهما اللجوء للقوة وهذه وسيلة غير آدمية لكننا نلجأ إليها فى حالة عدم جدوى الحوار.و يكون العذر الوحيد هنا عدم استطاعتنا العيش فى سلام[١١٢].
- ويفرق ليفيوس[١١٣] ما بين الحرب العادلة Iusta ac pia bella المشروعة وبين ما عداها من حروب. لقد انتقلت نفس الفكرة إلى كثير من المؤرخين الذين ساقوا التبريرات على أن روما كانت دائما فى موقف الدفاع وليس الهجوم. وروجوا لفكرة مؤداها أن " التوسع الرومانى فى إيطاليا قد فرض على روما فرضاً لأن روما سيقت إلى فتح إيطاليا حماية لنفسها ولحلفائها، أو بعبارة أخرى كان الغرض الدفاعى وراء كل أعمال الفتح الرومانى فى شبه الجزيرة [١١٤].

٢– ليس هناك فقرة أو بند فى صيغ الفيتاليس توحى بإضمار الرومان للشر أو العدوان أو شىء من قبيل المجد القومى – وهى الفكرة التى نادى بها المشرع الآثينى سولون(توفى٥٥٨) – أو فكرة التفوق العنصرى التى تشبع بها الفلاسفة الإغريق وعلى رأسهم ارسطو.

٣– إن وجود هذه الجماعة يؤكد على سنة السلف mos maiorum التى كانت تعتبر أن العدوان أو الرغبة فى اكتساب الأراضى مسوغ غير كافٍ لشن الحرب. وبالتالى كانت دعامة قانون الحرب الرومانى الذى ارتكزت علية جماعة الفيتاليس هى ان حرو ب روما دائماً كانت حروباً عادلة bellum iustum .

٤– رعاية جوبتر للقسم المقدس لهذه الجماعة لأنه كان أيضاً هو الإله الحامى للقبائل المجاورة للاتيوم و هذا يعكس بلا شك المراعاة الكاملة من الطرفين

للشروط الواردة بعد القسم(١١٥).

إن كل الشواهد والملاحظات الخاصة بجماعة الفيتـاليس وقـانون الحـرب الرومانى تؤكد جميعها أن الرومان كانوا دائماً فى موقف الدفاع وأن كل هذا التوسع كان رد فعل وليس فعل، وقد أكد على هذا ايضاً الكثير من الفلاسـفة والمفكـرين الرومان وحتى المؤرخين المحدثين. ولاشك أن هذا امرٌ منطقى للغاية ولاغرابة فى ذلك لأننا ببساطة شديدة نفتقد وجهة النظر المضادة، فلم نسمع عـن أخبـار هـذا التوسع إلا من خلال الكتاب والمؤرخين الرومان أو ممن تشبعوا بالثقافة والحضارة الرومانية وليس أحد سواهم. فليس هناك أى كاتب آخـر أو مـؤرخ -مـن غيـر الرومان- من الشعوب أو القبائل التى غزتها روما وهزمتها -حـدثنا عـن هـذه المعارك والفتوحات الرومانية.

التوسع الرومانى فى المياة القرطاجية

الحـرب الـبـونـيـة

كانت هزيمة بيرهوس نقطة تحول فى التاريخ الرومانى بعد ان نجحت روما فى هزيمة عدو خارجى الذى اقتضى تجهيز جيوش روما بما يتناسب مـع حجـم وقوة هذا العدو. ويذكر بلوطرخوس أن بيرهوس حال عودتة مـن صـقلية إلـى إبيرهوس علق قائلاً "يالها من ميدان قتال مدهش نتركة للقرطاجيين والرومـان."، وقد صدق حدس بيرهوس للمرة الثانية حيث كانت صقلية هـى بـؤرة الصـراع والنزاع بين قرطاجة وروما. كانت صقلية مقسمة بين كلٍ من قرطاجة وهيـرون الثانى طاغية سيراكوزة. سيطرت قرطاجة على نصف الجزيرة وكانت ترغب فى عدم ازدياد نفوذ هيرون الثانى. ومن جهة ثانية كانت لدى هيرون رغبة قوية فـى التخلص من المامرتينى Mamertini وهم جماعة من المرتزقة الإيطاليين الـذين اطلقوا على أنفسهم ابناء الاله مارس. أما روما فقد كان وجودها فى منطقة ريجيوم على الساحل الجنوبى لإيطاليا المواجهه لصقلية أى على بعد أقل من ميلـين مـن مدينة ميسانا Messana الصقلبية سبباً مباشراً فى تورطهـا فـى المنطقـة مثـل قرطاجة وسيراكوزة، ولم يكن هناك ما يمنعها من إقامة أى معاهدات أو أحلاف فى صقلية(١١٦).

من جهة ثانية كانت روما (بعد الاتحاد الإيطالى) مطالبة بتأمين دولتها بحرياً، وتأمين مجالها الحيوى بشكل جيد من خـلال السـيطرة علـى البحار لاسـيما ان الاوضاع فى البحر التيرانى وقتئذ لم تكن فى صالح روما بعد أن استولت قرطاجة على جزيرتى كورسيكا وسردينيا، وبالتالى أصبحت هناك شبة سلسـلة قرطاجـة مضروبة على سوحل إيطاليا الجنوبية والغربية. لذلك كانت روما ملزمة بكسر هذه السلسلة إذا كانت تبغى الملاحة بحرية فى عرض البحار. وكان هذا الهـدف هـو أول تحدى فرضه قيام الدولة الايطالية المتحدة على روما. وبالتالى أصـبح مـن أولويات العمل فى الفكر العسكرى الرومانى هو مواجهة هذا التحدى بنفس الـروح المعروفة عنه. وقد ساهمت أيضاً فى تكريس هذا الواجب ظروف وتكوين إيطاليـا الجغرافية من حيث توجهها نحو الغرب(١١٧).

من هنا كان الصراع المحتوم لابد أن ينشأ لأن المعركة الآن أصبحت علـى السيادة على الحوض الغربى للبحر المتوسط بين أمتين:إحداهما أمة عجوز، صعبة المراس مكنتها اساطيلها من أن تتحكم فى منطقة أعطتها السيطرة علـى غـرب البحر المتوسط، ومن ثم فإنها استحقت لقب ملكة البحار Regina marium، فـى حين أن القوى الأخرى أمة جديدة متدفقة بالحياة والحركة ذات تصميم على النصر وليس دونه، ومتفائله بما حققته من انتصارات داخل إيطاليا. ولديها تصـميم أكيـد على أن تبنى إمبراطورية بلا حدود وتتوسع بلا حدود لأن هذا قدرها، كذلك لـديها إيمان لايتزعزع بآلهتها التى تحميها وترعاها(١١٨).

لكن ماهو سبب الحرب؟ لقد كان سبب الحرب تافه للغاية ولم يكن ليؤدى إلى الحرب لولا أن ظروف الصراع كانت كامنة بين القوتين الكبريين وكانت بحاجـة إلى حادث عارض يفجر النزاع حتى لو لم تكن إحداهما طرف فى هذا الحـادث، وذلك على الرغم من وجود عدد من الاتفاقيات والمعاهـدات بـين الجـانبين(١١٩). وتلخص هذا الحادث العارض- الذى كان مسرحه صقلية- فى قيام جماعـة مـن المغامرين الإيطاليين- المامرتينى- بالإستيلاء على مدينة ميسانا الإغريقية الواقعة شمال شرق الجزيرة ولايفصلها عن إيطاليا سوى ميلين كما ذكرنا. عندئذ هاجمهم هيرون طاغية سيراكوزة وحاصر ميسانا، هنالك استنجد المامرتينى بكلٍ من روما

وقرطاجة فى آن واحد، وقد سارعت قرطاجة لنجدتهم وأرسلت جيشـا لمواجهـة هيرون.

أما عن موقف روما- فقد كان هذا الأمر مثار جدل كبير داخـل رومـا لأن تلبية نداء المامرتينى سيقود روما بلا شك إلى الصدام مع قوة كبيرة فـى حجـم قرطاجة،ومع تسليمنا بهذه الحقيقة: نعتقد أن تدخل روما كان له هـدفاً اسـتراتيجياً على قدر كبير من الأهمية لأن الحفاظ على سلامة وأمن جنوب إيطاليا كان هـدفاً من الأهمية بما كان، لأن تدخل قرطاجة فى ميسانا سوف يمنحها فرصة التواجـد العسكرى فيها بعد طرد قوات هيرون، وبالتالى تكون على بعد مسافة يسيرة مـن إيطاليا، وهذا بلا شك سيعرض جنوب إيطاليا للخطر. من هنا نرى أن روما كانت أبعد نظراً فهاهى الفرصة تأتى لروما كى تتدخل وتفرض نفوذها ووجودها، إلا أن الأعضاء المحافظين فى السناتو أدركوا أن مثل هذه الحرب قد تكون فرصة طيبـة للقادة الجدد من الشعبين لاكتساب المزيد من الامتيازات على حسابهم، وكنتيجة لهذا سيفقدون السيطرة على الأمور داخل روما بعدما ظهر عدد مـن هـؤلاء القـادة الطموحين الذين تولوا القنصلية والذين نجحوا فى إلهاب حمـاس الشـعبين عـن طريق خطبهم الحماسية، والتى من خلالها يمكن أن يدفعوا السناتو ويورطوا الدولة فى الحرب. وبناءً على ذلك كان رفض السناتو تلبية طلب المامرتينى مسوغاً لنقل الطلب إلى الجمعية الشعبية التى اتخـذت القـرار بالموافقـة علـى تلبيـة نـداء المامرتينى.

تم إسناد القيادة إلى القنصل أبيوس كلاوديوس كاودكس Appius Claudius Caudex الذى أعلن من جانبة الحرب على قرطاجة كما قال كلٌ مـن إنيـوس وليفيوس[١٢٠]. والواضح أن عبارتى كلٍ من إنيوس وليفيوس لا تخلوان من الغمز كون إبيوس كلوديوس هذا هو صاحب تلك الخطب الحماسية التى ألهبت الحمـاس وحملت السناتو على الدخول فى الحرب.

وبالفعل وصل الجيش الرومانى إلى ميسانا وطرد القوات القرطاجية منهـا، وكان هذا الحدث بمثابة بداية لصراع مرير استمر حتى عام ١٤٦ قبـل المـيلاد، واستغرق ثلاثة أشواط.

جرى الشوط الأول فيما بين ٢٦٤ إلى ٢٤١- وعرف بالحرب البونية الأولى- وكانت صقلية الميدان الرئيسى لهذا الشوط، وقد انتهى عام ٢٤٢ بهزيمة القائد القرطاجى هاميلكار باركا (والد هانيبال) عند جزيرة إيجاتيس Aegates فى الطرف الغربى لجزيرة صقلية. على أثر هذه الهزيمة استسلم هذا القائد وطلب الصلح مع الرومان. وبالطبع ويلاً للمهزوم من شروط المنتصر فقد حرمت قرطاجة من ممتلكاتها فى صقلية التى خضعت لسيطرة الرومان، وردت كل أسرى الحرب الرومان، ثم أنها تعهدت بدفع غرامة مالية كبيرة للرومان قدرها ٣٢٠٠ تالنت (حوالى ٤ مليون دولار) على أقساط سنوية لمدة عشرين سنة[١٢١]. وتكمن أهمية هذا الانتصار فى أنه مكن الرومان من بسط سيطرتهم الفعلية على صقلية[١٢٢]، وقد كان هذا إيذاناً بوضع قدم روما على طريق الاستعمار، لكن أهم ما فى هذه الحرب - وغيرها من الحروب التى خاضتها روما - هو مقدرة الرومان على التعلم من المحن واستيعاب الدروس جيدا. أدرك الرومان أهمية امتلاك أسطول قوى يضارع أسطول قرطاجة، وقد نجح الرومان فى الاستفادة من البحارة الإغريق أبناء المستعمرات الإغريقية فى جنوب إيطاليا لبناء هذا الأسطول، بالفعل بنوا أسطولا قوياً نجح فى إلحاق هزيمة نكراء بالاسطول القرطاجى عند جزيرة ايجاتيس[١٢٣].

نظريتا المجال الحيوى والبحر المغلق :

على الرغم من عدم وجود أى إشارات لاستياء كلٍ من روما أو قرطاجة من توسيع كليهما قبل نشوب هذه الحرب؛ إلا أن طريقة وأسلوب قرطاجة كانت مجال اعتراض من جانب جيرانها، واتسم احتلالها بنزعة استغلالية وابتزازية لخدمة أهدافها التجارية فى المقام الأول وذلك لحماية مناطق نفوذها. وقد تجلى هذا فى حرصها أشد الحرص على أمرين أولهما: إغلاق موانى إمبراطوريتها فى وجه جميع التجار الأجانب؛ وثانيهما: مرور التجارة الخارجية بها حتى لو كانت المدن الفينيقية مصدرها[١٢٤].

إن عدم ظهور أى بوادر للاستياء من جانب أى طرف كان له ما يبرره خلال مرحلة ما، وتحديداً قبل وصول النفوذ الرومانى إلى جنوب إيطاليا وبالتالى أصبحت روما على مرمى البصر من صقلية التى تعتبر من الناحية الجغرافية جزء

مكمل لإيطاليا، ويفصلها عن إيطاليا خليج ميسانا الذى يبلغ عرضه ميلين فقط، وبالتالى أصبحت روما بشكل أو بآخر معنية بأمر صقلية. ومن جهة أخرى فقد توسعت قرطاجة حتى احتلت شمال إفريقيا، وجنوب أسبانيا، والشطر الغربى لجزيرة صقلية، وجزيرتى كورسيكا وسردينيا، وبالتالى ضربت شبه شبكة حول إيطاليا فى الوقت التى كانت فيه روما معنية بشكل كبير بأمن وسلامة جنوب إيطاليا الذى كان عرضة لتعديات القرطاجيين(١٢٥). من هنا نعتقد أن الحرب البونية أبرزت نموذجين للفكر العسكرى فى مواجهة بعضهما البعض،و تمثلا فى نظرية المجال الحيوى – روما– فى مواجهة نظرية البحر المغلق – قرطاجة.

كان نجاح روما فى تكوين الدولة الإيطالية المتحدة فى الداخل إيذاناً بانطلاق نظرية جديدة ومفهوم جديد للعسكرية الرومانية: نعنى نظرية المجال الحيوى. وتفسير ذلك أنّ الموقع الجغرافى جعل هناك تأثير وتأثر ما بين إيطاليا وصقلية، فكانت كل واحدة منهما تتأثر بما يجرى فى الأخرى. إن وصول روما إلى هذه النقطة وضع القوتين وجها لوجه، وبالتالى كان الصراع حتمياً لتضارب المصالح واختلاف التوجهات والنظريات.

على الجانب الآخر كانت أى نقطة تصلها الأساطيل القرطاجية تُعتبر بحراً مغلقاً لقرطاجة وذلك بفضل قوة أسطولها ومهارة بحاريها، وطالما كانت روما داخل إيطاليا، أو بعيدة عن سواحل إيطاليا الجنوبية فلم يكن هناك ثمة ما يمنع إقامة معاهدات وتحالفات بين الجانبين(١٢٦)، أما وقد زالت كل الحواجز وأخضعت روما كل إيطاليا ووصلت بنفوذها حتى السواحل الجنوبية وأشرفت على سواحل صقلية، فى الوقت الذى ضربت فيه قرطاجة سلسلة على هذه السواحل وشارفت الأساطيل القرطاجية على السواحل الجنوبية والغربية لإيطاليا وكانت تجوب البحار بحرية دون أن يعكر صفوها أى اسطول بحرى آخر. وبالتالى كانت هناك مخاوف من جانب الرومان لأن قرطاجة إذا ما استولت على ميسانا فى هذة الحالة يستطيع أسطولها القوى سد المضيق الضيق الذى لايتجاوز الميلين والذى يصل روما بمستعمراتها فى البحر الأدرياتى، بل إن قرطاجة من الممكن أن تستخدم مدينة ريجيوم(١٢٧) بنفس الطريقة. بناء على هذا أصبحت القوتان وجهاً لوجه وكان

الصدام حتماً لا مناص منه، لأن القوتين كليهما ذات قوة ونفوذ وتريد أن تفــرض سيادتها. فروما تعتبر أن الجزر المواجهه لإيطاليا - صقلية وسردينيا وكورسيكا- مكملة جغرافياً لها، كذلك أمن وسلامة إيطاليا مرهون بالســيطرة وبســط النفــوذ الرومانى على هذه الجزر. لذلك كان تدخل الرومان فى صقلية أمراً لا مناص منة لوقف نظرية البحر المغلق التى كان يطبقها القرطاجيون أينما ذهبوا،وهى ضرورة استراتيجية أملتها طبيعة الموقع الجغرافى لإيطاليا بالنسبة لحوض البحر المتوســط الغربى التى اعتبرتة مجالاً حيوياً لها، فى الوقت الذى اعتبرتة قرطاجة بحراً مغلقاً بالنسبة لها ولا يحق لأى سفن أجنبية أن تبحر فية دون إذنها لذلك كانت تغرق أى سفن تنتهك هذا الحظر(١٢٨).

وللتدليل على نظرية المجال الحيوى هذه أنه عندما حد ث فراغ سياسى فــى سردينيا -نتيجة ترك القوات القرطاجية للجزيرة- دلفت إليها القــوات الرومانيــة واحتلتها. وقد بُرر احتلال روما لجزيرة سردينيا على أن روما كانت تخشى عودة القوات القرطاجية لها مرة أخرى بعد أن تركتها فى وقــت ســابق، وكــان هــذا الانسحاب بمثابة انهاء للدعاوى القرطاجية بإحتلال الجزيرة(١٢٩). لكــن ســردينيا غرقت فى النزعات المحلية وكان وجود هذه الاضطرابات تحت الحكــم المحلــى مدعاة لتفكير قرطاجة العودة مرة أخرى لغزو الجزيرة. لذلك احتلت روما الجزيرة وخلصتها من الحرب الأهلية. إن احتلال سردينيا من قبل الرومان يكشــف كيــف اتسعت دائرة اهتمام روما فيما حولها من أراضــى الجيــران وممتلكــاتهم وذلــك بفرضية أنها تقع ضمن مجالها الحيوى. وقد اعتبر بولبيوس احتلال روما للجزيرة عملاً غير مُبرر وغير مقبول لأنه عمل طغيانى لا يخضع للمبادىء(١٣٠).

كانت شروط الصلح التى فرضها الرومان على القرطاجيين قاسية مجحفــة لدرجة أن القائد هاميلكار باركا اصطحب ابنه ذا التسعة أعوام إلى إحدى المــذابح المقدسة(محراب الرب بعل مولوخ) وأقسم على كراهية الرومان وأخذ عهد عليــه بأن يمقت الرومان حتى الموت وأن يقاتلهم حتى آخر رمق(١٣١). وقد حاول الرومان تكريس هذا المعنى حيث حاول فرجيل -من خلال الإنيادة- تأصيل هذه الكــره والمقت القرطاجى غير المبرر من خلال قصة ديدو -الملكة القرطاجية- وآينيــاس

الذى هجرها وهجر مملكتها ولم يركن إليها لأنه كان يدرك المصير الذى ينتظـرة بعد أن أرسل إليه الإله جوبيتر مبعوثا ليذكره بواجبه الذى كان عليـة أن يؤديـه ورسالته التى كان يجب أن يتمها وهى بلوغ إيطاليا حيث كُتب له فى لوح القدر أن يؤسس دولة جديدة[١٣٢]. وعلى هذا الأساس أورثت ديدو حنقها وكرهها للرومـان للأجيال التالية من القرطاجيين. وما من شك فى أن الرومان - مـن خـلال هـذا الطرح - يحاولون نفى اتهام تدخلهم فى صقلية، وهو الذى أدى إلى حـربهم مـع قرطاجة، ويصورون القرطاجيين على انهم البادئون بالعدوان بسبب هذا الكره غير المبرر لأينياس وسلالته الرومان.

أيًا كان الأمر؛ بعد الحرب الأولى لم يكن فى وسـع قرطاجـة إلا أن تسـلم بالشروط التى فرضتها عليها روما عام ٢٣٨ فيما عرف بصلح كاتولس بعـد أن هُزمت، فتركت ممتلكاتها طواعية لروما وهى متعطشة للثأر، وكان وجود القائـد هاميلكار باركا فى أسبانيا ليس إلا ليرسم خطة الثأر هذه. وقد بلغ من شدة حنق هذا القائد العظيم على روما أنه أجبر أبنه ذا التسعة أعوام- كما ذكرنا- على أن يقسـم على كراهية الرومان، وبالتالى غرس فى صدر هذا الصبى كره وعداوة الرومـان منذ نعومة أظافرة. لأجل هذا السبب حمل بعض المؤرخين سبب انـدلاع الحـرب الثانية لهانيبال متجاهلين استفزاز الرومان له وجره إلى هذه الحرب عـن طريـق مخلب القط الرومانى أعنى مدينة ساجنتوم الأسبانية. والحق إن بوليبيـوس يعتبـر ظهور القائد هاميلكار باركا سبب الحرب الثانية مع أنة مات قبل أن تبدأ، ذلك لأنة نقل ميدان المعركة إلى أسبانيا ليتخذها كقاعدة لشن الحرب ضد إيطاليا[١٣٣]، ويرسم فيها خطة الثأر من روما، وقد تمكن خليفتاه هاسدروبال ثم هانيبال فى بسط النفوذ القرطاجى على ثلثى الجزيرة الأيبرية لذلك سعت روما لوقف هذا التوسع وأبرمت اتفاقية مع قرطاجة فى عام ٢٢٦ حددت نهر الأيبـر Ebro حـدا نهائيـا للنفـوذ القرطاجى. ويذكر أن هذه المعاهدة اطلقت يد قرطاجة فى جنوب هذا النهـر.وقـد نجحت قرطاجة -بمقتضى هذه الاتفاقية - فى تحويل جنوب أسبانيا إلى جزء مـن الإمبراطورية القرطاجية خصوصاً بعد تأسيس أسبانيا الجديدة[١٣٤]. ويعتقد البعض أن الرومان كانت لديهم النية لجر القرطاجيين للحرب وذلك لأنهـم اغفلـوا ذكـر ساجنتوم فى هذه الاتفاقية حتى تكون الذريعة التى يتدخلوا بها فى أسبانيا[١٣٥].

من جهة ثانية واجهت روما متاعب من خطر القراصنة فى البحر الأدرياتى لذلك اتخذت بعض الإجراءات لمواجهة هذا الخطر بعدما لاقت مساعدة صادقة ومخلصة من الإغريق، فأنشأت قاعدة خاصة بها فى إبيروس، وجعلتها على اتصال دبلوماسى وثيق بمقدونيا وبلاد اليونان لمواجهة خطر القراصنة الأليريين، ومن هنا بدأت علاقات حميمة بين الرومان والإغريق خصوصاً عصبتى أيتوليا وآخايا ومدينتى كورنثة وأثينا. وقد ترتب على قيام هذه العلاقات إثارة سخط مقدونيا التى كانت تعتبر نفسها صاحبة حقوق ليس فقط على إغريق البلقان، بل على شبه جزيرة البلقان بوجه عام. وقد نجحت روما فى حماية مضيق أوترانتو الذى كان يعتبر الطريق الرئيسى للمواصلات بين إيطاليا وبلاد الإغريق[١٣٦].

وعلى الجبهة الشمالية عاد الغال يدقون نواقيس الخطر مرة أخرى بعد ما يقرب من المائة عام من ترويع الرومان واحتلال روما ذاتها. وقد شجعهم هانيبال حين أقام معهم علاقات دبلوماسية عبر البرانس، لذلك وجدت روما نفسها مضطرة لتجريد جيش جرار للقيام بعدة حملات ناجحة انتهت إلى اختزال أرض الغال إلى ولاية رومانية، إلى جانب زرع بعض المستعمرات مثل بلاكنتيا وكريمونا وموديناو التى نشأت عنها مدن لمبارديا الحديثة. إن توسع الرومان شمالاً كان توسعاً أملته اعتبارات استرتيجية وضرورات ملحة تمثلت فى ضرورة أن يصل الرومان بحدودهم إلى حد طبيعى أعنى جبال الألب، وهو حد آمن بدرجة كبيرة[١٣٧].

كانت مدينة ساجنتوم إحدى المدن الأسبانية القليلة التى تمتعت باستقلال ذاتى، وعندما هاجمها هانيبال استنجدت بروما، وكان هذا كفيلاً بإشعال نيران الحرب بين روما وقرطاجة مرة أخرى. لقد كان الصراع كامناً وبحاجة ماسة إلى حدث ولو لم يكن على قدر من الإهمية، وكان الصراع هذه المرة مروعاً للغاية وعلى قدر كبير من الإهمية للجانبين، تُرى ماهو مبعث هذه الأهمية ؟

بالنسبة لقرطاجة كانت متعطشة للثأر من الرومان واسترداد ما سلبة الرومان منهم من أراضى، وللتأكيد على أن ما حدث خلال الشوط الأول من الحرب ماهو إلا كبوة وتستطيع قرطاجة بأساطيلها القوية التى تجوب البحار أن تؤكد على نظرية البحر المغلق على أساطيلها بالطبع. وكى تثبت أن إمبراطوريتهم لم تزل

قوية فتية لم يتسرب إليها الضعف والوهن.

أما بالنسة للرومان كانت إمبراطورية ناشئة منطلقة استطاعت ابتلاع إيطاليا كلها ثم إنها ألحقت هزيمة قاسية بالقرطاجيين وتريد أن تؤكد أن ما حدث من هزيمة وإملاء شروطها على القرطاجيين لم يكن حادثاً عارضاً، ولم يكن ليثبت ضعف ووهن قرطاجة بقدر ما يثبت قوة روما. كذلك ترغب فى تأكيد سيادتها على حوض البحر المتوسط الغربى الذى تعد قرطاجة أكبر قوة فيه.

و كان الحدث الذى حرك المياه الراكدة هو حصار هانيبال لمدينة ساجنتوم١٣٨ التى استنجدت بالرومان، وكان هذا بمثابة الحدث الذى كان ينتظره الجانبان للعودة من جديد للقتال. فقد أرسل السناتو الرومانى سفارة للاحتجاج على اجتياح هانيبال للمدينة وطلب معاقبة هانيبال.

ركز ابيان على السلوك المتغطرس المستفز الذى اتبعه سفير روما حين فتح عباءته قائلا لهم إننى أحمل فى هذا الشق السلام وفى ذاك الحرب فاختاروا ما تشاءون، فأجاب القرطاجيون أعطتنا ما شئت فلن نعبأ فقال سأعطيكم الحرب فصاح الجميع فى تحدى وكبرياء ونحن قبلنا. هكذا من خلال هذا المشهد الاستفزازى أعلنت روما الحرب على قرطاجة، وقبلت قرطاجة فى تحد وكبرياء[١٣٩].

هكذا بدأت المرحلة الثانية من الحرب البونية والذى استمر سبعة عشر عاماً(٢١٨-٢٠٢) وشهد أشرس وأعنف قتال بين خصمين عنيدين كلاً منهما كان يعلم أن من ينتصر فى هذه الحرب ستكون له السيادة على الحوض الغربى للبحر المتوسط.

كانت شخصية هانيبال هى الشخصية المحورية خلال هذه الحرب، فقد كان قائداً فذاً وأستاذاً فى فن الخطط الحربية. استطاع هانيبال أن يضع خطة ليس فقط ليطوق ممتلكات روما فى الجزر التى استولت عليها من قرطاجة ولكن ايضاً لكى يقهر روما فى عقر دارها عن طريق دق أبواب روما من شمال إيطاليا. ومما لاشك فيه أن هذا الفكر كان على جانب كبير من المخاطرة والمجازفة المحسوبة من جانب قائد فى حجم هانيبال. تلخصت خطتة فى الزحف براً عبر جبال البرانس

والألب، والانقضاض على شمال إيطاليا، وهناك سيجد المعاونة الصادقة من الغال الذين كانوا يكرهون الرومان ويتحينون الفرصة للانتقام منهم، ويستمر في زحفه حتى أبوليا في الجنوب ليقطع خطوط المواصلات الرومانية، ويضم حلفاء روما الناقمين عليها الذين سوف يشجعهم انتصاره في الشمال على الانتفاض لاسترداد استقلالهم، ومن إحدى الموانى الإغريقية(مثل ريجيوم أو لوكرى) سيتمكن من الاتصال بقرطاجة. كانت هذه الخطة رائعة من الناحية النظرية لأنها لو سارت بنفس الترتيب، ولو صحت توقعاته لقضى على روما قضاءً مبرماً ولكن كانت هناك بعض الاعتبارات التى سقطت من حسابات هانيبال أو لم يقدرها حق التقدير ومنها:

- الخسائر التى قد يتكبدها من جراء عبور جبال البرانس ونهر الرون وجبال الألب من المال والعتاد والجنود والفيلة المدربة، ولن يستطيع تعويض كل هذا من الغال.

- اعتقاده أن الإيطاليين سوف ينضمون إليه لسحق روما من شدة كراهيتهم لها، لكنه فوجىء أن الإيطاليين لم يفتر ولاؤهم نحو روما التى رأوا فيها الزعيمة الطبيعية لهم، وذلك بسبب نجاح روما فى صهر الإيطاليين وربطهم بها. من هذا المنطلق كان بقاء حلفاء روما على ولائهم لها العامل الحاسم في إفشال خطة هانيبال.

- الخطة البارعة التى وُضعت لمواجهته ومحاصرته داخل إيطاليا تسببت في قطع الإمدادات عنه سواء من أسبانيا أو من قرطاجة، لذلك لم تصل اليه إلا إمدادات يسيرة بلغتة بعد فوات الآوان.كذلك نجح الأسطول الرومانى فى قطع الإتصال بينه وبين قرطاجة(١٤٠).

- قوة وصلابة الرومان فى الدفاع عن مدينتهم التى كانت محصنة. لقد كان القضاء على روما لا يتحقق إلا بالاستيلاء على روما ذاتها وهنا كان مكمن خطورة المغامرة التى أقدم عليها هانيبال لأن احتلال روما كان يتطلب معدات عسكرية معينة والتى لم تكن متوفرة مع هانيبال[١٤١].

على هذا بدأت المرحلة الثانية من الحرب البونية حين قاد هانيبال جيشة عبر البرانس ثم جبال الألب في جهد ومشقة إلى إيطاليا، ومع ذلك ألحق بالرومان هزيمة عند نهر تربيا Trebia عام ٢١٨ وبذلك نجح هانيبال في إفقاد روما لسيطرتها على سهل البو. ثم عبر هانيبال جبال الأبنين من ناحية الغرب حيث إقليم اتروريا وهناك اباد جيشاً رومانياً عند بحيرة تراسيميني Trasimene عام ٢١٧. ولم تكن هذه مجرد معركة انتصر فيها هانيبال على الرومان بل كانت مذبحة ترتب عليها أن الطريق أصبح مفتوحا إلى روما، وبدلا من أن يواصل زحفه إلى روما نفسها سار موازيا للساحل الشرقي لإيطاليا حتى وصل إلى إقليم أبوليا الذي اتخذه كقاعدة له حتى نهاية الحرب. وقد أعمل هانيبال التخريب في الحقول والمزروعات وقتل القطعان، ونهب القرى وكان هدفه الأساسي هو فرض صلح مُهين على الرومان. أزعجت هذه الأنباء السناتو الذي عُرف عنه رباطة الجأش والتماسك وقت المحنة، لأنه كان يتكون من رجال ذوي خبرة عركتهم الحياة وعلمتهم عدم الاستسلام للهزيمة ولو للحظة واحدة، ولديهم من الخبرة ما يمكنهم من تجاوز هذه المحنة وطرد هانيبال خارج إيطاليا. ومما لا شك فيه أن موقف الحلفاء من روما وعدم انحيازهم لهانيبال كان عاملاً مؤثراً خلال هذه المحنة. وقد كان على السناتو اتخاذ إجراءً سريعاً، وتمثل هذا الإجراء في تعيين دكتاتور – حسبما يقضي القانون الروماني وقت الأزمات – . ووقع الاختيار على أحد القواد العسكريين وهو كوينتوس فابيوس ماكسيموس Quintus Fabius Maximus الذي وضع خطة عسكرية في غاية البراعة سارت في اتجاهين؛ أولهما إنهاك قوى هانيبال واستنزافه قبل ملاقاته في معركة مباشرة؛ أي استنزاف وتبديد مقدرات العدو وإرهاق جنوده ومعداته؛ وثانيهما عزل هانيبال داخل إيطاليا وذلك بقطع أي إمدادات محتملة قد تصل إليه من أسبانيا.

لقد قدم هذا الرجل خطط مفيدة للغاية للعسكرية الحديثة على الرغم من الفارق الزمني. كانت خطتة التي استعملها لمواجهة هانيبال من أهم الأسباب التي عجلت بهزيمة هانيبال؛ ولاتزال مجدية حتى مع هذا التقدم الهائل في الوسائل والمعدات العسكرية. بل إن اللغة الإنجليزية لا تزال تحتفظ بتعبير Fabian

tactics ومعناه التكتيكات الفبيوسية، وتطلق على الخطة العسكرية التـى تتجنـب الدخول فى معركة سريعة فاصلة وترك العدو حتى يستنفذ الجانـب الأكبـر مـن طاقاته١٤٢. وقد هاجم الرومان هذه الخطة فى وقتها ووصفوا فابيوس بالمتباطىء Cunctator، ولم يدر فى مخيلتهم أن فابيوس هذا كان مـن أعظـم العبقريـات العسكرية الرومانية، وأن فلسفة التباطؤ العسكرى وبناء القوة العسكرية ليست فـى الحقيقة إلا هجوماً مؤجلا ولاتقل أهمية عن فلسفة الهجوم والاكتسـاح. إن خطـة فابيوس أنقذت الجمهورية أو كما قال الشاعر إنيوس Ennius أن فـابيوس أنقـذ الجمهورية بتباطئة(١٤٣).

الحق إن الرومان لم يدركوا قيمة هذا التكتيك العسكرى الباهر فى حينه لذلك تم تنحية فابيوس، واختير بدلاً منه قنصلان لإكمال الحرب ضـد هانيبـال وهمـا إيميليوس بـاولوس Aemilius Paulus وجـايوس تيرنتيـوس فـارو Caius Terentius Varro . وقد نجح القنصلان فى تكوين جيش كبير قوامه ثمانون الف رجل وتحرك هذا الجيش لملاقاة جيش هانيبال فى إقليم أبوليا وتحديداً قرب مدينـة كناى Cannae عام٢١٦ق.م١٤٤. وقد كان هذا العدد الضخم للجيش الرومانى مدعاة لتملك الغرور من المشاة الرومان الذين ارتكبوا خطأ فادحاً عندما اندفعوا إلى قلـب التشكيل القرطاجي بهدف إلحاق ضربة قاضية بالجيش القرطاجي، وإجبار القـوات القرطاجية على الفرار تجاة نهر اوفيدوس Aufidus المحـيط بمدينـة كنـاى، وبالتالى يُحاصر الجيش القرطاجي ما بين البحر والقوات الرومانية. كانـت هـذه الفكرة فى جوهرها فكرة تكتيكية جيدة إلا أن استجابة قائد الجيش المحاصر افشلت هذه الفكرة برغم جودتها. ان فكر هانيبال الخصب حول هذا الحصار إلـى شـرك للرومان حيث إنه طبق نفس التكتيك الذى استخدمه عند بحيرة تراسيمينوس فراوغ الجيش الرومانى ودار حوله ؛ عندئذ وجد الجيش الرومانى نفسه فى مصيدة. وهذا مؤشر خطير على عدم إفادة الرومان من حربهم السابقة مع هانيبال مما يعنى تشتت الفكر العسكرى الرومانى وإفلاسه وعجزه عن مواجهة هانيبال وبالتالى لم يبلغ هذا الفكر مرحلة النضوج التكتيكي. وكنتيجة لهذا دارت عند كناى واحدة مـن أعنـف المعارك التى عرفها التاريخ، وكانت مذبحة هائلة للرومان هلك فيها عدد كبير من

رجال السناتو ونبلاء الرومان، فى حين لم تبلـــغ خســـائر هانيبـــال خمســـة الآف رجل١٤٥. وكعادة الرومان مع كل محنة توهموا أن سلام الآلهة Pax deorum لم يعد قائماً، وأن الآلهة قد تخلت عنهم لذلك انتابهم هلع شديد، والحق ان هانيبـــال – بهزيمة كناى– ضاعف من أحزان الرومان. أصبح الطريق مفتوحاً إلى روما، وقد أستأذنه أحد مساعدية فى التوجه إلى روما واعداً إياه ان يجعلها تجثو على ركبتيها، وأن يجعل هانيبال يشرب نخب النصر فيها بعد خمسة أيام فقط، لكن هانيبال كقائد عسكرى كبير واسع الأفق رفض هذا، فصرخ هذا المساعد فى وجهه معبراً عـــن سخطه قائلاً (إنك تعرف ياهانيبال كيف تحرز نصراً، ولكنك لاتعرف كيف تستخدم مثل هذا النصر)[١٤٦]، فهل حقاً كان الفكر العسكرى لهانيبال عاجز عـــن اســـتثمار النصر الذى يحققه؟ يبدو للوهلة الأولى أن الأمر كذلك حيث إن هانيبال بعد معركة تراسيمينوس لم يتجة مباشرة إلى روما ولكن اتجه شرقاً باتجاه أبوليا وهاهو الأمر يتكرر بعد كناى. إن تصرف هانيبال فى كلتا الحالتين يدعونا –للوهلة الأولى– إلى التسليم بكون هانيبال محارب ومقاتل قدير إلا أنه يعجز فى كل مرة عن استثمار ما حقق من إنتصار. وعلى النقيض يبدو أن هانيبـــال كـــان أكثـــر إدراكـــاً لجـــدوى انتصاراته حين رفض السير باتجاه روما فى الحالتين لأنه كان يدرك عواقب مثـــل تلك المخاطرة وذلك بسبب وعورة الطريق إلى روما إلى جانب سيطرة حلفاء روما –الذين ظلوا على ولائهم لروما فى ظل هذه المحنة القاسية– على جانبيـــه وهـــذا يجعل رجاله صيداً ثميناً للكمائن، كذلك كان هانيبال خبيراً بنفسية وعقلية الرومـــان لأنهم لن يستسلموا ولن تتوقف مقاومتهم. على هذا الأساس كان هانيبال محقاً فـــى عدم الزحف نحو روما ولم يكن عاجزاً عن استثمار نصره كما وصفه أحد مساعديه قصير النظر.

وقد صدق حدس هانيبال فالرومان لا تلين لهم قناة ولـــم يركنـــوا للهزيمـــة، وأعدوا جيوشاً لم تعرف روما مثلها عدداً ولا عدة. وكان هناك جـــو مـــن الثقـــة والتفاؤل؛ وكان مبعث هذا التفاؤل عاملان؛ أولهما: إعلان المدن الإيطالية ولائهـــا التام للوقوف فى وجه هانيبال ومساندة روما حتى النهاية، فى حين أن ثانيهما تمثل فى ظهور شخصية فذة وعبقرية عسكرية رومانية . وهذا القائد الرومانى الشـــهير هو بوبليوس كونيليوس سكيبيو Puplius Cornilius Scipio الذى انتقل الفكـــر

العسكرى الرومانى على يديه نقلة كبيرة. فكر هذا القائد فى نقل ميدان المعركة من إيطاليا إلى شمال إفريقيا بحيث إنه يفرض القتال على القرطاجيين فى عقر دارهم كما فعل هانيبال. وهذه الخطة كانت بلا شك تنطوى على قدر كبير من الخطورة بسبب وجود هانيبال على أرض إيطاليا - اى فى عقر دار الرومان- علاوة على أنه كبد الرومان عدة هزائم ؛ فكيف ينتقل الجيش الرومانى من أرضه ووسط حلفائه إلى أرض العدو، وهذا العدو ألحق بهم هزائم وهو بعيد عن أرضه، فما بالنا وهو يقاتل على أرضه. من ناحية أخرى كان لهذه الخطة ايضا جوانب إيجابية؛ أهمها انسحاب هانيبال من إيطاليا والعودة إلى شمال إفريقيا وهذا بلا شك ينطوى على قدر كبير من العناء والصعوبة الكبيرة وستؤثر بلا شك على قدرة جنودة القتالية إلى جانب عددهم. كذلك إلهاب حماس الجنود الرومان وهم يقاتلون العدو فى عقر داره لأن هذا العدو روعهم وعمق من جراحهم بتكبيدهم عدد من الهزائم، فضلا عما ألحق بهم من أضراراً وخسائر إقتصادية. إلى جانب تحولهم من موقف الدفاع إلى الهجوم بعكس هانيبال الذى سيضطر إلى سحب قواته ويتحول من الهجوم إلى الدفاع. على أية حال اتسمت خطوة سكيبيو بالجرأة والمغامرة. وقد لاقت هذه الخطة معارضة شديدة من جانب الرومان إلا ان سكيبيو نجح فى انتزاع الموافقة من السناتو وبالفعل أبحر سكيبيو بحملته العظيمة على الأراضى الإفريقية، ولم يجد القرطاجيين بد من استدعاء هانيبال إلى قرطاجة ليقود الحرب ضد سكيبيو على التراب الإفريقى. هكذا قُدر لهانيبال العودة إلى إفريقيا بعد خمسة عشر عاماً قضاها فى إيطاليا، عاد ليواجه آخر دور له فى هذا الصراع المحموم، وعندما وصل وجد جيشاً رومانياً بقيادة سكيبيو فى انتظاره. فى خريف ٢٠٢ و فى زاما Zama - على مشارف قرطاجة- التقى قائدان من أعظم قواد عصرهما وجها لوجه، وبعد معركة طاحنة لقى القائد المحنك هانيبال هزيمة ألغت كل روائع انتصاراته السابقة على يد منافسه الشاب سكيبيو الذى حمل لقب افريكانوس Africanus أى قاهر الأفارقة دلالة على تحقيقه النصر الحاسم والنهائى على قرطاجة والتخلص من إسطورة هانيبال الرهيب[١٤٧].

لقد كانت هذه الحرب كماذكرنا صراعاً حتى الرمق الأخير من أجل البقاء، والبقاء هنا للأصلح من كل الوجوه حسبما تقضى بذلك القوانين الطبيعية؛ الأصلح

بدنياً وإستراتيجيا وتكتيكيا وهو ما انطبق على الرومان الذين لقوا في البداية عــدد من الهزائم التي كانت كفيلة بالقضاء على روما. لكن الرومان بما عُرف عنهم من صفات صمدوا رغم كل النكبات حتى النهاية واستطاعوا تحقيق النصر على عدوهم في عقر داره بعد أن هاجمهم في أراضيهم وروعهم. وكانت شروط الصــلح – أو إن شئنا الدقة شروط إذعان قرطاجة لقوة روما هي دفع غرامــة باهظــة لرومــا، وبالطبع تنازلها طواعية عن كل قوتها البحرية لصالح روما. وكانت أخطر شروط الصلح هو تخلي قرطاجةعن كل ممتلكاتها خارج إفريقيا، بــل قبلــت أن يــزرع الرومان على حدودها في إفريقيا مملكة عميلة- مملكة نوميديا تحت حكم ماسينسيا- تكون بمثابة المراقب لها لحساب الرومان بالطبع. وكانت هذ المملكة العميلة مخلب القط الذى مكن الرومان في النهاية-عام ١٤٦- من تحطيم قرطاجة نهائياً ومحوها تحقيقاً لدعوى السياسي المخضرم أبيوس كلوديوس الذى ما كان يمل مــن تكــرار عبارته الشهيرة " لابد من تحطيم قرطاجة delenda est Carthago". وأصــبحت قرطاجة أثراً بعد عين وتم تحويلها إلى ولاية رومانية. ثم قامت روما بإنزال أشد العقاب بمملكة سيراكوزة لأنها ثارت على الرومان أثناء حرب هانيبال ممــا كــان ينذر بضعف واضح في صفوف الرومان. لذلك تم قمع هذه الثورة وصادرت روما الذهب والفضة الموجودة في سيراكوزة. وقد برر بوليبيوس هذا العمل على أنه كان من المستحيل على الرومان وهم يرغبون في سيادة العالم ألآ يضعفوا مصادر قــوة وثروة أعدائهم في الوقت الذى يدعمون فيه أنفســهم أكثــر وأكثــر(١٤٨). وكانــت قرطاجة-كما ذكرنا- قد تنازلت على غرب صقلية ضمن شروط اتفاق الصلح بين الطرفين عام ٢٣٨، وحولتة روما إلى أول ولاية رومانية، ولــم تلبــث رومــا أن أدمجت مملكة سيراكوزة وبالتالي ضمت صقلية كاملة. كذلك استولت روما علــى سردينيا وكورسيكا وأدمجتهما في ولاية واحدة عام٢٢٧. لقد فتح انتصار روما على هانيبال الطريق على مصراعيه أمام روما كي تغزو العالم. وقد صــدق بوليبيــوس حينما أدرك أن إرسال الرومان قواتهم إلى إفريقيا بقيادة سكيبيو لن تمكن الرومــان من بسط سيادتهم على إفريقيا فقط بل على بقية العالم(١٤٩).

و مما لا شك فيه أن الخطة الذكية التي وضعها الرومان لمواجهــة هانيبــال كانت أهم العوامل في تحقيق النصر على هانيبال، وقد كان لهذه الخطة ثلاثة أهداف

هى :

- الهدف الرئيسى منها حصار هانيبال داخل إيطاليا عن طريقين؛ أولهما تمثل فى قطع خط الرجعة عليه إلى افريقيا. وجاء تحقيق هذا الهدف من خلال اسـتيلاء روما على جزيرة صقلية التى كانت بمثابة جسراً بالغ الأهمية بـين إيطاليـا وافريقيا، أى بين هانيبال وقرطاجة. ثم تبع ذلك استيلاء الرومان على عدد من المدن الصغرى فى سامنيوم وأبوليا، وكللت روما انتصاراتها باسترداد المدينـة الكبرى تارنتوم. هكذا كان استيلاء الرومان على عدد من المواقع الاستراتيجية إلى جانب قطع اتصال هانيبال بالغال، وتضييق الخناق على القوات القرطاجية فى أبوليا وحلفاء هانيبال اللوكانى والبروتيى- الأثر الكبير فى تـأزم موقـف هانيبال فى إيطاليا ولم يعد أمامة إلا وصول الإمدادات القادمة من أسبانيا وهذا ما تنبه إليه الرومان. وبالتالى هذا يقودنا إلى الطريق الثانى الذى تمثل فى قطع الإمدادات القادمة إليه من أسبانيا لاسيما أن هانيبال علم أن أخاه هاسدروبال نجح فى الوصول إلى شمال إيطاليا بجيش كبير وقد نجح أيضاً فى ضم قوات كبيرة إليه من الغال. من هنا ركز الرومان جهودهم فى عدم بلوغ هاسدروبال بجيشه إلى هانيبال لأن هذا يمثل دعماً معنوياً وعسكرياً لاحدود لـه لهانيبـال، وفـى الاتجاه المعاكس يقلل من فرص محاصرة هانيبال داخل إيطاليا. لـذلك أرسـل الرومان جيشين بقيادة القنصلين من أجل هذا الغرض وبالفعل نجحا الجيشان فى هزيمة جيش هاسدروبال على ضفاف نهر متاروس، وقد لقى هسدروبال نفسة مصرعه عام ٢٠٧. وكان لهذا النصر أثره الكبير على الرومان الذين اعتقدوا أن هذا النصر أول خطوة على طريق تحقيق روما لنصر نهائى على عـدوها اللدود هانيبال الذى علم بمصرع أخيه بطريقة مفجعة عندما ألقى رسول رومـا رأس هسدوربال داخل معسكره(١٥٠).
- تفويت فرصة التحالف بين هانيبال وفيليب الخامس ملك مقدونيا لذلك تحالفـت روما مع الأيتولين عام ٢١٢ وما لبثت روما أن عقـدت صـلحا مـع فيليـب المقدونى نفسه بعد انتهاء الحرب المقدونية الأولى فـى ٢٠٥. وهكـذا فـوت الرومان فرصة اتفاق هانيبال وفيليب ضدهم.
- تنفيذ خطة مهاجمة قرطاجة فى عقر دارها وذلك بنقل ميـدان المعركـة إلـى

إفريقيا التى اقترحها القنصل الجرىء كورنيليوس سكيبيو، وعلى مشارف زاما دارت رحى واحدة من أعنف المعارك التى شهدها التاريخ بين قائدين من أعظم قواد عصرهما،إلا ان القائد المحنك هانيبال تجرع مرارة الهزيمة على يد منافسه الشاب سكيبيو.

وعلى الرغم من ميول روما الاستعمارية ورغبتها الواضحة فى تكوين الإمبراطورية فقد امتلكت جهاز دعاية جباراً حول حربها ضد هانيبال على أنها حرب عادلة Bellum Iustum. وقد حمل المؤرخون الرومان (مثل لفيوس وابيان وبولبيوس) المسئولية على عاتق هانيبال الذى عبر الألب وهاجم روما فى عقر دارها، فقد كان يحمل فى صدره حقداً دفيناً على الرومان زرعه فى قلبه ابوه – وهو ابن التسعة أعوام– بعد أن هزمه الرومان خلال المرحلة الأولى من الحرب، بل إن روما تدخلت لوقف اعتداءات هانيبال على مدينة حليفه–ساجنتوم– لروما، ومع ذلك لم يرتدع هانيبال واحتلها عام ٢١٩ وبالتالى كان على روما التدخل وفقاً لبنود التحالف بينها وبين هذه المدينة التى طلبت تدخل روما لحمايتها من هانيبال. وهكذا كانت روما فى موقف المدافع ولم تبدأ بالهجوم، بل إن هانيبال هو الذى خرق الاتفاق الموقع مع روما عام ٢٢٦ وعبر نهر الأيبرو Ebero –الذى كان حدا فاصلاً– واحتل ساجنتوم. ويعتقد بولبيوس أن هانيبال كان يرغب فى ترتيب حكومتة وإعداد جيشه للطريق الطويل الذى كان يبدأ بغلق الميناء فى وجه السفن الرومانية وحصار حلفائها، لذلك حاصر ساجنتوم[١٥١].

على الجانب الآخر لايمكن إعفاء الرومان من تحمل المسئولية عن هذه الحرب حيث إنها–حسبما يعتقد - Hallward[152]– نهجت أسلوب التوسع والاستعمار وتجلى هذا فى أمرين كانا فى غاية الحساسية؛ أولهما: الاستيلاء على سردينيا؛ وثانيهما: تدخلها فى أسبانيا بطريقة استفزت الوجود القرطاجى هناك، وافقدً القرطاجيين هدوئهم، كما أن روما نجحت فى تحريض مستوطنة ماسيليا Massilia – مستوطنة إغريقية انشأتها مدينة فوكايا عند مصب الرون– التى راحت تتوسع تجاريا وتنافس التجار القرطاجيين الذين كانوا يحتكرون التجارة فى شبه الجزيرة الأيبرية[١٥٣].

و يعتقد البعض أن الإمبراطورتين كان من الممكن ان يعيشا جنباً إلى جنب لو أن كلا منهما احترمت مناطق نفوذ الأخرى؛ مع إحترامنا لوجهة النظر هذه؛ إلا ان هذا الأمر كان غير قابل للتطبيق لأن الصدام كان لا مناص منه وذلك بحكم القوانين الطبيعية لأن الصدام من شيم القوى الكبرى لأن كل واحدة من القوتين لديها الطموح للتوسع وبسط النفوذ.

لقد كان لحرب هانيبال نتائج بعيدة المدى؛ فقد كانت هذه الحرب بداية الطريق نحو الإمبراطورية الرومانية فى الخارج والثورة الاجتماعية فى الداخل. أصبحت صقلية وسردينيا وأسبانيا ولايات رومانية وذاقت روما لذة تكوين ولايات خارج إيطاليا، وتفتحت شهية الرومان للمزيد والمزيد من الممتلكات بعد أن تحولت روما إلى سيدة حوض البحر المتوسط الغربى بلا منازع. وكانت عليها أن تولى وجهها شطر الحوض الشرقى للبحر المتوسط حيث الممالك الهلينستية التى تمخضت على أثر تقسيم تركة الأسكندر الأكبر بعد وفاته بين قواده. هذا إلى جانب بعض الممالك الصغيرة الموجودة فى الشرق. وقد أفلحت روما فى ابتلاع الواحدة بعد الأخرى وكان مسك الختام احتلال الرومان لمصر عام ٣٠ وقد عُدّ اليوم الذى سقطت فيه مصر عيداً فى روما حيث اكتملت فيه منظومة الفتوحات الرومانية وأصبح الرومان القطب الأوحد فى العالم المسكون حينذاك، وتحول البحر المتوسط إلى بحيرة داخلية بالنسبة للرومان.

لقد جسدت كل هذه الحروب -التى خاضتها روما من أجل سيادة العالم- سياسة روما الاستعمارية، وتمخض عنها نتيجة غاية فى الأهمية: وهى أن هذه الحروب دشنت عهداً جديداً فى أوربا. فقد أضحى هناك توحد فى التاريخ القديم وأصبحت روما منه بمثابة المركز، ولم ينتهى هذا العهد إلا حينما انشطرت الإمبراطورية إلى شطرين. وهذا الرأى الذى عبر عنه بوضوح شديد بوليبيوس الذى عاش حتى رأى روما سيدة غرب البحر المتوسط بلا منازع[١٥٤]. لقد نجحت روما بفضل فكرها العسكرى المتجدد والمتطور أن تصبح الحصن الأصيل للتقاليد العسكرية التى أثبتت فعاليتها وأخذت بها كل النظم العسكرية فى العالم بدءاً من تقسيم الجنود إلى مجموعات تبدأ من عشرة وتنتهى بألف، ولكل وحدة قائد يطيعه

أعضاء المجموعة ويطيع هو رئيس المجموعة الأعلـــى، ثـــم تسـليحهم بالســـيف القصير، والدروع والخوذات والرماح، وتخصيص رتـــب وألقـــاب لـــرئيس كـــل مجموعة ثم وضع خطط الزحف التى تحرك هذه المجموعات كلها وطرق القتـــال الخ... كما يدخل فيها زى الجندى وما يكلف به من مهام خلال الحرب والسلم، وقد كانت هذه هى أدوات الفكر العسكرى الرومانى فى رحلته لغـــزو العـــالم وتنفيـــذ السياسة الثابتة المرسومة غير المعلنة والتى قام على تنفيذها جيل بعد آخـــر مـــن ساسة الرومان حتى تم لهم إحتلال مصر؛ وكان هذا مسك الختام.

الحواشي :

* كل التوارخ الواردة هنا تعود إلى قبل الميلاد إلا إذا قورنت بما يفيد عكس ذلك.

١- لم يظهر اسم البحر المتوسط mare mediterraneum إلا فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى عندما استخدمة سولينوس Solinus . رايس ٢٠٠٥،ص٢١.

٢- جمال حمدان١٩٩٩،ص٢٢.

3- Tenney Frank, Roman Imperialism, New York; 1929.pp130ff.(hereafter Frank 1929).

٤- ورث ١٩٩٩، ص٣٩.

5 VI, 51-53: tu regere imperio populos, Romane, memento (hae tibi erunt artes), pacisque imponere morem, parcere subiectis et debellare superbos.

٦- فاروق حافظ القاضى؛ روما وسقوط الممالك الهلينستية فى شرق البحر المتوسط، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٦٥(=القاضى ١٩٦٥).

٧- القاضى ١٩٩٧، ص ص ٤١-٤٢.

٨- عبد اللطيف على ١٩٧٤، ص ١٣٣.

٩- القاضى١٩٩٧،ص ٧٠.

١٠- هناك نقش (ILS 4913) يعود للقرن السادس قبل الميلاد ذكرت فية بوضوح كلمة "ملك Rex، وهذا النقش عبارة عن جزء من قانون دينى و هذا النقش عرف باسم عمود من الحجر الأسود Lapis niger وسمى كذلك لأنه عُثر علية تحت رصيف من الرخام الأسود المجلوب من منطقة فيبى. و يعود هذا النقش إلى اواخر القرن السادس قبل الميلاد كما توحى بذلك طريقة نقش الحروف التى تشابة نقش اتروسكى يعود لنفس التاريخ. نصحى ١٩٨٣، ص٨٤؛ MacKendrick 1976,p74ff . كذلك ذكر تاكيتوس ان الملوك حكموا روما(Annales I,1:Urbem Romam a principio reges habuere)،الى جانب بقاء كلمة ملك(rex) فى لقب ملك القرابين rex Sacrorum الذى اطلق على احد الكهنة خلال العصر الجمهورى. Boak &Sinnigen 1965,p43

11- Eutropius I, 1-20; Flor.I,1.

12- Livy.I, 57-60.

13- Cicero, De Rep.II, 52.

14- Flor. I,4.

15- Dionysius, .Hal., 95,6.1-3.

16 القانون الخاص او المدنىius civile اشتمل على ثلاث حقوق هى:

١.حق الزواج(conubium,ius connubii) بمعنى انه اصبح فى وسع اى مواطن من اى مدينة لاتينية(بما فى ذلك روما) عقد زواج شرعى منتج لجميع الآثار القانونية للزواج بما فى ذلك نشوء السلطة الابوية و القرابة و الميراث و النفقة و الوصاية. و قد كان هذا الحق مقصـــورا على طبقة الاشراف دون طبقة العامة. ثم منح هذا الحق لافراد طبقة العامة بمقتضى قانون كانوليوس Lex Canuleia الذى صدر فى عام ٤٤٥ و قضى بإباحة التزاوج بين طبقتى العامة و الاشراف.

٢.حق التعامل(commercium,ius commercii) الذى يخول طاحبه ان يملك و يملـــك و ان يصير دائنا او مدينا بكافة انواع التصرفات الشرعية ، و بالتالى اصبح فى وسع اى مـــواطن من اى مدينة لاتينية(بما فى ذلك روما) ان يبيع و يشترى و يمتلك فى اى مدينة اخرى وهو مطمئن الى حماية قانون تلك المدينة لما يبرمه من عقود.

٣.حق التقاضى(legis acio) اى حق استعمال طرق المرافعات المقررة فى القانون المدنى. بدر و البدراوى ١٩٥٦، ١٩٦.

١٧- ددلى ١٩٧٩، ص٣٤.

١٨- عبد اللطيف ص١٣٥ ومابعدها.

١٩- لقد حاولت الاساطير الرومانية ان تقارن بين هذه المدينة وبين حصار الإغريق الإسطورى لطروادة ، فقد ادعت ان حصار فيبى استمر عشر سنوات مثل حصار طروادة ، وكذلك كانت هناك بطولات خارقة للرومان مثل بطولات أخيليس وغيره من القادة من الاغريق ، كـــذلك هناك حيلة مثل حيلة حصان طروادة ، و نسبوا هذه البطـــولات إلـــى الجنـــرال الرومـــانى كاميللوس Comillus الذى لجأ إلى حيلة ذكية لدخول فيبى. قام بحفر نفقـــا تحـــت الأرض ووصل الى داخل المدينة المحاصرة، وطبقا لخطته توقف الحفر تحت قلعة المدينة الرئيسية. . وتوقف كاميللوس ليستمع وينصت لتراتيم كهنة الأتروسكيين فى المعبد وهم يذبحون الأضاحى قربانا لألهتهم، وسمع أحد الكهنه يروى لزعماء الأتروسكيين ان من يكمل الشـــعائر الدينيـــة سيكون النصر حليفة، هنالك أندفع كاميللوس إلى المعبد و أكمل الشعائر الدينية ثـــم و اصـــل إندفاعة إلى الطريق العام و فتح بوابات المدينة ليتدفق الجيش. الناصـــرى ١٩٨٢ ، ص ص ٨٣-٨٤.

20- Diod., XIV,16,43,102; Frank 1929, pp 20-21.

21- Frank1929,pp22-23.

22- Boak &Sinnigen 1965,p51; نصحى١٩٨٣،ص ص ١١٧-١١٨.

23- http://php.iupui.edu/~kcutler/388rdg06.html

٢٤- الناصرى ١٩٨٢، ص ص٨٨-٨٦.

٢٥- القاضى ١٩٦٥، ص١١٩.

26- MacKendrick 1976,p 87ff .

٢٧- الناصرى ١٩٨٢ ، ص ٨٩.

28- MacKendrick 1976, p88.

29- Frank 1929 p46.

30- Livy,VIII,23.9.

31- Livy,VIII,1-5; Kagan 1986, pp60-62.

٣٢- القانون الفتيالى نسبة إلى أحدى جماعات الكهنة المعروفة باسم الفيتاليسس واهتمت وسيأتى ذكرها لاحقاً.

٣٣- القاضى ١٩٦٥ ، ص١٢٠ وما بعدها .

٣٤- عبد اللطيف ١٩٧٤، ص ١٤٥.

35- Livy VIII,11-14 ; Kagan 1986, pp 65-67; Frank 1929,p 34 ff.

٣٦- الناصرى ١٩٨٢، ص ١١٨.

37- Frank 1929, p46.

38- Livy, IX,2-6; Salmon 1922, p12ff; Frank 1929, p48ff; Oxf.Class.Dic.s.v. Caudine Forks.

لقد كانت شجاعة هذين القنصلين مثار إعجاب الكثيرين نتجة لوفائهما بالعهد و قبولهما العودة إلى قائد السامنين الذى قتلهما، والغريب أنهما-برغم علمهما بذلك- قبلا العودة لذلك أعتبرهما أحد الكتاب الكلاسيكيين من الرجال المشاهير و البنائين لمجد روما. LIBER DE VIRIS ILLUSTRIBVS URBIS ROMAE (Electronic Source), 30-31.

39- Didorus XIX,10; Frank p 49.

٤٠- كان جايوس فلامينوس نقيباً للعامة عام ٢٣٢ وهو اول سياسى قبل آل جراكوس يعلن تحدية السافر للسناتو. و قد اتسمت الصورة التى رسمها كثير من المؤرخين الرومان بقدر كبير من التحامل عليه و عدم الموضوعية خصوصاً فابيوس بكتور الذى رسم له صورة عدائية و كذلك ليفيوس و بوليبوس و كل المصادر التى استقت معلوماتها من ليفيوس. Oxf.Class.Dic.,sv.Flaminius (1).

41- Frank 1929, pp 115-116.

42- Walbank JRS1963, p 6.

43- Frank 1929, p51ff.

44- Oxf.Class.Dic.,sv. Tarentum.

٤٥- نصحى١٩٨٣، ص ص ١٣٢-١٣٣.

46- Oxf. Class.Dic., sv., Thurii.

47- Frank 1929,p61 ff;عبد اللطيف ١٩٧٤،ص١٥٢ و مابعدها

٤٨- ذكر بوليبوس(I, 6.5) تفاصيل حادثة إهانة سفراء روما من جانب تارنتم.

٤٩- عن هذا القائد و حياته انظر : عزه سليم؛ بيرهوس ملك إبيروس، حوليات كليـــة الآداب- جامعة عين شمس(٣٠) يناير- مارس ٢٠٠٢، ص ص ٢١٣-٢٥٨.

٥٠- نصحى ١٩٨٣، ص١٣٣.

٥١- ددلى ١٩٧٩،ص٤١.

٥٢- عبـــد اللطيـــف ١٩٧٤،ص ص ١٥٤-١٥٥. ;Appian,Rom.His III,frag.,10
Lewis&Reinhold,pp86-871

53- Poly. III,25,1-2.

54- Flor.I, 13.

55- Frank CAH1928, pp 658-662.

56- Eutropius II, 15: C. Fabio Licinio C. Claudio Canina consulibus anno urbis conditae quadringentesimo sexagesimo primo legati Alexandrini a Ptolomaeo missi Romam venere et a Romanis amicitiam, quam petierant, obtinuerunt.; Dionysius Hall., Ant.Rom XX,14.1-2; Dio Cass., X. 41; Neatby, TAPA 1950,pp 92-97;عبد اللطيف على ١٩٩٣، ص ٣

٥٧- القاضى ١٩٦٥ ص ص ١٢٨-١٢٩.

٥٨- الناصرى ١٩٨٢، ص ١٢٦.

59- NH, XXXIV.32.

٦٠- يعتقد تاكيتوس (Ann.XIV,21.) ان روما كانت علي علاقة ودية مع مدينة ثـــوري قبـــل غزو اللوكاني كما وبالتالي فأمر التحالف مع ثوري كان في وقت سابق قبل تهديد اللوكـــانى لها، لكن هذا الرأى لايلقى قبولا. Frank 1929,pp64-65.

61- Greenidge 1901, pp289-310; Badian 1958,pp 15-24;Kagan 1986, pp69-92.

62- Scullard 1961, p130ff=Kagan 1986, pp88-89.

٦٣- نصحى ١٩٨٣، ص ص ١٤٣-١٤٤.

٦٤- عبد اللطيف ١٩٧٤، ص١٥٧.

٦٥- نصحى ١٩٨٣،ص١٤٤.

٦٦- تولى الكنسورية عام ٣١٢ ثم تدرج فى الوظائف الاعلى فتــولى القنصــلية عــامى ٣٠٧ و ٢٩٦، و البرايتورية عام ٢٩٥ . حارب ابيوس كلوديوس فى جبهات متعددة مثل اتروريا و كمبانيا و سامنيوم ثم قاد حملة المعارضة للصلح المهين الذى حاول بيرهوس فرضه علـــى الرومان بعد إنتصارة فى هيراكليا، ايضا كان له دور بارز فى الصمود لتجاوز هذه المحنة و تحقيق نصر نهائى على بيرهوس.Oxf.Class.Dic.,sv., Claudius Caecus

67 LIBER DE VIRIS ILLUSTRIBVS URBIS ROMAE 34:1 Appius Claudius Caecus in censura libertinos quoque in senatum legit. Epulandi cantandique ius tibicinibus in publico ademit. 2 [Duae familiae ad Herculis sacra sunt destinatae, Potitiorum et Pinariorum.] Potitios Herculis sacerdotes pretio corrupit, ut sacra Herculea servos publicos edocerent: unde caecatus est, gens Potitiorum funditus periit. 3 Ne consulatus cum plebeiis communicaretur, acerrime restitit. 4 Ne Fabius solus ad bellum mitteretur, contradixit. 5 Sabinos, Samnitas, Etruscos bello domuit. 6 Viam usque Brundisium lapide stravit, unde illa Appia dicitur. 7 Aquam Anienem in urbem induxit. 8 Censuram solus omnium quinquennio obtinuit. 9 Cum de pace Pyrrhi ageretur et gratia potentum per legatum Cineam pretio quaereretur, senex et caecus lectica in senatum latus turpissimas condiciones magnifica oratione discussit; Boak&Sinnigen1965,pp83f; الناصرى١٩٨٢، ص١٠٩

٦٨- ورث ١٩٩٩، ص ص٢١، 41 &٩٤ .

٦٩- عبد اللطيف ١٩٧٤، ص٨٣.

٧٠- عبد اللطيف ١٩٨٨، ص ٣٦..

٧١- نصحى ١٩٨٣، ص١٤٥.

72 –Greenidge 1901, p290=Kagan 1986,p70. سنعود لاحقـا للحـديث عنهم بشيء من التفصيل

73 –Kagan 1986, p 90.

٧٤- الناصرى ١٩٨٢، ص ص ١١٩-١٢٠.

75- Oxf.Class.Dic.,sv.,Narnia; Frank 1929,,p58,no 17

76- Oxf.Class.Dic.,sv., Fregellae.

77- Frank 1929,p54; Dion. Hal. Ant. Rom. XVII, 5.

٧٨- نصحى ١٩٨٣، ص ص١٤٦-١٤٧.

٧٩- جمال حمدان١٩٩٩،ص٢١.

٨٠- نصحى١٩٨٣،ص ١٤٦.

81- Strabo, 6. 283

82- Oxf.Class.Dic.,sv., via Appia

83- Oxf.Class.Dic.,sv.,Flaminius (1)& Via Flamina.

٨٤- ددلى ١٩٧٩، ص ص٥١-٥٢.

٨٥- نصحى ١٩٨٣،ص ١٤٦.

٨٦- نصحى ١٩٨٣، ص١٥٩.

٨٧- لكن الأقرب إلى الواقع أن هذا النظام يعود لمنتصف القرن الخامس قبل الميلاد لأن روما خاضت خلال هذا القرن حروباً متصلة ضد القبائل التى كانت لاتفتأ تقاتلها من الجبال الشمالية وبالتلى كانت بحاجة ماسة إلى تطوير جيشها و نظمها. ددلى ١٩٧٩،ص٥٢.

٨٨- الناصرى ١٩٨٢،ص ص٨٠-٨١.؛ ددلى ١٩٨٣، ص٥٢.

٨٩- القاضى ١٩٧٩، ص ٩٥؛ الناصرى ١٩٨٢، ص١٠٧.

٩٠- الناصرى ١٩٨٢، ص٨٢.

٩١- ددلى ١٩٨٣،ص ص ٥٤-٥٥.

٩٢- الناصرى ١٩٨٢،ص ص٨٠-٨٢ .

٩٣- القاضى ١٩٩٧،ص ٧٤؛ نصحى ١٩٨٣، ص١٥٩.

٩٤- ددلى ١٩٨٣، ص٤٠.

٩٥- نصحى ١٩٨٣، ص ص ١٢٧-١٢٨.

٩٦- ددلى ١٩٨٣، ص٤١ ؛ الناصرى ١٩٨٢، ص١٢٦ .

97- Dobson 1993, pp 113ff.

٩٨- نصحى ١٩٨٢،ص ص ١٤٧ -١٤٨.

٩٩- إن كلمة Fetials مشتقة من الفعل fari بمعنى يتحدث او يتفاوض . و كان اوكتافيانوس عضو هذه الجماعة عام ٣٢ و بهذه الصفة اشهر الحرب على كليوباترا عدوة الشعب الرومانى.

Res Gestae 7: Pontifex maximus, augur, XV virum sacris faciundis, VII virum epulonum, frater arvalis, sodalis Titius, fetialis fui; Frank,p12,no 20

عبد اللطيف على ١٩٧٤،ص ٢٠٥.. و جريا على مبادىء هؤلاء الفيتاليس ذكر انه لم يشن حربا ضد اى من الشعوب دون وجه حق Res Gestae 26: nulli genti bello per

iniuriam inlato — بعبارة اخرى كانت حروبه عادله.

100- Cicero,De Legibus II,9,22; Oxf.Class.Dic.,sv. fetials; Lewis & Reinhold 1990, p501;Frank 1929, p8.

101- Frank 1929, p9.

١٠٢- القاضى١٩٦٥ ص ١١٥

103 Livy I,32.7: Si ego iniuste impieque illos homines illasque res dedier mihi exposco, tum patriae compotem me nunquam siris esse. القاضى ١٩٦٥، ص ١١٥.

104- Livy I,32.7: Audi, Iuppiter, et tu, Iane Quirine, dique omnes caelestes, vosque terrestres vosque inferni, audite; ego vos testor populum illum"—quicumque est, nominat—"iniustum esse neque ius persoluere; sed de istis rebus in patria maiores natu consulemus, quo pacto ius nostrum adipiscamur.

105 Dion Hall. Roman Antiq II,LXXII,4, Lewis& Reinhold 1990, p144.

106 Livy I,24.8-9: si prior defexit publico consilio dolo malo, tum tu ille Diespiter populum Romanum sic ferito ut ego hunc porcum hic hodie feriam; tantoque magis ferito quanto magis potes pollesque.

107- Frank 1929,p9.

108- Dion Hall,Roman Anti II,LXXII,5, Lewis & Reinhold1990, p144 f.

109- De Rep. III, 23, 35: Nullum bellum suscipi a civitate optima nisi aut pro salute.

110 De Rep. III, 23,35: illa iniusta bella sunt,quae sunt sine causa suscepto, nam extra ulcescendi aut propulsandorum hostium causam bellum geri iustum nullum potest.

111- Cicero III, 23, 35: Noster autem populus sociis defendendis terram iam omnium potitus est.

112- Cicero,Duties I ,9.35. Liwis&Reinhold 1990, p 499

113- Livy XLII,47

١١٤- القاضى ١٩٦٥ ص ص ١١٥-١١٧.

115- Frank 1929,p9

١١٦- ومصداقا لهذا فقد ذكر كاسيوس ديون ان روما عقدت إتفاقية صداقة مع هيرون و ذلك ردا على مساعدة قرطاجة لتارنتومDio ..Frank p88-89 ؛ Cass., XI. 43,1

١١٧- القاضى الرومان ص ١٢٥.

118- Boak&Sinnigen 1965,p104.

119- PolyIII,21-4.

120- Ennius,Ed.Vah.223:*Appius indixit Karthaginiensibus bellum.*;Livy,XXXI,1: *App.Claudium consulem qui primum bellum Carthaginiensibus intulit* ;Oxf.Class.Dic., **Claudius Caudex, Appius;** Boak&Sinnigen 1965,p105; Frank; p 91ff.

121 Poly.,Histories I.LXII.3-4; Flor. I,18; نصحى ١٩٨٣،ص٢٦٠

١٢٢- و قد فرضت روما نفوذها على مدن صقلية و ادارتها بنفس نظامها السابق، بل إنها حافظت على نفس و ضعها القانونى السابق ايضا Cicero, ad Varro,III.12-14

١٢٣- الناصرى ١٩٨٢،ص ١٤١.

١٢٤- نصحى ١٩٨٣،ص ٢٤٦.

125- Frank 1929, pp90ff

126- Poly., III,22-26; Beaumont JRS 1939,pp74-86

١٢٧- لعل هذا هو سبب طلب ريجيوم لحامية رومانية عام ٢٨٢ راجع: Poly. I,7.

١٢٨- و قد كانت قرطاجة تغرق اى سفن أجنبية تبحر فى مياها المغلقة mare clausum أنظر: Frank 1929,pp 90-91.

129- Poly I, 79,1-3.

130- Poly I, 79,1-3 & III.28;Frank 113,ff

131- Livy., XXI..5-7; also see Dio Cassius VIII,21-22

132- Aeneid IV,249-298.

١٣٣- الناصرى ١٩٨٢،ص ١٤٢.

١٣٤- يعتقد بولبيوس (Poly II,13.7) ان هذه المعاهدة لم تحدد الوضع فى أسبانيا، وعلى النقيض يذكر ليفيوس (Livy XXI,2.7) انها امنت صراحة إستقلال ساجنتوم.

١٣٥- نصحى١٩٨٣، ص ٢٧٠.

136- Flor.I,21.

137- Flor.I,20; ٢٦٥-٢٦٣ دنلى ١٩٧٩، ص ص ٦٦-٦٨ ؛ نصحى١٩٨٣،ص ص .

١٣٨- حاول ليفيوس و أبيان .Liv.,XXI,2,7&Appian.,the Spanish wars VI,7 تحميل هانيبال مسئولية الحرب بدعوى أنه نقض إتفاقية ٢٢٦ بعبـــورة نهـــر الايبـــر و إحتلالـــه ساجنتوم، و هم لا يعلمون أن المدينة تقع على بعد مئات الأميال جنوب هذا النهـــر Frank 1929,p123

139- Appian, The Spanish wars, VI. 6-13; Kagan 1986, pp112-114.

١٤٠- عبد اللطيف ١٩٨٨،ص ٢٠٠.

١٤١- نصحي ١٩٨٣،ص ص ٢٧٣-٢٧٥ .

١٤٢- القاضي ١٩٩٧،ص ١٣٧.

143- Ennius IX, 307: Unus homo nobis cunctando restituit rem.

144- Eutrop., III,10.

145- Livy XXV,12.5&22.44.& Poly,III,113.

١٤٦- الناصري ١٩٨٢، ص ١٥٠ ومابعدها.

١٤٧- ددلي١٩٧٩،ص ٧٦ .

148- Poly IX,10.9;Walbank JRS1963,p6.

149- Poly XV, 10.2; Walbank JRS1963, p9.

١٥٠- نصحي ١٩٨٣، ص٢٨٢ ومايليها.

151- Kagan 1986,pp 116-117

152- CAH VIII 1930, pp25-32(= Kagan 1986, pp119-123).

١٥٣- الناصري ١٩٨٢، ص ١٥٩ومابعدها.

154- Hallward CAH VIII 1930, p 25 (=Kagan 1986,p 119)

مصادر ومراجع البحث

المصادر الأدبية

Appian, Roman History
III, frag., 10.
The Spanish wars,
VI. 6-13
Cicero, De Republica
II, 52
III 23, 35
Duties I, 9.35.
De Legibus II,9,22.
Ad Varro,III.12-14
Dio Cassius,
VIII,21-22
X. 41
XI. 43
Diodorus Siculus; Koinai Historiai,
XIV,16,43,102
XIX,10
Dionysius Halicarnassius, Antiquitates Romanae
VC,6.1-3
XX,14.1-2
II,LXXII,4
II,LXXII,5
Ennius, Ed.Vah.223
Fragmenta IX, 307
Eutropius, Breviarium ab urbe Condita I, 1-20; II, 15; III,10

Florus, Epitome Bellorum Omnium Annorum DCC.
I,1, 4,13,,18,20&21
The so called: LIBER DE VIRIS ILLUSTRIBVS URBIS ROMAE(Electronic Source),
30-31&34
Livius, ab urbe condita
I, 24.8-9; 32.7;57-60.
VIII,1-5; 11-14; 23.9.
IX,2-6;
XV,12.5&22.44.
XXI,2.7; 5-7
XLII,47.
Pliny (The Elder), Naturalis Historia(NH), XXXIV.32
Polybius,Histories,
I, 6.5;7; 62.3-4; 79,1-3.
II,13.7
III 21-4; 22-26; 25,1-2; 28;113.

IX,10.9;.
XV, 10.2;
Tacitus, Annales, I,1
XIV,21
Strabo, Geography
VI. 283
.Vergil, Aeneid
IV,249-298 ; VI, 51-53

النقوش

Res Gestae Divi Augusti, 7 & 26

القواميس :

The Oxford Classical Dictionary,3rd ed, By Simon Hornblower and nthony Spawforth, Oxford university Press 2000.

المراجع الأجنبية :

Boak &Sinnigen 1965	Boak(Arthur E.R.) &Sinnigen(William G.) A History of Rome to A.D.565,5th ed., New Yrok &London1965.
Badian 1958	Badian (E.); Foreign Clientelate 264-70 B.C, Clarendon 1958.
Dobson 1993	Dobson (Brian); The Roman Army: peace time or wartime army? pp 113-128 in Breeze &Dobson; Roman Officiers and the frontiers, Stuttgart 1993.
Frank CAH 1928	Tenney Frank; Pyrrhus, CAH VII, Cambridge 1928, pp658-662.
Frank 1929	Tenney Frank, Roman Imperialism, New York; 1929.
Greenidge 1901	Greenidge (A.H.J.); Roman public life, London 1901, pp289-310.
Kagan 1986	Kagan(Donald); problems in Ancient History, Vol II, The Roman History, New York 1986.
Hallward CAH VIII 1930	Hallward (B.L.), Hanniball's Invasion of Italy; CAH VIII 1930,pp25-32.
Lewis & Reinhold1990	Lewis (Naphtali) & Reinhold(Meyer); Roman Civilization, Selected Readings vol I The Republic and the Augustian Age, New York 1990.
MacKendrick1976	MacKendrick (Paul); The mute stones speak, The story of Archaeology in Italy, New York & London1976
Neatby TAPA 1950	Neatby (A.C); Romano –Egyptian Relations during the Third Century B.C, TAPA 81, 1950.
Scullard 1961	Scullard (H.H.); A History of Roman World from 753-146 B.C, 3rd ed., London 1961.
Scullard JRS 1960	Scullard (H.H.); Scipio Aemilianus and Roman politics, JRS 50, 1960, pp59-74.
Walbank JRS1963	Walbank (F.W); Polybius and Rome's Eastern policy, JRS LIII, 1963, pp 1-13.

The Aeneid — Virgil, The Aeneid, translated into English verse by E.Fairfax Taylor, Everyman's Library 161, and London 1950.

المراجع العربية أو المعربة :

ددلى١٩٧٩ — دونالد.ر.ددلى؛حضارة روما؛ترجمة جميل يواقيم الذهبى وفاروق فريد، راجعة محمد صقر خفاجة، القاهرة ١٩٧٩.

رايس٢٠٠٥ — إ.إ.رايس ؛البحر والتاريخ؛ترجمة عاطف أحمد، العدد ٣١٤ إبريل ٢٠٠٥، سلسلة عالم المعرفة– الكويت.

عبد اللطيف على ١٩٧٤ — عبد اللطيف أحمد على؛ التاريخ الرومانى (من تأسيس المدينة حتى بداية الثورة)، بيروت ١٩٧٤.

عبد اللطيف على ١٩٨٨ — التاريخ الرومانى عصر الثورة القاهرة ١٩٨٨.

عبد اللطيف على ١٩٩٣ — مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، القاهرة ١٩٩٣.

القاضى ١٩٦٥ — فاروق حافظ القاضى؛ روما وسقوط الممالك الهلينستية فى شرق البحر المتوسط، رسالة ماجستير غير منشورة، كـلـية الآدآب جامعة عين شمس ١٩٦٥.

القاضى ١٩٩٧ — فاروق حافظ القاضى؛ التاريخ الرومانى منذ تأسيس المدينة حتى عام ١٣٣ق.م، القاهرة ١٩٩٧.

الناصرى ١٩٨٢ — سيد احمد على الناصرى؛ تاريخ وحضارة الرومان من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية، القاهرة ١٩٨٢

نصحى ١٩٨٣ — . إبراهيم نصحى؛ تاريخ الرومان منذ اقدم العصور حتى عام ١٣٣ ق.م، الجزء الأول، القاهرة١٩٨٣

ورث ١٩٩٩ — تشارلز ورث؛ الإمبراطورية الرومانية؛ترجمة فوزى عبدة جرجس ومحمد صقر خفاجة، مكتبة الأسرة سلسلة الأعمال الفكرية، القاهرة ١٩٩٩

القديس " أنطونيوس "

رائد نظام الرهبانية ٢٥١ - ٣٥٦م

علم من أعلام بني سويف (*)

أ.د. ليلى عبدالجواد إسماعيل
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
قسم التاريخ ــ آداب القاهرة

جاء في لسان العرب لابن منظور : ترهب الرجل إذا صار راهبًا يخشى الله، والراهب المتعبد في الصومعة، ومصدره الرهبانية، والجمع رهبان ورهبانيون[١]. وذكر ابن الأثير في غريب الحديث : الرهبانية منسوبة إلى الرهبنة بزيادة الألف، وهي رهبنة النصارى وأصلها من الرهبة أي الخوف[٢].

وجاء في التنزيل العزيز : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ ﴾[٣]، وفي الحديث الشريف : [لا رهبانية في الإسلام]، وقوله صلى الله عليه وسلم : [وعليكم بالجهاد فإنه رهبانية أمتي][٤].

يعد " يوسابيوس " القيصري أول كاتب كنسي تحدث عن النساك والرهبان في كتاب " تاريخ الكنيسة "[٥]. وفي تأملاته وانطباعاته وتعليقه على المزامير وهو تعليق يبدو أنه كتبه في أوائل العقد الأخير في حياته الذي بدأ عام ٣٣٠م. ففي تأملاته حول الترجمات اليونانية للمزمور ٧/٦٧ ذكر أن أحد هذه الترجمات يستخدم كلمة ɥovαxoi للتعبير على الرهبان ويعتبرهم " الصف الأول الذين ينعمون بالمسيح، وأنهم قلة نادرة "؛ وفي ترجمة أخرى يطلق عليهم ɥovoyEvEis بمعنى أنهم هم وحدهم دون سواهم الذين أنجبوا، وتم تشبيههم بابن الرب الذي أنجبه دون سواه. وفي ترجمة ثالثة وهي الترجمة السبعينية للتوراة تصفهم بأنهم " من يلتزمون بطريق واحد ... وهم الذين يسيرون في طريق مستقيم

يؤدي إلى الفضيلة ". وفي رواية رابعة يوصفون بأنهم " وحدهم الـذين يحـيطهم نطاق، وأنهم يحيون حياة منعزلة وطاهرة[٦].. ويقصد بيحيطهم نطاق أنهم وحدهم الذين يشدون الأحزمة حول أوساطهم، وهي أحزمة خاوية لا مال فيها عمـلاً بمـا جاء في إنجيل متى " ولا تقتنوا ذهبًا ولا فضة ولا نحاسًا في مناطقكم "[٧].

ويلاحظ من هذه الترجمات أنها تتفق في أن هـؤلاء النسـاك أو الرهبـان تجمعهم صفة واحدة هي التفرد والوحدة فهم متفردون في الألم والمعاناة، في القدرة على الحياة الخشنة المتقشفة، في أتباع سبيل واحد يؤدي بهم إلى ذروة الفضيلة ولا يجعل السبل تتفرق بهم، في العزلة والبعد عن الدنيا ومباهجها وزخرفها[٨].

قدم " يوسابيوس " وصفا مفصلاً لحياة هؤلاء الرهبان والنساك وأمثلة لهم في كتابه " تاريخ الكنيسة " فتحت عنوان " وصف فيلو لنساك مصر "[٩]. ذكـر أنهـم يعبدون الله ويخدمونه بطهارة وإخلاص، وأنهم تركـوا ممتلكـاتهم، ونبـذوا كـل اهتمامات الحياة، وخرجوا من المدن، وقطنوا الحقول والحـدائق مقتـدين بسـيرة الأنبياء عملاً بما جاء في سفر أعمال الرسل : " كان الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل ... توزع على كل واحد يكون له احتياج "[١٠].

ورسم " يوسابيوس " صورة لبعض النساك في القرن الثالث الميلادي تنطبق تمامًا على أي راهب في القرن الرابع الميلادي حينما تحدث عن حيـاة العلامـة " أوريجين "[١١]. الذي باع كتب الآداب القديمة الثمينة التي كان يمتلكها ... وابتعـد عن كل الرغبات والملذات الشبابية، وكان يتحمل الكثير من التدريب طول النهار، ويقضي معظم الليل في دراسة الأسفار الإلهية، وكان يكبح جماح نفسه على قـدر استطاعته بالحياة الفلسفية (أي النسكية) الصارمة، أحيانًا بالصوم، وأحيانًا بالإقلال من النوم، ولم ينم على فراش قط، بل كان ينام على الأرض. ويتابع " يوسابيوس " فيذكر، أنه ذهب في الفقر إلى أقصى حدوده، حتى أذهل كل من حوله .. امتنع عن شرب الخمر سنوات طويلة، وكذلك عن كل شيء غير الطعام الضروري، وبتقديمه لهذه الأدلة عن الحياة النسكية، حرص الكثيرون من تلاميذه على الإقتداء به[١٢].

تحدث " يوسابيوس " كذلك عن ناسك آخر هو " نركيسوس " أسقف كنيسة أورشليم[١٣]. الذي ظل يعيش عيشة تقشفية زمنًا طويلاً فقد هرب ــ كما يروي " يوسابيوس " ــ من جسم الكنيسة وخبأ نفسه في برية وأماكن خفية، لبث فيها سنوات طويلة؛ وعاش حياة الفضيلة والعفة والتقوى[١٤].

جملة القول أن الرهبانية هي أن يترك الفرد الدنيا بما فيها من متاع ومباهج، ويعيش عيشة الزاهد والتقشف، وينقطع للعبادة والصلاة والتأمل تقربًا إلى الله تعالى.

والحقيقة أن فكرة العزلة والانقطاع بغرض العبادة فكرة مصرية قديمة عرفها المصريون قبل ظهور المسيحية، ففي القرن الثاني قبل الميلاد، كان معبد السيرابيوم في ممفيس ملئ بالخلوات والزوايا التي خصصت لعدد كبير من الأتقياء الذين فضلوا العزلة عن المجتمع الصاخب، ووهبوا أنفسهم لخدمة الإله سرابيس وتأدية فروض العبادة له، وكان أهل القرى يقدمون لهم من الزاد ما يقيمون به أودهم، وأطلق على هؤلاء طائفة (المنقطعين Katochoi) وقد استخدموا مصطلح الأب والأخ مثلما فعل الرهبان فيما بعد، ولكن هؤلاء لم يهجروا العالم تمامًا بل كانوا على صلة به إذ كانوا يرجعون إليه بعد قضاء عدة سنوات في السيرابيوم[١٥].

مارس اليهود كذلك حياة العزلة والانقطاع لغرض ديني، إذ وجد في ضواحي الإسكندرية، وحول بحيرة مريوط جماعة من اليهود، عرفوا باسم Therapeuate أي " المتأملين في الإلهيات "، تركوا كل ما يملكون من متاع الدنيا، انقطعوا للعبادة، ويصف الفيلسوف اليهودي " فيلو Felo " نظام حياتهم في مؤلفه الذي أسماه " في حياة التأمل "، بقوله : " أنهم يبدأون بالصلاة من الفجر، ثم يقضون سحابة يومهم في التأمل في التوراة، ثم يختمون بالصلاة عند المساء، عرف عنهم مداومة الصوم، لا يذوقون الخمر على الإطلاق ولا اللحم، بل الماء شرابهم الوحيد، وأطايبهم مع الخبز الملح والأعشاب ... يجتمعون أيام السبوت للعبادة معًا داخل معبد عام، يقع وسط منازلهم وأكواخهم ... "[١٦].

وما لبثت فكرة العزلة والانقطاع بغرض العبادة أن ارتدت ثوب الرهبانية مع دخول المسيحية أرض مصر حتى قيل أن القديس مرقس هو الذي علمها لمسيحي

مصر، إذ أنه بث روح الفضيلة بطهره وعفافه في قلوب كثير من المصريين، لذلك اعتزلوا العالم ولجئوا إلى الكهوف والمغاوير يسبحون الخالق ويتغنون بـذكره[١٧]. هذا فضلاً عن أن بذور حياة الزهد والتقشف والأعراض عن متاع الـدنيا كانـت موجودة في أصول المسيحية الأولى يظهر ذلك من خلال قولة القديس " بـولس " ـ أحد تلاميذ السيد المسيح ـ " من زُوج فحسنًا يفعل ومن لا يُزوج يفعل أحسـن "[١٨]. ومن ثم فهو يحث على حياة العزوبية والبتولية، التي تعد ركنًـا هامًـا مـن أركان الرهبانية. وهنا لا بد من ذكر قول السيد المسيح الذي يحث فيه على أهميـة البتولية في الحياة النسكية وهو " الحق أقول لكم ليس أحد ترك بيتًـا أو أخـوة أو أخوات أو أبًا أو أمًا أو امرأة أو أولادًا أو حقولاً لأجلي ولأجل الإنجيل إلا ويأخـذ مائة ضعف"[١٩].

الرهبانية هي هدية مصر إلى دنيا المسيحية في القرون الأولى للميلاد، يشهد بذلك القديس " جيروم " St. Jerome أبو الكنيسة اللاتينية في القرن الرابع للميلاد إذ يقول : " مصر مهد ميلاد الرهبانية ومركز انتشارها في الشرق والغـرب فـي فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والغرب الأوربي "[٢٠]. وهو محـق في ذلك إذ كانت مصر بأرضها ومناخها تربة صالحة للرهبانية، فمصـر تتمتـع بصحراوات واسعة تمتد شرقًا وغربًا، وكذلك تلك الصحراوات مأوى يلجـأ إليـه الرهبان والمتعبدون الراغبون في سلوك دروب الحياة النسكية، هذا فضـلاً عـن مناخها المعتدل الذي شجع الرهبان على الخروج من مدنهم وقراهم والذهاب إلـى الصحارى لممارسة حياة العزلة والزهد والتقشف والعبادة والتأمل. وقد شجع على ممارسة الرهبانية على أرض مصر عوامل أخرى منها :

- سوء الأحوال الاقتصادية فية مصر منذ أوائل القرن الرابع الميلادي إذ كانت الضرائب عبئًا ثقيلاً، زاده ثقلاً قسوة جامعيها، مما دفع عدد كبير من صغار المزارعين الأحرار إلى التنازل عن أراضيهم لكبار الملاك، وفضلوا ترك أراضيهم وأولادهم، والعالم بما فيه إلى حياة الرهبانيـة، حياة توفر لهم الأمن رغم ما فيها من عيش على الكفاف[٢١].

- قسوة الاضطهادات الدينية التي تعرض لها مسيحيو مصر على يد السلطات الرومانية والتي بلغت الذروة في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥) مما دفع الكثيرين إلى الفرار بدينهم إلى الصحارى حتى لا يتعرضون للتعذيب على يد السلطات الرومانية أو تجبرهم هذه السلطات على العودة إلى الوثنية. وحتى بعد انتهاء فترات الاضطهادات الدينية، تطلع نفر من المسيحيين إلى نوع أخر من الاستشهاد ليحظى بما حظي به من ماتوا شهداء من الاضطهادات من أكاليل المجد، وهو الاستشهاد بذبح إرادة الجسد بالنسك والجهاد في البرية[٢٢]، لذا نبتت الرهبانية من رغبة المسيحي في أن يكون شهيدًا، وهذا النوع من الشهادة يعرف بالشهادة البيضاء أو الخضراء التي حلت محل الشهادة الحمراء[٢٣]. وقد عبر المقريزي عن ذلك بقوله : " فلما انقضت أيام الملك دقلديانوس وفاتته الشهادة (يقصد "أنطونيوس") أحب أن يتعوض عنها بعبادة توصل ثوابها أو قريبًا من ذلك، فترهب، وكان أول من أحدث الرهبانية للنصارى عوضًا عن الشهادة "[٢٤].

ومن ثم فإن القديس " أنطونيوس " هو الذي وضع اللبنة الأولى في نظام الرهبانية، ووضع لها طريقًا، سار عليه آلاف الرهبان في حياته وبعد وفاته، في مصر كلها بل وفي خارجها، في كافة أنحاء العالم المسيحي شرقه وغربه،، فكان بذلك " الأب الشرعي للسالكين سبل البيد حياة "[٢٥]، واستحق عن جدارة واستحقاق لقب " أب جميع الرهبان "، فهو الرائد الأول لنظام الرهبانية، والمؤسس الحقيقي له، ومن أثرت سيرته تأثيرًا قويًا في أرجاء الدنيا، فأشعلت الرغبة النسكية في روما بل في غرب أوربا كلها[٢٦]. وهو ابن قرية أو بلدة كوما (قمن العروس)[٢٧] من قرى بني سويف الحالية، ولكن " كم كانت أصاغر القرى منبتًا لأعاظم الرجال ".

تجدر الإشارة قبل الغوص في أعماق سيرة حياة الرجل إلى أنه لم يكن أول من مارس الحياة الرهبانية فقد سبقه إليها الأنبا (بولا أو " بولس" الطيبي) وفي ذلك يذكر القديس " جيروم " أن أنطونيوس لم يكن أول راهب متوحد بل سبقه بولس الطيبي، الذي اختار الرهبانية حياة له في أيام الاضطهاد الذي حدث في عهد

" دكيوس " وفاليريان (٢٤٩-٢٥٩)[٢٨]. جاء ذلك في الكتاب الذي وضعه القديس " جيروم " في عام ٣٧٤م تحت عنوان " القديس بولس أول الرهبان السواح "، ورغم ذلك إلا أن الرهبانية الانفرادية التوحدية أخذت وضعها الثابت، وصبغتها العالمية الواسعة الذائعة الصيت على يد القديس " أنطونيوس "، لذلك نسبت إليه، وصارت تعرف باسم " الرهبانية الأنطونية "، كما كانت رهبانية "أنطونيوس" هي الخطوة البارزة حقًا في تاريخ الرهبانية المصرية بشكلها المألوف، أما ما سبق ذلك فهو مقدمات ارتجالية مهدت لهذا النظام الجديد[٢٩].

يقر القديس " جيروم " ذلك صراحة بقوله : " إذا كان (بولس) هو أول من وضع نسق هذه الحياة الرهبانية، فإن (أنطونيوس) يعد المؤسس الحقيقي والرائد الأول لنظام الرهبانية "[٣٠].

ويمكن التعرف على حياة القديس " أنطونيوس " ونظامه من خلال سيرة حياته التي كتبها القديس " أثناسيوس " بطريرك كنيسة الإسكندرية (٣٢٨-٣٧٣م) الذي يذكر أن القديس " أنطونيوس " ولد في كوما (قِمَن العروس) في عام ٢٥١م في أسرة مسيحية، وكان أبوه يدعى يحنس وتدعى أمه جيوش، وكانا على درجة كبيرة من الثراء، إذ كان الأب من أعيان بلدة قِمَن — مركز الواسطى محافظة بني سويف حاليًا — ومن ذوي اليسار فيها إذ كان يمتلك مزرعة تقدر مساحتها بثلاثمائة أرورا (فدان) من أجود الأراضي في قِمَن، ورغم ثراء أسرته إلا أن " أنطونيوس " لم ينل قسطًا وافرًا من التعليم كباقي من كانوا في مثل ثرائه، وقد أرجع أثناسيوس — كاتب سيرته — سبب ذلك إلى كراهية " أنطونيوس " لسلوك الأولاد الفظ (في المدرسة) وعدم رغبته في مزاملة الآخرين وتجنب معاشرتهم[٣١].

عني الوالدان بتربية ولديهما أنطونيوس تربية مسيحية صالحة، فربياه على قواعد الدين المسيحي، وغرسا فيه روح الفضيلة والتقوى والورع مع مبادئ الإنجيل قولاً وعملاً، لذلك نشأ الفتى معتدلاً، مستقيمًا متواضعًا، هادئًا، محبًا للعزلة كما يروي " أثناسيوس "[٣٢]. وتعود " أنطونيوس " منذ نعومة أظافره على الذهاب إلى كنيسة البلدة مع والديه، وكان يصغى لكل ما يُقرأ، ويفكر فيه، يتأمله فقد وهبه الله فهمًا وحكمة، إذ كان يحفظ الإنجيل بمجرد سماعه، وقد عبر القديس أوغسطين

عن ذلك بقوله : " رغم أن أنطونيوس الراهب المصري كان رجلاً بسيطًا ذا قـدر قليل من التعليم والمعرفة والثقافة إلا أنه تعلم عن ظهر قلب كل الكتـب المقدسـة لمجرد سماعه الآخرين يقرأونها، وقد فهم معانيها بالتأمل والتفكير فيها مليًا "(٣٣).

وعندما بلغ " أنطونيوس " الثامنة عشر من عمره توفى والده، ثم ماتت أمه وتركته وحيدًا مع أخته الصغيرة وتدعى زيوس، وكان عمره حينئذ لا يزيـد عـن عشرين عامًا، فكان عليه أن يهتم بشئون البيت ويرعى أخته الصغيرة الوحيدة(٣٤)، وكثيرًا ما كان يختلـي بنفسـه ويتأمـل فـي مـوت والديـه ويـردد قـائلاً : " لابد لي من مفارقة هذا العالم الزائل مثل أبي وأمي، فالأفضل أن أخرج منه طائعًا قبل أن يخرجوني منه كارهًا "(٣٥).

بعد مضي ستة أشهر على وفاة والديه، وفـي أحـد أيـام الآحـاد وبينمـا " أنطونيوس " في طريقه إلى الكنيسة، كنيسة بلدته قِمَن ومعه أخته، أخذ يفكر كيف أن الرسل تركوا كل شيء، وباعوا ما لديهم من ممتلكات ووزعوا أموالهـا علـى الفقراء والمحتاجين، وبينما هو على هذه الحال داخل الكنيسة وإذا به يسمع مصادفة آية في الإنجيل تقول للشاب الغني : " أن أردت أن تكون كـاملاً، فأذهـب وبـع أملاكك، وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعـال اتبعنـي "(٣٦). وشـعر " أنطونيوس " في الحال وكأن هذه الآيات قرأت له وحده، فخرج من الكنيسة فـي الحال، ووهب كل ما كان يملكه من أراض ورثها عن أبيه للفقراء من أبناء قريتـه قِمَن، كما بع الممتلكات المنقولة، ووزع أموالها على الفقراء والأيتام والمعوزين بعد أن احتفظ لأخته بالقليل(٣٧).

ودخل " أنطونيوس " الكنيسة مرة ثانية في وقت تلاوة الإنجيل فسمع كلمـة السيد المسيح لحواريه وتلاميذه : لا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره"(٣٨). عندئذ خرج " أنطونيوس " من الكنيسة عاقدًا العزم على أن يسلك مسلكًا جديدًا في حياته، فأودع أخته زيوس في أحد بيوت العذارى اللواتي دائبـين علـى الاجتماع بحجر الكنيسة للتعبد وتدريب النفس على القداسة، وأوصى رئيستهن بأن ترعاها كابنة لها(٣٩). وبعد أن اطمئن " أنطونيوس " على أخته، أنطلق خارج بلدته قِمَن ليمارس حياة التوحد والزهد والنسك، فمر خلالها بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى (٢٧٠ – ٢٨٥م) :

أقام أنطونيوس خلال هذه المرحلة في مكان قريب من بلدته قِمَن في كـوخ صغير إلى جوار شاطئ النيل، وتتسم هذه المرحلة بالتلمذة على يد الشيوخ والنساك الذين كانوا يعيشون على حافة قريته قِمَن قريبًا من النهر، وكانوا كثر، ولكن لم يكن لهم منهج معين ولا نظام يتبعونه، ولا مكان يجتمعون فيه(٤٠). وراح " أنطونيوس " يمر على هؤلاء النساك، ويتعلم منهم الفضائل فكان كما وصفه القديس " أثناسيوس " " كالنحلة النشطة "(٤١) التي تؤلف شهدها من متنوع الزهر، فتعلم من واحد فضيلة الصبر، ومن آخر التواضع وقهر الذات، ومن ثالث الصمت، ومن رابع الطاعة وحسن المثابرة على الصلوات، ومن خامس الصوم والزهد. وهكذا كان " أنطونيوس " كلما سمع عن أحد من النساك ينطلق إليه مسرعًا ليتزود منه بما يساعده على الاستمرار في طريق الفضيلة والنسك حتى جمع كل ما شاهده من فضائل الآخرين، إذ ركز رغبته وجل اهتمامه وغيرته على الحياة النسكية(٤٢).

أمسى " أنطونيوس " يواصل الليل بالنهار مثابرًا على الصلاة لأنه تعلم جيدًا " أن صلوا بلا انقطاع "(٤٣)، حريصًا على تلاوة الكتاب المقدس أناء الليل وأطراف النهار، حتى لا يفوته شيء مما يقرأ، حافظًا إياه في ذاكرته، كان طعامه الخبز والملح وشرابه الماء، قضى أغلب أيامه صوامًا عملاً بقول الكتاب المقدس " فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون وما تشربون ... بل اطلبوا ملكوت الله "(٤٤)، وكان ينام على بساط أو حصير خشنة، وفي أغلب الأحيان يفترش الأرض(٤٥). أما لباسه فكان من شعر وفوقه قميص من جلد، وكان " أنطونيوس " بذلك " أول راهب لبس الصوف وأظهر شكل الرهبنة " كما يذكر أبو المكارم(٤٦). فالنفس تقوى حينما تضعف من ملذات الجسد(٤٧).

عكف " أنطونيوس " خلال هذه المرحلة أيضًا على العمل إلى جانب العبادة والنسك، فكان يصنع القفف والحصر ويضفر الخوص ليكسب ما يقتات به لأنه سمع قول " بولس " : " من لا يريد أن يعمل لا يأكل " وكان ينفق جزءًا من أجل قوت يومه الضروري، ويوزع الباقي على الفقراء والمحتاجين "(٤٨).

هكذا قضى " أنطونيوس " المرحلة الأولى من حياته النسكية بين الصلاة والعبادة والتأمل والنسك والزهد مع العمل لذا أحبه أساتذته من النساك وأهل الصلاح جميعًا، أحبه البعض كأخ له والبعض الآخر كابن له، وكانوا يدعونه " حبيب الله Theophilus " كما يذكر " أثناسيوس " نفسه[٤٩]. وبذلك انتهت المرحلة الأولى بدخول الرجل في زمرة النساك والصالحين.

المرحلة الثانية (٢٨٥ - ٣٠٥م) :

وفي عام ٢٨٥م وبعد أن قضى " أنطونيوس " خمسة عشر عامًا في العبادة والعمل على مقربة من بلدته قِمَن أحس أن المكان الذي اختاره لممارسة حياة النسك والعبادة قريب من البلدة، لذا قرر أن يتركه ويبحث عن مكان آخر، فاجتاز نهر النيل شرقًا وهو ابن خمسة وثلاثين عامًا، واستقر به المقام في بقعة جديدة من أرض بني سويف الحالية، وهي منطقة بسبير Pispir[٥٠] (دير الميمون)[٥١].

عاش " أنطونيوس " في هذا المكان مدة طويلة تقترب من العشرين عامًا (٢٨٥-٣٠٥م) مارس خلالها حياة العزلة التامة مع العبادة من صلاة وتأمل وتلاوة للكتب المقدسة، معتمدًا على الخبز الجاف والملح بالإضافة إلى ثمار النخيل الذي وجد بالمكان. وتردد عليه خلال هذه الفترة بعض الزائرين منهم من جاء للقائه والتبرك به، ومنهم من جاء يستمع إلى نصحه وإرشاده وعظاته، ومنهم من جاء للتلمذة على يديه، وكان بعض هؤلاء وأولئك يحملون إليه في بعض الأحيان بعضًا من الطعام والشراب. وبمرور الوقت تقاطر على المكان عدد من الأتباع والمريدين الراغبين في ممارسة حياة الرهبانية والإقتداء بسيرة القديس " أنطونيوس " منهم الفقراء ومنهم الأغنياء. مما يدل على أن المكان الجديد الذي أعتزل فيه القديس " أنطونيوس " رغم كونه في الصحراء إلا أنه قريب نسبيًا من المعمور فضلاً عن قربه من النهر[٥٢].

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن تزايد أعداد هؤلاء المريدين خاصة في السنوات الأخيرة من هذه المرحلة في حياة القديس (٣٠٣-٣٠٥م) يرجع إلى اشتداد

اضطهاد دقلديانوس في مصر وفرار الكثير بدينهم إلى الصحراء والتي وجدوا فيها مأوى أمنًا يأوون إليه من قساوات الاضطهاد(٥٣).

التف هؤلاء وغيرهم حول القديس " أنطونيوس " الذي نجح في إقناع الكثيرين باختيار الحياة الرهبانية طريقًا لهم وذلك بحكمته وحديثه المطعم بملح سماوي، كما يصفه الرحالة بلاديوس(٥٤). وكون منهم أول جماعة من الرهبان المتوحدين، صار لهم أبًا ومعلمًا ومرشدًا، يحثهم على الثبات والاستمرار في طريق الفضائل، وكانت كلماته تنفذ في قلوب سامعيها مضرمة فيهم حرارة حب مقدس نحو بلوغ الكمال في الفضائل(٥٥).

وقد صور الرحالة والكتاب بأقلامهم نظام الحياة الذي وضعه القديس " أنطونيوس " لهؤلاء الرهبان ــ الذين عاشوا إلى جواره في بسبير ــ بطريقة تثير الإعجاب، فذكروا أن القديس " أنطونيوس " أنزل كل راهب منهم في صومعة أو قلاية Cell(٥٦) لا يشاركه فيها أحد، وكل قلاية تبعد عن الأخرى بما يتجاوز السمع والبصر، يعيش فيها الراهب بمفرده مستقلاً بذاته، وكل قلاية مقسمة إلى حجرتين من داخل بعضهما، الحجرة الداخلية تسمى (المحبسة) لأن الراهب يحبس فيها نفسه بإرادته ويمارس فيها أنشطة العبادة المختلفة، وهي مخصصة للصلاة والقراءة والكتابة، والتأملات ثم النوم، أما الحجرة الخارجية فتخصص دائمًا للمطبخ حيث يجهز الراهب طعامه ويتناوله، كما يستقبل فيها الراهب أخوته الرهبان حينما يزورونه في ظرف خاص أو عام(٥٧).

ولا يجتمع هؤلاء الرهبان إلا يوم الأحد لإقامة القداس، وسماع تعاليم رائدهم ومعلمهم القديس " أنطونيوس " الذي يدينون له وحده دون غيره بالطاعة فهو أستاذهم الذي تتلمذوا على يديه وتلقنوا منه مبادئ الرهبانية، ثم يعود كل منهم إلى قلايته وعزلته باقي الأسبوع، ولا يتزاورون إلا في حالات المرض أو لبعض الدواعي الروحية(٥٨).

عاش هؤلاء الرهبان في بسبير حياة هادئة خالية من الشرور والآثام، إذ كان شغلهم الشاغل هو تلاوة الآيات الدينية، وتأدية الصلوات، وممارسة الصوم، وبذل الإحسان وفعل الخيرات. عاش هؤلاء الرهبان المتوحدون، ساكنو القلايات، أول

تجربة للحياة الرهبانية في منطقة بسبير (دير الميمون) ــ على أرض بني سويف ــ تعرف باسم الكينوبيون Coenobion وتعني مكان به قلالي كثيرة، أصحابها متحدون في نظام الحياة المشتركة أو الديرية الجماعية التي أسسها القديس باخوميوس(٥٩).

وهكذا شهدت منطقة بسبير أول تجمع رسمي للرهبان في مصر بفضل جهود القديس " أنطونيوس "، ويطلق البعض على هذا التجمع اسم " دير " ونظرًا لأنه كان بالمكان شجرة جميز وبعض النخيل، لذلك أطلقوا عليه اسم (دير الجميزة)(٦٠). وذكر أميلينو " أنه يقع على النيل في مكان يسمى بسبير، وكان القديس "أنطونيوس" يذهب إليه في أكثر الأوقات(٦١). وقد يكون هؤلاء على حق خاصة وأن بسبير وهي قريرة دير الميمون اليوم لا تزال تحمل اسم الدير الذي أنشأه بها القديس " أنطونيوس "، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن هناك فارق كبير بين النظام الذي أوجده القديس أنطونيوس وهو " التوحد الجماعي الكينوبيون " القائم على معيشة الرهبان في عزلة وفي قلايات متباعدة وإن كان يجمعها مكان واحد، وبين الديرية الجماعية والحياة المشتركة للرهبان داخل جدران الدير، حقيقة أن الرهبان في هذا النظام يعيشون كذلك في قلايات ولكنها متقاربة، يعيش في كل واحدة منها ثلاثة رهبان ويتعاون الجميع في كل شيء.

على أية حال، انتهت المرحلة الثانية من حياة القديس " أنطونيوس " الرهبانية في عام ٣٠٥م، بوضعه أساس أول نموذج للنظام الرهباني في مصر بل وفي العالم المسيحي أجمعه شرقه وغربه وهو ما عرف باسم الكينوبيون أي " التوحد الجماعي".

المرحلة الثالثة (٣٠٥ – ٣٥٦م) :

ما لبث القديس " أنطونيوس " أن ترك منطقة بسبير (دير الميمون) بعد أن عاش على أرضها عشرين عامًا، وعهد بأمر الرهبان في المنطقة إلى تلميذيه مكاريوس وأماثاس كما يذكر كرونيوس أحد تلاميذ القديس " أنطونيوس "(٦٢). وراح القديس يبحث عن مكان جديد لا يعرفه فيه أحد، فتوغل في البرية، لأنه كان يؤمن

بأن من أراد الراحة التامة فعليه أن يذهب إلى أقصى البرية، ومن أقواله في هذا الصدد : " أن الشمع يذوب إذا اقترب من النار، كذلك تضمحل فضيلة الناسك إذا ما دنا من العالم "[٦٣]. لذلك ترك القديس بسبير بعد أن تكاثر الناس حوله، وأعاقوه عن ممارسة حياة النسك على نحو يرضيه، وهمَّ بالسير نحو الشرق لمدة ثلاثة أيام بصحبة جماعة من الأعراب حتى وصل إلى جبل عال بوادي عربة[٦٤] عند سفحه ينبوع ماء عذب صافي، وحوله بعض أشجار النخيل، ويسمى هذا الجبل بجبل الجلالة أو القلالة[٦٥] أو جبل القلزم[٦٦].

حط القديس " أنطونيوس " رحاله في هذا المكان الذي أنشرح له صدره وأحس أنه ما يبحث عنه كما يروي القديس " أثناسيوس " فأحبه وأصبح بيتًا له[٦٧]. إذ عاش القديس " أنطونيوس " في هذا المكان بقية حياته في مغارة قائمة على تل صخري ما تزال موجودة حتى اليوم ويستغرق الصعود إليها مدة لا تقل عن الساعتين أو الثلاث ساعات. وكان يقتات من ثمار النخيل ويشرب من ماء الينبوع، وكان العرب يمرون بالقرب من هذا المكان خصيصًا ــ كما يروي " أثناسيوس " ليقدموا له الخبز[٦٨]، هذا فضلاً عن أن تلاميذه كانوا يحملون إليه ما يحتاجه من طعام بعد أن سمح لهم بأن يكونوا على مقربة منه، ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ ما لبث القديس " أنطونيوس " أن شعر بالملل والضيق ففكر أن يشغل وقته، ويأكل من عمل يده، فطلب من تلاميذه ــ كما يذكر القديس أثناسيوس ــ أن يحملوا إليه معولاً وفأسًا وبعض القمح ففعلوا، وراح القديس يفلح المكان ويزرعه ليمده بحاجته[٦٩].

حرص القديس " أنطونيوس " على ألا يقطع صلته بالكنيسة، كنيسة الإسكندرية، فعندما حل بالمسيحيين الاضطهاد في عهد مكسيميانوس بين عامي (٣٠٣-٣١١م) ترك القديس عزلته، وقصد الإسكندرية لكي يشجع المستشهدين في الميادين والمسجونين في سجون الإسكندرية من أجل المسيحية وهو يقول في قرارة نفسه : " لنذهب كي نجاهد إذا دعانا الرب أو حتى نرى المجاهدين "[٧٠]. كما كان يقول " فلأذهبن إلى الإسكندرية حيث نيران العذاب، فإن سمحت العناية الإلهية باستشهادي تجدني مستعدًا، وإن لم تسمح بذلك أكون على الأقل بجانب المضطهدين من أبناء القديس مرقس الإنجيلي الشهيد "[٧١].

باب الدير مرة ". وفي موضع ثالث " وكان اثنان من الأخوة ذاهبين إلى الدير وقد نفد معهما الماء في الطريق "[٧٨]. وجاء في سيرة القـديس (بـولس الطيبـي) أول السواح أيضًا إشارات أخرى منها عبارات جاءت على لسان القديس الأنبا بولس، إذ قال لأنطونيوس " أرجوك يا حبيبي ... أن تعود بسرعة إلى ديرك، وأن تأتي لـي بالعباءة التي أهداها لك الأنبا أثناسيوس "، وفي موضع آخر : ورحل إلى ديره"[٧٩]. على أن هذه الإشارات لا توحي بقيام رهبانية جماعية مشتركة للرهبان داخل الدير، بل رهبانية انفرادية، توحدية، رغم وجود سور يحيط بقلالي الرهبان بداخله أيضًـا كنيسة واحدة لا تزال تحمل اسم القديس " أنطونيوس " حتى اليوم، كان قد شـيدها ليجمع فيها رهبانه لصلاة القداس، ومن أقواله في هذا الصدد : " إذ دق الناقوس فلا تتوان عن الحضور إلى الكنيسة "[٨٠].

وقد عرف هذا الدير بدير بوش[٨١]، وتحدث عنه على مبارك فقال : " ديـر المقدس أنطون المعروف بدير بوش والذي يتوصل إليه من جهة أطفيح "[٨٢]، ومن جهة دير الميمون، وذلك الدير قريب من البحر الأحمر "[٨٣]. وترجع هذه التسـمية إلى أن رئيس هذا الدير أصبح يقيم فيما بعد في بوش (ببني سويف الحالية) كما كان لهذا الدير عزبة موقوفة عليه في بوش كذلك، ويؤكد ذلك ما يذكره القمص منسـي يوحنا من أن البطريرك كيرلس الرابع حينما تولى رئاسة دير " أنطونيوس " حاول إصلاح أحواله الأدبية والمادية، فخصص في العزبة بناحية بوش بمديريـة بنـي سويف ــ والتي كانت ومازالت مقر دير " أنطونيوس " ــ مكانًا جمع فيه كثيرًا من الكتب على كتب الدير وجعله للمطالعة والمناقشة في المواضيع العلمية دينية وأدبية وتاريخية[٨٤].

على أية حال فقد نظم القديس " أنطونيوس " حياة الرهبان الجدد الذين سكنوا القلالي وفق نظام وضعه لهم، يقوم على عزلة الراهب التامة عن الحياة المدنيـة، والعيش عيشة انفرادية من أجل هدف خاص وهو أن يعرف الراهـب نفسـه، وأن يصل إلى درجة التأمل العميق في الأمور السماوية، وحرم على الرهبان مغـادرة قلاليهم، وشبهت تعاليم القديس " أنطونيوس " موت الراهب الذي يغادر قلايته بموت السمك عندما يخرج من الماء[٨٥].

أما عن الحياة اليومية للرهبان في ظل النظام الذي وضعه القديس " أنطونيوس " فقد قضى الرهبان حياتهم في نظام محكم إذ أنه خلال خمسة أيام من الأسبوع تبدأ من الاثنين وحتى الجمعة يقبع الرهبان في قلاليهم يقضون أوقاتهم في أداء فروض الصلاة في أوقاتها؛ وفي التسبيح والحمد والثناء على الله، والنظر في الأمور الإلهية في انقطاع تام دون التحدث مع غيرهم من الرهبان المجاورين لهم، ويقتصر اتصالهم على بعض الشيوخ المشهورين بالورع والتقوى لاستشارتهم في أي أمر من الأمور الروحية[٨٦].

كما حدد نظام القديس " أنطونيوس " ساعات الصلاة التي هي صلة بين العبد وربه، وتنحصر هذه الصلوات اليومية في تلاوة بعض المزامير ومقتطفات من العهد القديم. وقد بالغ الرحالة بلاديوس في وصف صلوات الرهبان التي أدوها في قلاياتهم وصوامعهم، فذكر أنه في أثناء تجواله بين هذه القلايات أحس وهو يسمع صوت ترتيلهم وتسابيحهم وهي تتصاعد من قلاليهم، وكأنه في الفردوس[٨٧]. أما الصلاة الجماعية فعلى الرهبان أن يجتمعوا مساء كل سبت وصباح الأحد لصلاة القداس، ثم ينصرف كل منهم إلى قلايته وإلى عزلته[٨٨].

اتسمت حياة الرهبان اليومية بالعمل إلى جانب العبادة إقتداء بالسيد المسيح ــ عليه السلام ــ الذي كان يعمل نجارًا، ومن أقوال القديس " أنطونيوس " للحث على العمل : " اعمل بكل قوتك ... وليكن تعبك في عمل يديك حتى يأتيك خوف من الله " ويقول أيضًا : " اختر التعب ... مع الصوم والصلاة والسهر لأن تعب الجسد يجلب طهارة القلب "[٨٩]. وقد خصصت الفترة من الصباح حتى الظهيرة للعمل اليدوي، الذي هو ضرورة لأن الناسك لا يليق به أن يكون عاطلاً، ولا يصح أن يعيش عالة على غيره، ولابد وأن يأكل من كده ومن عمل يده حتى لا يفترسه الشيطان[٩٠]. وكان كل راهب يعمل في حرفته، فمنهم من يصنع السلال، ومنهم من ينسخ الكتب المقدسة وغيرها من الكتب الدينية، ويجوز للراهب أن يؤدي عمله داخل قلايته، وعليه أن يرتل المزامير وهو يؤدي عمله حتى إذا ما انتهى منه يصبح الصمت من أوجب الأمور لحياته الروحية[٩١].

أما عن طعام الرهبان فقد أوضح القديس " أنطونيوس " نوعية الطعام الـــذي يتناوله الراهب وكميته، فكانت كمية الخبز القانونية التي تعطى للراهب عبارة عن قطعتين من الخبز الجاف تزن كل منها حوالي ثلاثين درهمًا، ويتعود الراهب على أن يتناول قطعة منها ويحتفظ بالأخرى حتى المساء، إذ ربما يطرق بابـــه زائـــر، قضت التقاليد الرهبانية أن يشاركه طعامه، أما إذا لم يحضر أحد أكلها في المساء، ويضاف إلى الخبز بعض الخضر، وأحيانًا يأكل الخبز بقليل من الملح؛ وربما قضى نظام القديس " أنطونيوس " أن يطهى الطعام للرهبان المرضى فقط(٩٢). ويتنـــاول الراهب طعامه منفردًا طيلة أيام الأسبوع ما عدا يومي السبت والأحد التي يجتمـــع فيها مع زملائه الرهبان فيتناولون جميعًا الطعام مجتمعين(٩٣).

أما عن زي الرهبان فيعد " أنطونيوس " ــ باعتباره مؤسس الرهبانية ــ أول من لبس أردية من جلد الغنم وجعل منها قميصًا له، ومن ثم فهو كما يـــذكر أبـــو المكارم " أول راهب لبس الصوف "(٩٤). ثم لبس من فوق القميص مسحًا (لباسًـــا) من الكتان الأبيض شبيه باللباس الفرعوني الكهنوتي، واتخذ قلنسوة من الوبر لغطاء الرأس، وأصبح ذلك زيًا عامًا للرهبان(٩٥).

حرص القديس " أنطونيوس " على أن يتفقد بين حين وآخر قلالي الرهبـــان ومحلاتهم سواء في بسبير أم في جبل القلزم مرشدًا تلاميذه ومشجعًا إياهم ومحثًـــا على الثبات في أداء الأعمال اليدوية، كذلك لم يغفل القديس " أنطونيـــوس " دعـــوة أخوته وأبنائه الرهبان المنتشرين في أطراف البراري المصرية، فكـــان يـــزورهم ويحمل لهم الخبز والماء وتعاليمه النسكية، ثم يعود إلى قلايته ليمارس نسكه، كذلك حرص هؤلاء الرهبان على زيارة معلمهم وأستاذهم والاستماع إلى نصـــائحه ثـــم العودة إلى قلاليهم في سرعة(٩٦). وهكذا كانت حياة القديس " أنطونيوس " العـــرق النابض والدم الذي يجري في عروق هؤلاء الرهبان فيجعلهم أكثر قوة وقدرة على الثبات والاستمرار.

سار على نهج القديس " أنطونيوس " ونظامه عشرات بل مئات من أســـماء الرهبان التي لمعت في سماء القرن الرابع الميلادي، وكان من أبرزهـــا القـــديس باخوميوس (٢٩٢-٣٤٦ أو ٣٤٨م) الذي وضع أسس النظـــام الـــديري، وعـــرف

بـ (أبي الشركة) لأنه أول من أوجد المعيشة المشتركة للرهبان داخل الدير[٩٧]. فقد زار كل من الأنبا تادرس والأنبا زكا تلميذا القديس باخوميوس – القديس " أنطونيوس " الذي استقبلهما بحفاوة بالغة، وامتدح الأنبا باخوميوس ونظام الشركة الذي أسسه[٩٨].

وظهر أثر القديس " أنطونيوس " واضحًا في الحياة الرهبانية بخاصة في وادي النطرون، فرغم بُعد المسافة بينه وبين وادي النطرون، أصبح هو المرشد الأول لجماعات الرهبان، التي سكنت وادي النطرون في كل أحوالهم، فقد تتلمذ على يديه مؤسسي هذه الجماعات، وسعى " أنطونيوس " لتفقد أحوالهم، وأصبح المرجع الأول لهم في كل صغيرة وكبيرة حتى في اختيار أماكن إقامتهم، ويتضح ذلك من استشارة الأنبا أمون[٩٩] للقديس " أنطونيوس "، حيث زاره في نتريا (وادي النطرون) ليتفقد أحواله فهو من تلاميذه، وبعد أن التقى به آمون، سأله عن المسافة التي يجب أن تفصل بين قلالي الرهبان في المنطقة؛ فما كان من القديس " أنطونيوس " إلا أن سار بصحبة آمون ثلاث ساعات ثم توقف. وهي مسافة يقدرها البعض الآن باثني عشر ميلاً، فأسس له بذلك نظام الوحدة الكاملة إلى جانب الحياة المشتركة كما يذكر الأب متى المسكين[١٠٠].

ومن تلاميذ القديس " أنطونيوس " أيضًا القديس مكاريوس الإسكندري الذي توجه إلى صحراء وادي النطرون – بعد أن تتلمذ على يد معلمه " أنطونيوس " – وهناك ألتف حوله ما يزيد عن بضعة آلاف من الرهبان، أقاموا قلاليهم بالقرب من قلايته، وصار بدوره أبًا ومعلمًا ومرشدًا لكثير من الرهبان من كافة الأجناس من روما وأسبانيا، ومن آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين وغيرها[١٠١]، وظل الأنبا مكاريوس حريصًا على الارتباط بمعلمه وأستاذه القديس " أنطونيوس " أيضًا حريصًا على زيارته باستمرار فيذكر كاتب سيرته سيرابيون وهو من تلاميذ القديس " أنطونيوس " كذلك أن الأنبا مقار زار الأنبا " أنطونيوس " مرتين :

الأولى : سلم القديس " أنطونيوس " خلالها لتلميذه الأنبا مكاريوس تعاليمه الروحية وخبراته.

الثانية : البسه فيها القديس " أنطونيوس " الأسكيم[١٠٢] المقدس، وأعطـاه عصـاته وقبله.

وبذلك سار خليفة له، والوريث لفضائله ونعمه، وكثيرًا ما كـان القـديس " أنطونيوس " يشيد به ويقول عنه لتلاميذه : " سيكون غصنًا مستقيمًا ولـه ثمـرات طيبة "[١٠٣].

وبعد أن انتشرت رهبانية القديس " أنطونيوس " في طول البلاد وعرضـها بسبب سهولة مراسيم الدخول فيها وبساطتها فلا يطلب من الشخص عند دخوله في زمرة الرهبان سوى أن يقسم اليمين بأن يظل طائعًا، طاهرًا، زاهدًا، متقشفا، كذلك يجوز له أن يمارس حياة الزهد والنسك في داره ومع جماعة صغيرة من رفاقه[١٠٤] فإن رهبانية " أنطونيوس " وسمعته ما لبثت أن تخطت حدود القطر المصري فأقتفى أثر هذا الرياضي المسيحي Athletes of Christ الكثيرون[١٠٥]. ومـن هـؤلاء القديس هيلاريون Hilaron راهب غزة الشهير، وقد وضع له " جيروم " كتابًا في السنين الأخيرة للقرن الرابع الميلادي حوالي عام ٣٩٠م، تحدث فيـه عـن هـذا الراهب الذي ولد في إحدى قرى فلسطين، وارتحل لـتعلم النحـو فـي مدرسـة الإسكندرية، وترامت إلى مسامعه شهرة الراهب المصري " أنطونيـوس " فتاقـت نفسه إلى رؤيته فولى وجهه شطر الصحراء يبتغي " أنطونيوس " حتى التقى بـه، وكان لقاءً حارًا، فقد استقبل " أنطونيوس " هيلاريون قائلاً : " هل جئت يا كوكـب الصبح المنير، فأجابه هيلاريون بتحية مماثلة بقوله : " سلام عليك يا عماد النـور الذي يضئ للخليقة "[١٠٦].

ولازم هيلاريون القديس " أنطونيوس " شهرين كاملين، درس فيهما طرائـق حياته وسلوكه، ومتع ناظريه بالخشوع في صلواته، وتواضعه، ورقة حديثـه مـع الآخرين، ورأى الجموع تقدم على " أنطونيوس " من كل صوب وحدب تقتدي بـه وتتبرك. وعاد هيلاريون بعد ذلك بصحبة عدد من الرهبان إلى موطنـه الأصـلي فلسطين لينشر الرهبانية على أرض فلسطين وسوريا[١٠٧].

ما لبثت الرهبانية أن انتقلت إلى أوربا بفضل جهود القـديس " أثناسـيوس " بطريرك الإسكندرية (٣٢٨م) وهو من أبرز تلاميذ القديس " أنطونيوس "، تتلمـذ

على يديه حينما كان شماسًا في الكنيسة، وعندما مارس حياة الرهبانية ألبسه القديس " أنطونيوس " أسكيم الرهبانية قائلاً له : " من الآن هذا هو لبس الآباء البطاركة إلى آخر الدهور "(١٠٨).

عاش " أثناسيوس " مع القديس " أنطونيوس " فترة من الوقت، قــام خلالهــا بخدمته، فكان يسكب الماء على يديه حينما يهم القديس بغسلها، وأكد ذلك ما جــاء لسان " أثناسيوس " " أني عشت بقربه وقتًا طويلاً، وسكبت في يديــه مــاء "(١٠٩)، وكثيرًا ما كان " أثناسيوس " يلجأ إلى أستاذه ومعلمه " أنطونيوس " يستشيره فــي كافة الأمور حتى بعد أن أصبح بطريركًا للإسكندرية في عام ٣٢٨م؛ فعندما انتشر بالإسكندرية وباء عظيم خرج " أثناسيوس " ومعه رجال الدين، وذهبوا إلى القديس " أنطونيوس " في صومعته في البرية الشرقية، وطلبوا منه أن يصلي لله حتى يرفع غضبه عن المدينة، فطمأنه أنطونيوس بانكشاف الغمة بمشيئة الله تعالى(١١٠).

ظل القديس " أنطونيوس " يقف إلى جوار " أثناسيوس " في كل الأزمات التي مر بها أو تعرض لها، فعندما أصدر الإمبراطور قسطنطين العظيم قرارًا في عــام ٣٣٥م بنفي " أثناسيوس "، كتب " أنطونيوس " إلى الإمبراطور رسالة يلتمس فيها العفو عن أسقف الإسكندرية، والسماح له بالعودة إلى بيعته، حتى لا يفتح بذلك بابًا لاتساع الشقاق وزيادة الفوضى في مصر، غير أن الإمبراطور لم يصغ لما قالــه " أنطونيوس " إذ كان يشعر بأن وجود " أثناسيوس " بعدائه للأريوسية، أصبح يشكل خطرًا(١١١). لذلك قام القديس " أنطونيوس " بزيارة الإسكندرية للمرة الثانيــة ٣٣٨م خاصة بعد أن استفحل مذهب أريوس(١١٢) ليساند " أثناسيوس " في كفاحه وجهــاده ضد الأريوسيين وفي الدفاع عن الإيمان القــويم، وشــجب القــديس أنطونيــوس الأريوسيين قائلاً : " أن هرطقتهم أخطر الهرطقات " وقال أيضًــا : " أن كلامهــم أخطر من سم الأفاعي "(١١٣).

مكث القديس " أنطونيوس " ثلاثة أيام بالمدينة (٢٥ – ٢٧ يوليو ٣٣٨م) مع جموع الرهبان التي وفدت معه إليها. وبعد أن أنهى القديس مهمته وهــمَّ بالرحيــل والعودة إلى قلايته خرج معه " أثناسيوس " مودعًا حتى ظاهر المدينة(١١٤). ورغــم قصر هذه الزيارة إلا أنها كانت دعمًا لــ " أثناسيوس " في مواجهة سحابات الغــيم

البيزنطي، كما أنها تركت أثرها الكبير بما للرجل من شخصية قوية، وتأثير شعبي عميق، وبما أعطته لـ " أثناسيوس " من شعور بالأمان والتأييد"(١١٥).

ويصف " أثناسيوس " هذه الزيارة موضحًا أثرها بقوله : " هب شعب الكنيسة كله من أجل رؤية القديس يركض، والرعية من حوله تحلق، وهو يهدي إلى المسيحية كثير ربما قدر من دخلوها في عام "(١١٦). ويتضح من قول " أثناسيوس " أنه بفضل هذه الزيارة التي قام القديس " أنطونيوس " أعتنق الكثيرون الديانة المسيحية بفضل فصاحة الرجل فقد كان كما قال عنه الرحالة بلاديوس " حكيمًا يدرك حقيقة الناس بالفراسة ... ممتازًا بالصبر "(١١٧).

جملة القول أن زيارة القديس " أنطونيوس " الثانية لمدينة الإسكندرية عام ٣٣٨م كانت بمثابة إعلان في الملأ بأنه يدحض مذهب أريوس، ويقف بحزم وبكل قوته ليشد من أزر " أثناسيوس "، ويطلب من جموع المسيحيين ألا تبغى عن أسقفها حولا، كما ظهر من خلال الصورة التي رسمها " أثناسيوس " بقلمه لهذا التأييد الجارف(١١٨).

لذا لا عجب أن لعب القديس " أثناسيوس " دورًا كبيرًا في نشر الرهبانية في غرب أوربا إذ ترك صورة مثالية للحياة النسكية المسيحية، تعد في رأي معظم المؤرخين مثالاً رائعًا لحياة الرهبان وذلك من خلال كتابه عن حياة القديس " أنطونيوس " الذي دونه في منفاه في ترير Trier في عام ٣٥٧م أي بعد وفاة القديس " أنطونيوس " بعام واحد؛ وقد كتب " أثناسيوس " هذا الكتاب استجابة لطلب بعض الرهبان في الغرب ممن كانوا على صلة به زمان نفيه إلى الغرب. وتدل صفحات هذا الكتاب في وضوح على ذلك القدر الكبير من الإعجاب الذي يعتمر في نفس القديس " أثناسيوس " تجاه الرهبانية والحياة النسكية والاحترام الخالص لأبي الرهبان وكوكب البرية ونجمها اللامع القديس " أنطونيوس "(١١٩).

ويعد ما كتبه القديس " أثناسيوس " عن سيرة القديس " أنطونيوس " كما يقول الأب متى المسكين : " أثمن وثيقة في العالم عن الرهبانية والحياة النسكية على وجه العموم، خصوصًا أن كاتبها شخصية مدققة، ذات اعتبار علمي وروحي من أعلى مستوى "(١٢٠). وذلك لما أحدثته هذه السيرة من أصداء واسعة وآثار كبيرة في

وقوف الغرب الأوربي والعالم المسيحي على هذا النسق من الحياة النسكية، ويكفي للتدليل على ذلك شهادة القديس أوغسطين (ت ٤٣٠م) عملاق العصور الوسطى الأكبر[١٢١] الذي ذكر فضلها في تحويله إلى حياة النسك والرهبانية، فحدث أن تقابل القديس أوغسطين مع شيخ يدعى بونتيتيانوس روى له حياة القديس " أنطونيوس " بعد أن قام القديس " جيروم " وصديقه أو غريس بترجمتها إلى اللاتينية حوالي عام ٣٧٥م، وذاع خبرها وامتد أثرها إلى كافة الأنحاء[١٢٢]. وما أن سمعها أوغسطين حتى راح ينظر إلى نفسه وإلى حياته الأخلاقية نظرة احتقار واشمئزاز، وغيرَّ من نظام حياته، وراح يسلك الطريق القويم[١٢٣].

كما يؤكد القديس ايروفيموس ذلك فيذكر أنه حينما اشتهر كتاب القديس " أثناسيوس " عن سيرة " أنطونيوس " في مدينة روما، أضرم كثير من الرجال العظماء وكثير من النساء الشريفات وأناس آخرين من كل سن ودعوة، أضرموا بنار الحب في أن يغايروا هذا القديس في السلوك، بسيرة مسيحية مملوءة بالفضائل والتقشفات، وقهر الذات، واحتقار أماني العالم وخداعاته الكاذبة، محاولين مثله بلوغ درجة من الكمال[١٢٤].

ذاع صيت القديس " أنطونيوس " وطبقت شهرته الآفاق، وأصبحت سيرة حياته بالنسبة للرهبان جميعًا وغيرهم في مصر وخارجها نموذجًا عظيمًا للسيرة النسكية وتداولها الناس، حتى أصبحت شهرة الراهب المصري ابن قِمّن العروس " على لسان كل إنسان " وسرت سمعته عبر الفيافي والصحراوات[١٢٥]. فكان كما قيل عن الرسل : " في كل الأرض خرج منطقهم، وإلى أقصى المسكونة كلماتهم"[١٢٦]. لذلك راح الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العظيم يخطب وده وكتب إليه رسالة يلتمس فيها بركته والصلاة من أجله ومن أجل أبنائه قسطنطين، وقنسطانز وقسطنطينيوس، ولما وصلت رسالة الإمبراطور مع رسله إلى القديس " أنطونيوس " لم يحفل بها ولم يظهر اهتمامًا، في حين سر تلاميذه من الرهبان وفرحوا بها فرحًا شديدًا، ولما أحس بذلك قال لهم : " لا تتعجبوا من أن يكاتبنا ملوك الأرض، بل الأعجب من ذلك هو أن ملك الملوك، ورب الأرباب قد كتب وصاياه لنا نحن البشر، وأرسلها إلينا بيد أنبيائه، ونحن لا نلتفت إليها بل نعرض

عنها، ومع ذلك ألح عليه تلاميذه حتى يرد على رسالة الإمبراطور قائلين له : " أن الإمبراطور قسطنطين وأولاده مسيحيون صالحون، محبون للكنيسة ". عندئذ قـــرأ القديس " أنطونيوس " رسالة الإمبراطور قسطنطين، وكتب الرد عليها، وأرسله إلى الإمبراطور، وأعرب عن سروره به وبأسرته المؤمنة، ووجه إليه بعض النصـــائح والإرشادات منها : ألا يغال في استعمال سلطاته كإمبراطور، وأن يكون ذكـــر الله في قلبه وفكره، وأن يقضي بالعدل بين رعيته، وأن يحسن إلى الفقراء والمعوزين، وختم القديس رسالته إلى الإمبراطور بالبركة والدعاء له ولأبنائه[١٢٧].

وما لبث القديس " أنطونيوس " أن تنيح في ١٧ يناير ٣٥٦م عن عمر يناهز المائة وخمسة أعوام بعد أن وضع نسقًا للحياة النسكية ونظاما للرهبانية الانفراديـــة التوحدية لم يسبقه إليه أحد من قبل، فحاز بذلك قصب السبق في هذا الميدان، لـــذا أصبح اسمه على كل لسان، في كل زمان ومكان، فـــي العـــالم المســـيحي شـــرقه وغربه.

ولم يبق أمامنا إلا أن نطوي صفحات سيرة هـــذا القـــديس العظـــيم الأنبـــا " أنطونيوس " ابن قِمَن العروس، تلك السيرة التي ستظل دليلاً على أن أرض بنـــي سويف خاصة وأرض مصر عامة كانت مهد الرهبانية وهديتها للعالم المسيحي.

الهوامش :

(*) تجدر الإشارة إلى أن هذا البحث ألقي في مؤتمر " بني سويف على مر العصـــور " الــذي نظمته كلية الآداب ـــ جامعة القاهرة، فرع بني سويف، في الفترة من ٢٧-٢٨/٤/٢٠٠٢م.

(١) ص١٧٤٨.

(٢) ج٢، ص١١٣.

(٣) سورة الحديد، آية ٢٧.

(٤) انظر ابن منظور، لسان العرب، ص١٧٤٩.

(٥) ترجمة القمص مرقص داود، القاهرة، ١٩٧٩م.

(٦) Eusebius, In Patrologea Greeca, 23, 689 B., E.A. Judge, " The Earliest Use of Monachos for " Monk " and the Origins of Monasticism " In Jahr buch Fűr Antike und Christentum, 20, 1977, pp. 74–75.

انظر أيضًا : محمد عبدالغني، أضواء على المسيحية المبكرة، إسكندرية، ١٩٩٣م، ص٨٥.

(٧) ١٠ : ٩-١٠.

(٨) انظر محمد عبدالغني، أضواء على المسيحية المبكرة، ص٨٦.

(٩) الترجمة العربية، ٩٠-٩٢. وعن فيلو الكاتب اليهودي ومؤلفاته، انظر ص٩٥-٩٦ من نفس الكتاب.

(١٠) سفر أعمال الرسل، الاصحاح الرابع ٣٤، ٣٥.

(١١)تولى رئاسة المدرسة المسيحية اللاهوتية بالإسكندرية حتى عام ٢٣٢م، وتوفى عـــام ٢٥٣م على أثر اضطهاد دكيوس للمسيحيين عام ٢٥١م.

(١٢) يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، الترجمة العربية، ص٢٩٠-٢٩١. وانظر أيضًا :

Wilfred Griggs, Early Egyptian Chrristianity from its Origins to 451 C.E, Brill 1991, p. 100–101.

(١٣) عن نركيسوس انظر يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، الترجمة العربية، ص٢٥٨-٢٥٩.

(١٤) يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، الترجمة العربية، ص٢٩٧.

(١٥) رعوف حبيب، الرهبنة والديرية في مصر، ص٢٦؛ حكيم أمين، دراسات في تاريخ الرهبانية والديرية المصرية، القاهرة، د.ت، ص٩.

(١٦) يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ص٩١-٩٤.

(١٧) منسي يوحنا، تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٧١.

(١٨) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثة، الإصحاح ٧ : ٣٨-٣٩؛ وانظر أيضًا أنطوان فهمي جورج، البتولية في فكر الأباء، الإسكندرية، ١٩٩٦م، ص١٢٠.

(١٩) مرقص ١٠ : ٢٨-٣٠.

(٢٠) نقلاً عن رأفت عبدالحميد، الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٢٥٧.

(٢١) حكيم أمين، دراسات، ص٦.

(٢٢) الأنبا متاؤس، سمو الرهبنة، القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٣٧-١٣٨.

(٢٣) جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، ترجمة فهيم عزيز، القاهرة، ١٩٨٥م، ج٢، ص١٣٤.

(٢٤) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، م٢، ص٥٠٢.

(٢٥) رأفت عبدالحميد، ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحي، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٣٣.

(٢٦) القمص لوقا الأنطواني، أب رهبان العالم، ص١٥؛ حكيم أمين، دراسات، ص١٧.

(٢٧) قِمَن بكسر أوله وفتح ثانيه وأخره نون قرية من قرى مصر نحو الصعيد، تقع غربي النيل بعيدة عن شاطئه. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، م٤، بيروت، د.ت، ص٣٩٨.

(٢٨) القديسان بلاديوس وجيروم، بستان القديسين، ترجمة ميخائيل مكسي إسكندر، جزءان في مجلد واحد، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٤٤٣-٤٤٤؛ وانظر أيضًا : جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، ج٢، ص١٣٦؛ وعن الأنبا بولا (بولس الطيبي) انظر : القديسان بلاديوس وجيروم، بسان القديسين، ص٤٤٣-٤٤٩؛ رعوف حبيب، الرهبنة والديرية، ص٣٦-٣٧؛ ساجي سليمان عزيز، الأنبا بولا، ص٩-٣١؛ حكيم أمين، دراسات، ص١٥-١٧؛ لوقا الأنطوني، أب رهبان العالم، ص١٨-١٩.

(٢٩) رعوف حبيب، الرهبنة، ص٣٧.

(٣٠) انظر القديسان بلاديوس وجيروم، بستان، ص٤٤٣-٤٤٤؛ وانظر أيضًا : رأفت عبدالحميد، الدولة والكنيسة، ج٣، ص١٧٨.

(٣١) القديس أثناسيوس، سيرة القديس أنطونيوس الكبير، ترجمة الأب ميشال نجم، ص١٨.

(٣٢) سيرة القديس انطونيوس الكبير، ص١٨.

(٣٣) نقلا عن أنطونيوس الأنطواني، سيرة القديس العظيم الأنبا أنطونيوس، ص١٣.

(٣٤) أثناسيوس، سيرة القديس أنطونيوس، ص١٨.

(٣٥) بستان الرهبان لآباء الكنيسة القبطية، بني سويف، ١٩٦٨م، ص٢١؛ أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس أنطونيوس، ص١٤؛ لوقا الأنطوني، أب رهبان العالم، ص٤٠.

(٣٦) متى ١٩ : ٢٠.

(٣٧) القديس أثناسيوس، سيرة القديس أنطونيوس، ص١٨.

(٣٨) متى ٦ – ٣٤.

(٣٩) القديس أثناسيوس، سيرة القديس، ص١٩؛ أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس، ص١٤-١٥؛ لوقا الأنطوني، أب جميع الرهبان، ص٤٢؛ منسي يوحنا، تاريخ الكنيسة، ص٧٦؛ حكيم أمين، دراسات، ص١٨.

(٤٠) أثناسيوس، سيرة القديس، ص١٩؛ الأب متى المسكين، الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٤٧، ٤٨ ؛ حكيم أمين، دراسات، ص١٨.

(٤١) سيرة القديس انطونيوس، ص١٩.

(٤٢) أثناسيوس، سيرة حياة القديس أنطونيوس، ص١٩؛ وانظر أيضًا منسي يوحنا، تاريخ الكنيسة القبطية، ص٧٦؛ أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس، ص١٦.

(٤٣) رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي، ٥ : ١٦.

(٤٤) لوقا ١٢ : ٢٩ : ٣١.

(٤٥) اثناسيوس، سيرة القديس، ص٢٢.

(٤٦) تاريخ أبو المكارم عن الكنائس والأديرة في القرن ١٢م في آسيا وأوربا، ج٢، ص٦٨.

(٤٧) أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس، ص١٦؛ لوقا الأنطوني، أب رهبان العالم، ص٤٥.

(٤٨) أثناسيوس، سيرة القديس، ص١٩، ٢٢.

(٤٩) أثناسيوس، سيرة القديس، ص٢٠.

(٥٠) ذكر أميلينو في جغرافيته قرية باسم بسبير وأنها قرية الميمون، مركز الزاوية الواسطى الآن، ولكن ثبت أن بسبير هي القرية التي تعرف اليوم باسم (دير الميمون) الواقعة قبالة الميمون مركز الواسطى، بني سويف. انظر محمد رمزي، القاموس الجغرافي، ج٣، م٢، ص١٣٢.

(٥١) وقد سماه المقريزي دير الجميزة ودير الجود، والدير التحتاني، ويسمى البحارة موضعه جزائر الدير. انظر : المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٥٠٢. وعن دير الجميزة انظر : تاريخ أبو المكارم عن الكنائس والأديرة في القرن ١٢م، ج٢، ص٦٩.

(٥٢) القديس أثناسيوس، سيرة القديس أنطونيوس، ص٢٥، ٢٦ ؛ الأب متى المسكين، الرهبنة القبطية، ص٤٧؛ أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس، ص٢١؛ مكسيموس مظلوم، كتاب الكنز الثمين في أخبار القديسين، بيروت، ١٨٦٤م، ج٢، ص٩٣-٩٤.

(٥٣) رأفت عبدالحميد، الفكر المصري، ص٢٧٢.

(٥٤) بلاديوس Palladius (٣٦٥-٤٢٥) أسقف هلينوبوليس في بيثينيا بآسيا الصغرى، وهو من أشهر الرحالة الذين قدموا إلى مصر، وزاروا أديرتها، زار مصر مرتين الأولى ٣٨٨م، والثانية استمرت ست سنوات (٤٠٦-٤١٢م)، وقد تعرف خلالها على تنظيمات الأديرة المصرية، وسجل مشاهدته في كتاب أسماه (الفردوس) معتبرًا أن هذه القفار التي يقيم فيها المتوحدون وساكنو الأديرة جنانًا تستضئ بنور إيمانهم.

(٥٥) مظلوم مكسيموس، كتاب الكنز الثمين، ج٢، ص٩٥.

(٥٦) سميت قلاية لأنها تقلي الراهب أي تحمصه وتزيل ما فيه من طراوة ورخاوة. انظر : الأنبا متاؤس، سمو الرهبنة، ص١٠١.

(٥٧) الأنبا متاؤس، سمو الرهبنة، ص٩٧-٩٨.

(٥٨) القديس أثناسيوس، سيرة القديس أنطونيوس، ص٢٦، ٢٧ ؛ وانظر أيضًا : رءوف حبيب، الرهبنة، ص٤٢؛ السيد الباز العريني، مصر البيزنطية، ص٢٩؛ الأب متى المسكين، الرهبنة القبطية، ص٤٧-٤٨، ٤٩ ؛ رأفت عبدالحميد، الفكر المصري، ص٢٥٨-٢٦٢، ٢٧٢-٢٧٣؛ ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحي، ص٤٧؛ صبري أبو الخير، تاريخ مصر في العصر البيزنطي، ص٦٦-٦٧.

(٥٩) الأب متى المسكين، الرهبنة القبطية، ص٤٨.

(٦٠) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٥٠٢؛ أبو المكارم، الكنائس والأديرة، ج٢، ص٦٩.

(٦١) انظر محمد رمزي، القاموس الجغرافي، ج٣، م٢، ص١٣٢.

(٦٢) الأب متى المسكين، الرهبنة القبطية، ص٤٩-٥٠. وعن القديس مكاريوس والقديس كرونيوس Chronius تلميذا الأنبا أنطونيوس انظر : القديسان بلاديوس وجيروم، بستان القديسين، ص٣٨٨-٣٩٠، ٥١٢-٥١٧، ٥٩٦.

(٦٣) أثناسيوس، سيرة القديس، ص٤٤-٤٥؛ وانظر أيضًا : منسي يوحنا، تاريخ الكنيسة، ص٨١؛ السنكسار، ج١، ص٢٨١.

(٦٤) وادي عربة سهل يصل عرضه إلى حوالي ثلاثين كيلومتر، وطوله يقرب من تسعين كيلو متر، وينتهي إلى ساحل البحر الأحمر، ويبعد حوالي مائة كم عن النيل. انظر : "الرهبنة القبطية وجبل القديس أنطونيوس"، مقال بمجلة معهد الدراسات القبطية، العدد الأول، ١٩٥٨م، ص٨.

(٦٥) سمي بذلك نسبة إلى القلالي التي كان يزدحم بها. انظر : سيرة القديس أنطونيوس وتاريخ ديره العامر، مجمع رهبان الدير، ص٢٦.

(٦٦) أثناسيوس، سيرة القديس، ص٤٤، ٤٥.

(٦٧) أثناسيوس، سيرة القديس، ص٤٥.

(٦٨) القديس أثناسيوس، سيرة القديس أنطونيوس، ص٤٥.

(٦٩) القديس أثناسيوس، سيرة، ص٤٥.

(٧٠) أثناسيوس، سيرة، ص٤٣.

(٧١) انظر : انطونيوس الأنطوني، سيرة القديس، ص٢٠؛ وانظر أيضًا دورليان، القديسون المصريون، ترجمة ميخائيل مكسي إسكندر، ومريام جميل سليمان، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٤٩.

(٧٢) القديس أثناسيوس، سيرة القديس، ص٤٣.

(٧٣) سيرة القديس أنطونيوس، ص٤٧-٥١.

(٧٤) حكيم أمين، دراسات في تاريخ الرهبانية، ص٢١.

(٧٥) الكنائس والأديرة في القرن ١٢م، ج٢، ص٦٨؛ وانظر أيضًا : رءوف حبيب، الرهبنة والديرية، ص٤٧؛ لبيب حبشي وزكي تادضروس، في صحراء العرب، ص٦٦، ٧١.

(٧٦) المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٥٠٢.

(٧٧) سيرة القديس، أنطونيوس، ص٤٢.

(٧٨) سيرة القديس، أنطونيوس، ص٤٠، ٤٩.

(٧٩) انظر القديسان بلاديوس وجيروم، بستان القديسين، ص٤٤٧، ٤٤٩.

(٨٠) الأنبا متاؤس، سمو الرهبانية، ص٧٨؛ مجمع رهبان الدير، سيرة القديس أنطونيوس، ص٤٢.

(٨١) بوش كورة ومدينة بمصر من نواحي الصعيد الأدنى غربي النيل بعيدة عن الشاطئ. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٥٨.

(٨٢) بلد بصعيد مصر على الشاطئ الشرقي للنيل وإلى الجنوب من مصر.

(٨٣) الخطط التوفيقية، ج٩، ص٢٤٥.

(٨٤) تاريخ الكنيسة القبطية، ص٥٠٤.

(٨٥) حكيم أمين، دراسات في تاريخ الرهبانية، ص١٢٥، ١٣٦-١٣٩.

(٨٦) حكيم أمين، دراسات، ص١٤٨.

(٨٧) نقلاً عن حكيم أمين، دراسات، ص١٥٦.

(٨٨) ايريس حبيب المصري، قصة الكنيسة القبطية، ج١، ص١٠٤؛ صبري أبو الخير سليم، تاريخ مصر في العصر البيزنطي، ص٦٧.

(٨٩) أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس، ص٦١؛ الأنبا متاؤس، سمو الرهبنة، ص٧٠.

(٩٠) ايريس حبيب المصري، قضية الكنيسة، ج١، ص١٠٤، ١٠٥.

(٩١) حكيم أمين، دراسات، ص١٤٨؛ السيد الباز العريني، مصر البيزنطية، ص٣٢.

(٩٢) حكيم أمين، دراسات، ص١٦٣-١٦٤.

(٩٣) حكيم أمين، دراسات، ص١٦٨.

(٩٤) أبو المكارم، الكنائس والأديرة، ج٢، ص٦٨.

(٩٥) انظر القديس أثناسيوس، سيرة القديس أنطونيوس، ص٦٦؛ ايريس حبيب، قصة الكنيسة، ج١، ص١٠٥؛ حكيم أمين، دراسات، ص١٣٤؛ صبري أبو الخير، تاريخ مصر، ص٦٧.

(٩٦) مكسيموس مظلوم، الكنز الثمين، ج٢، ص٩٦؛ ايريس حبيب، قصة الكنيسة، ج١، ص١٠٥؛ حكيم أمين، دراسات، ص٢١.

(٩٧) عن القديس باخوميوس انظر : القديسان بلاديوس وجيروم، بستان القديسين، ص٥١٩-٥٢١، ٥٢٦-٥٤٠؛ رءوف حبيب، الرهبنة والديرية، ص١٦١-١٦٦م.

(٩٨) طارق منصور، قطوف الأدب البيزنطي، ج١، ص٥٠؛ أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس، ص٦٦.

(٩٩) هو واضع أسس حركة الرهبانية في وادي النطرون، وأب أول جماعة ديرية هناك. ولمزيد من التفاصيل انظر : القديسان بلاديوس وجيـــروم، بســـتان، ص٣٧٧-٣٧٨، ٥٩٤-٥٩٥؛ رعوف حبيب، الرهبنة، ص٦١-٦٥؛ الأب متى المسكين، الرهبنة القبطية، ص١٧٨-١٨٢.

(١٠٠) الرهبنة القبطية، ص٤٩-٥٠؛ وانظر أيضًا : حكيم أمين، دراسات، ص١٢٤.

(١٠١) لمزيد من التفاصيل عن الأنبا مكاريوس السكندري انظر بلاديوس، بســتان القديســين، ترجمة ميخائيل مكسي إسكندر، ٣٨٨-٣٩٠؛ دورليان، القديسون المصـــريون، ترجمـــة ميخائيل مكسي إسكندري ومريام جميل سليمان، ص٧-١٠؛ الأب متى المسكين، الرهبنة القبطية، ص٢٠٨ وما يليها؛ رعوف حبيب، الرهبنة، ص٦٥-٧١.

(١٠٢) الأسكيم كلمة قبطية معناها شكل وهي وعبارة عن قطعة من الجلد المضـــفور، تتخللـــه الصلبان على أبعاد متساوية، وهو يحيط بمن يرتديه من الأمام والخلف، وبـــه صـــليبان كبيران، أحدهما للصدر والآخر للظهر، ثم اثنى عشر صليبًا صغيرًا من الجلد المضفور، ويرتديه الرهبان والنساك الذين بلغوا درجة عالية من النسك والزهد والتقشف. انظر الأنبا متاؤس، سمو الرهبنة، ص١٤٩.

(١٠٣) الأب متى المسكين، الرهبنة القبطية، ص٥٠، ٥١.

(١٠٤) السيد الباز العريني، مصر البيزنطية، ص٣٠.

(١٠٥) سمير فوزي، القديس مرقس، ص١٠٠.

(١٠٦) بستان الرهبان، ص٢٤، القديسان بلاديوس وجيروم، بستان القديسين، ص٢١٣.

(١٠٧) رأفت عبدالحميد، الفكر المصري في العصر المسيحي، ص٢٥٧.

(١٠٨) أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس، ص٩٢، ٩٣.

(١٠٩) أثناسيوس، سيرة القديس أنطونيوس، ص١٧.

(١١٠) أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس، ص٩٢.

(١١١) رأفت عبدالحميد، الفكر المصري، ص٢٦.

(١١٢) أريوس هو أحد قساوسة كنيسة الإسكندرية، تعلم في مدرسة إنطاكية ثـــم أم الإســـكندرية حيث انخرط في سلك الكهنوت. أما عن مذهبه فقد اعتقد في المذهب القائل بـــأن الســـيد المسيح ليس إلا مخلوقا جاء من العدم وأنه ليس من نفس المادة الإلهية، ويؤمن بأن الابن لا يساوي الأب في الجوهر ولا في الأزلية.

(١١٣) سيرة القديس أنطونيوس، ص٥٤.

(١١٤) القديس أثناسيوس، سيرة، ص٥٥؛ انظر أيضًا : أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس، ص٩٣، ٩٤.

(١١٥) رأفت عبدالحميد، الفكر المصري، ص٢٠٨؛ الدولة والكنيسة، ج٣، ص٩٤؛ طارق منصور، قطوف الأدب البيزنطي، ج١، ص٥٢.

(١١٦) أثناسيوس، سيرة القديس، ص٥٥؛ وانظر أيضًا، رأفت عبدالحميد، الفكر المصري، ص٢٨٠؛ الدولة والكنيسة، ج٣، ص٩٥، هامش ٦١.

(١١٧) نقلاً عن القمص لوقا الأنطوني، أب رهبان العالم، ص١٠٥.

(١١٨) أثناسيوس، سيرة القديس، ص٥٤، ٥٥.

(١١٩) القديس أثناسيوس، سيرة القديس أنطونيوس، ص١٧؛ وانظر أيضًا : رأفت عبدالحميد، الفكر المصري، ص١٧٨.

(١٢٠) القديس أنطونيوس، ص٢٦.

(١٢١) ولد أوغسطين في طاجستا أو طاجسطا Tagesta في مقاطعة نوميديا (الجزائر) في نوفمبر ٣٥٤م من أب وثني وأم مسيحية؛ درس أوغسطين في طفولته مبادئ اللغة اللاتينية والحساب في طاجستا، ثم درس الخطابة في قرطاجنة، وهناك اتخذ لنفسه محظية عاشرها عشر سنوات وأنجب منها ابنًا، ولكنه ما لبث أن تاب توبة روحية أخلاقية وتغيرت أفكاره. لمزيد من التفاصيل انظر : الأنبا غريغوريوس، الفيلسوف القديس أوغسطين، ص٣-١٠.

(١٢٢) الأب متى المسكين، القديس أنطونيوس، ص٢٦.

(١٢٣) الأنبا غريغوريوس، الفيلسوف القديس، ص٩.

(١٢٤) مكسيموس مظلوم، الكنز الثمين في أخبار القديسين، ج٢، ص١٠٠-١٠١.

(١٢٥) انظر : رأفت عبدالحميد، الدولة والكنيسة، ج٣، ص١٧٩؛ الفكر المصري، ص٢٥٨؛ الأب متى المسكين، القديس أنطونيوس، ص٥، ٩، ١١.

(١٢٦) مزمور ١٩ : ٤

(١٢٧) القديس أثناسيوس، سيرة القديس، ص٦٠؛ السنكسار، ج١، ص٢٨٢؛ أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس، ص١٠٦؛ مكسيموس مظلوم، الكنز الثمين، ج٢، ص٩٨-٩٩.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس.
- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج٢، القاهرة، بدون تاريخ.
- ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار الشعب، بدون تاريخ.
- أبو المكارم، تاريخ أبو المكارم عن الكنائس والأديرة في آسيا وأوربا في القرن ١٢، ج٢ عن الوجه القبلي، إعداد الأنبا صموئيل، القاهرة، بدون تاريخ.
- آباء الكنيسة القبطية، بستان الرهبان، بني سويف، ١٩٦٨م.
- أثناسيوس (القديس)، سيرة القديس، أنطونيوس الكبير، نقلها عن اليونانية ميشال نجم، منشورات معهد القديس يوحنا الدمشقي، بدون تاريخ.
- أنطون فهمي جورج، البتولية في فكر الآباء، الإسكندرية، ١٩٩٦م.
- أنطونيوس الأنطوني، سيرة القديس " أنطونيوس "، القاهرة، بدون تاريخ.
- إيريس حبيب المصري، قصة الكنيسة القبطية، الأجزاء ١-٤، بالقاهرة، ١٩٧٥-١٩٨٦م.
- بلاديوس وجيروم (القديسان)، بستان القديسين، ترجمة ميخائيل مكسي إسكندر، جزءان، القاهرة، ١٩٩٩م.
- جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، ترجمة فهيم عزيز، ثلاثة أجزاء، القاهرة، ١٩٨٥م.
- حكيم أمين، دراسات في تاريخ الرهبنة والديرية المصرية مع دراسات مقارنة لرهبنة وادي النطرون حتى الفتح العربي، القاهرة، ١٩٦٣م.
- دورليان (بول شينو)، القدسيون المصريون، ترجمة ميخائيل مكسي إسكندر ومريام جميل سليمان، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- رأفت عبدالحميد، ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحي، القاهرة، ١٩٧٣م.
- ــــــــــــ، الدولة والكنيسة، ج٣، القاهرة، بدون تاريخ.
- ــــــــــــ، الفكر المصري في العصر المسيحي، القاهرة، ٢٠٠١م.

- رءوف حبيب، الرهبنة والديرية في مصر وآثارهما الإنســانية علــى العــالم، القــاهرة، ١٩٧٨م.
- ساجي سليمان عزيز، الأنبا بولا، القاهرة، بدون تاريخ.
- سمير فوزي، القديس مرقس، سلسلة تاريخ المصريين، القاهرة.
- السنكسار، الكتاب الجامع لأخبار الأنبياء والرسل والشهداء والقديسين، وضع الأنبا بطرس جميل والأنبا ميخائيل والأنبا يوحنا وغيرهم، جزءان، القاهرة، ١٩٧٨م.
- السيد الباز العريني، مصر البيزنطية، القاهرة، ١٩٦١م.
- صبري أبو الخير سليم، تاريخ مصر في العصر البيزنطي، القاهرة، ١٩٩٧م.
- طارق منصور، قطوف الأدب البيزنطي، القاهرة، ٢٠٠١م.
- علي مبارك، الخطط التوفيقية، ج٩، القاهرة.
- القمص كيرس الأنطوني، كوكب البرية القديس الأنبا " أنطونيوس "، القاهرة، بدون تاريخ.
- لبيب حبشي وزكي تاضروس، في صحراء العرب والأديرة الشرقية، القاهرة، ١٩٢٩م.
- لوقا الأنطوني (الراهب القمص)، الرهبنة والقديسان العظيمــان الأنبــا " أنطونيــوس " والأنبا "بولا "، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ــــــــــــــــــــــ، أب جميع رهبان العالم، القاهرة، بدون تاريخ.
- متاؤس (الأنبا)، سمو الرهبنة، القاهرة، ١٩٨٥م.
- متى المسكين (الأب)، الرهبنة القبطية في عصر الأنبا مقار، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ــــــــــــــــــــــ، سيرة القديس أنطونيوس، القاهرة، بدون تاريخ.
- مجمع رهبان الدير، سيرة القديس الأنبا " أنطونيوس " وتاريخ ديره العامر، مصر، بدون تاريخ.
- محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهــد قــدماء المصــريين حتــى ١٩٤٥م، ج٣، م٢، القاهرة، ١٩٩٤م.
- محمد عبدالغني، أضواء على المسيحية المبكرة، إسكندرية، ١٩٩٣م.
- المقريزي (أحمد بن علي ت ٨٤٥هــ/١٤٤٢م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية)، جزءان، بيروت، ١٨٦٤م.

- مكسيموس مظلوم، كتاب الكنز السمين في أخبار القديســين، المجلــد الثــاني، بيــروت، ١٨٦٤م.
- منسي يوحنا (القمص)، تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، أربعة أجزاء، بيروت، بدون تاريخ.
- " يوسابيوس " القيصري، تاريخ الكنيسة، ترجمة مرقس داود، القاهرة، ١٩٧٩م.
- الرهبنة القبطية وجبل القديس " أنطونيوس "، (مقال منشور بمجلة معهد الدرسات القبطية، العدد الأول)، ١٩٨٥م.

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

- Donald Attwater, A Dictionary of Saints, Britain, 1978.
- Griggs, W., Early Egyptian Christianity from its Origins to 451 C.E., Brill, 1991.
- Judge, I. A., " The Earliest Use of Monachos For Monk, and The Origins of Monasticism ", In Jahr buch Fűr Antike und Christentum, 20, 1971.

أسواق مدينة فاس في عصر المرابطين

٤٨٠-٥٤٠هـ / ١٠٥٦-١١٤٥م

د. فاطمة عبد القادر رضوان
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
بجامعة أم القرى

مقدمة :

مدينة فاس رغم أنها لم تكن عاصمة المرابطين[١] إلا أنها بلغت في عهدهم ذروة ازدهارها الاقتصادي وقد وصفها الجزنائي[٢] بقوله : " وانتهت مدينة فاس في أيام المرابطين والموحدين عن بعدهم من الغبطة والرفاهية، والدعة والأمن والعافية ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب ".

كما وصفها عبد الواحد المراكشي[٣] فقال : " مدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب – من وقتنا هذا – وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب بحق ما قالوا ذلك فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللياقة من كل معنى إلا هو منسوب إليها، وموجود فيها لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب، ولم تتخذ لمتونه والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة، لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونه " ومعروف أن عبد الواحد المراكشي مؤرخ عاصر الموحدين وكان مع بعض أمرائهم ولم يمنعه ذلك من أن يقرر حقيقة ما كانت عليه مدينة فاس من ازدهار اقتصادي ونشاط تجاري في عصر المرابطين.

فمن الثابت تاريخياً أن عصر المرابطين كان بالنسبة لبلاد المغرب عصر قوة ووحدة سياسية شهدتها البلاد فقد عانى المغرب من أواسط القرن الخامس الهجري قبل قيام دولة المرابطين كثيراً من مظاهر الفوضى والاضطراب السياسي وتحولت

إلى إمارات متناحرة، وكان من جراء ذلك تدهور الأوضاع السياسية والاقتصـــادية وظل الأمر على ذلك حتى قامت حركة عبد الله بن ياسين.

وقد وصف ابن عذاري[٤] أحوال بلاد المغرب قبل قيـــام دولـــة المـــرابطين بقوله: " أهل المغرب كانوا يتولون أمور بلادهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس ".

وكانت القوى التي سيطرت على المغرب قبل المرابطين هي قبائل برغواطه في الغرب وقبائل زناته التي كانت تكون نطاقاً حول برغواطه وطوائـــف الشـــيعة والرافضة في الجنوب وقبائل غمارة في الشمال، وكانت برغواطه أقوى تلك القبائل المسيطرة[٥].

لقد بدأ المرابطون عصرهم بتطهير بيت المال من الضرائب غير الشـــرعية واكتفى عبد الله بن ياسين بالزكاة والعشور واسقط كل ما عدا ذلك مـــن جبايـــات ومغارم وسار على خطته المرابطون من بعده[٦].

وكان هذا بداية التطور الاقتصادي الذي شهدته مدينة فاس منذ أن خضـــعت لنفوذ المرابطين عام ٤٦٢هـ/١٠٦٩م بتطبيقهم لشـــريعة الإســـلام فـــي الحيـــاة الاقتصادية.

موقع مدينة فاس ونشأتها :

تمتاز مدينة فاس بالموقع الهام حيث تقع عند النقطة التـــي يتقـــاطع عنـــدها محوران رئيسيان أحدهما يمتد من الشمال إلى الجنوب يربط بين البحر المتوســـط والجنوب ومحور غربي شرقي يربط بين ســـاحل المحـــيط الأطلســـي والمغـــرب الأوسط[٧] فضلاً عن سيطرته على وادي سبو وقرية من حمم الينابيع الحارة.

ويذكر الاصطخري[٨] أن فاس عاصمة إقليم طنجة الـــذي يصـــفه بقولـــه : " طنجة كورة عظيمة تحيط بمدن وقرى وبواد ومدينتها فاس ".

ويصفها اليعقوبي بقوله[٩] : " مدينة جليلة كثيرة العمـــارة والمنـــازل ومـــن الجانب الغربي من نهر فاس وهو نهر يقال أنه أعظم من جميع أنهار الأرض عليه

ثلاثة آلاف رحى للطن ".

وكان لموقع فاس المتوسط أثره في أن تكون مركز النشاط التجاري بين شرق المغرب وغربه وشماله وجنوبه وكانت من أهم المدن التجارية المغربية على الطريق إلى بلاد السودان(١٠).

نشأة مدينة فاس(١١) وتخطيطها :

تؤكد المصادر التاريخية(١٢) أن تخطيط مدينة فاس تم على يد الإمام إدريس الثاني وكان على مرحلتين.

المرحلة الأولى وتم فيها تأسيس عدوة الأندلسيين وقد شرع في بنائها في غرة ربيع الأول سنة ١٩٢هـ، والمرحلة الثانية بدأت في مستهل ربيع الثاني سنة ١٩٣هـ، وفيها تأسست عدوة القرويين.

وكان تخطيط مدينة فاس كغيره من اختطاط المدن الإسلامية يسير وفق منهج إسلامي يكون المسجد فيه هو دعامة المدينة ومحورها وأول ما يخطط فيها وأساس التنظيم العمراني بها كما في القيروان والفسطاط والبصرة والكوفة وغيرها.

وقد أسس إدريس بن إدريس مدينة في غربي مدينة فاس التي أسسها إدريس بن عبد الله سماها العالية ويذكر اليعقوبي أنها سميت افريقية وسميت بعد ذلك مدينة القرويين أي القيروانيين، وقد وفد أهل قرطبة إلى المغرب الأقصى لاجئين إلى دولة الأدارسة أنزلهم إدريس في مدينة أبيه وأنشأوا بها مدينتهم التي سميت بمدينة الأندلسيين وأصبح اسم فاس يطلق على المدينتين معاً (١٣).

وقد قرر كل من اليعقوبي والمقدسي وجود مدينتين منفصلتين إلا أنها لم تقدم معلومات وافية عن نشأت هاتين المدينتين. وكذلك الأدريسي الذي ألف كتابه في القرن السادس الهجري وإن كان يتحدث عن مدينتين منفصلتين وإن المدينتين قد اتخذتا من مدينة واحدة قبل ذلك بعشرات السنين (١٤).

وقد ذكر صاحب رسالة في ذكر من أسس فاس " فما أن أسس الإمام إدريس الثاني عدوة الأندلس حتى بنى بها جامعاً يرحبه البئر وهو المعروف بجامع الاشياح

وأقام فيه الخطبة وما أن انتقلت إلى عدوة القرويين حتى بدأ بنائها بإقامة المسجد الجامع الذي عرف بجامع الشرفاء " (١٥).

لقد كانت مدينة فاس مقصد عدد كبير من القوافل التي كانت تأتي إليها بأنواع التجارات المختلفة وذلك لموقعها المتوسط بين الطرق الرئيسية في شمال المغرب وارتباطها بتلمسان فضلاً عن أنها تتصل بالطريق الجنوبي عبر سجلماسه (١٦).

وكان التجار يتجهزون من فاس إلى بلاد السودان وإلى المشرق وكان يحمل منها النحاس الأصفر إلى جميع الآفاق (١٧).

هذا فضلاً عن الطرق التجارية التي تربط فاس بمنيائي سبته وطنجه اللتان تعتبر من أهم الموانئ التجارية بين المغرب والأندلس (١٨).

ولما كان السوق من المتطلبات الأساسية للجماعة الإسلامية فقد خصص الإمام إدريس الثاني الأرض المجاورة لكل مسجد من العدوتين (١٩) لتكون سوق في كل منهما.

وهو أمر متبع عادة في تخطيط المدن الإسلامية فلما كان المسجد الجامع هو مركز المدينة فالأسواق عادة تقام حوله حيث أنه مركز تجمع الناس للصلاة.

وكانت الشوارع الرئيسية في العدوتين تتجه إلى المسجد الجامع لكل منهما ففي عدوة الأندلسيين كانت الشوارع الرئيسية تمتد من أبواب المدينة إلى رحبة المسجد الجامع، وكذلك في عدوة القرويين فكانت تمتد شوارعها بين رحبة المدينة حيث المسجد الجامع " مسجد الشرفاء " (٢٠) وأطرافها عند الأبواب ومن بينها الشارع الذي يمتد من رحبة المدينة إلى شرق المدينة وهو الشارع الذي يربط هذه العدوة بعدوة الأندلسيين (٢١)، كما ذكر البكري أن هذا الطريق كان يقابله من الجهة الأخرى شارع يمتد من الرحبة إلى غرب المدينة لينتهي إلى باب افريقية وكان هذا الطريق يؤدي إلى سوق سماه سوق الأحد ويبدو من اسمه أنه كان سوقاً أسبوعياً يقام يوم الأحد (٢٢).

وتميزت مدينة فاس برونقها ونظافتها وقد وصف ابن حوقل شوارعها في القرن الرابع الهجري بقوله : " في كل يوم يرسل في أسواقها وشوارعها من نهرها

الماء فتغسل ". كما يشير إلى رصف شوارعها بالحجارة[٢٣] وكانت القناطر العديدة تربط بين عدوتي القرويين والأندلسيين[٢٤] وتميزت كل من العدوتين بطابع خاص يعكس سمات سكانها، فعدوة الأندلسيين التي نزلها البربر وأهل الأندلس وجميع أجناد الإمام وقواده وهم عناصر متعددة متقاربة من حيث المستوى الاجتماعي والاقتصادي واتسمت ببساطة العيش والطبيعة الفلاحية[٢٥]. بينما عدوة القرويين التي نزلها العرب والفرس اتسمت بالطابع التجاري وكثرة النبلاء وقد وصفها الإدريسي[٢٦] بأنها " جليلة كثيرة العمارة والمنازل تشير إليها ركائب القوافل ويجلب إلى حاضرتها كل غريب من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة.

وقد علل المستشرق Tersasse [٢٧] حرص الإمام على تقسيم المدينة إلى منطقتين بأن جعل عدوة الأندلسيين مقراً لقبائل البربر التي كان لها الفضل في تأسيس دولته إلا أنه أراد أن يفصل بينهم وبين العرب فجعل العدوة الثانية للعرب حتى لا يحدث صراع بينهما، وقد حدث صراع بين العدوتين بعد خروج فاس عن حكم الأدارسة في محاولة الهيمنة على المدينة وقد انتهى الأمر بظهور المرابطين وإعادة توحيد المدينة وبداية عهد جديد لها.

مدينة فاس في عهد المرابطين :

يرجع الفضل للمرابطين في تكوين وحدة سياسية للمغرب الأقصى فإلى يوسف بن تاشفين [٢٨] يرجع الفضل في ضم الأراضي المغربية وتوحيدها سنة ٤٧٦هـ.

فقد تمكن الصنهاجيون من فرض نفوذهم في القسم الغربي من بلاد المغرب حين نجحوا في هزيمة الزناتين [٢٩] وتوحيد أجزاء المنطقة بجهود كبيرة ثم تمكن المرابطون من دفع الحضارة الاندلسية إلى بلاد المغرب وفتحوا لها الأبواب [٣٠].

وقد شهدت فاس في عصر المرابطين حركة عمرانية واسعة في عدوة القرويين بصفة خاصة واكتظت بالسكان " وضاق جامع القرويين بالمصليين حتى كان الناس يصلون في الأسواق والشوارع المحيطة بالجامع أيام الجمع " [٣١].

وأول تطور حدث لمدينة فاس في عصر المرابطين هو قيام يوسف بن

تاشفين بهدم الأسوار الفاصلة بين مدينتي فاس " وأصبح جامع القرويين هو الجامع الرئيسي بفاس "(٣٢).

الأسواق :

يستفاد من النص الذي أورده الجزنائي(٣٣) عن توسعة المسجد بأن أبواب المسجد كانت ملاصقة للسوق حيث يذكر " استأذن القاضي أمير المسلمين علي بن يوسف في إجراء زيادة بالمسجد فأذن له بالشروع فيها عام ٥٢٨هـ ".. وابتدأ القاضي بنزع ملكية الدور الملاصقة للجامع من جهة قبلته وهدمها فأعاد بناء الباب الغربي الكبير المعروف بباب الفخارين " مما يوضح أن الباب كان يطل على سوق لبيع الفخار(٣٤).

وكان القسم الغربي من المدينة يحتوي على سوق لمختلف أنواع التجارات والصناعات بينما يضم القسم الشرقي في المدينة عدداً أقل من أنواع التجارات ولا توجد به دكاكين لأصحاب الحرف كالخياطين والحذائيين والنجارين باستثناء بعض باعة القماش. وفيه سوق صغيرة للعطارة لا تضم سوى ثلاثين دكانا(٣٥)، واشتهرت من تلك الدكاكين تلك التي تبيع " البرانس المديونية "(٣٦) التي لا ينفذ منها المطر والتي كانت تضع في أحد ضواحي مدينة فاس.

وكانت أسواق فاس تضم حوانيت لبيع الدقيق حيث كان يجلب القمح إلى فاس من القرى الكثيرة المنتشرة على الطريق إلى تلمسان(٣٧)، وكان بها محلات لبيع الزيتون وزيته، كما كان يرد إلى فاس التين بعد تجفيفه من حض مسيله الذي تكثر به أشجار التين(٣٨)، كما كان يباع في أسواق فاس أجود الأخشاب منها خشب الأرز الذي كان يجلب إليها من غابة تبعد عن المدينة نحو ثلاثين ميلاً (٣٩) وكانت فاس قد اشتهرت بصناعة القوارب النهرية(٤٠) وكان بها داراً لصناعة القوارب والسفن الصغيرة.

وتضم أسواقها محال لبيع مستلزمات تلك الصناعة، كما اشتهرت أسواقها ببيع المنتجات الخشبية من الأثاث وغيره(٤١)، وكان أمراء المرابطين منذ أيام يوسف بن تاشفين حريصين على استقدام رجال الفن من الأندلس وخبراء الصناعة

بها[٤٢].

وكانت تعقد أسواق أسبوعية خارج أسوار المدينة كسوق الخميس الذي كانت تباع فيه الحيوانات وكان هذا السوق ملتقى سكان فاس بالمناطق الريفية حولها الذين كانوا يفدون إليها بحيواناتهم من الأبقار والأغنام والطيور.

وقد تنوعت الثروة الحيوانية التي كانت تعرض في أسواق فاس[٤٣].

ويكاد يجمع المؤلفون[٤٤] الذين تناولوا ذكر مدينة فاس في عصر المرابطين أنها بلغت ذروة ازدهارها الاقتصادي وأن انتقال العاصمة السياسية إلى مراكش في الجنوب لم يقل من أهميتها ودورها في توجيه الحياة الاقتصادية في عصر المرابطين.

كما كانت هناك أسواق متخصصة لأنواع معينة من التجارة مثل سوق " عين علون "[٤٥] الذي اختص ببيع السمن والزيت وسوق الملق أي سوق الأثواب الجديدة من القماش ويبدو أنه كان سوقاً للبيع بالجملة حيث يباع القماش لفة واحدة. وهو سوق ينتسب إلى موضع بعين.

هذا فضلاً عن أسواق صناع الرماح والمحاريث والسيوف. كما تميزت أسواق فاس بمصنوعاتها الخشبية والنحاسية إذ اشتهر أهلها بحسن الصنعة في المخروطات من الخشب والنحاس[٤٦].

وكانت هناك بعض الأسواق على هيئة معامل يشتغل أربابها بتحويل المواد الخام الأولية إلى مصنوعات مثل حياكة الأقمشة المنسوجة من الصوف والحرير والقطن والكتان. كما كانت هناك " حلق " لبيع الخضار والفاكهة حيث يعقد لها مزاد بواسطة الدلالين[٤٧] الذين يشترط لقيامهم بهذه المهمة أن يكونوا ممن يتسمون بالأمانة والصدق " فلا ينبغي لأحد منهم أن يزيد في السلعة من نفسه ولا يقبض عن السلعة من غير أن يوكله صاحبها في القبض "[٤٨].

ويمكننا أن نؤكد وجود أسواق متخصصة من إشارة ابن القطان[٤٩] إلى الحريق الذي شب في فاس عام ٥٣٣هـ حيث يذكر : " وقع الحريق في سوق مدينة فاس واحترق من رأس عقبة الخرازين إلى باب بياض، واحترق سوق الثياب

والقرافين وغير ذلك من الأسواق إلا البقالون ". وقد أشار المقدسي(٥٠) إلى ظاهرة التخصص في الأسواق بأن تجمع كل طائفة من التجار في سوق خاص بهم كسوق النحاسين.

ويشير الحسن الوزان إلى سوق الجزارين بقوله : " كان لليهود بفاس القديمة أربعون دكاناً يباع فيها اللحم بالوزن لدى خروجه من المجازر الواقعة على النهر إلى جانب حوانيت أخرى للجزارين في بقية الأحياء، وكان المسلخ يقام على مقربة من مخرج النهر من المدينة وبعد سلخ الذبائح تؤخذ جلودها لدباغتها، وتعني الدباغة معالجة الجلود بإصلاحها وتليينها وإزالة ما يفسدها باستخدام مواد مساعدة تعين على إزالة الصوف والشعر(٥١).

وكانت العادة في المدن الإسلامية عامة فضلاً عن إقامة الأسواق بجانب المسجد الجامع كما قدمنا كان يفضل انعقاد الأسواق في الأماكن التي تقع على الأنهار ففي ايجلي قاعدة بلاد السوس التي تقع على النهر الكبير المسمى بوادي السوس، وكان سوق خسانه يقع على نهر سبو الذي يخترق مدينة فاس(٥٢).

يشير صاحب كتاب جني زهرة الأس إلى عمارة أسواق في عصر المرابطين بقوله : " فليس من أهل بلد ولا إقليم إلا ولهم بها منزل ومتجر وصناعة ومتصرف "(٥٣).

فأصبحت القوافل التجارية تخرج من فاس إلى مراكز الأسواق الكبرى في المغرب الأقصى وجنوب الصحراء، وقد صور ذلك المراكشي بقوله : " ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها من الأماكن إلا العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة "(٥٤).

ولعل المراكشي يقصد بذلك أنها مكتفية في ضروريات الحياة من السلع الأساسية ومع هذا الاكتفاء كانت أسواقها تمتلئ بأنواع السلع التي تأتيها مع القوافل القادمة من مدن المغرب المختلفة ويشير إلى ذلك الإدريسي (٥٥) بقوله : " وإليها تقصد القوافل ويجلب إلى حضرتها كل غريب من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة

وأهلها مياسر ولها من كل شيء حسن أكبر نصيب وأوفر حـظ وبـذلك صـارت المدينة تعجُ بالتجار من مدن المغرب المختلفة الذين اتخذوا في أسـواقها متـاجر يصرفون فيها بضاعتهم وسلعهم. وقد وصف الجيلاني[٥٦] أسواقها بقوله : " اجتمع فيها ما ليس في مدينة من مدن الدنيا وانتهت التجارات وأهل الصناعات مـن كـل صقع ".

ويشير البكري إلى ما كان يرد إلى فاس من حاصلات حصن " مغيلة القاط " خاصة التين[٥٧].

كما كان الحرير يجلب أيضاً إلى فاس من مدينة " خميس متفازه " التي تبعد عن فاس مسافة عشرة أميال غرباً[٥٨] حيث يكثر زراعة أشجار التوت للانتفاع منه في تربية دودة القز، واشتهر اليهود باحتكار صناعة الحرير في فاس[٥٩].

كما اشتهرت أسواق فاس بأنواع الحبوب والغلات التي كانت تجلب من إقليم طنجة خاصة القمح والشعير وأنواع المزروعات فكان على الجانب الغربي من نهر فاس ثلاثة آلاف رحى تطحن للمدينة[٦٠].

القيسارية :

تختلـف القيسارية عـن السوق من حيث أنها أسواق مسقوفة تعلو دكاكينها بوائك[٦١].

وكانت في مدينة فاس منذ تأسيسها قيسارية كبيرة[٦٢] وموضعها منذ أسسـها إدريس الثاني بجوار المسجد الجامع الذي سُمي بجامع الشرفاء[٦٣] وقـد وصـف المؤرخ حسن الوزان القيسارية بقوله : " يوجد مكان مسور يدعى القيسارية.. ولهذه القيسارية اثنا عشر باباً مغلقاً بسلاسل غليظة من الحديد، تستعمل كحـواجز لمنـع دخول الناس إليها وهم ركوب ".

وكان المزاد يقام في القيسارية لبيع الأقمشة والصوف الخام، وجميع المواد والسلع الاستهلاكية[٦٤].

وإذا كانت المصادر لم تحدد موضع سوق الذهب في مدينة فاس إلا أنه مـن

الثابت أنه كانت ترد إلى فاس القوافل المحملة بالذهب من بلاد السودان الغربي[٦٥]، ولأنه عنصر ثمين في التجارة فغالباً يكون موضعه في القيسارية، كما كانت البيوت التجارية المغربية في محطات القوافل في الجنوب تحتفظ بشبكة من الوسطاء الذين يعملون في شراء الذهب لحسابهم بالمقايضة الصامته مع قبائل السود التي تشـتغل في التقاط الذهب. ويذكر ابن حوقل أنه شاهد بنفسه وثيقة تجارية تبلغ قيمتها اثنين وأربعين ألف دينار وهذا المصدر تؤيده مصادر أخرى تشير إلى مدى الثراء الذي كان عليه تجار الذهب الذين يستوردون الذهب من بلاد السودان[٦٦]، وكانت تجارة الذهب تتخذ لها محطة رئيسية في سجلماسه[٦٧] ومنها ينقل التجار الذهب إلى فاس وقد احتكر التجار اليهود في فاس تجارة الذهب وذكر الحسن الوزان أنه " في فاس كانت توجد دكاكينهم وكانوا يذهبون منها إلى فاس القديمة لبيع مصنوعاتهم بساحة قريبة من سوق العطارين "[٦٨].

وفضلاً عن تجارة الذهب قدم إلى فاس التجار الذين احتكروا تجارة التوابـل في مدن المغرب وكانت لهم روابط عائلية واجتماعية مع المدن الإيطالية وشـمال أوروبا وكان مقر تجارتهم أيضاً في القيسارية حيث تخزن تجارتهم الثمينة[٦٩].

الحركة التجارية في فاس :

انتظمت حركة القوافل بين فاس وسجلماسه، فقد كان الطريق ممهـداً بـين المدينتين حيث يبدأ من فاس إلى صفروي فقلعة مهدي[٧٠] فوادي شعب الصفا ثـم يمر عبر الجبل الكبير إلى الجنوب حيث توجد سجلماسه، وكانت القوافل ترتاد هذا الطريق فتخرج من باب القواره بفاس إلى مدينة سجلماسه حيث تتـوفر الـزروع والمياه.

وقد ذكر صاحب كتاب الاستبصار أن الطريق الذي يبدأ " من فاس إلى مدينة صَفْروي مرحلـة ثم إلى تامغرت ومنه يدخل إلى بلد سجلماسه على بعد مسـيرة عدة أيام "[٧١].

كذلك كان هناك طريق مهم ربط مدينة فاس بمدينة تلمسان ويبدأ من فاس إلى المقر ثم إلى وجدة ثم إلى تلمسان[٧٢].

وقد كان لتعدد طرق التجارة الداخلية في المغرب الأقصى أثره في نشاط التجارة، وقد ساعد هذا في وجود مراكز تجارية في البلاد غمرت بالأسواق التي زخرت بمختلف السلع والبضائع المحلية والواردة.

وتشير كثرة عدد الفنادق التي وجدت بفاس إلى مدى نشاط حركة التجارة وقدوم التجار فقد حوت المدينة على مائتي فندق وكان أشهرها الفندق الذي يقع بجوار الجامع الكبير ويحوي مائة وعشرين غرفة ويشمل ثلاث طوابق(٧٣).

وقد أشار البكري(٧٤) إلى فنادق كانت على الطريق الذي يربط بين فاس والقيروان حيث موضع حصن يسمى حصن زمامه " كان عليه سوق وفنادق يسكنه لواته ونفراوه " مما يوضح أن الفنادق كانت توجد لراحة التجار المارين على طول الطرق التجارية بين فاس وغيرها من بلدان المغرب حيث تعقد على طول المحطات التجارية أسواق تسمى بأسماء القبائل التي تنزل بها.

كما كان بمدينة فاس نفسها سوق لقبيلة تدعى " بني فذه " كان لهم بها فندق(٧٥).

وقد أشار ابن خلدون(٧٦) إلى أثر عمارة البلدان على رفاهية سكانه وحاجتهم إلى الكماليات من السلع أكثر وقد دلل على ذلك بمدينة فاس إذ يقول : " فالمصر إذا فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورفه وعوائد من الترف لا توجد في الآخر، فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الأصناف.. واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى مثل بجاية وتلمسان وسبته نجد فيها بيوتاً أوسع فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجه.. حيث الدخل والخرج أكثر تكون الأموال أعظم وهما بفاس أكثر لنفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف فالأموال أضخم والحضارة هي التفنن في الترف والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه كالصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش والآنية ولسائر المنزل وللتأنق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة ".

وقد أشار كل من ابن أبي زرع والجزنائي(٧٧) إلى مدى عظم أسواق مدينة

فاس.

ورغم عدم الدقة فى تلك الأرقام فإن وجود هذا العدد من الفنادق يشير إلى كثرة عدد التجار الوافدين إلى المدينة هذا فضلاً عن المنشآت التجارية والصناعية بها مما يشير إلى أن الأسواق كانت تستوعب هذا النشاط وأن جزءاً كبيراً من هذا النشاط كان مخصصاً للتجارة الخارجية الأمر الذي يؤكد ما ذكره البكري أن فاس كانت عاصمة اقتصادية لمنطقة واسعة في المغرب.

وباستعراض الطرق المتصلة بها والتي وصفها البكري(٧٨) وصفاً دقيقاً نستطيع أن نستنتج أن مدينة فاس كانت مركز الدائرة التي تخرج منها عدة طرق، منها الطريقان اللذان يربطان فاس بسبته وبطنجه، هذا فضلاً عن الطرق المتجهة إلى تلمسان ومليلة والرين وسلا ومدن الساحل الأطلسي، والطريق المتجه إلى أغمات وسجلماسه.

وقد أصبحت فاس فى عصر المرابطين أهم مركز تجارى فى المغرب الأقصى وغدت محور حركة تجارية نشطة بينها وبين سبته من ناحية وسجلماسة والصحراء وبلاد السودان من ناحية أخرى مما أضفى على تجارة فاس صبغة عالمية فى العصر الوسيط(٧٩).

وقد أشار Goiten (٨٠) إلى أنه كانت هناك معاملات تجارية بين التجار المصريين والمغاربة وصارت بينهم علاقات مودة ومراسلات ومن ذلك أن أحد التجار بالإسكندرية كتب رسالة إلى صديقه التاجر بالقاهرة يخبره فيها أن صديقه التاجر بمدينة فاس قد أرسل إليه قضيباً من الذهب بهدف بيعه وشراء حرير أندلسي لحسابه.

ويذكر مانتران Mantran (٨١) أن العرب (المسلمين) استطاعوا أن يستفيدوا من إمكانيات بلاد المغرب الكبيرة وأن يضعوا النواة الصالحة للتغير الاقتصادي الذي شهدته بلاد المغرب الأقصى، وأن تاريخ الدول التي قامت في المغرب الأقصى كان محوره إحكام السيطرة على المحطات الرئيسية لطرق القوافل التي كان يحمل إليها الذهب.

أما عن تجارة الرقيق فإذا كانت المصادر لم تمدنا بمعلومات خاصة بسوق الرقيق في مدينة فاس إلا أننا لا نستبعد وجود هذا السوق، خاصة العبيد السود، حيث كثر في عصر المرابطين وجلب من بلاد السودان، وكانت عادة أهل المغرب إلحاقهم بالعمل في خدمة المنازل والأعمال الشاقة هذا فضلاً عن إلحاقهم بالجيش كما فعل يوسف بن تاشفين[٨٢] ولعل إشارة الإدريسي تفيد وجود أسواق الرقيق في مدينة فاس حيث عمم هذه الظاهرة بقوله : " ومن مدينة تكرور يجلب الرقيق الذي يستخدم في خدمة المنازل وأهل تكرور يسبون العبيد بحيل يعرفونها ويأتون بهم إلى بلادهم فيشتريهم التجار من كل البلاد ويشتري منهم أهل المغرب الأقصى كثيراً وفي زويلة سوق كبير يجتمع فيه لتجارة الرقيق "[٨٣].

نظام العمل في السوق :

أسواق فاس منذ نشأتها كانت تشتمل على محلات وحوانيت مبنية بالحجارة وقد وصفها ابن أبي زرع بقوله : " أسواق مرتبة منسقة "[٨٤].

وكان يعين على كل سوق مسئول عن استيفاء الضرائب على أصحاب التجارات وحصر البضائع القادمة من خارج المدينة[٨٥].

ومن مهام هذا المسئول كما أوردها ابن حوقل : " جميع مجاري أمر البلد والنظر فيما ورد إليه وصدر في استيفاء ضرائبه ولوازمه واعتبار السجلات والمناشير "[٨٦] وهي المهام التي ذكرها ابن عبدون فإنها " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاة وأهل الديوان ونحوهم "[٨٧] ويدخل في عمله المنع من تطفيف الكيل والميزان والغش في الصناعات والسلع.

وقد شهد عصر المرابطين ظهور مؤلفات عديدة في الحسبة أمثال ما كتبه ابن عبدون وعبد الرؤوف والسقطي والجرسقي[٨٨] وقد تناولت كتب الحسبة من مهام المحتسب منع احتكار السلع الخاصة بأقوات الناس ووظيفة المحتسب هي نفسها وظيفة صاحب السوق[٨٩].

وكان يطلق عليه أحياناً صاحب الحسبة وقد تولى هذا المنصب زمن يوسف بن تاشفين القاضي الفقيه أبو طالب مكي[٩٠].

ولا شك أن اختيار فقيه لتولي هذا المنصب تتفق مع ما كان يتسم بـه حكـم المرابطين الذي كان قائماً على الحرص وعلى الالتزام بالتمسك بأحكام الشرع.

وكان يطلق على المحتسب صاحب السوق أو صاحب الحسبة وبالرجوع إلى رسالة ابن عبدون[٩١] في الحسبة نجد أنه حدد اختصاصات المحتسـب فـي عهـد المرابطين فحددها كالآتي :

١- مراقبة الأحباس وبيت المال.

٢- تعيين الخطباء وأئمة المساجد.

٣- القيام بالتغيرات اللازمة في المساجد والمرافق ومن بينها الأسواق بالاتفاق مع أمير المسلمين.

وكان المحتسب يُنيب عنه الأمناء للإشراف على الأسواق ومراقبة الموازين والمكاييل، وكان يعهد إليهم بتعقب المخالفين بالاستعانة بالشرطة وقد يصل الأمـر إلى حد إخراج المخالفين من السوق[٩٢].

كذلك يقوم المحتسب بمعاقبة من يغش في تجارته كغش التجار اللبن والعسل وسائر البيوع[٩٣] وكان المحتسب ونوابه يقومون أيضاً بمراقبة السـقائيين الـذين يعملون في السوق ويحملون الماء في قرب مصنوعة مـن جلـد المـاعز، فكـان المحتسب يهتم بمراقبة نظافة القرب لسقاية الناس ماء نظيف ويمنع السـقائيين أن يسقوا بكيزانهم المرضى من المجذومين وذوي الأمراض الظاهرة[٩٤].

ويذكر ابن عبدون أنه يجب على المحتسب " أن يرتب الصناع ويجعل كـل شُكل مع شكله في مواقع معلومة، كما يتولى مراقبة الباعة والتجار فـي الأسـواق فمن عرف خيانته وتلاعبه في أمور البيع أخرجه من السوق "[٩٥].

ومن مهام المحتسب أيضاً أن يمنع الباعة من الجلوس بالسلع خارج دكاكينهم، وأن يمنع أصحاب الدكاكين من إخراج سلعهم، بما يزيد عن حد أركان السقف لأن ذلك يؤذي المارة في السوق[٩٦].

كما أن على صاحب الحسبة أن يمنع دخول أحمال البعير إلى السوق حتى لا

تؤذي الناس[٩٧].

اتبع المرابطون منذ قيام دولتهم حكم الشرع في شئون الجباية، وتطبيقا لتلك السياسة أبطل المرابطون كل الضرائب والمكوس التى لا يقرها الشرع. والإقتصار فقط على ما تجيزه الشريعة من زكاة المال وعشور التجارة والجزيـة المفروضـة على أهل الذمة.

ورغم أن موارد الدولة كانت قاصرة على تلك المصـادر الشـرعية إلا أن ميزانية الدولة في عهد يوسف بن تاشفين كانت ضخمة يشير إلى ذلـك السـلاوي بقوله : " ما وجـد في بيت المال بعد موت يوسف بن تاشفين ثلاثة عشـر ألـف ربع من الـورق (الفضة) وخمسة آلاف أربعين ربعاً من مطبوع الـذهب "[٩٨]. هذا بينما ذكر ابن خلدون ضآلة حسابات بيت المال بعد وفاة يوسف بن تاشفين الذي " لم يفرض مكوساً وإنما اكتفى بالرسوم الشرعية ".

وبين ابن خلدون أن الميزانية " لم تتضح تماماً إلا في عهـد الأميـر علـي المرابطي "[٩٩].

ولعل الاختلاف الذي ورد بين رواية السلاوي وابن خلدون حـول ميزانيـة الدولة في عهد يوسف بن تاشفين يعود إلى أن عصر يوسف بن تاشفين كان فيـه التزام تام بالجباية الشرعية هذا فضلاً عن المهام الكبرى التي كان على يوسف بن تاشفين تحقيقها خاصة فيما يتعلق بتحقيق الوحدة مع الأنـدلس وفـرض السـلطة المرابطية على المغرب والأندلس جميعاً وما تطلبه ذلك من نفقات عسكرية باهظة.

وقد ألغـى يوسـف بن تاشفين ضرائب التجارة التي كانت فرضتها من قبل زناته[١٠٠] وهي المكوس التي كانت مفروضة على التجار وقد استمر هذا الوضـع حتى نهاية حكم يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م.

وقد وردت إشارات إلى أن قبائل البربر كانت تقوم بإلزام القوافل بأداء جباية على التجارة المارة بأرضهم فقد ذكر ابن حوقل[١٠١] أن البربر المقيمين بين السوس وفاس كان لهم (لوازم على التجار) وهذه إشارة إلى ما كان يفرض مـن رسـوم على مرور التجارة عبر أراضيهم ولاشك أن التجار يحملون هذه الرسوم بـدورهم

على أثمان بضائعهم التي تصل إلى أسواق فاس.

وقد وصف ابن أبي زرع الأوضاع الاقتصادية في عصر المرابطين بقوله : " وصفت أيامهم بالرفاهية والخير المتصل والأمانة مع توافر السلع ورخصها مع قلة الضرائب المفروضة على الناس "(١٠٢).

غير أن مدينة فاس كانت أثر الأزمة المالية التي تفاقمت في إمارة علي بن يوسف ٥٠٧هـ/١١٠٨م وذلك مع ظهور المهدي وثورة الموحدين وتحصنهم بجبل درن وانقطاع طرق التجارة بين الشمال والجنوب مما أدى إلى اضطراب حركة التجارة نحو ثلاثة أعوام(١٠٣) فغلت الأسعار واضطر علي بن يوسف على فرض ضريبة " القبالة " على كل السلع المصنعة وغير المصنعة وكذا على الصابون والمغازل(١٠٤).

وقد بلغ الأمر من الشدة في جميع هذه الضريبة على حد قول ابن عبدون " أن فرضت القبالة على منتج السلعة وعلى بائعها ومشتريها "(١٠٥).

وقد أشار الإدريسي إلى القبالة بقوله " إن هذه القبالات لم تكن محددة بمبلغ معين أو كمية محدودة وإنما تركت لاجتهاد المتقبل الذي كان يشتط في تحصيلها"(١٠٦).

كما ظهر في هذه الفترة أيضاً " الحزامي " وهو الذي يقوم بتقدير الثمار خاصة في النخل والكروم(١٠٧).

وقد استغل المتقبلون الضريبة التي استحدثت على أسواق المواشي والغلال وتسمى ضريبة الرحاب(١٠٨). وتعسفوا في جبايتها متذرعين أن تلك أوامر من السلطان(١٠٩) وقد أصدر يوسف بن تاشفين أمره للقضاة بأن يمنعوا هذا العسف في الجباية ويراقبوا ما يتحصل عليه الجباة من رشاوي(١١٠).

لكن ما من شك أن الاضطراب السياسي الذي حدث في تلك الفترة وما نتج عنه من تعثر حركة التجارة الواردة إلى مدينة فاس كان له أثره على اضطراب حركة البيع والشراء داخل الأسواق وإذا أضفنا إلى ذلك أن رواج التجارة كان يعتمد على ما يرد إلى الأسواق من تجارات من خارج مدينة فاس فضلاً عن

منتجات المدينة المحلية الوافرة[111]، لذا سيعاني السوق من نقص في البضائع في حالة انقطاع هذا المورد.

كما أن سياسة المرابطين المالية كانت ثابتة فيما يتوافق مع الشرع في شئون الجباية حيث أبطل يوسف بن تاشفين كل الضرائب التي لم يقرها الشرع الحنيف[112].

وحتى حينما اضطر إلى فرض بعض الضرائب الاستثنائية حين احتاج إلى ذلك ليتمكن من إعداد الجيوش وتجهيزها للتدخل السياسي في الأندلس فإن سرعان ما عدل عن ذلك حينما طلب الفقهاء بأن " يُقسم بأن بيت المال قد خلا من النقود اللازمة لهذا الشأن "[113].

الأمر الذي يؤكد أن ما فرض على التجارة من ضرائب جديدة إنما كان في أواخر عهد الدولة المرابطية حيث اشتدت الأزمة الاقتصادية واشتد نفوذ النصارى الذين كانوا يتولون الجباية.

وقد انفرد ابن الحاج في ذكر طريق البيع والشراء التي كان يتبعها أهل فاس وقدم ابن الحاج شرحاً لهذه الطريق. ولعل وصفه لها بهذه الدقة يرجع إلى معرفته بأحوال المدينة باعتباره أحد ابنائها فهو فقيه فاسي المولد والنشأة " جرت عادة التجار إذا دخل المشتري إلى السوق أن ينادي عليه صاحب المتجر عارضاً تجارته مبيناً محاسنها "[114] كما يوضح ابن الحاج أن المساوامة والمرابحة كانتا وسيلتان متبعتان في البيع والشراء في أسواق فاس.

وأما المرابحة التي عرفت في أسواق فاس هي أن يضع كل من البائع والمشتري يمينه في يمين الآخر فإذا قال البائع بعت وقال المشتري اشتريت، ترك كل منهم يد صاحبه وبذلك يتم البيع والشراء[115].

هذا الأمر يتم في البيوع الصغيرة إذ لا داعي للمكاتبة فيها أما البيوع الكبيرة فكانت تتم وفق الشروط الشرعية المتبعة في إبرام عقود المعاملات وقد عرفت فاس نظام المضاربة ويسمى أيضاً " قراض " وهو " عقد بين طرفين على أن يدفع أحدهما نقداً إلى الآخر ليتجر فيه على أن يكون الربح بينهما حسب ما يتفقان عليه"[116].

كما عرف بيع السلم وهو البيع بثمن معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم ويسميه الفقهاء بيع المحاويج لأنه بيع غائب تدعو إليه ضرورة كل من البائع والمشتري[١١٧].

كما ظهرت في فاس تجارة المسكوكات من الدنانير والدراهم وقد اشتغل اليهود بهذه المهنة ويعرفون بالصيارفة وكانوا معروفين بسوء معاملاتهم ويلحقون الضرر بالمسلمين لذا كان المحتسب يتعقب هؤلاء الصيارفة في أسواق فاس.

وقد ذكر صاحب مخطوط ذكر قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين[١١٨] أن اليهودي في فاس " كان يجعل في حانوته ما هو أعلى من المنتجات وما هو أدنى ويُري المشتري الأعلى ويتفاوض معه في الثمن الذي يتم به البيع، ثم يأخذ من يد المشتري ما أراه من الأعلى ويرده إلى حانوته ثم يعطيه الأدنى الذي لم يره مما يضر بالمشتري ".

وقد تشدد المرابطون في مراقبة الأسواق عن طريق المحتسب لمنع بعض التجارات التي نهى عنها الشرع مثل بيع العنب لمن يتخذ منه خمراً حيث كان اليهود يشتغلون بهذه الصناعة المحرمة، ومثل بيع السلاح أثناء الفتنة وكان غالبية صناع السيوف من اليهود[١١٩].

وعرفت فاس الدلالين حيث كان هناك زقاق يحمل اسم زقاق الدلالين بلغ عددهم زهاء سبعون دلالاً وكانوا يحملون السلعة من واحد إلى آخر ولا يسلمونها إلا للتاجر الذي أعطي فيها أغلى ثمن .

وكان التجار الغرباء ينزلون على زقاق الدلالين بفاس وعن طريقهم يتم تسويق بضائعهم[١٢٠].

وقد لعب اليهود دور الوساطة بين التجار الوافدين داخل البلاد لمعرفتهم لغات الشرق والغرب[١٢١].

كما كان في أسواق فاس جماعة من الوكلاء الذين يعملون وفقاً لاتفاق مكتوب بينهم وبين التجار، ويتعهدون بإتمام الصفات التجارية في الأسواق لصالح موكليهم، كما كانوا يقدمون بجمع البضائع من الأسواق للمتاجرة فيها[١٢٢].

أما تسعير البضائع فكان يتم بالطرق الودية بين المحتسب الذي يمثل سلطة الدولة وبين وجوه التجار في السوق " فإن أراد الإمام العدل أن يسعر شيئاً من ذلك يجمع وجوه أهل السوق ويحضر غيرهم استظهاراً على صدقهم فيسألهم كيف يشترون ؟ وكيف يبيعون فإن رأى شططاً في البيع نازلهم على ما فيه لهم وللعامة صلاح وسداد حتى يرتضوا به، ويتعاهد ذلك منهم بعد ذلك في كل حين فمن وجد منهم قد زاد من الثمن أمره أن يبيع كبيع أصحابه، وإلا أخرجه من السوق وأدبه، وإن أراد واحداً منهم أو اثنان أن يبيعوا بأرخص من ذلك لم يمنع من بيعه، فإن كثر هؤلاء قيل لمن بقي من أهل السوق إما أن تبيعوا كبيع هؤلاء وإلا فارفعوا، ولا يحل التسعير إلا عن تراض "[١٢٣].

وإذا كان هذا هو أسلوب التعامل في الأسواق فلا شك أن الدولة المرابطية التي كان يحرص أميرها على السير وفقاً لأحكام الكتاب والسنة، فإننا لا نستبعد أن يكون هذا المنهج متبعاً في أسواق فاس في عصرهم، والدليل على ذلك إلغاء الأمير يوسف بن تاشفين كافة المكوس السابقة وإعادة العشور في التجارة والزكاة في الأموال حسب ما هو وارد في الشريعة الإسلامية، أما الأسواق فقد كانت تحت المراقبة الحازمة.

الموازين والمكاييل :

كان الرطل هو وحدة الوزن في بلاد المغرب كله [١٢٤] وكان يعادل ستة عشرة أوقية وأوقيته إحدى وعشرون أوقية وهو يعادل أربعة وأربعون درهما [١٢٥]. وقد ذكر البكري استخدام أهل فاس للمدّ وحدد وزنه بثمانية أوقية ويقول " وفي مدينة فاس كان مدهم يسع من الطعام ثمانية أوقية ومدهم يسمونه اللوح وفيه من هذا المد مائة وعشرون مداً "[١٢٦].

وكانت الأوقية تستخدم في أسواق فاس في وزن جميع المأكولات مثل الزيت والعسل واللبن والزبيب وكانت الأوقية تقدر بأربعين درهما[١٢٧].

أما وحدة الكيل في بلاد المغرب فهي القفيز وهو ست عشرة ويبة[١٢٨] والوسق أو الصفحة وهو ستون صاعاً.

كما أن هناك موازين خاصة بكل سلعة، مثل الفلفل الذي يوجد له رطل خاص. وكانت العادة أن يختلف الرطل من بلد لآخر، وأدى اختلاف قيمة الرطل إلى اختلاف كمية القنطار في مدن جنوب المغرب في بعض السلع مثل الزيت وتأثرت تباعاً قيمة ما تحتويه الأوقية من دراهم.

ولعل هذا هو السبب في أن التجار كانوا يحددون نوع الكيل والوزن قبل أن يتم التعامل وهو السبب الذي حدا بابن عبدون إلى القول بأن أدوات الكيل ووحدات الوزن في عصر المرابطين كانت مقاديرها مغشوشة[١٢٩]، وكانت من مهام صاحب السوق هو تفقد المكيال والميزان[١٣٠].

ويعد من أعماله الأساسية[١٣١] وكان للحسبة ديواناً يعد من أعظم الدواوين وليس بعد خطة القضاء أشرف من خطة الحسبة[١٣٢].

وكان صاحب السوق يعرف بصاحب الحسبة كما قدمنا وأن أهم أعماله " مراقبة المكيال والميزان "[١٣٣] وذلك للتأكد من صحتها " فإذا استراب بموازين السوقة ومكاييلهم يجوز له أن يختبرها ويعايرها "[١٣٤].

وكان المحتسب يوجب أن تكون الموازين كلها ظاهرة خوفاً من السرقة وأن تتخذ الأرطال والأواقي من الحديد وأن تختم بختم الدولة ويجدد النظر فيها بعد كل حين "[١٣٥].

العملة :

سك الأمير يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٠هـ ديناراً ظل وحدة التعامل في أسواق فاس والمغرب الأقصى كله طوال العصر المرابطي[١٣٦] بل واستمر كذلك لعدة قرون ويعد أهم عملة في بلاد المغرب[١٣٧].

وقد ذكر ابن أبي زرع النقش الذي كان على الدينار الوجه الأول " لا إله إلا الله محمد رسول الله " وأسفل ذلك نقش اسمه يوسف بن تاشفين، وفي دائرة الدينار الآية الكريمة " ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين "[١٣٨] وفي الوجه الثاني " الأمير عبد الله العباسي وفي الدائرة تاريخ الضرب وموضع سكته ".

وكانت دار السكة المركزية موجودة في مراكش كما ذكر ابن عذاري[١٣٩] ثم كانت هناك عدة دور أخرى للسكة في اغمات وفاس وكانت تصدر كميات كبيـرة من السكة تفوق ما كانت تنتجه دار السكة الرئيسية في مراكش[١٤٠].

وكان وزن العملة زمن يوسف بن تاشفين أربعة جرامات واثنين وعشرين في المائة من الجرام. وكانت تتميز بجودة العيار أي ارتفاع نسبة الذهب فـي الـدينار حيث كان يقدر بين ٩٧% و ٨٧%.

وقد عثر على دينار ضرب في فاس سنة ٥٣٨هـ في عهد تاشفين بن علي كانت نسبة الذهب به ٩١,٣% ونسبة الفضة ٧,٣% ونسبة النحـاس ٠,٨%[١٤١]، وبمقارنة هذه الأرقام بما كان سائداً في بلاد المغرب خلال القرن الثالث والرابـع الهجريين نجد أن قيمة الدينار كان يختلف ما بين عشرة دراهـم وخمسـة عشـر درهما[١٤٢] وقد تزيد على ذلك حسب نقاء الذهب مما يشير إلى أن عيار الذهب في عصر المرابطين كان عالٍ جداً مما يدل على الازدهار الاقتصادي.

أما عن الدراهم الفضية :

عرفت الدراهم الفضية وأجزاؤها في التعامل فـي الأسـواق فـإنهم كـانوا يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والحزاريب، ليستريح الناس في هـذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بياعاتهم[١٤٣].

وكان وزن الدراهم ٧/١٠ من الدينار أي ما يساوي ٢,٩٧٥ جراماً[١٤٤].

وإلى جانب الدينار والدرهم عرف الفلس كوحدة للتعامل في الأسواق وهـو مصنوع من البرونز ويستعمل في السلع زهيدة الثمن[١٤٥].

غير أن التعامل بالدراهم والفلوس في عصر المرابطين كان قليلاً إذا قـيس بالتعامل بالدينار الذهبي في أسواق مدينة فاس، وذلك لرغبة التجار والصرافين في الحصول على الدينار المرابطي جيد العيار، لقيمة الذهب فيه، هذا فضلاً عن رغبة الناس في الحصول عليه أكثر من غيره من أنواع العملة[١٤٦].

وإلى جانب النقود كانت هناك وسائل أخرى للمعاملات التجارية في الأسواق

هي :

١- السفاتج : وهي محررات يكتبها التجار أو الصيارفة بقيمة المبالغ التي يأخذونها تكون قابلة للصرف في أي بلد لأي من عملائهم، وكانوا في هذا يقومون بدور البنوك، وكانت كل سفتجة توقع أو تختم من صاحبها لصراف أو تاجر حتى تكون صالحة للتداول(١٤٧). وهي تشبه الحوالة، وكان الغرض من استعمالها هو نقل النقود من مكان لآخر دون تعرضها لمخاطر الطريق كما يفيد استخدام السفاتج في تحويل الدين من تاجر إلى آخر لتصفية الحساب بينهما دون الحاجة إلى نقل النقود(١٤٨).

وكان يشترط لقبول السفتجة (مفرد سفاتج) أن يضمنها تاجر أو صراف(١٤٩).

وقد أشار جوتن(١٥٠) إلى وجود العديد من السفاتج محولة بين مدينة تونس وبين بغداد الأمر الذي يجعلنا لا نستبعد استخدام السفاتج بين فاس وبين غيرها من المراكز التجارية المختلفة.

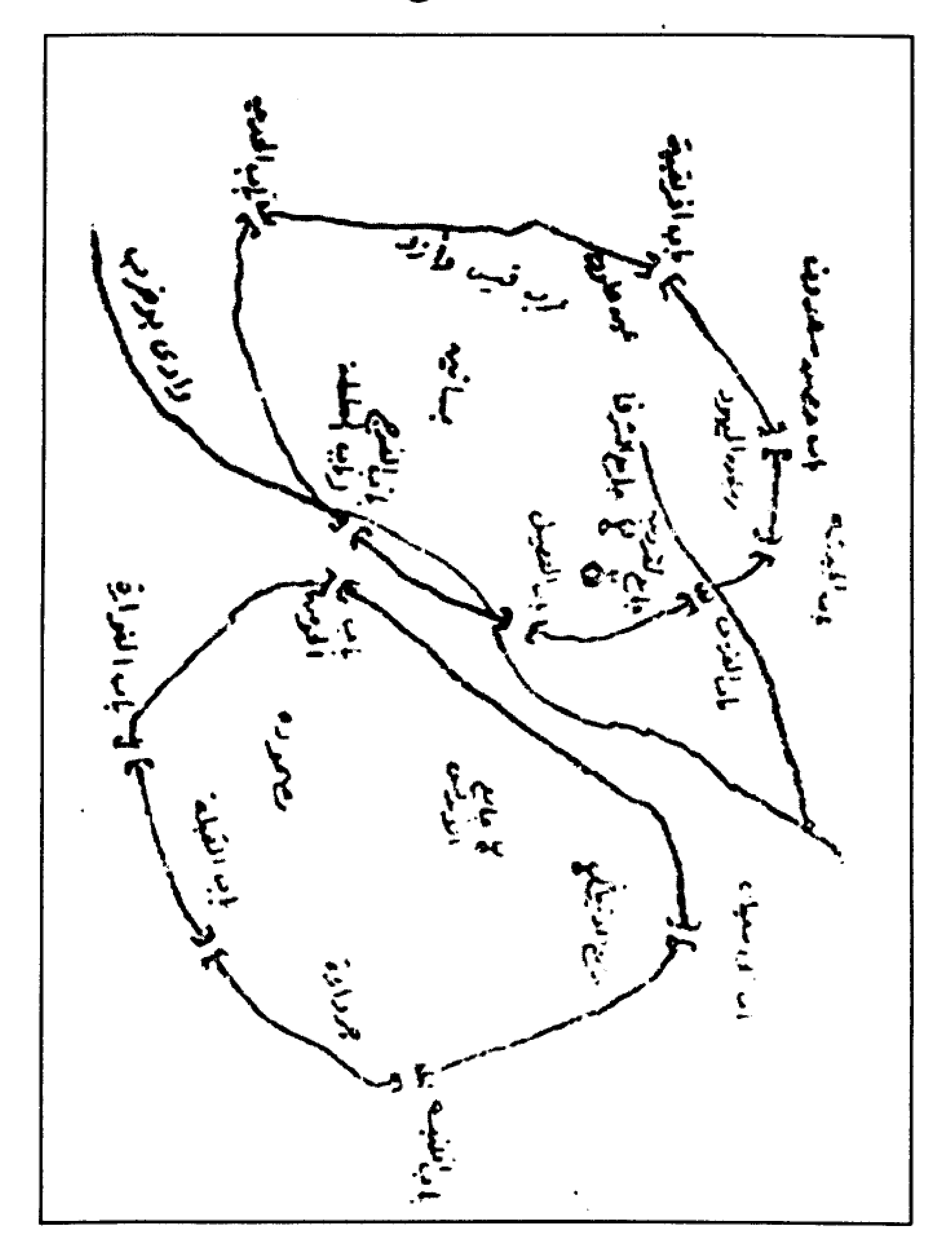
٢- الصكوك : الصك هو أمر بدفع مقدار معين من النقود إلى الشخص الوارد اسمه فيه(١٥١) وبازدياد النشاط التجاري في القرن الرابع الهجري شاع استخدام الصكوك كما كانت الصكوك في بعض الأحيان تكتب وتصرف على بيت المال أو على التجار والصرافين الذين كانوا يتقاضون عمولة نظير ذلك تبلغ درهماً على كل دينار(١٥٢) كما جرت العادة أن يوقع على الصك شاهدان ثم يختم من أسفله، ولم يكن يحدد تاريخ معين لاستيفاء الصك(١٥٣).

ويذكر الاصطخري(١٥٤) أن تجار سجلماسه كانوا يتبادلون فيما بينهم صكوك تتراوح ما بين أربعين ألف دينار كذلك ذكر ابن حوقل(١٥٥) " رأيت بأودغست صكاً فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من سجلماسه باثنين وأربعين ألف دينار " مما يوضح أن استخدام الصكوك كان شائعاً بين التجار في بلاد المغرب خاصة في المدن الجنوبية لكونها محطات للقوافل التجارية بين مختلف الأقطار.

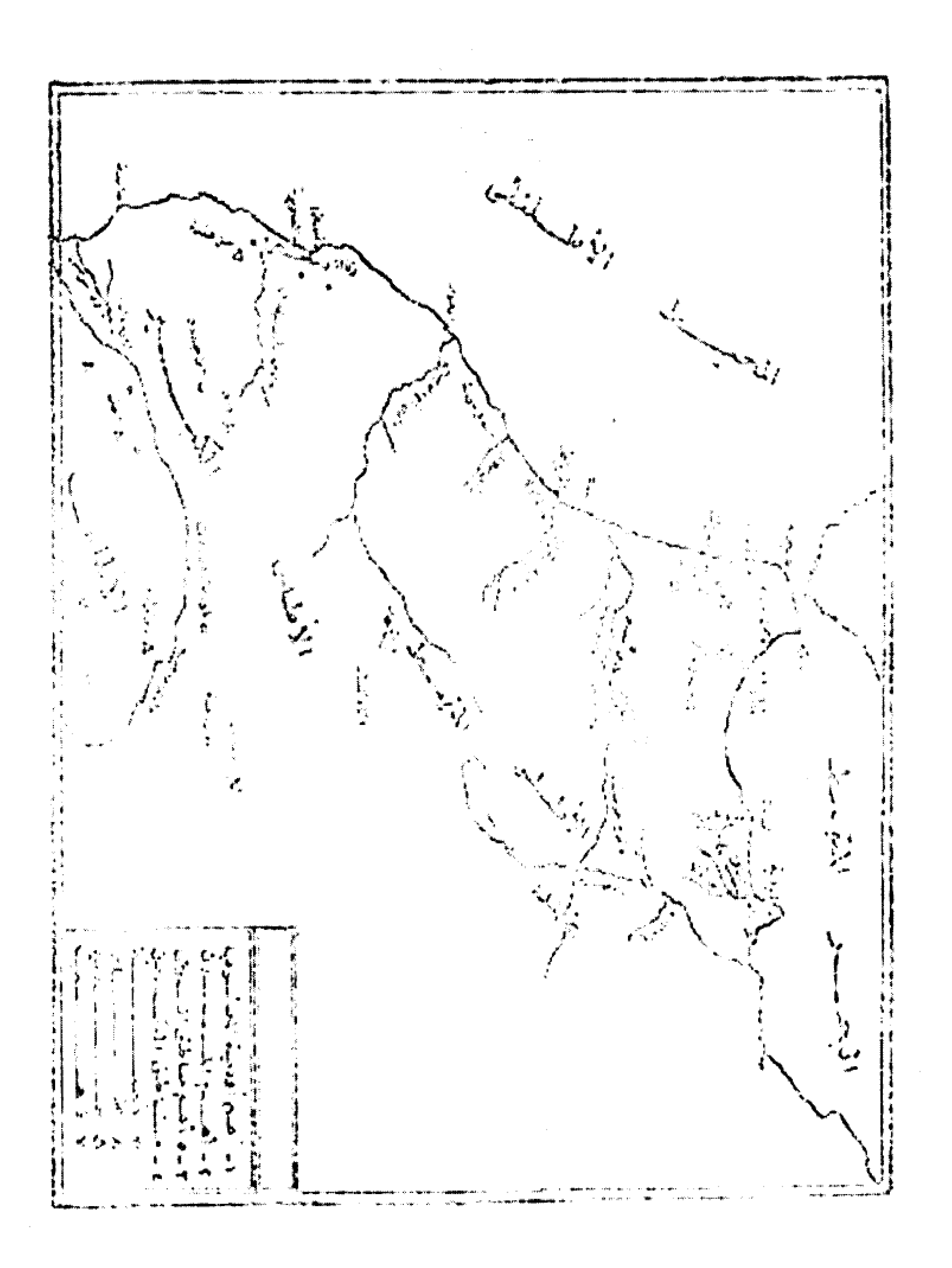
فإذا كان ما ذكره كل من الاصطخري وابن حوقل عن التعامل بالصكوك بين مدن المغرب في سجلماسه وأودغست فإنه يمكننا القول بأنها استخدمت كذلك فـــي تعامل التجار في مدينـــة فاس في العصـــر المرابطـــي ذلك العصر الذي وصـــفه السلاوي بقوله[١٥٦] : " وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصـــل وعافيـــه.. وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت الأسواق ".

خاتمة

يتضح لنا من دراستنا لأسواق مدينة فاس في العصر المرابطي أن التجـــارة الداخلية والخارجية قد ازدهرت في عهدهم وامتلأت الأسواق بمختلف السلع المحلية والواردة ويرجع ذلك إلى أن المرابطين بسطوا الأمن والاستقرار في أنحاء دولتهم بعد الاضطراب العنيف الذي كان قبل ظهورهم أثر الصراعات السياسية التي أدت إلى تعثر التجارة لانعدام الأمن وكثرت الضرائب والمكوس التي كانت تفرض على التجار فجهود المرابطين من قمع الفتن والثـــورات والعنايـــة بـــالمرافق المختلفـــة والاهتمام بالإدارة والجيش وبسط الأمن وتوحيد المغرب والأندلس والقضاء علـــى الطوائف نشط الحركة التجارية وعمر الأسواق الداخلية وقد بذلت الدولـــة جهـــوداً جبارة لأحكام سيطرتها على الأسواق حيث عينت المشرفين لمراقبة حركـــة البيـــع والشراء ومنع الاحتكار حتى أصبح التنافس للحصول على الدينار الذهبي المرابطي والحرص على اقتنائه داخل مدينة فاس وخارجها خير برهان على ازدهار مدينـــة فاس في عصر المرابطين.

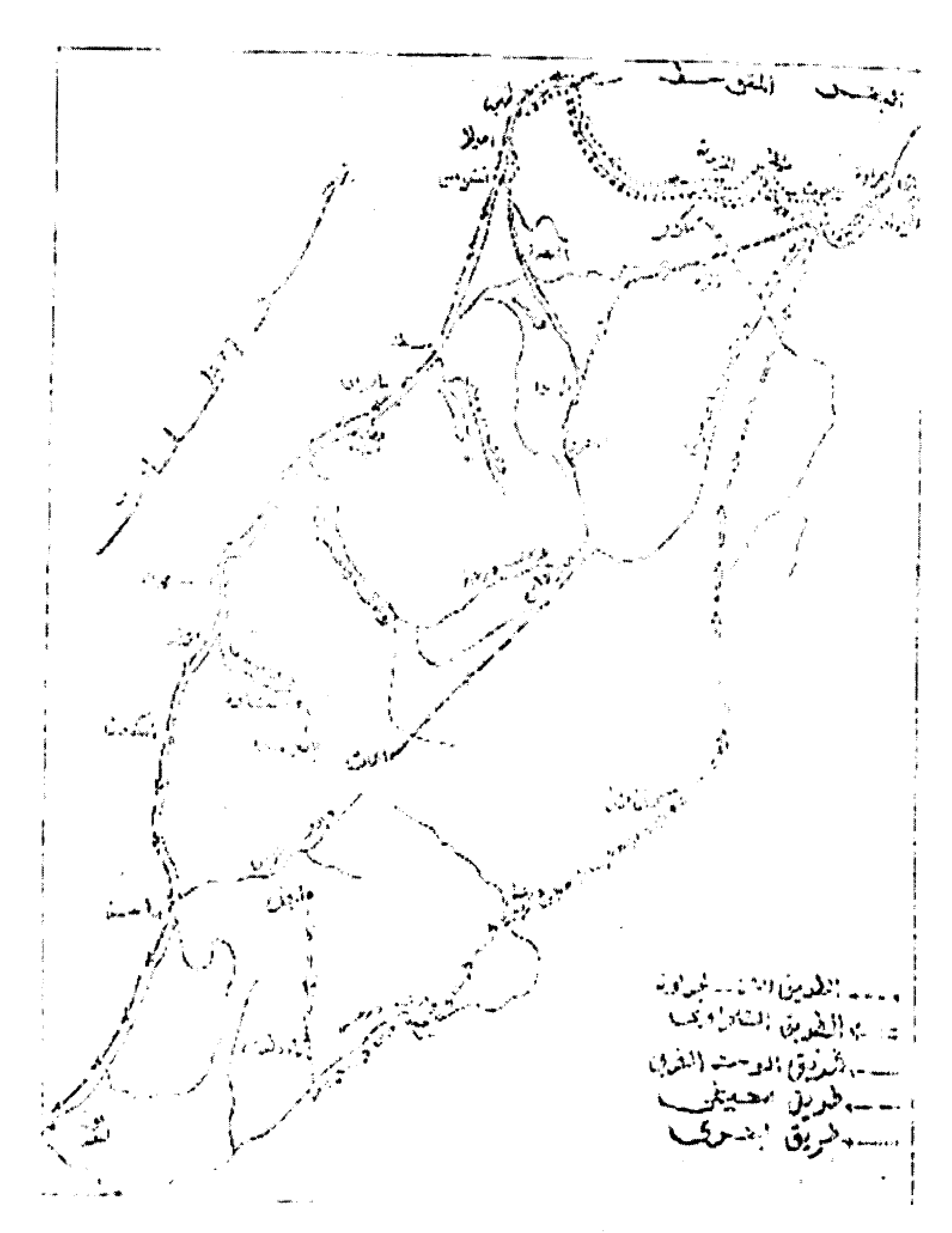


مدينة فاس كما وصفها المراكشي في المعجب



خريطة توضح موقع مدينة فاس على وادي سبو
(أطلس التاريخ الإسلامي د. حسين مؤنس)

البلاد التي تمر بها الطرق البرية



طرق التجارة الخارجية البرية والبحرية
مأخوذة عن أطلس التاريخ الإسلامي د. حسين مؤنس

الحواشي :

(١) أصل المرابطين من قبائل صنهاجة الجنوبية الضاربة في الصحراء وقد أرغمت الظروف قبائلها لمتونه ومسوفه وجواله إلى التحالف فيما بينهم لمدافعة مملكة غانا في الجنوب والسيطرة على مسالك التجارة، (د. حسن محمود، قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٠١-١٠٣)،

(٢) الجزنائي : زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الجزائر، ١٩٢٣م، ص٣٣،

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، ص١١٩-١٢٠،

(٤) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ج٤، ص٣٨-٣٩،

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، بيروت، ١٩٨٤م، ج٢، ص٢٧،

(٦) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس، ط مكتبة جامعة الإسكندرية، ١٩٧٥م، ص٢٩٦،

(٧) أبو الفداء : تقويم البلدان، ط باريس، ١٨٣٠م، ص١٢٣،

(٨) الإصطخرى : أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى، المسالك والممالك، ط ليدن، ١٩٣٧م، ص٣٤،

(٩) البلدان، ط ليدن، ١٨٧٣م، ص٣٥٨،

(١٠) الإدريسي : وصف المغرب وأرض السودان، ليدن، ١٨٦٦م، ص٧٩ ؛ البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص٨٨،

(١١) يشير بعض المؤرخين أن موقع مدينة فاس كان موضع مدينة قديمة أسست في عصر الرومان لتكون مركزاً تجارياً وأنها ليست مدينة مستحدثة،

Blacher (I R) : Fas chez les Geograhes Arabs du moyer Aget Hesperis، T، 18، pp 41–49.

ويذكر ابن أبي زرع قصة اليهودي الذي كان يحفر أساس داره بالمدينة فوجد تمثالاً من الرخام الجارين وقد نقش عليه عبارة " هنا موضع حمام عمره ألف سنة ثم خرب فأقيم موضعه بيعة للعبادة، روض القرطاس، ص٣٣٨،

(١٢) مؤلف مجهول : رسالة في ذكر من أسس فاس، ورقة ٤٥-٥٠ ؛ الجزنائي : زهرة الأس، ط الجزائـــر، ١٩٢٢م، ص٣٤-٣٥ ؛ البكـــري، ص١٢٣ ؛ ابـــن أبـــي زرع : روض القرطاس، ص٣٨،

(١٣) كانت هجرة أعداد كبيرة من أهل قرطبة إلى مدينة فاس على أثر الثورة التى قامت ضد الحكم بن هشام الذى تولى حكم الأندلس عام ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م فـــى ضـــاحية قرطبـــة الجنوبية المسماة شقندة فى ١٣ رمضان عام ٢٠٢ هـ وتمكن الحكم من الســيطرة علـــى الثورة وهدم دور الثوار خاصة الربض (الحى) القبلى الذى كان مركزا للفتنة وأمر الحكم بطردهم من قرطبة فهاجر عددُ كبير منهم إلى عدوة المغرب ونزلوا مدينة فاس= = بينمـــا اتجهت جماعات أخرى إلى الإسكندرية. الجزنائي : أبو الحسن على زهرة الأس/ص٣٣، ابن الأبار: الحلة السيرا دار المعارف ١٩٧٤م.

(١٤) يقدم صاحب الاستبصار شهادة مؤرخة لسنة ٥٨٧هـ في بداية عصر المنصور ذكر فيها : " وقاعدة بلاد المغرب مدينة فاس هي أعظم مدينة في عصر إلى آخر بـــلاد المغـــرب ومدينة فاس مدينتان كبيرتان يشق بينهما نهر كبير يسمى بوادي فاس يدور عليه سور كبير ومدينة فاس اليوم في نهاية العمارة والصلاح ". ويعد المؤرخ المغربـــي ابـــن أبـــي زرع مؤلف روض القرطاس أدق رواية في هذا الموضوع وقد اعتمد عليها كل من الجزنـــائي في زهرة الأس وابن القاضي في جذوة الاقتباس، مؤلف مجهول، الإســـكندرية، ١٩٥٨م، ص١٨٠

(١٥) مجهول : رسالة في ذكر من أسس فاس، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقـــم ٩٧٣٢، ورقة (٢، ٣)،

(١٦) الحميري : محمد بن عبد المنعم : الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيـــق إحســـان عباس، بيروت، ١٩٨٤م، ص٤٣٤،

(١٧) مؤلف مجهول : الاستبصار، ص١٨١،

(١٨) البكري : أبو عبد الله : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص١١١-١١٤،

(١٩) المقصـــود بالعدوة الموضع المرتفع الذي يبنى بجانب النهر من أجل نصب الرحـــى، (المقدسي : أحسن التقاسيم، ط ليدن، ١٩٦٧م، ص٢٢٩)،

(٢٠) مجهول : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس، ورقة ٢،

(٢١) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص١١٦،

(٢٢) البكري : نفس المصدر والصفحة، مجهول : ذكر من أسس فاس، ورقة ٧،

(٢٣) صورة الأرض، ص٩٠-١١٥،

(٢٤) البكري : نفس المصدر، ص١١٥-١١٦،

(٢٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص٤٦،

(٢٦) نزهة المشتاق، ج١، ص٢٤٦،

(٢٧) Terrasse. H : Histoire du Morac Casablance 1949. p 12–13.

(٢٨) يوسف بن تاشفين بن إبراهيم الصنهاجي الحميري، تولى الحكم بعد تنازل ابن عمه أبي بكر بن عمر، توفي في المحرم سنة ٥٠٠هـ، (مؤلف مجهول : الحلل الموشية، ص٢٥)

(٢٩) الزناتين : قبيلة من قبائل البربر واختلف في نسبها أما موطنها فهو سائر مواطن البربر بافريقية والمغرب وتمتد ما بين السوس الأقصى وغدامس والأكثر فيها بالمغرب الأوسط وكذا بالمغرب الأقصى، (ابن خلدون : كتاب العبر، ج٧، ص٣-٦)،

(٣٠) Marcais , Le Berberie p.231, Terrasse : Art Hispaho Mowres gue – pair's 1932, p223.

(٣١) الجزنائي : زهرة الأس، ص٣٨،

(٣٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص٩١،

(٣٣) زهرة الأس، ص٣٨،

(٣٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص٩١،

(٣٥) الجيلاني : رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس، مخطوط دار الكتب المصرية، رقم ٩٧٣٢، ورقة ٥١،

(٣٦) البرانس المديونية نسبة إلى جبل مديون الواقع شرقي مدينة فاس، (ابن سعيد : كتاب الجغرافيا، ص١٤١).

(٣٧) البكري : المغرب، ص١٥١،

(٣٨) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٢٩٩،

(٣٩) البكري : المغرب، ص١٧٠،

(٤٠) الجزنائي : زهرة الأس، ص٢٧،

(٤١)Terrasse : L'At hispano maueresque pp 256.

(٤٢) الإدريسي : نزهة المشتاق، ص٦٩.

(٤٣) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص١٠٧-١٠٩،

(٤٤) الجزنائى : زهرة الأس ص٢٧، ابن أبى زرع : روض القرطاس ص٩١، مجهول : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ورقة ٢.

(٤٥) وجدت أسواق نسبت إلى أسماء مواضع أو أسماء أعلام مثل سوق الإمام إدريس القريبة من المسجد الجامع لعدوة القرويين وسوق صنهاجة وسوق كنامة نسبة إلى قبيلتي صنهاجة وكنامة، (إسماعيل بن الأحمر : روضة النسرين، الرباط، ١٩٦٢م، ص٨)،

(٤٦) القلقشندي : صبح الأعشى، القاهرة، ١٩١٤م، ج٥، ص١٥٧،

(٤٧) الونشريسي : أبو العباس أحمد بن يحيى : المعيار المعرب والمجامع المغرب، دار المغرب الإسلامي، ١٩٨٨م، ج٥، ص٢٣٩،

(٤٨) الشيزري : نهاية الرتبة، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ص٦٤،

(٤٩) نظم الجمان، ص٢٤٦،

(٥٠) أحسن التقاسيم، ص٧٣٥،

(٥١) الحسن الوزان، ص٢٦،

(٥٢) الإدريسي : نزهة المشتاق، ج٢، ص٥٣١ ؛ البكري : المغرب، ص١٦١،

(٥٣) الجزنائي : جني زهرة الأس، ص٣٩،

(٥٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٣٥٨-٣٥٩،

(٥٥) صفة المغرب، ص٧٩،

(٥٦) رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس، ورقة ٥١،

(٥٧) حصن مغلية حصن كبير به سوق ومسجد يبعد عن مدينة لواته بمرحليتن، (البكري : المغرب، ص١٤٧).

(٥٨) الوزان، ص٢٢٢،

(٥٩) الوزان، نفس المصدر والصفحة،

(٦٠) جرت العادة في أسواق فاس أن يقوم أصحاب كل سوق من الذين لديهم بها حوانيت أن يقوموا برش الماء أمام محلاتهم للتخفيف من حرارة الصيف.
ابن حوقل : صورة الأرض، ص٩٠.

(٦١) تتكون القيسارية من فناء فسيح تحيط به أروقة مسقوفة تقام فيها الحوانيت والمخازن وتعلوها منازل الغرباء من التجار. أحمد الطوخي : القيساريات الإسلامية فى مصر والمغرب والأندلس، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية العدد ٢٨ ١٩٨١م ص٦٧.

(٦٢) الحسن الوزان، ص٢٤٧،

(٦٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص١٩-٢٠،

(٦٤) الوزان، ص٢٤٣،

(٦٥) كان الذهب يستخرج من منطقة الغابات الاستوائية المتاخمة للصحراء من الناحية الجنوبية وهي المنطقة التي تحكمها الممالك الزنجية خاصة مملكة غانة، ويؤكد الإدريسي أن غانا كانت أكبر مدينة في السودان وأكثرها سكاناً وأوسعها تجارة، حيث كانوا يستخرجون الذهب ويستبدلونه بالملح، (نزهة المشتاق، ص٢٢٤)،

(٦٦) ياقوت : معجم البلدان، ص١٩٢ ؛

Devisse : Le Rowte do commeree et echahges er Afriguc occidentale en Relatim avec La Mediterrane`e Eassal swr lo commerce Africa Medieval du xvl siec lo، Pevue d'histo Ecomomigue et Sociol , 1972 , p.49 – 50.

(٦٧) البكري : المغرب، ص١٥٩ ؛ العرى : مسالك الأبصار، ج٤، ص٩٤،

(٦٨) الوزان، ص٢٨٤،

(٦٩) البرت حوراني : تاريخ الشعوب العربية، ج١، ص١٥٧،

(٧٠) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص٥٣ ؛ ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٢ ؛ الإدريسي : نزهة المشتاق، ص٧٦،

(٧١) مجهول : الاستبصار، ص١٩٢،

(٧٢) الإدريسي : أنس المنهج وروض الفرج، ورقة ٧٣،

(٧٣) الحسن الوزان، ص٢٢٧،

(٧٤) المغرب، ص١٦٤،

(٧٥) إسماعيل بن الأحمر : روضة النسرين فى دولة بنى مرين، الرباط، ١٩٦٤م، ص٨،

(٧٦) المقدمة، ص٦٤٢،

(٧٧) كان تقريرهما الذي نقلاه عن أرشيف مدينة فاس يذكر أن بفاس عـــدد ٩٠٨٢ حانوتـــا، وقيساريتان و٣٠٦٤ طراز، و٨٦ داراً للدباغين، ٤٧ داراً لصناعة الصــــابون، ١١٦ داراً للصباغة، و١٢ داراً لسك النحاس، و٤٠٠ لصنع الكاغد، ١٨٨ داراً للفخارين، ٤٧٢ مـــن الأرجاء غير أن أكثر ما لفت نظرنا في هذا التقرير القول بأن فاس كان بها ٤٦٧ فندقاً، الأنيس المطرب، ص٤٧ ؛ جنى زهرة الآس، ص٤٣،

(٧٨) المغرب من ذكر بلاد أفريقة والمغرب، ص٧٠ إلى ص٧٩،

(٧٩) Dlomberd : L`Jslom dors sa premiere grondeut، p.14-15 ز

(٨٠) Goiten studiesin : Islamic History and znstktutium، Leiden 19,8،p.248.

(٨١) Mantran : L`Expansion Masulmane، Siecles paris 1969، p.162.

(٨٢) الاصطخري : المسالك والممالك، ص٢٧ ؛ ابن عذاري : البيـــان، ج٤، ص٢٣ ؛ ابـــن القطان : نظـــم الجمان، ص١٠٢،

(٨٣) نزهة المشتاق، ص١٨-١٩،

(٨٤) روض القرطاس، ج١، ص٩٣،

(٨٥) ابن حوقل : صورة الأرض، ص٧٠،

(٨٦) صورة الأرض، ص٧١،

(٨٧) الحسبة : ص٢٨،

(٨٨) الشيزري : كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٣٥،

(٨٩) كانت وظيفة صاحب السوق هي الأصل في وظيفة المحتسب حيث ورد ذكرها لأول مرة في تاريخ الإسلام في عهد الوالي الأموي ابن هبيرة في خلافة هشام بن عبد الملك ســـنة ٦٥هـــ فقد كان مهدي بن عبد الرحمن ثم إياس بن معاوية محتسبين في واســـط، ويـــذكر البلاذري أن علي بن أبي طالب كان يمشي في الأسواق ويأمر بتقوى الله وحســـن البيـــع فيقول : " أوفوا الكيل والميزان "، (أنساب الأشراف، ج٨، ص٢١)،

(٩٠) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص١٦٧،

(٩١) الحسبة، ص٥٤-٥٧،

(٩٢) ابن الرفعة : كتب الإيضاح والتبيان في معرفة المكيـــال والميـــزان، مخطـــوط الهيئـــة المصرية العامة للكتاب رقم ٣١٢ ورقة ٩ - ١٠،

(٩٣) يحيى بن عمر : أحكام السوق، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب تونسي، ١٩٧٥م، ص٣١-٣٢،

(٩٤) أشارت كتب الحسبة إلى القواعد الصحية التي يلتزم بها الطباخون في السوق من صلاحية اللحوم وأنواع الدهون وغيرها وتجنب استعمال الأواني النحاسية بغير أن يتم طلاؤها بالقصدير "، (ابن عبدون : الحسبة، ص٤٥ ؛ النباهي : كتاب المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، بيروت، ١٩٦٧م، ص٥)،

(٩٥) ابن عبدون : رسالة في القضاء والحسبة، ص٤٦-٤٧،

(٩٦) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١١،

(٩٧) يذكر الشيزري : " وينبغي على المحتسب أن يمنع أحمال الحطب وأعدال التين " والأعدال جمع عدل وهي حمل بعير ويقدر بستين صاعاً، (المصدر السابق، ص١٣)،

(٩٨) الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى، ج٢، ص٥٤،

(٩٩) المقدمة، ص٢٧٩،

(١٠٠) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص١٦٧،

E.W Bovil : The Golden Lrend of The Moors , Oxford 1967 , pp.52 – 53،

(١٠١) صورة الأرض، ج١، ص١٠٢،

(١٠٢) روض القرطاس، ص١٣٦،

(١٠٣) المراكشي : المعرب، ص٢٤١،

(١٠٤) المراكشي : المعرب، ٢٤١ ؛ ابن القطان : نظم الجمان، ص٨٦ ؛ الإدريسي : نزهة المشتاق، ص٢٣٥،

(١٠٥) الحسبة، ص٣٠،

(١٠٦) رسالة في القضاء والحسبة، ص٣٠،

(١٠٧) ابن منظور : لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٧٢.

(١٠٨) ابن عبدون : رسالة في القضاء والحسبة، ص٣١،

(١٠٩) ابن عبدون : نفس المصدر السابق والصفحة،

(١١٠) محمود مكي : وثائق تاريخية جديدة، ص١٧٣،

(١١١) ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله السليماني : الأعلام بمن حــل بمــراكش مــن الأعلام، ج١، ص١١٣،

(١١٢) مؤلف مجهول : الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، ص٦١،

(١١٣) السلاوي : الاستقصاء، ج٢، ص٥٤،

(١١٤) المساومة هي ما يعرف بالفصال أي المناقشة في الثمن إلى أن تتم عملية البيع، الأمر الذي يُشير إلى أنه لم يكن هناك أسعار محددة أو ما يعرف بالتســعير فــي كــل أنــواع التجارات بل كان بعضها يخضع للمساومة بين البائع والمشتري،

ابن الحاج : المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات، المطبعة العربية القاهرة، الأزهر، ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م، ج٣، ص٥٢،

(١١٥) ابن الحاج، نفس المصدر والجزء والصفحة،

(١١٦) سيد سابق : فقه السنة، ج٣، ص٢٠٢،

(١١٧) سيد سابق : نفس المرجع، ج٣، ص١٢١،

(١١٨) مجهول : ذكر قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلدين، مخطوط، ورقة ٤-٥،

(١١٩) الونشريسي : أبــو العباس أحمد بن يحيى : المعيار المغرب، ج٦، ص٦٩ ؛ مجهول : ذكر قضية المهاجرين، مخطوط، ورقة ٥،

(١٢٠) مجهول : المخطوط السابق، ورقة ٦،

(١٢١) Terrasse and Mendel :.Histoire du Marac , p.156.

(١٢٢) الونشريسي : المعيار المغرب، ج٨، ص٣٢٤،

(١٢٣) المجيلدي (أحمد بن سعيد) : كتاب التيسير في أحكام التســعير، بيــروت، ١٩٨٥م، ص٨٩،

(١٢٤) كان هذا الوزن سائداً في كل بلاد المغرب ما عدا تونس فقد كان الرطل المستخدم بهــا كالرطل المستخدم في مصر وكان اثنا عشر أوقية وأوقيته اثنا عشر درهماً، (القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص١٧٧)،

(١٢٥) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص٢٤٠،

(١٢٦) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص١١٧،

(١٢٧) المقريزي : شذور العقود في ذكر النقود، ص٩٤،

(١٢٨) الويبة : اثنا عشر مدًا بالمدّ النبوي منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والوسـق أو الصفحة تعادل ستون صاعاً، (القلقشندي : صبح الأعشى، ط١، ص١٧٧)،
ويذكر أيضاً أن كل ستة عشر قدحا تسمى ويبة وكل ست وتسعين قدحا تُسـمى أردبـا، (المصدر نفسـه، ج٣، ص٤٤٥)،

(١٢٩) ابن عبدون : المصدر السابق، ص٣٧،

(١٣٠) ابن سهل : الأحكام الكبرى، مخطوط، ورقة ٢، دار الكتب المصرية، صورة ميكروفيلم مأخوذة عن نسخة بالخزانة العامة بالرباط رقم ٨٣٨،

(١٣١) عبد الرحمن الشيزري : كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص٦-٧،

(١٣٢) الجرسيفي : رسالة في الحسبة، ص١١٩،

(١٣٣) الأحكام الكبرى : مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ورقة ٢،

(١٣٤) ابن الرفعة : كتاب الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميـزان مخطـوط، ورقـة ٣١٢،

(١٣٥) الشيزري : نهاية الرتبة، ص١٩،

(١٣٦) يرجع المؤرخون تاريخ ضرب هذا الدينار عقب انتصار يوسف بن تاشفين في موقعـة الزلاقة عام ٤٧٩هـ، (السلاوي : الاستقصاء، ج٢، ص٥٤)،

(١٣٧) Rolan A.Messier : The Almoravids west African Gold , p.32–33.

(١٣٨) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ج٢، ص٣٨،

(١٣٩) البيان المغرب، ج٤، ص٢٢،

(١٤٠)Ronald، A، Messier : weast African cold، pp. 46.

(١٤١)Messier : The Almoravicis west African gold، pp.45.

(١٤٢) البلاذري : كتاب النقود، ص٣، ٤، أشار ابن أبي زرع إلى وجود دار سكة في مدينـة فاس بكل عدوة فيها فقد وجد في غاس دراهم ضربت عام ١٨٩هـ، كما اشتملت مدينـة فاس على دار لضرب العملة لشمس، (الأنيس المطرب، ج١، ص٤٣)،

(١٤٣) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٢٠٧،

(١٤٤) البلاذري : كتاب النقود، ص١٠،

(١٤٥) المقريزي : إغاثة الأمة، ص٤٦،

(١٤٦) البيدق : كتاب أخبار المهدي بن تدمرت، نشره ليفــي بروفنســال، الربــاط، ١٩٢٨م، ص٩٥،

(١٤٧) ابن مسكويه : تجارب الأمم، ج٢، مطبعة المزراه الصناعية، مصــر، ســنة ١٩١٤م، ص٨٣،

(١٤٨) ابن مسكويه : المصدر السابق نفس الجزء والصفحة،

(١٤٩) الصابي : تحفة الوزراء، ص١٠٤-١٠٥، ورغم أن فقهاء المالكية كرهوا الحوالة على الصيارفة واعتبروها ربا إلا أن ذلك لم يمنع التجار من التعامل بها حيــث اثبتــت أوراق الجينزه أن السفاتج استخدمت في التعامل بين تجار بلاد المغرب ومصر إذ وجدت سفتجة بمبلغ مائتي دينار محولة من أحد التجار من مدينة طرابلس إلى تاجر بالفسطاط،

(١٥٠) Goiten : bonkers and accounts From the elever century , p.29.

(١٥١) استخدمت الصكوك منذ القرن الأول الهجري حيث كانت الأرزاق والرواتب تدفع بهــا أحيانا، ويذكر اليعقوبي أن " عمر بن الخطاب أول من صك وخــتم أســفل الصــكوك "، (تاريخ اليعقوبي، ج١، ص١٣٢).

(١٥٢) الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب، ص٢١٤-٢١٥،

(١٥٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار، ج١، ص٢٢٥،

(١٥٤) المسالك والممالك، ص٣٧-٣٨،

(١٥٥) صورة الأرض، ص٩٦-٩٧،

(١٥٦) الاستقصاء، ج٢، ص٦٦،

قائمة المصادر والمراجع

<u>أولاً : المخطوطات :</u>

- ابن الرفعة : نجم الدين أحمد بن محمد الأنصاري الشافعي :
  - كتب الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، مخطوط بالهيئة المصـــرية العامة للكتاب، رقم ٣١٢،
- ابن سهل :
  - الأحكام الكبرى، مخطوط بدار الكتب المصرية، صورة ميكروفيلم مأخوذة عـــن نسخة بالخزانة العامة بالرباط، رقم ٨٣٨،
- الإدريسي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (ت٥٨٨هـ)،
  - أنس المنهج وروض الفرج، مخطوط بدير الرومينكان بالقاهرة رقم -IX٧٦٠٢١ C٧،
- الجيلاني :
  - رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٧٣٢،
- مؤلف مجهول :
  - الأحكام الكبرى، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط أخذ عنه صورة ميكروفيلم بدار الكتب المصرية، رقم ٤١٢،
- مؤلف مجهول :
  - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مخطوط، صورة ميكـــروفيلم بـــدار المخطوطات المصرية، رقم ٢١٣٤٠،
- مؤلف مجهول :
  - الوصلة إلى الجليب في وصف الطيبات والطبيب، مخطـــوط، صناعـــــات، دار الكتب المصرية، رقم ١١٧٦٣،
- مؤلف مجهول :
  - ذكر قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلدين، صورة ميكروفيلم بـــدار الكتـــب المصرية، رقم ٦١٠،

- مؤلف مجهول :
  - رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس، مخطوط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، رقم ٩٧٣٢.

ثانيا : المصادر العربية المطبوعة :

- ابن أبي زرع : أبو الحسن بن عبد الله الفاسي (ت٧٢٠هـ) :
  - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، بيروت، سنة ١٩٨٤م، نشره كارل يوحن، ١٨٤٣م.
- ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر (ت٦٥٨هـ) :
  - الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، سنة ١٩٧٤م.
- ابن الأحمر : إسماعيل بن الأحمر (ت٨٠٤هـ) :
  - روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط، ١٩٦٤م، بيوتات فاس الكبرى، ١٩٨٢م.
- ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) :
  - أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإسلام من ملوك الإسلام، القسم الثاني، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦م، القسم الثالث، تحقيق أحمد مختار العبادي، منشور تحت اسم تاريخ المغرب في العصر الوسيط، نشر الدار البيضاء، ١٩٦٤م.
- ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد (من علماء أواخر القرن الثالث الهجري) :
  - مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٩٦٧م.
- ابن بطوطة : محمد بن عبد الله بن إبراهيم الطنجي (ت٧٧٩هـ) :
  - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٤م.
- ابن حوقل : أبو القاسم أحمد النصيبي (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري):
  - صورة الأرض، ليدن، ١٩١٨م.

- ابن خلدون : عبد الرحمن محمد (ت٨٠٨هـ) :
  - المقدمة، دار الكتاب اللبناني، سنة ١٩٨٣م،.
  - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، سنة ١٩٨٣م.
- ابن سعيد : علي بن موسى الأندلسي (ت٦٧٣هـ) :
  - كتاب المغرب في حلى المغرب والمشرق، ليدن، ١٨٩٩م.
  - كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن صاحب الصلاة :
  - تاريخ المن بالإمامة، بيروت، ١٩٧٤م،ابن عبدون :
  - رسالة في القضاء والحسبة.
- ابن عذاري : أبو العباس أحمد المراكشي (ت٧١٢هـ) :
  - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول تحقيق ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.
- ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) :
  - عيون الأخبار.
- ابن القطان :
  - نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، تطوان، ١٩٦٥م.
- ابن مسكويه :
  - تجارب الأمم، بيروت، ١٩٨١م.
- ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت٧١١هـ) :
  - لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.
- أبو الفداء : إسماعيل بن عماد الدين (ت٧٣٢هـ) :
  - المختصر في أخبار البشر، القاهرة، ١٣٥١هـ، تقويم البلدان، ط باريس، ١٨٣٠م.
- الإدريسي : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (ت٥٥٨هـ) :

- وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مستخرج من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، سنة ١٨٦٦م.

- الإصطخري : أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) :
  - المسالك والممالك، ليدن، ١٩٣٧م.
- البكري : أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت٤٨٧هـ) :
  - المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتب المثنى، بغداد، د.ت.
- البلاذري : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٤٨هـ) :
  - فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.
  - أنساب الأشراف، بيروت، سنة ١٩٨٥م.
- البيذق : أبو بكر الصنهاجي (عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري) :
  - كتاب أخبار المهدي بن تدمرت، نشره ليفي بروفسال، الرباط، ١٩٢٨م.
- التنوخي : القاضي ابن علي التنوخي (ت٣٨٤هـ) :
  - نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، بيروت، ١٩٧٣م.
- الجرسيقي :
  - رسالة في الحسبة، بيروت، ١٩٨٥م.
- الجزنائي : أبو الحسن علي (توفي أواخر القرن الثامن الهجري) :
  - زهرة الآس في بناء مدينة فاس، طبعة الجزائر، ١٩٢٢م.
- الجهشياري : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشاري (ت٣٣١هـ):
  - كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٨٠م.
- الحسن الوزان : الحسن بن محمد بن الوزان الفاسي رليو الإفريقي (ت٩٥٧هـ) :
  - وصف إفريقية، ترجمه من الفرنسية إلى العربية عبد الحميد حميدة، الرياض، ١٩٧٩م.
- الحميري : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٨٦٦هـ) :
  - الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٤م.

- السلاوي : أبو العباس أحمد :
  - الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، القاهرة، ١٩١٢م.
- الشيزري : عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزري (ت٥٨٩هـ) :
  - كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م.
- الصابي : أبو الحسن بن الحسن هلال الصابي (ت٤٤٨هـ) :
  - تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، القاهرة، ١٩٣٤م.
- عياض : القاضي عياض أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ) :
  - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك، تحقيق عبد القادر الصحراوي، الرباط، ١٩٦٨م.
- القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت٨٢١هـ) :
  - صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، ١٩١٤م.
- مؤلف مجهول :
  - الاستبصار من عجائب الأمصار، الإسكندرية، ١٩٥٨م.
- مؤلف مجهول :
  - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، بيروت، ١٩٨١م.
- مجهول : (من علماء القرن ٦ الهجري) :
  - الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد، القاهرة، ١٩٨٦م.
- المراكشي : عبد الواحد المراكشي (ت٦٤٧هـ) :
  - المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، د، ت.
- المقدسي : شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت٣٨٨هـ) :
  - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٦٧م.
- المقريزي : تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ) :
  - شذور العقود في ذكر النقود، القاهرة، ١٩٦٧م.

- غاية الأمة بكشف الغمة، المطبعة الحديثة، التأليف والترجمة والنشر، القـاهرة، ١٩٦٧م.

- النباهي : أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد المالقي (تـوفي أواخـر القـرن الثـامن الهجري) :
  - تاريخ قضاة الأندلس وسماه المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر ليفي بروفنسال، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٤٨م.
- الونشريسي : أحمد بن يحيى (ت٩١٤هـ) :
  - المعيار المعرب والجمع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغـرب، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.
- ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الرومي (ت٦٢٦هـ) :
  - معجم البلدان، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٧١م.
- يحيى بن عمر : أبو زكريا يحيى بن يوسف الكناني الأندلسي (ت٢٨٩هـ) :
  - النظر والأحكام في جميع أحكام السوق.
  - أحوال السوق، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس ١٩٧٥م.
- اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب (ت٢٨٤هـ) :
  - البلدان، ليدن، ١٨١٣م.

ثالثا : المراجع العربية :

- أحمد الطوخي :
  - القيساريات الإسلامية في مصر والمغرب والأندلس، مجلة كليـة الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ٢٨، ١٩٨١م.
- أحمد مختار العبادي :
  - في تاريخ المغرب والأندلس، ط مكتبة جامعة الإسكندرية، ١٩٧٥م.

- حوراني (البرت) : .
  - تاريخ الشعوب العربية، بيروت، ١٩٩٠م.
- السيد سابق :
  - فقه السنة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩١هـ/١٩٧٧م.
- عبد الهادي التازي :
  - نظرية جديدة في بناء جامع القرويين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، سنة ١٩٥٨م.
- المجيلدي : أحمد بن سعيد، :
  - كتاب التيسير في أحكام التسعير، بيروت، ١٩٨٥م.
- محمود : حسن أحمد :
  - قيام دولة المرابطين، النهضة المصرية، ١٩٥٧م.
- محمود علي مكي :
  - وثائق تاريخية جديدة، القاهرة، ١٩٨٤م.

رابعا : المراجع الأجنبية :

1- Blacher R. Fes chez les Geographes Arabs du Moyen Age، Hesperis،T. 18 Paris 1964.

2- Brunot : La Mer dans les tradition et les industries Indignes arabat et sale، Paris 1974.

3- Devisse : Le Route de commerce et echanges en Afrique occidentale en Relation avec la African medieval du XVI Siécle, Revue d`histoire Economique et Social, Paris 1972.

4- Goitien : Studiesin – A Mediterranean society 1966.

5- Goitien : Studies in – Bankers and accounts from the eleven century، 1966.

6- Goitien : Studies in Islamic History, Leiden 1968.

7- Hazard : The Numistic History 1978.
8- Lombard M : L` Islam dans sa premiere grandeut. Paris 1974.
9- Mantnan : P.R : L`Expansion Musulmere Paris, 1969.
10- Marcais : Le Berberie.
11- Messier : The Almoravids west African Gold, 1980.
12- Ronad A، Messier : West African Gold،
13- Terrasse، H : Histoire du Morac casablance 1949.

المثاقفة بين العرب والغرب

" التجربة الأندلسية نموذجاً "

د. سلامة محمد الهرفى البلوى
أستاذ التاريخ الإسلامي المشترك
جامعة الشارقة- قسم التاريخ والحضارة الإسلامية

المقدمة

المثاقفة[1] بيــن العرب والغرب (التجربة الأندلسية نموذجاً)

أهمية دراسة التجربة الأندلسية:

تعتبر التجربة الأندلسية تجربة فريدة على مختلف المستويات، فهي تتشكل من شبكة معقدة الخيوط، متباينة الألوان في أصولها العرقية، والثقافية، والعقديّة. فعلى أرض الأندلس تجاورت الأديان السماوية الثلاث، وتلاقحت الثقافات الشرقية والغربية، مما يجعلنا أمام تجربة ثقافية غنية، جديرة بالاهتمام.

لقد أدركت التجربة الأندلسية أثرها العميق فى الوعى التاريخى العربى والأوروبى سلباً وإيجاباً فهى تشغل مساحة مهمة فى التاريخ الإسلامى نظرا لثرائها وعظمة إبداعها، وعمق تأثيرها فى الحضارة الإسلامية، وباعتبارها التجربة الوحيدة التى دخل فيها الإسلام إلى بلد من البلدان لمدة ثمانية قرون ثم انحسر الإسلام عنها تماما بعد ذلك، إلى جانب أن هذه التجربة لا يزال يعيشها المغرب العربى سلوكاً وفناً، وما زالت الأسماء الأندلسية للعدد العديد من سكان المغرب تؤكد جذور انتمائهم وقصة مأساتهم، وما زالت الشواهد الأدبية والشعرية الأندلسية تبكى وتطرب العربي.

أما الأسبان فكما قال الملك الإسبانى خوان كارلوس: ما زالوا فى اللاشعور

على اتصال مستمر بما هو عربى عن طريق استعمال لغة نحتت من ألفاظ أندلسية، أو عن طريق ممارسات لعادات شعبية وفنون تقليدية، أمكن المحافظة عليها بطريقة ممتازة[٢]. فالتجربة الأندلسية لم تمح من الذاكرة الإسبانية، فهي ما تزال شاخصة للعيان آثاراً ومعماراً، وزراعة ورياً، ومدنا تشهد أسماؤها على عمق تجربة المثاقفة بين الطرفين.

إن القراءة الصحيحة للتجربة الأندلسية أصبحت ضرورة ملحة تفرض نفسها على العلماء فى الشرق والغرب لما تكتسبه هذه التجربة من معطيات تجسد مفهوم المثاقفة بأوسع معانيها، وأنه لا يمكن تجاوز هذه التجربة التى عملت فى العقل العربى والأوربى ثمانية قرون عند وضع أطر المثاقفة بين الطرفين، ورسم آليات الأخذ والعطاء، وحدود الالتقاء والافتراق.

إن الهدف من هذا البحث هو محاولة سبر أغوار إشكالية المثاقفة بين العرب والغرب من خلال التجربة الأندلسية والحفر فى مكوناتها وآلياتها التى تسمح بتفعيلها وإعادة الإعتبار لها، واستحضارها فكرا وتصورا عند الحديث عن موضوع المثاقفة بين العرب والغرب؛ مما يجعلنا أكثر وعيا واستيعابا لمشكلات المثاقفة والعوائق التي تعترضها اليوم، والعمل على تذليلها من خلال الاستفادة من الدرس الأندلسي، إذ لا تستقيم صورة الحاضر إلا بالماضي، ولا ينبنى المستقبل إلا بهما معا. وعليه فالدراسة تحاول معالجة هذا الموضوع من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية:

س١: كيف يمكن الاستفادة من التجربة الأندلسية وجعلها جسرا للتواصل والتثاقف مع الغرب ؟

س٢: ما هي الأسس والآليات التي قامت عليها تجربة المثاقفة فى فترة الحكم الإسلامي للأندلس ؟

س٣: هل يمكن رصد مظاهر المثاقفة بين العرب والغرب من خلال التجربة الأندلسية ؟

س٤: لماذا رفض الغرب مفهوم المثاقفة السلمى وفرضوا على المسلمين المثاقفة

القسرية عندما أصبحت لهم الغلبة فى الأندلس ؟

س٥: كيف ينظر الأسبان اليوم لهذه التجربة؟ ولماذا نجح اليهود فى استغلالها لصالحهم للتواصل مع الغرب، وفشل العرب فى ذلك ؟

س٦: ما هي عوائق المثاقفة بين العرب والغرب كما جسدتها التجربة الأندلسية ؟

وقد جاءت الإجابة عن هذه التساؤلات فى أربعة مباحث مذيلة بأهم النتائج والتوصيات. تناول الأول منها ركائز فهم تجربة المثاقفة فى الأندلس، وتم التركيز فيها على المثاقفة اللغوية، والإجتماعية والدينية، والترجمة كمعلم بارز من معالم التواصل بين الشرق والغرب، وخصص المبحث الثالث لمعالم المثاقفة القسرية بين العرب والغرب، أما المبحث الأخير فخصص لموقف الإسبان والعرب اليوم من تجربة المثاقفة الأندلسية.

المبحث الأول

ركائز فهم تجربة المثاقفة في الأندلس

أ- الأندلس (خصائص الموقع والتكوين):

الأندلس آخر موقع فى الجنوب الأوروبي، وآخر قطر إسلامي فى أقصى الغرب الإسلامي، وكان القسم الشرقي منه هو الذى يستقبل التيارات الحضارية والهجرة عبر حقب التاريخ المختلفة، فى حين كان انتقال هذه التيارات غربا أمرا صعبا بسبب الجبال التى تنهض لدى الساحل، فضلا عن الأنهار السريعة الجريان والتي لا تصلح للملاحة فى معظم شهور السنة [٣].

أما الاتصال بالشمال فإن جبال البرتات العالية والوعرة تجعل المرور عبر بواباتها الأربع أمرا فى غاية الصعوبة. وقد تنبه العرب إلى هذه الخصائص الجغرافية للأندلس فكانوا فى معظم غزواتهم يعبرون هذه الجبال من الناحية الشرقية ويسيرون مع الساحل فيجتازوا إلى بلاد الفرنجة[٤].

إن الموقع المنعزل البعيد هيأ للأندلس الفرصة فى وقت مبكر لبلورة شخصيته المستقلة عن بقية أقطار العالم الإسلامي الأخرى. بيد أن الموقع وإن لم كان قد حقق للأندلس هذه الاستقلالية، إلا انه كانت له عيوبه فى عصور الضعف، إذا ضحى الأندلس وحيدا يصارع عدوا قويا يستصرخ فلا يسمعه أحد.

لقد تميّز الأندلس عن بقية أقطار العالم الإسلامي عبر تاريخه بالوحدة المذهبية تحت مظلة المذهب المالكى بقول المقدسى[٥]: "إن أهل الأندلس لا يعرفون سوى كتاب الله وموطأ الإمام مالك". وإن حكامهم كان يؤمنون بالوحدة المذهبية، لذا غدت الأندلس بقعة طاردة لكل المذاهب والفرق، فلا نشاهد للخوارج والشيعة وجودا واضحا، كما أن الحكام والمحكومين وقفوا سدا منيعا أمام أفكار المعتزلة، وحاربوا الجدل والفلسفة طوال القرون الأربعة الأولى[٦]، إذ لم تطل الفلسفة برأسها فى الأندلس إلا بعد أن انفرط عقد الخلافة الأموية فيها، ورغم ظهور العديد من الفلاسفة الكبار فى ربوع الأندلس اعتبارا من القرن السادس الهجري بقيت الفلسفة

علما ممقوتا[٧].

أما من الناحية الاجتماعية فقد تميز الأندلس بنسيجه الاجتماعي الفريد الذي تعددت أشكاله وألوانه وأطيافه، فكان بحق بوتقة انصهرت فيها العناصر الأوربية والأمازيغية، والنورماندية، والصقلية والعربية، والتى أبهرت العالم بإنجازاتها العلمية والحضارية.

لقد غدا التفرد والتميز نهجا واضحا فى مسيرة الأندلس الحضارية حتى فى المظهر والزى فلم يحبذوا على سبيل المثال ارتداد العمامة كبقية أبناء العالم الإسلامي[٨]، ووصل بهم الحال فى حب التميز إلى أن صاروا يرتدون فى أحزانهم البياض بدلا من السواد كما هو شائع فى بقية الأمصار الإسلامية، مما أثار حيرة أحد الشعراء ومضى يتلمس لهذه الظاهرة تفسيرا منطقيا فقال"

ألا يا أهل أندلس فطنتم	بلطفكم إلى أمـــــر عجيب
لبستم فأى مأتمكـم بياضا	فجئتم منه فى زى غريـــب
صدقتم فالبياض لباس حزن	ولا حزن أشد من المشيب[٩]

ب- التصور :

تنطلق المثاقفة من وجهة النظر الإسلامية من مبادىء إسلامية أصيلة ومقاصد روحية سامية تتفاعل فى وجدان وسلوك المسلم لتتحول إلى منهج تعامل وتواصل مع الآخر، ولعل آية المثاقفة إذا جاز التعبير تسميتها بهذا الإسم تعد النبراس الذى أنار الطريق أمام المسلمون لتوسيع دائرة المثاقفة مع الآخرين، فقد أكدت على أن الأصل فى العلاقات البشرية الأخذ والعطاء وتبادل المعارف والتجارب لإعمار هذا الكون، يقول تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" [١٠].

لقد فتح القرآن الكريم الأبواب على مصراعيها للمثاقفة بين أبناء الديانات السماوية الثلاث بشكل خاص لإشتراكهم فى المصدرية والعديد من التصورات الكلية عن الإنسان والكون والحياة والموت والآخرة، فدعا المسلمين إلى مشاركة

أهل الكتاب المأكل والمشرب وتمتين العلاقات الإجتماعية بين الطرفين من خلال الزواج والمخالطة والجوار يقول تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين"(١١) وقوله: "اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنين والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم"(١٢).

ويعقب علماء التفسير على هذه الآيات بقولهم أنها: رخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ان يبروهم ويقسطوا إليهم أى يعطوهم قسطا من أموالهم على وجه الصلة وأن يتزوجوا منهم ويشاركونهم فى المأكل والمشرب لذلك نجد المصطفى (ص) يؤكد فى أكثر من موقف وفى أكثر من مناسبة على الإحسان لأهل الذمة، لا بل نجده يأذن للصحابة الكرام بوصل آبائهم وأمهاتهم ممن لا يزالون على ملة الكفر، كما فعل مع أسماء بنت أبى بكر (رضى) بأن تصل أمها وهى مشركة.

ومن ركائز التصور القرآني للمثاقفة بين جميع الأجناس والتى أكد عليها فى أكثر من آية احترام كرامة الإنسان، ولا يتسع المجال لتناول العديد من الشواهد من الكتاب والسنة التى تؤكد هذا البعد فضلا عن إنزال هذه النصوص على الواقع والممارسة أثناء مسيرتنا التاريخية وآلتي تحفل بالشواهد والبراهين آلتي تؤكد بلورتها فى الواقع المعاش فى مختلف فترات تاريخنا مع الأخذ بعين الاعتبار حالات المد والجزر فى حركة التاريخ الإسلامي.

لقد ركز القرآن الكريم على احترامه لمبدأ المثاقفة القائمة على المثل العليا آلتي تحترم حرية إرادة الإنسان فى اختيار معتقده، وعدم فرض الهيمنة العقدية أو الفكرية على الآخر بشكل قسري يكون هذا الآخر فى حالة هزيمة وضعف، فاعتبر الإسلام اعتناقه أو الإيمان به خيارا إنسانيا لقوله تعالى: "لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى"(١٤).

وبما أن حركة المثاقفة قد يصحبها تنظير وحوار وجدل قد أفضى فى بعض الحالات إلى استغلال صاحب السلطة لسلطانه لفرض وجهة نظره جعل القرآن

الكريم أدب الحوار واحترام إنسانية الإنسان من أسمى مقاصده، لذا طلب من المسلم عدم التجريح للآخر والإلتزام بالمثل العليا، والعمل على تقديم الأدلة والبراهين ومناقشتها بكل علمية "وجادلهم بالتي هى أحسن" قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"[١٦].

ومن أبواب المثاقفة التى فتحها القرآن الكريم التشجيع على الهجرة إذا تبين للإنسان أنه فى أرض تنتقص من كرامته وتقلل من فاعليته، وتحرمه من ممارسة حياته بحرية، لا بل نجده يؤثم من يقيم فى بلاد لا تحترم حريته وتمارس عليه الجبروت والاضطهاد يقول تعالى: "إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا..."[١٧].

وهكذا جعل الإسلام المجتمع الإسلامي مجتمعا مفتوحا لكل الأجناس والأعراق والألوان، وبذلك نفي هذا الدين العنصرية، والتعصب والانغلاق على لون أو جنس أو جغرافيا، وهذا بدوره أدى إلى الإندماج والإنفتاح والتعاون والتثاقف، وظهر المسلم الذى لا يعانى من عقدة اللون أو الجنس أو العرق أو الإغتراب. ولعل المتأمل لصفحات التاريخ الإسلامى يلاحظ بشكل جلى كيف تجسدت المثاقفة واقعا ملموسا فى حياة المسلمين يفضحها لون بشرة الأبناء، وتعدد اللغات والأديان والأجناس والتى كانت تعمل فى جو من الوئام عبر عنه خلف بن المثنى أجمل تعبير حين قال: شهدنا عشرة فى البصرة يجتمعون فى مجلس لا يعرف مثلهم فى الدنيا علما ونباغة وهم: الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سني)، والحميرى الشاعر (شيعى)، وصالح بن عبد القدوس (زنديق أثنوى)، وسفيان بن مجاشع (خارجى)، وبشار بن برد (شعوبى)، وحماد عجرد (زنديق شعوبى)، وابن رأس الجالوت الشاعر (يهودى)، وابن نظير المتكلم (نصرانى)، وعمر بن المؤيد (مجوسى)، وابن سنان الحرانى (صابىء) وكانوا يجتمعون يتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار ويتحدثون فى جو من الود لا يكاد يعرف منه أن بينهم هذا الاختلاف الشديد فى دياناتهم ومذاهبهم[١٨].

ج- المصادر:

إن فهم عمق تجربة المثاقفة الأندلسية لا يتأتى من خلال المصادر التاريخية لوحدها بل هى تظهر بتجلياتها الكبرى من خلال كتب التراجم، فعلى سبيل المثال تكشف كتب التراجم الأندلسية طبقات الأصليين والطارئين والغرباء، ولعل الناظر لكتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب يكفى لتثمين ما قدمه هذا المؤرخ من ثروة علمية تساعد بشكل كبير على تسليط الضوء على حركة المثاقفة فى الأندلس.

أما كتب النوازل فى الأندلس فتكشف عن دقائق وقائع التجربة الأندلسية بمختلف أبعادها، وقد صرح المستشرق ليفي بروفنسال فى كتابه "تاريخ اسبانيا الإسلامية" أن كتب الفتاوى تساعد بشكل كبير فى فهم تاريخ الجتمعات الإسلامية عبر التاريخ، كما اعتنى سلفادور فيلا (Salvador Vila) بنوازل الزواج فى الأندلس، وقام الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف بدراسة كتاب الأحكام الكبرى لإبن سهل، واستخرج مادة علمية قيمة عن شبكة العلاقات الإجتماعية والإقتصادية فى الأندلس[١٩].

أما المصدر الثالث فهو المخطوطات المورسكية والتى تسلط الضوء على تجربة المثاقفة القسرية بعد سقوط الأندلس بيد الأسبان، فضلا عن المصادر غير المباشرة من كتب مذكرات، ورحلة وأدب وشعر وزجل وموشحات.

د- الضوابط والأطوار:

لقد واجهت الثقافة العربية الإسلامية فى الأندلس الإشكالية العامة التى واجهتها عامة الحضارات الإنسانية عموما عند التقائها الثقافى مع الآخر، وقد تعددت الآراء والنظريات لوضع ضوابط لفهم هذه الإشكالية، وممن عرض لهذا الموضوع المؤرخ توينبى الذى وضع ركائز تساعد على فهم طبيعة هذا اللقاء والتى منها:

١- أن الخصائص الفردية للثقافة الأجنبية أكثر قبولا من الثقافة فى مجموعها.

٢- قبول عنصر ثقافة أجنبية سيجر وراءه سائرها، وهذا العنصر المفرد أكثر

إزعاجا للمدنية المستعيرة مما لو تبنت الثقافة الأجنبية كلها، بمعنى أن أخذ عنصر من عناصر أية ثقافة دون فهم كنه الثقافة كلها لا يستطاع هضمه ومن ثم تصبح عامل إزعاج.

٣- قوة النفاذ لأى إشعاع تكون على نسبة عكسية للقيمة الثقافية لذلك الإشعاع، بمعنى أن أتفه الجوانب الثقافية أعظمها نفاذا والعكس صحيح[٢٠].

والثقافة العربية الإسلامية فى الأندلس واجهت هذه الإشكالات أو تعرضت لها، فقد التقت الثقافة الإسلامية الوافدة بثقافات إغريقية وقوطية، والتقت النظم الإسلامية بالنظم المحلية، ومن هذه المشاكلة تحددت معالم المثاقفة فى الأندلس.

ويمكن تقسيم الأطوار التى مر بها تاريخ المثاقفة فى الأندلس على النحو الآتى:

- طور التسرب ويمتد من دخول الإسلام إلى الأندلس وحتى اكتمال التأثير الإسلامى باستكمال فتح شبه الجزيرة الأيبيرية.
- مرحلة ازدواج الثقافات: الثقافة الإسلامية بطابعها المعروف، والثقافة المحلية تعيش كل منهما منفصلة عن الأخرى إلى حين.
- بداية الإندماج ومشاركة أبناء البلاد المفتوحة فى العطاء الحضارى ومحاولتهم تعلم اللغة العربية والتبحر فيها، وترجمة الكتب العربية للغة المحلية، ومحاولة فهم كل طرف للطرف الآخر.
- مرحلة الإندماج والإنصهار الكامل، وفيها يكثر عدد الداخلين فى الإسلام من أهالى البلاد المفتوحة وتعلمهم العربية، واشتداد لغة الترجمة.
- استيقاظ الثقافة المحلية تحت وطأة التعصب الدينى والإقليمى، وبداية ظهور الفصام الثقافى والعودة إلى نقطة البداية لكن بوتيرة متسارعة يحكمها مبدأ المثاقفة القسرية من طرف واحد والعمل بكل الوسائل والسبل لسحق كل نتاج وثمار المثاقفة التى استمرت ثمانمائة سنة وهذا ما عاشته الأندلس بعد أفول نجم المسلمين فى عام ١٤٩٢م.

المبحث الثانى

مظاهر المثاقفة فى الأندلس

أولا: المثاقفة اللغوية :

إن المعايشة الطويلة فى منطقة جغرافية واحدة يؤدى إلى التأثير المتبادل، ومن الطبيعى أن يصدر التأثير من الأقوى إلى الأضعف، أو كما يقول ابن خلدون: المغلوب مولع بتقليد الغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده[٢١].

لقد كان من الطبيعى نتيجة اختلاط الفاتحين العرب والبربر مع الإسبان بالمساكنة والزواج والمعاملات والحروب، أن يتأثر ويؤثر كل طرف بالآخر، ويمكن رصد هذا التأثير بشكل جلى عند المولدين من أمهات اسبانيات وآباء عرب أو بربر والذين أخذوا يتكلمون اللغتين العربية والرومانية (Romance) ويؤكد كل من ابن عذارى وابن حزم، والخشنى، وابن الخطيب أن هذه الإزدواجية اللغوية كانت ظاهرة عامة عند علية القوم والعمة على حد سواء[٢٢]. إلا أن انتشار ظاهرة الإزدواج اللغوى فى الأندلس لا يعنى أن اللغة الإسبانية كانت مساوية للغة العربية فى الإنتشار والهيمنة فى فترة الإزدهار الحضاري فى الأندلس، فكما يقول علماء اللغة: بأنه إذا التقت لغة ذات تراث حضارى متفوق مع لغة أخرى حظها من هذا التراث قليل ينتهى الأمر بتغلب اللغة الأولى[٢٣].

فما هى العوامل التى ساعدت اللغة العربية على الهيمنة على العديد من اللغات فى الأقاليم المفتوحة، ومنها إقليم الأندلس؟

لعل العامل الدينى يعد من أبرز عوامل قوة هذه اللغة، فقد عمل الدين الإسلامى على انتشارها وتيسيرها وتوفير المعلمين لتدريسها بدافع دينى بالدرجة الأولى، فقد أجمع العلماء على ضرورة إجادة اللغة العربية لمن يريد أن يعرف أسرار الكتاب والسنة، فضلا عن عدم جواز القراءة فى الصلاة بغير العربية، فكان على المسلمين الجدد تعلم من العربية ما تستقيم به صلاتهم ومن ثم تعلم المزيد من علوم العربية لفهم الدين: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إن اللغة العربية من الدين

ومعرفتها فرض واجب على كل مسلم، فإن الكتاب والسنة فرض ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[٢٤].

أن تبنى حكام الأندلس لبرنامج التعريب من خلال خطوات مدروسة آتت أكلها خلال فترة وجيزة، فقد أدخلوا اللغة العربية إلى معابد اليهود والنصارى[٢٤]، وجعلوا شرط إجادة اللغة العربية شرطاً للقبول فى الوظائف الحكومية فضلاً عن اتخاذ اللغة العربية لغة الدواوين والمراسلات والمخاطبات الرسمية، لقد شجعت هذه الخطوات أهالى الأندلس على الإقبال على اللغة العربية إقبالاً أثار دهشة واستغراب رجال الدين فى أسبانيا، يقول القس القرطبى ألفارو: "إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم..يا للحسرة إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نهم، وهم ينقلون أموالاً طائلة فى جمع كتبها، ويصرحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب... يا للألم لقد نسى النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحد يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتاباً سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة فى لغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منسق، بل ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالاً.

كما ساعدت الهجرات العربية المتوالية للأندلس على تكريس اللغة العربية وهيمنتها فى بلاد الأندلس إلى جانب الجهود الجبارة التى بذلها علماء الأندلس فى خدمة اللغة العربية وتسهيلها وضبطها عن طريق التأليف المعجمى منذ منتصف القرن الرابع الهجرى أثر عودة أبو على القالى (ت٣٥٦هـ) من المشرق حاملا ثقافته اللغوية والأدبية، فكان رائداً للحركة المعجمية فى الأندلس. ولعل الناظر فى طبقات اللغويين والنحويين للزبيدى يدرك مدى احتفاء أهل الأندلس باللغة العربية وخاصة فى علم النحو الذى أنزلوه المكانة السامية، فقد جاء فى نفح الطيب: "والنحو عندهم فى نهاية علو الطبقة حتى أنهم فى هذا العصر فيه كأصحاب الخليل وسيبويه... وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكنا من علم النحو...فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالم من الإزدراء"[٢٧].

وعندما يذكر الحميرى[٢٨] صاحب الروض المعطار، وهو من علماء القرن

العاشر الهجرى أذربيجان يأتى ببيتين للحافظ أبى طاهر السلفى:

ديار أذربيجان فى الشرق عندنا كأندلس فى النحو والآداب

إن الوجود المستمر للغة اللاتينية طيلة عصور التاريخ الأندلسي كانت له حسنة كبيرة، فقد شكل تحدياً مستمراً لوجود اللغة العربية ذاتها، وهيأ للأندلسيين حافزاً كبيراً كى يسعوا للمحافظة على لغتهم العربية فازدهرت علوم اللغة وظهر عدد كبير من أعلامها يأتى على رأسهم ابن مالك (ت٦٧٢هـ) صاحب الألفية المشهورة وغيرها[٢٩].

إلا أن هذه السيادة اللغوية للغة العربية فى الأندلس عند النخبة من المثقفين لم تمنع السواد الأعظم من أهل الأندلس من المزاوجة بين لغاتهم المحلية مع اللغة العربية ليتميزوا بلهجتهم عن لهجة أهل المشرق، وقد لاحظ العلماء هذا التميز والإختلاف منذ فترة مبكرة، فيسجل لنا العلامة المقدسى ملاحظة فى غاية الأهمية على تأثير المثاقفة اللغوية على أهل الأندلس، عن طريق استغرابه من لهجة أهل الأندلس فيقول: أنه التقى بعض الحجاج الأندلسيين بمكة المكرمة، وعلق بأن لغتهم عربية غير أنها منغلقة مخالفة لما ذكرنا فى الأقاليم، ولهم لسان آخر يقارب الرومى[٣٠].

إن الإزدواج اللغوى يعد من أبرز مظاهر المثاقفة بين الأجناس المختلفة فى الأندلس، والذى عبر عنه بعدة أشكال من أبرزها ابتكار فن شعبى أندلسى جديد هو الموشحات والأزجال إذ غدا من شروط الخرجة فى الموشحات أن تكون باللغة الإسبانية أو باللغة العامية الدارجة والتى يبنى عليها بقية الموشح، أما الأزجال فكلها عامية دارجة تتخللها عبارات أعجمية، ولعل المتأمل لأزجال ابن قزمان (ت٥٥هـ/١١٦٠م)، رائد هذا الفن يجده حافلا بالكلمات الإسبانية التى تدل على تغلغلها فى اللهجات العامية الأندلسية[٣١].

إن ظهور الموشحات والأزجال يعد مظهرا من مظاهر نجاح المثاقفة بين العرب والإنسان ومحاولة جادة لإيجاد صيغة تعبيرية مشتركة عن المشاعر بفن يحمل الطيفين العربى والإسبانى مما سهل انتقال هذه التجربة إلى بقية دول أوروبا

المجاورة التى تأثرت بهذا اللون من الفن، فنرصد ملامحه عند المغنين الجوالين الذين يعرفون باسم التروبادور (Troubadures) الذى أخذ بالظهور فى جنوب أوروبا منذ القرن الخامس الهجرى، والتروفير (Troveres) فى جنوب ووسط فرنسا، والمنيز ينجر (Minneso enger) فى ألمانيا، والجوكلارس (Juglarec) فى شمال إسبانيا، وهناك من يذهب إلى أبعد من ذلك حين يؤكد بأن الأغانى التى ينشدها الإسبان فى أعياد الميلاد المعروفة باسم بيانيكو (Villancico) هى زجل أندلسى[٣٢].

ولعل هذا العدد الكبير من الزجالين والوشاحين الذين ظهروا فى الأندلس يدل دلالة واضحة على قبول الناس لهذا الفن وتشجيعهم له، وبعبارة أخرى قبولهم لهذه الصيغة الجديدة للمثاقفة بين العرب والإسبان: يقول الأديب أبو الوليد اسماعيل الشقندى (ت٦٢٩هـ) فى رسالته المشهورة "لو قسموا الشعراء والوشاحين والزجالين على بر العدوة (الأندلس) لضاق بهم"[٣٣].

أما ابن باجه أحد أشهر أدباء وعلماء الأندلس، فقد عبر عن التمازج اللغوى فى الأندلس عن طريق مزج غناء النصارى بغناء المشرق واخترع طريقة فى الغناء لا توجد إلا فى الأندلس، مال إليها طبع أهلها فرفضوا ما سواها[٣٤].

لقد كان هذا اللون من المثاقفة يواجه الرفض من بعض النخب العلمية فى الأندلس باعتباره خروجا عن المعهود الشعرى واللغوى، فاضرب بعضهم أمثال ابن بسام عن روايته وتدوينه فقال: "وشعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعنا"[٣٥].

ومن مظاهر المثاقفة اللغوية أيضا أن بعض المعاجم التى بدأت تظهر فى الأندلس فيما بعد القرن الخامس الهجرى، أخذت تحرص على ذكر الأسماء والمصطلحات باللغتين العربية والإسبانية يقول الحميري فى معجمه (الروض المعطار) إن الهدف من تأليف معجمه "ذكر المواضع المشهورة عند الناس من العربية والعجمية"[٣٦]. فى المقابل بدأ يظهر تأثير اللغة الإسبانية فى اللغة العربية فى رسم الأسماء العربية عندما بدأ أهل الأندلس بإضافة المقطع الإسبانى الأخير الذى يتكون من الواو والنون للدلالة على التعظيم مثل: حفصون (على حفص)،

وخلدون على (خالد)، وغلبون على (غالب)، وزيدون على (زيد). كذلك أضافوا صيغة التصغير مثل حازيلا (أى الحارة الصغيرة)، وأضافوا صيغة يط التى تدل على التكثير كما نرى فى لفظ مجريط المؤلفة من الكلمة العربية (مجرى) أضيفت إليها النهاية اللاتينية الدارجة يط لكى تدل على مجموعة المجارى المائية الجوفية(٣٧).

وفى اللغة البرتغالية آلاف الكلمات ذات الأصل العربي التى احتفظت بها كما هى مثل: فلان وفلانة (Fulano, Fulana) أو التى أضيفت إليها أداة التعريف أو عوضت بعض حروفها غير الموجودة بالأبجدية اللاتينية بأحرف كالحاء (Albufeira) عوض البحيرة أو الخاء (Alfaruba) عوض الخروبة...(٣٨). كما أن أسماء الأماكن ما تزال تشهد على عمق المثاقفة بين العرب والإسبان، إذ تكثر الأماكن التى لا تزال أسماؤها عربية كالقرية، ومكة، والمعدن،...أما فى حقل العلوم فنجد على سبيل المثال العديد من المصطلحات الفلكية والكيميائية، والطبية المستخدمة فى العديد من اللغات الأوربية تفصح عن أصلها العربى مثل السمت (Azimut) الفرد (Al Fard) القائد (Al Kaid) ، الذنب (Deneb)، الغول (Al gol)، والصغر بالإسبانية والإيطالية والبرتغالية ...الخ(٣٩).

ولم تقتصر عملية المثاقفة بين العرب والإسبان بل تعدتها إلى المثاقفة بين العبرية والعربية، فنجد على سبيل المثال شعراء العبرانية فى الأندلس يطوعون العروض العربى فى إنشاء شعر عبرانى أندلسى(٤٠).

لقد استمرت المثاقفة فى الأندلس تأخذ مسارها السلمى دون مقاومة تذكر من أحد حتى ظهرت فترة التعصب الدينى النصرانى فى الأندلس والتى أدت فى نهاية المطاف إلى سلوك منهج الإقصاء والإلغاء للآخر، وفرض الهيمنة الثقافية النصرانية الإسبانية بشكل قسرى على ما تبقى من العرب واليهود فى الأندلس وذلك بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م وتأسيس محاكم التفتيش، والتى تمثل صفحة سوداء فى تاريخ حركة المثاقفة فى هذا الجزء من العالم.

ثانيا : المثاقفة الإجتماعية :

يتكون النسيج الإجتماعى للأندلس أبان الحكم الإسلامى من عنصر إيبرية هاجرت منذ القدم من المغرب، وعناصر كلتية جاءت من شمال أوروبا، وروما، وقوط، ويهود، ونورمان، وعرب وبربر، وصقالية، لذا فالحديث عن المثاقفة فى الأندلس هو حديث عن نتاج هذ التفاعل والتمازج بين كل هذه العناصر البشرية التى عاشت مع بعضها وانصهرت فى قالب واحد أعطى للأندلس شخصيته المستقلة[٤١].

لقد ارتبط الكثير من المسلمين الفاتحين بعلاقات مصاهرة مع أهالى الأندلس، حيث تبارى الحكام والعلماء والقضاة والجند بالزواج من الإسبانيات، حتى أن المنذر بن عبد الرحمن الناصر، دعى بابن القرشية لإنفراده بين أقربائه بكونه قرشى الأب والأم معا يقول ابن حزم: "وأما جماعة بنى مروان – رحمهم الله – فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة... وقد رأيناهم... فما منهم إلا أشقر نزاعا إلى أمهاتهم حتى صار ذلك فيهم خلقة...[٤٢] " ولعل ملوك بنى نصر ملوك غرناطة الذين عرفوا أيضا بملوك بنى الأحمر لشقرة فيهم، ربما نتج عن هذا الزواج إذ كانت معظم أمهاتهم إسبانيات[٤٣].

ونتج عن هذا الزواج المختلط جيل جديد من الأبناء عرفوا باسم المولدين، وقد تزايد عددهم حتى أصبحوا يكونون معظم سكان الأندلس، وحسبنا أن نتأمل كتب التراجم الأندلسية لنجد العدد العديد من أسماء الكتاب والفقهاء والوزراء والأمراء التى تدل على أصل إسبانى مثل: ابن بشكوال، وابن قزمان، وابن القوطية، وابن لب وغيرهم كثير، وقد نال كثير من المولدين مناصب قيادية فى مختلف العصور الأندلسية الإسلامية[٤٤].

ويمكن ملاحظة المثاقفة الإجتماعية بأوضح معانيها فى حفلات الزواج المشتركة بين المسلمين والنصارى، فقد نظم حفل لعقد القران بين أميرين من أمراء النصارى فى بلاط الأمير المنذربن يحيى (٤٠٨- ٤١٤هـ/ ١٠١٧- ١٠٢٣م) فى حفل من أبناء الملتين كما يقول ابن بسام فى ذخيرته "أجريا تصاهرهما على يديه، وكتب عقد النكاح بينهما بحضرة سرقسطة فى حفل من أهل الملتين[٤٥].

بالإضافة للإشتراك فى حفلات الزواج والأعياد كان بعض النصارى لا يجد حرجا فى لبس ملابس المسلمين، وكذلك بعض المسلمين لا يجد حرجا فى لبس ملابس النصارى يقول إبن سعيد المغربى المؤرخ الغرناطى الشهير (ت٦٨٥هـ) "وكثيرا ما تزيا سلاطين الأندلس وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم، سلاحهم كسلاحهم وأقبيتهم كأقبيتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم..."[٤٦].

ولا يمكننا أن نغفل فى هذه العجالة الحديث عن نجاح المثاقفة مع الصقالبة الذين بلغ عددهم على سبيل المثال فى عهد عبد الرحمن الناصر ما يزيد على العشرة آلاف من الرجال والنساء، كان منهم الأدباء والعلماء والشعراء والحكام[٤٧].

أما النورمان[٤٨] فقد وقع عدد منهم أسرى بأيدى المسلمون وما لبثوا أن اعتنقوا الإسلام واختلطوا بالمسلمين وتكونت منهم جاليات بنواحى اشبيلية حيث عملوا بتربية المواشى، كما اقتبس منهم المسلمون صناعة بعض المراكب يقول ابن عذارى بأن الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكب المجوس (النورمان) ووضعها فى الوادى الكبير تمهيدا لقتالهم بها على نفس طريقتهم[٤٩].

ووصلت المثاقفة بين المسلمين والنصارى فى الأندلس حدا إلى اعتبار يوم الأحد عطلة رسمية للدوائر الحكومية وقد نص على ذلك ابن حيان (ت٤٦٩هـ) فى المقتبس فى ترجمته لكتاب الأمير محمد الأموى، فذكر أن المدعو قومس بن انتتيان الذى كان نصرانيا ثم أسلم فى آخر حياته أول من سن لكتاب السلطان وأهل الخدمة تعطيل الخدمة فى يوم الأحد من الأسبوع[٥٠]، وكان يومها كاتبا للرسائل للأمير محمد عبد الرحمن وقد استمر الوضع إلى فترة متأخرة من تاريخ الأندلس.

ثالثا : المثاقفة الدينية :

إن روح التسامح [٥١] والقبول بمبدأ التعايش مع الآخر فى الفكر الإسلامى من العوامل الرئيسية فى تأثر النصارى بالمسلمين، فقد كفلت الدولة الإسلامية الحرية الدينية لمواطنيها، فأبقت لهم معابدهم، وحافظت على خصوصيتهم بترك إدارة شؤونهم لعناصر منهم، فعينت لهم رئيسا منهم يعرف بالقومس، وقاض يعرف بقاضى العجم أو النصارى يفصل فى منازعاتهم بمقتضى القانون القوطى[٥٢].

لقد تمسك الأندلس بالمذهب المالكى ولم يسمح بانتشار غيره، مما جنب هذا المصر شرور الفتن والخلافات المذهبية، وحفظت له سلامته ووحدته الروحية، فكان لذلك درعاً واقياً للإسلام فى أقصى الغرب. وفى المقابل قلد النصارى المسلمين فكانت الممالك المسيحية الإسبانية فى الشمال على مذهب دينى واحد باعتبارها هى الأخرى ثغرا للمسيحية فى هذه المنطقة فاقتصرت على المذهب الكاثوليكى وتعصبت له(٥٣).

وقد حاول الراهب الإسبانى ميغل آسين بلاثيوس (Miguel Asin Palacios) والذى يعد من أشهر العلماء فى النصف الأول من القرن العشرين تتبع جذور المثاقفة الدينية بين النصرانية والإسلام، فكتب عن الصلات بين التصوف الإسلامى والنصرانى، أمثال يوحنا الصليبى الذى جعل من الصوفى الأندلسى ابن عباد الرندى (ت٧٩٢هـ) مثالاً له، فتكررت نفس المصطلحات الصوفية عند الإثنين مثل القبض والبسط ثم أكد تأثر تومس الأكوينى بالفيلسوف ابن رشد (ت٥٩٥هـ)، وتأثير روحانية الغزالى فى الفيلسوف باسكال، وأثبت فى ٢٦ يناير ١٩١٩م فى جلسة للأكاديمية الملكية الإسبانية بأن دانتى فى الكوميديا الإلهية قد تأثر بالإسلام تأثراً عميقاً، وأن موارده كانت من قصة المعراج، ورسالة الغفران للمعرى وبعض كتب محي الدين بن عربى(٥٤).

ولم يقتصر التثاقف الدينى على هذا الحد بل تعداه إلى تقليد الرهبان الإسبان للزهاد المسلمين فى الإقامة فى الأربطة، علماً بأن الكنيسة فى رسالتها لم تكن تنظر بعين الرضا إلى الراهب الذى يجمع بين الزهد والسيف معاً، ولكن عندما اشتد ساعد حركة الاسترداد النصراني في القرن السادس الهجري أخذت تظهر جماعات عسكرية دينية لها اربطتها الخاصة مثل جماعة: Calatrava, Al Cantara, Santiago وغيرها(٥٥).

كما نجد النصارى يقلدون المسلمين في أساليب الدعوة والوعظ عندما أوصت الكنيسة بتكليف بعض الوعاظ على طريقة المسلمين للتجوال في القرى، حيث ظهرت وظيفة الواعظ الجوال(٥٦).

رابعا : الترجمة :

تعد الترجمة من ابرز العوامل التي ساعدت على تسريع وتيرة المثاقفة في الأندلس ، فعلى أرض الاندلس التقت الثقافات الشرقية بشقيها العربي والعبري مع الثقافات اللاتينية الغربية. ومنذ القرن الرابع الهجري اصبحت اوروبا تنظر الى العالم الاسلامي نظرة اعجاب وخوف معا ، وقد ولدت هذه النظرة لهذا العالم رغبة في معرفة سر تطوره ونهضته، لذا قامت الاديرة في اوروبا وخاصة في شمال اسبانيا بترجمة مؤلفات العرب في العلوم البحتة وقد لعبت مدرسة طليطلة في الاندلس دورا مهما في نقل عصارة الفكر البشري من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية خاصة في عهد مؤسسها اسقف طليطلة ريموند حيث استقطب افضل المترجمين لترجمة الكتب العربية في الرياضيات والفلك والتنجيم والفلسفة ، فقام الايطالي جيرارد الكريموني (٥٠٨-٥٨٣ هـ /١١١٤-١١٨٧م) أثناء إقامته في طليطلة بترجمة حوالي سبعين كتابا معظمها في العلوم البحتة[٥٧]

وقد عاش الراهب جربرت ثلاث سنوات بقتلانيا (٣٥٧-٣٦٠ هـ - ٩٦٧-٩٧٠ م) حيث تعلم في الاندلس الفلك والحساب، وهو أول من أدخل الارقام العربية الى اوروبا بما فيها الصفر[٥٨] .

ومن الحكام الاسبان الذين شجعوا حركة الترجمة : الفونسو الحكيم (٦٥٠-٦٨٣هـ / ١٢٥٢-١٢٨٤ م) الذي شجع على الترجمات العلمية والتاريخية ، وانشأ مؤسسة للتعليم العالي ، فبعد أن سقطت مرسية سنة (٦٤٠هـ /١٢٤٣م) إبتنى الملك النصرنى العالم محمد بن أحمد القرموطى والذى كان من أعلم أهل زمانه بالعلوم القديمة مدرسة يقرىء فيها المسلمين والنصارى واليهود[٥٩]

أما الملك ألفونسو العاشر فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر، فقد دعا إلى ترجمة القرآن الكريم والأعمال الأدبية المشرقية، بالإضافة إلى تأسيسه مدرسة لاتينية وعربية بأشبيلية، اهتمت بتدريس علوم اللغة العربية والعلوم المختلفة من طب وفلسفة وغيرها مخولا بذلك لأشبيلية مسؤولية نقل علوم الشرق إلى الغرب اللاتينى.

وفى القرن السابع عشر عمل الملك كارلوس الثالث على إعادة الزخم لعملية المثاقفة عن طريق الترجمة، وذلك باستجلاب رهبان مارونيين من المشرق العربى للعناية بالمخطوطات العربية بمكتبة دير الأسكوريال[٦٠].

وقد انفرد اليهود بترجمة الكتب الأدبية واللغوية، والتى أهملت ترجمتها فى مدرسة طليطلة وغيرها من مراكز الترجمة، وذلك لقرب لغتهم من اللغة العربية[٦١].

وكان من نتيجة أعمال الترجمة تلك أن أخذت أوروبا طريقها نحو نهضتها المعاصرة، فعلى سبيل المثال بقى كتب الكليات فى الطب لإبن رشد يدرس فى جامعة كراكوفيا (Cracovi) حتى القرن الثامن عشر، وبقى كذلك يدرس فى جامعة (Jena) فى المانيا حتى بداية القرن التاسع عشر[٦٢].

المبحث الثالث

المثاقفة القسرية

بدأ هذا اللون من المثاقفة بعد أن انتهت الهيمنة الإسلامية بشكل فعلى على الأندلس بعد أن قام أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بنى الأحمر بتسليم مفاتيح غرناطة فى ٢٥ نوفمبر عام ١٤٩١م، ودخول ملكى اسبانيا فرناندو وازابيلا إليها فى الثانى من يناير عام ١٤٩٢م، حيث تحول النموذج الإسلامى من الإحترام والتبجيل والإعجاب إلى الإستهجان والملاحقة للقضاء عليه.

لقد حمل راية محاربة الثقافة العربية الإسلامية فى الأندلس مجموعة من رجال الدين المتعصبين فضلا عن بعض الحكام والصليبيين الوافدين حيث ساهموا مساهمة فاعلة فى القضاء على روح المثاقفة السلمية التى أرسى قواعدها المسلمون طوال ثمانية قرون.

وقد انتقلت فكرة المثاقفة القسرية من مبدأ سياسى وعقدى فى آن واحد، فأسبانيا نصبت نفسها درعا للنصرانية ضد الإسلام بصفتها تمثل خط المواجهة الأول، لذا بلورت برنامجاً منظما للقضاء على كل معلم من معالم المثاقفة بين العرب والأسبان وكان من أبرز معالم هذا البرنامج:

أ- أن مفهوم الوحدة الوطنية يعنى طرد الأقلية واستئصال كل ما لا يمت بصلة للثقافة اللاهوتية النصرانية.

ب- ملاحقة النتاج الثقافى العربى والتخلص منه مع الإبقاء على بعض المؤلفات العلمية، فقد بادر ثيسنيروس رئيس الكنيسة الاسبانية فى عام ١٥٠١م بجمع كل ما استطاع جمعه من الكتب العربية الموجودة فى خزائن غرناطة والتى تقدرها بعض المصادر الاسبانية بمليون وخمسة آلاف كتاب تم احراقها فى احتفال كبير فى ميدان باب الرملة وسط غرناطة، ما عدا ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم(٦٣).

ج- اصدار سلسلة من القرارات الجائرة من أجل فرض الثقافة النصرانية على

المسلمين والتى منها على سبيل المثال: تحريم استخدام اللغة العربية فى المخاطبات، وعدم التسمية بالأسماء العربية، وارتداء الملابس العربية، وإجبارهم على وضع إشارات خاصة تميزهم عن النصارى، وتحريم الإستحمام يوم الجمعة والأعياد، وعدم الإحتفال برمضان فضلا عن تحريم صيامه، ضرورة الإنحناء أمام كبير الأحبار(٦٤).

د - تأليف المؤلفات من قبل كبار رجال الدين النصرانى لإثبات تفوق الأنجيل عن القرآن، ودحض الفكر الإسلامى، ومن هذه المؤلفات على سبيل المثال: كتاب شجب القرآن الذى طبع عدة طبعات فى طليطلة وإشبيلية (١٥٠٠- ١٥٠٢م) وكتاب أضواء من الإيمان فى مواجهة القرآن، فضلا عن الكثير من المؤلفات التى عنيت بمهاجمة العقيدة الإسلامية(٦٥).

هـ- تأسيس محاكم دينية يشرف عليها رجال الدين لمراقبة برنامج الإبادة للثقافة العربية الإسلامية فى الأندلس والتى اعلنت منذ اليوم الأول لتأسيسها بعدم اعترافها بمبدأ المثاقفة السلمية الذى تفيئت الأندلس فى ظلاله طوال الحقبة الإسلامية من تاريخ إسبانيا.

لقد استخدمت هذه المحاكم أبشع الأساليب فى ملاحقة المنتمين للثقافة العربية الإسلامية، فخصصت قاعات خاصة فى الأديرة للتحقيق مع المتهمين بالتشبث بالهوية العربية، واستخدمت أجوات فى غاية القسوة لتعذيب المتهمين وإجبارهم على الإعتراف بالتهم المنسوبة إليهم، لا بل أن هذه المحاكم أصدرت قرارات جائرة تنص على فصل الأبناء عن الآباء لتقوم الكنيسة بتربيتهم على التعاليم النصرانية إلى جانب العديد من التشريعات الجائرة التى لا يتسع المجال لبسطها(٦٦).

لقد رفعت محاكم التفتيش شعارا بأن السلم لا يخضع لإسبانيا إلا إذا أمسى إسبانيا ولا يسمى إسبانيا إلا إذا أمسى مسيحيا.

ولكن هل نجحت هذه الإجراءات من تشبث الموريسكيين باللغة العربية والدين الإسلامى، وتحت وطأة الضغط أخرجوا لغة قوامها الصوتى الرومانسى وحروفها عربية أطلق عليها اللغة الأعجمية، وبهذه اللغة صاغوا تراثهم الثقافى

والروحى متشبثين بحروف اللغة العربية، وهى لغة تجسد روح المقاومة والرفض لكل ما يتعلق بالشكل الكاثوليكى، وتوجد اليوم نحو ٢٢٢ خطوطا كتبت بهذه اللغة السرية قام انطونيو بييرتينو ردريجيز بإعداد قائمة خاصة بها وبأماكن تواجدها .

وعندما اكتشف رجال الكنيسة وحكام اسبانيا بأن برناجهم الذى وضعوه للقضاء على الثقافة العربية الإسلامية للموسكيين قد فشل، قرروا طرد المسلمين من اسبانيا فى الفترة (١٦٠٩- ١٦١٤م)، مما جعل اسبانيا تدفع ثمنا باهظا على مختلف المستويات فقد كان المسلمون فى الأندلس الأكثر تعليما فكان رحيلهم ذا أثر بليغ فى مختلف مظاهر الحياة الفكرية والإجتماعية والإقتصادية، فهناك ما يشبه الإجماع بين المفكرين ابتداء من القرن السابع عشر الميلادى على أن طرد المورسكيين هو السبب الجوهرى وراء التدهور الإسبانى فى مختلف الميادين خاصة فى الميدان الزراعى، فتأثرت زراعة السكر، وصناعة الحرير، وأخذت اسبانيا تستورد القمح[٦٨].

لقد نقل المورسكيون مهاراتهم الصناعية والزراعية ولباسهم وعاداتهم وشتى المظاهر الحضارية الأندلسية الى منافيهم وبعبارة أخرى مارسوا دورهم فى المثاقفة فى كل بلد حلوا فيه، ولم تحدث لديهم ردة فعل ضد كل ما هو نصرانى نتيجة للمعاناة والمأساة التى عاشوها على يد الأسبان المتعصبين، وقد أظهرت إحدى الإحصائيات أن ٣٨% من الذين هاجـروا إلى الأمريكيين بيـن (١٤٩٢- ١٦٠٠م) من الأندلس حيث انتقلت الخبرات العربية الإسلامية إلى العالم الجديد، ومن هذه الخبرات صناعة السكر وزراعة القطن، وبرغم أن القطن كان معروفا عند هنود أمريكا إلا أن الأساليب العربية الأندلسية فى الزراعة أدت إلى ازدهار زراعته فى المستعمرات الإسبانية الأمر الذى أدى إلى غمر أسواق أوروبا ومصانعها بالقطن الأمريكى[٦٩].

والسؤال الذى يطرح نفسه فى نهاية هذا المبحث هو: هل هذا اللون من المثاقفة القسرية الذى كان مورثا فى اسبانيا ما زال يشكل حيزا من ذاكرة الأوروبى بشكل عام والإسبانى بشكل خاص؟ وهل ما حدث فى جزيرة وليلى المغربية وتأييد الغرب لإسبانيا دون تحفظ حتى قبل تفهم حقيقة النزاع، فضلا عن ما يحدث فى

البوسنة والهرسك يعد شاهدا على عودة النشاط لهذه العقلية التى تؤمن بالغاء وإقصاء الآخر ورفض مبدأ المثاقفة السلمى؟ وكيف يمكننا أن نتعامل مع قضية العولمة وما تطرحه من دعوات للمثاقفة بين الشعوب، فى ظل هيمنة غربية جارفة لا تحترم الخصوصية الثقافية لأحد؟.

المبحث الرابع

موقف الأسبان والعرب من تجربة المثاقفة فى الأندلس

تحتل التجربة الأندلسية مكانة مهمة فى التراث المعرفى الأسبانى، لا بل تعتبر من القضايا التى انقسم حول تقييمها الأسبان، من خلال تيارين متصارعين بين مؤيد لرفض هذه التجربة وعدم الإعتراف بآثارها الحضارية، وبين مثبت يؤكد عمق تراثها وتأثيرها فى الحقل المعرفى والثقافى والأسبانى لا بل والأوروبى بشكل عام، ويمكننا رصد التطور التاريخى للفكر الأسبانى تجاه تجربة المثاقفة الأندلسية من خلال ثلاث مراحل:

أولا : مرحلة الإنغلاق والتعصب الدينى والقومى والإلغاء لكل إنجاز قدمته هذه التجربة، لا بل مباركة كل خطوات القمع والملاحقة والإبادة المنظمة لكل منجزات المثاقفة التى تحققت أثناء فترة الحكم الإسلامى، وتمتد هذه المرحلة من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى وقد وصف العالم الإسبانى باسكوال جيانجوس (Pascual Gayangos) فى مقدمته لكتاب "نفخ الطيب" إلى اللغة الإنجليزية بقوله: "إن أكابر المؤرخين الأسبان فى هذه الحقبة تحدوهم عاطفة بغض قومى عميق أو نزعة بغض دينى ورفض التعامل مع المصادر العربية مما طبع كتاباتهم بالكثير من الإنحرافات والمتناقضات. لعل أكبر ممثلى هذه المدرسة اليوم المستشرق سيمونيت (Simonet) الذى ينكر إنكارا كاملا المنجزات الحضارية العربية الرفيعة التى شهد بفضلها الأعداء قبل الأصدقاء[٧٠].

ثانيا : مرحلة محاولة فهم التجربة الأندلسية من خلال الرجوع لمصادرها بشقيها العربى والنصراتى، مع إدراك أهمية المصادر العربية فى تشريح هذه التجربة، وذلك مع ظهور المؤرخ خوسيه أنطونيو كوندى Jose Antonio Conde الذى أحدث كتابه "السيادة العربية فى أسبانيا" جدلا عالميا واسعا[٧١].

ثالثا : مرحلة انصاف الحقيقة وفهم التجربة الأندلسية بكل أبعادها وانعكاسها على مستقبل الهوية الإسبانية فضلا عن علاقتها مع العالم العربى، وهى مرحلة تدل

على نجاح النخبة الإسبانية من المثقفين بعد الحفر فى ذاكرتهم التاريخية فى الإهتداء إلى جوهر تجربة المثاقفة بين العرب والأسبان، وأنها تجربة لا يمكن تجاهلها عند الحديث عن تحديد ملامح الشخصية الإسبانية وما تشكله هذه التجربة من حيز فى ذاكرته الحضارية.

ويمكننا رصد المظاهر الآتية التى تميز هذه المرحلة من سابقاتها:

أ- إحياء التراث الأندلسى وتمجيد التجربة الأندلسية وفضلها على الحضارة الإنسانية بصفة عامة، والأوروبية بصفة خاصة، وأن التواجد الإسلامى فى الأندلس فى جوار الممالك النصرانية من أهم العوامل التى دفعت إلى تطور إسبانيا النصرانية ومن أشهر رواد هذه المرحلة: العلامة فرانشيسيكو كوديراى زيدن(ت١٩١٧م) Francisco Coderay Zaydin الذى أصدر ما يعرف باسم المكتبة الأندلسية وتحتوى على أمهات المصادر الأندلسية، ووصل به الأمر إلى القول: "إن من الخطأ العمل على أوربة إسبانيا بل الواجب هو تعريب أوروبا، وعلى إسبانيا أن تسترد دورها القديم فى التعريب(٧٢).

وسار على نهجه نخبة من تلاميذه ومن آمن بفكـره يأتى على رأسهـم خوليـان ربيـرا (ت١٩٣٤م) وآسين بلاثيوس (ت١٩٤٤م) وجونثالث بالنثيا (ت ١٩٤٩م). أما أميركو كاسترو فقد أحدث كتابه "حقيقة أسبانيا التاريخية" لذى طبع فى المكسيك ثورة فى كل الأقطار المتصلة بتاريخ اسبانيا فى عصرها الإسلامى، لذا بقى المؤلف ممنوعا من دخول اسبانيا حتى وفاة فرانكو عام ١٩٧٥م، وقد ترجم الكتاب لمعظم اللغات الأوربية وإلى العربية، ويرى كاسترو أن المسلمين طردوا من اسبانيا رغم أنهم لا يقلون اسبانية عن الذين بقوا فيها، تخلت عنهم الدولة وهم الأكثر عملا وانتاجا لمجرد الشرف الوطنى المتمثل فى الوحدة الدينية وسيادة السلطة الحاكمة. وقد ساهمت هذه المجموعة من المفكرين فى إعادة صياغة العقل الإسبانى تجاه الحقبة الإسلامية بصورة جديّة(٧٣).

ب- تقديم العديد من الدراسات التى تثبت بأن تجربة المثاقفة فى الأندلس إبان الحكم الإسلامى تركت آثارا غائرة فى الذاكرة الإسبانية يصعب محوها أو

طمسها لا بل أن الأعمال الرائدة الكبرى للكتاب والأدباء الأوروبيين بشكل عام يندر أن تخلو من إشارة إلى بطل عربى، فعلى سبيل المثال بذل آسين بلاثيوس (١٨٧١- ١٩٤٤م) جهودا مضنية لإثبات ذلك من خلال العديد من دراساته المقارنة التى ترصد التفاعل الثقافى بين النصرانية والإسلام انطلاقا من اللقاء الحضارى الذى جمع بين الديانتين على أرض اسبانيا الإسلامية، فكتب عن الصلات بين التصوف الإسلامى والنصرانى، وأثبت بما لا يدع مجالا للشك بأن دانتى اقتبس ملحمته "الكوميديا الإلهية" من معجزة المعراج مما أحدث دويا هائلا فى أوروبا حيث كانت الكوميديا الإلهية محل إجلال وإكبار ظنا منهم أنها من نتاج وتفكير دانتى الأصيل وبعد نشر كتاب بلاثيوس "الأصول الإسلامية للكوميديا الإلهية" حتى فقد هذا العمل لدانتى مصداقيته وغدا عملا مقتبسا ومنقولا فكرة وتخطيطا من المصادر الإسلامية[٧٤].

وفى هذا الإتجاه خصص فرانسيسكو ماركوس مارتن إطروحة للدكتوراة للشعر السردى العربى فى الملحمة الإسبانية، منطلقا فيها من أرجوزة ابن عبد ربه، ليؤكد بأن هناك مجموعة من العناصر المشتركة بين الثقافة العربية والإسبانية[٧٥].

ج- محاولة خلق تيار سياسى وثقافى لإعادة الإعتبار لتجربة المثاقفة الأندلسية وبعث الحياة فى عروقها باعتبارها تمثل أنصع صفحة فى تاريخ إسبانيـا ويمثل هذا التيار بلاس انفانتى (١٨٨٥-١٩٣٦م) الذى أصبح ينظر إليه منذ ١٣ أبريل ١٩٨٣م من قبل كافة الأحزاب السياسية فى البرلمان الإسبانى كأب للوطن الأندلسى وقد تمحورت أفكاره حول النقاط الآتية :

١- من أجل التغلب على التبعية الإقتصادية والسياسية والثقافية يستلزم إحياء الذاكرة التاريخية للأندلس، ويتوجب لذلك دراسة ماذا يعنى الميراث الإسلامى حاضرا.

٢- رفع شعار الأندلس لنفسها ولإسبانيا وللإنسانية.

٣- دعا إلى الوحدة مع المغرب قال الأندلس هى وروبا وأفريقيا فى آن

واحد.

٤- ينبغى النظر إلى الأندلس دوما كزمن للتآلق الثقافى والحرية وبوتقة تآلف الشعوب المستندة إلى تاريخ مشترك.

٥- إدانة محاكم التفتيش وسياسة العنف التى مارسها حكام اسبانيا بعد سقوط غرناطة.

ومن أجل بلورة هذه الأفكار بشكل عملى أنشأ مراكز أندلسية فى معظم مناطق الأندلس واستمرت هذه المراكز (١٩١٦- ١٩٢٣م) حيث تم إغلاقها من قبل السلطات، ولم يمنعه هذا من مواصلة جهوده لتحقيق أهدافه فعقد فى عام ١٩٢٨م فى مدينة شلب فى نواحى الغرب من البرتغال تجمع تكريمى للملك الشاعر المعتمد بن عباد، وفى عام ١٩٣١م بدأ حملة لبناء مسجد فى اشبيلية لإعادة التأكيد على مبدأ الحرية والتعددية الدينية والتى هى من السمات المكونة للتاريخ الأندلسى. وبقى يعمل بكل طاقته إلى أن أعدم فى ١١ أغسطس ١٩٣٦م على يد متمردين[٧٦].

ولم تنطفأ جذوة أفكار انفانتى بل تابع أنصاره أفكاره ودفعوها إلى الأمام حيث تمكن أنصاره من اعتماد أفكاره كمبادىء للحزب الأندلسى الذى أسس عام ١٩٧٨م. وبدأ هذا الحزب والتيار الذى يناصره يحقق انتصارات باهرة فى تصحيح الذاكرة التاريخية الإسبانية تجاه التجربة الأندلسية، فأخذت الأندلس على سبيل المثال تحتفل بمرور ألف عام على تأسيس الخلافة الإسلامية فى قرطبة، وإحياء ذكريات الكثير من علماء الأندلس. وفى عام ١٩٨٩م تم الإعتراف بالإسلام كدين ذوى جذور أندلسية إسبانية وثيقة. وبدأت تظهر للعيان العديد من الإصدارات والمجلات العلمية التى تخدم الدراسات العربية فى الأندلس، ومن أشهر هذه المجلات مجلة الأندلس التى تعد أول مجلة علمية فى العالم فى الدراسات الأندلسية. كما تم إنشاء مؤسسة حكومية إسبانية متخصصة فى الدراسات العربية وهى معهد اسين بلاثيوس فى مدريد التابع للمجلس الملكى للأبحاث العلمية فى اسبانيا ومدرسة الدراسات العربية فى غرناطة التابعة لنفس المعهد. فضلا عن العديد من الأقسام العلمية المتخصصة فى الدراسات العربية والإسلامية فى معظم الجامعات الإسبانية[٧٧].

لقد أثمرت الجهود الدؤبة للباحثين المنصفين من الإسبان فى خلق تيار مهم فى اسبانيا يؤمن بتثمين تجربة المثاقفة بين العرب من خلال التجربة الأندلسية، وبدأت هذه الأفكار تظهر للعيان فى نتاج النخب، فعلى سبيل المثال ظهرت هذه التجربة بأبعادها التاريخية والثقافية والجمالية كموضوع وكفاعل فى الرواية الإسبانية المعاصرة من خلال الحنين إلى الأندلس، والتأكيد على قيمتها الحضارية التى تعتبر كجزء متبلور من الذات الثقافية الإسبانية ومن بين هؤلاء الروائيين: انطونيو مونيوز مولينا، وأنطونيو غالا، وبدور مارتينيز مونتابث، وخوان غويتسولا المتعاطف مع قضايا العالم العربى خاصة القضية الفلسطينية(٧٨).

وهكذا رأينا أن استثمار التاريخ فى مد جسور المثاقفة بين العرب والأوروبيين قد بدأ بمحاولة الإسبان لفهم الذات التاريخية لتحديد رؤى المستقبل للعلاقات مع العرب فماذا فعل العرب فى المقابل للإستفادة من تجاربهم التاريخية الغنية فى القارة الأوروبية خاصة فى الأندلس، لبلورة آليات محددة لتطوير وتفعيل المثاقفة بين الطرفين لخدمة مصالحنا وقضايانا الكبرى؟

إن المتأمل للتراث المكتوب منذ سقوط الأندلس باللغة العربية سواء أكان نثراً أم شعراً يجده اتخذ من سقوط الأندلس مؤشرا لدخول العرب دور الإنحطاط مع ارتفاع وتيرة الخوف من الحاضر وتكرار مأساة الأندلس، وهذا يؤشر على حدة وقع الأزمة والشعور بالهزيمة الحضارية أما تحدى الغرب اليوم من خلال اسقاط الماضى على الحاضر مع غياب توظيف هذه المأساة لتحقيق أشياء إيجابية. إلا أنه يجب أن لا ننكر بعض الجهود التى بذلت وتبذل اليوم لقراءة تجربة المثاقفة الأندلسية من قبل العرب والتى تظهر من خلال تشجيع الدراسات الأندلسية فى الجامعات العربية، ومن خلال جهود االمعهد الإسبانى العربى للثقافة، والجمعيات الثقافية المشتركة، وإصدار الحوليات والمجلات المتخصصة التى تبحث فى العلاقات الثقافية والفكرية العربية الإسبانية سواء داخل اسبانيا أم فى الأقطار العربية والتى منها: مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد، وفى تونس مجلة دراسات أندلسية. وهناك العديد من المراكز الأكاديمية المتخصصة بالدراسات الأندلسية المنتشرة على مساحة الوطن العربى منها على سبيل المثال:

خمسة مراكز جامعية تونسية تدرس فيها الإسبانية، فضلا عن ١٢ ألف طالب فى المعاهد الثانوية التونسية وأكثر من ٦٠ أستاذاً مختصاً فى اللغة الإسبانية وذلك حسب إحصاء عام ١٩٩٩م، فضلا عن البرامج الإذاعية الخاصة بتعليم الإسبانية.

ولكن هذه الجهود ما تزال فى بداية الطريق ولم تستثمر بشكل فاعل للمثاقفة مع الغرب وإسبانيا بشكل خاص.

لقد نجح اليهود فى استثمار التجربة الأندلسية لصالحهم من خلال جهود منظمة على مختلف المستويات الثقافية والسياسية والإقتصادية، أقنعت إسبانيا فى نهاية المطاف بدور اليهود المحورى فى التجربة الأندلسية، وقدمت الحكومة الإسبانية اعتذاراً رسمياً لهم على المذابح التى قامت بها محاكم التفتيش، بينما على الضفة الجنوبية للمتوسط أحفاد الموريسكيين بدون رد للإعتبار لما لحق بأجدادهم من إبادة وتشريد بعد سقوط غرناطة[٧٩].

لقد احتفلت اسبانيا فى ٣١ مارس ١٩٩٢م بالذكرى الخمسمائة لطرد اليهود من اسبانيا وقدم ملك اسبانيا اعتذاراً رسمياً لليهود، وسن قانوناً ذا دلالة رمزية يلغى فيه قانون الطرد، وفى نفس اليوم قام بزيارة بيعة فى مدريد ولبس القبعة اليهودية على رأسه وألقى خطابا تضمن اعتذاراً لليهود الذين طردوا من اسبانيا طرداً تعسفياً بعد سقوط غرناطة. وفى ٢٠٠٠/٧/١٥م قررت الحكومة الإسبانية المساهمة بمبلغ مليون ونصف المليون دولار خصص لأحفاد اليهود المطرودين من اسبانيا سنة ١٤٩٢م.

وفى يوم ١٩٩٢/١١/١٤م ألقى الملك الإسبانى بمدينة الزهراء بقرطبة خطابا حضره سفراء الدول العربية المعتمدين بمدريد كما حضره الأمين العام لجامعة الدول العربية نوه فيه بالتاريخ المشترك بين العرب والأسبان، لكن الملك مع الأسف لم يشر إلى أى اعتذار للمطرودين العرب من إسبانيا رغم أن عددهم لكثرته لا يقارن بعدد اخوانهم اليهود الذين طردوا معهم[٨٠].

الخاتمة

من خلال معالجة هذا الموضوع اتضحت الأمور الآتية:

١- أن تجربة المثاقفة بين العرب والغرب كما تمثلها التجربة الأندلسية، جديرة بالتأمل والدراسة والتحليل من قبل الطرفين لأنها لا تزال تشكل حيزا من الذاكرة الفاعلة فى الوجدان العربى والأوروبى، والتى لا يمكن تجاوزها عند التخطيط لبناء أطر للمثاقفة بين الطرفين.

٢- إن من أبرز عناصر نجاح المثاقفة أبان الحقبة الإسلامية فى الأندلس تعود إلى انطلاقها من المبادىء الآتية:

أ- احترام كرامة الإنسان وصيانة الخصوصية الثقافية لكل الأعراق والأجناس التى كانت تكون المجتمع الأندلسى، وعدم الإيمان بمبدأ الإقصاء أو الإلغاء للآخر ومحاربة كل أنواع وأشكال التعصب والقضاء على حواجز اللون والجنس.

ب- ترتيب أوليات المثاقفة على أساس عقدى، حيث أعطيت الأولوية للمثاقفة بين أصحاب الديانات السماوية الثلاث وذلك من خلال الآتى:

- تشجيع الزواج بين المسلمين واليهود والنصارى.
- إدخال اللغة العربية إلى كل دور العبادة فى الأندلس.
- رفع شعار الحرية الدينية للجميع.
- إشاعة مبدأ الحوار الثقافى وفق أسس أخلاقية سامية.
- تحقيق مبدأ العدالة فى تولى الوظائف العامة.
- تشجيع حركة الترجمة ليفهم ويستوعب كل طرف الطرف الآخر.

٣- تعتبر كتب النوازل، والتراجم، والمذكرات، والأدب والتى ترصد التفاعلات الإجتماعية والثقافية والدينية من أهم المصادر لفهم عمق تجربة المثاقفة فى

الأندلس.

٤- أن التعصب الدينى الذى ازدهر فى الأندلس بعد سقوطها عام ١٤٩٢هـ، كان وراء وقف مواصلة مسيرة المثاقفة بين العرب والغرب لا بل أدى إلى توتر الأجواء بين الطرفين.

٥- إن المثاقفة فى حقل العلوم البحتة من أنجح المداخل للمثاقفة بين الطرفين.

٦- أن الأسبان اليوم قاموا بدراسة التجربة الأندلسية، حيث انتصر تيار العلم والمعرفة، فأعاد الإعتبار لهذه التجربة، وظهر الحزب الأندلسى الذى يدعو إلى إحياء التجربة الأندلسية وتفعيلها للتواصل مع العرب، فى حين لا تزال التجربة الأندلسية بالنسبة للعرب تمثل مرحلة تبعث للتحسر والخوف من الحاضر دون استثمار جاد لهذه التجربة لتكون مدخلا للتواصل مع الغرب فى نفس الوقت نجح اليهود فى استثمار هذه التجربة للتواصل مع اسبانيا بشكل خاص عندما اعتذرت اسبانيا لهم رسميا وقدمت تعويضات لأحفاد اليهود المطرودين من الأندلس.

التوصيات

١- أن التجربة الأندلسية توضح بما لا يدع مجالا للشك بأن الذى أفسد هذه التجربة هو التعصب الدينى من قبل الإسبان، لذا يجب أن يسبق أى دعوة لوضع آليات للمثاقفة بين العرب والغرب حوار بين الأديان.

٢- تبنى الجامعة العربية، ورابطة العالم الإسلامى، والإتحادات العلمية فى الوطن العربى لبرامج للتواصل مع النخب المثقفة من الإسبان ممن آمنوا بثراء التجربة الأندلسية مع التركيز على استخدام التاريخ المشترك للعرب والإسبان لبناء علاقات ثقافية واجتماعية واقتصادية مميزة ترتكز على هذه الخصوصية المشتركة.

٣- تكليف اتحاد الجامعات العربية بتنظيم سلسلة من المؤثرات والندوات العلمية لإبراز المساهمة العربية الإسلامية من خلال الأندلس فى خدمة الغرب والإنسانية بشكل عام.

٤- تشجيع التواصل بين الأقسام المختصة بالدراسات الأندلسية فى البلاد العربية واسبانيا بشكل خاص والغرب بشكل عام.

٥- احياء ذكرى مشاهير علماء الأندلس ممن ساهموا بشكل جلى فى خدمة الإنسانية.

٦- تشجيع التوأمة بين المدن الأندلسية والمدن العربية.

٧- اختيار الملحقين الثقافيين فى السفارات العربية فى اسبانيا من المتخصصين بالدراسات الأندلسية لتفعيل التواصل والتبادل الثقافى بين الطرفين.

٨- دعم البرامج الثقافية بمختلف أشكالها فى وسائل الإعلام والتى تتحدث عن الروابط المشتركة بين العرب والأسبان.

الحواشي

(١) ثـقف الرجل ثقفا وثقافة أى صار حاذقا خفيفا فهو ثقف، مثال ضخم فهو ضخم ومنه المثاقفة، أى غالبه فى الحذق والفطانة. أنظر: اسماعيل بن حماد الجوهرى: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، القاهرة، ط١٩٨٢،٢م/ج٤،ص ١٣٣٤ (مادة ثقف) وانظر كذلك تاج العروس.

(٢) مجلة دراسات أندلسية، رجب ١٤١٣هـ/١٩٩٣م/ع٩، ص٦

(٣) عن جغرافية الأندلس انظر: البكرى: جغرافية الأندلس وأوروبا، ص ٥٩، ٦٦، ٦٨، ٨٥، ١٢٩، ١٤٣، ١٥٦، ١٧٩- ١٨٠، الحميرى: الروض المعطار، ص٢٨، ٥٥، ٦٤، ٦٧، الإدريسى: نزهة المشتاق، ح٣، ص ٧٣٠، أحمد مختار العبادى: الإسلام فى أرض الأندلس، أثر البيئة الأوروبية، مجلة عالم الفكر، ج١٠، ع٢، ١٩٧٩م، ص ٥٩- ١١٠.

(٤) عندما كان الأندلس يلفظ أنفاسه الأخيرة استنجد بأهل مصر (٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م) فاعتذر الظاهر جقمق لبعد الشقة، واكتفى السلطان الأشرف قايتباى بتهديد صاحب قشتالة بهدم كنيسة القيامة، ولم تفعل الدولة العثمانية شيئا يذكر لنصرة الأندلس انظر: ابن أياس: بدائع الزهور، ح٣، ص ٢٤٤- ٣٤٥، عبد الجليل التميمى: الدولة العثمانية وقضية المورسكيين الأندلسيين، تونس، ١٩٨٩م، ص ٤٩- ٦٦.

(٥) أحسن التقاسيم، ص ٣٣٦-٣٣٧

(٦) ابن الفرضى: تاريخ علماء الأندلس، ق٢، ص٣٩ ترجمة رقم ١٢٠٤ (محمد بن عبد الله مسرة)

(٧) المقرى: نفح الطيب، ج٣، ص ١٨٦، ٢٠٥ يقول: "وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة".

(٨) المصدر السابق نفسه، ح٢، ص ١٤٥.

(٩) المصدر السابق نفسه، ح٣، ص ٤٤٠- ٤٤١

(١٠) الحجرات، آية ١٣.

(١١) الممتحنة، آية ٨.

(١٢) المائدة، آية ٥.

(١٣) الإسراء، آية ٧٠.

(١٤) البقرة، آية ٢٥٦.

(١٥) النحل، آية ١٢٥.

(١٦) البقرة، آية ١١١.

(١٧) النساء، آية ٩٧- ٩٨.

(١٨) مصطفى السباعى، من روائع حضارتنا، ص .

(١٩) السجل العلمى لندوة الأندلس التى عقدت فى الرياض، ق١، ص ٢٠١.

(٢٠) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا، ص ١٢.

(٢١) ابن خلدون: ناريخ ابن خلدون، ج١، ص ١٢٣ (طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩).

(٢٢) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ٤٤٣، ابن عذارى: البيان المغرب، ح٢، ص ٢٢٧، الخشنى: قضاة قرطبة، ص ٩٦، ١٣٨- ١٣٩.

(٢٣) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ص ٢٠- ٣٠.

(٢٤) ابن قدامة: المغنى، ح١، ص ٥٢٦ (اشتراط القراءة العربية).

(٢٥) عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، ص٢٨٧.

(٢٦) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسى، ص ٤٨٥- ٤٨٦؛ عباس محمود العقاد: أثر العرب فى الحضارة الأوروبية، ص ٦٩- ٧٠؛ محمد سويسى: العلوم العربية بالأندلس ونقلها إلى أوروبا، مجلة دراسات أندلسية، ع١٢، محرم ١٤١٥هـ، هـ١٧.

(٢٧) المقرى: نفح الطيب، ح١، ص٢٢١.

(٢٨) الحميرى: الروض المعطار، ص ٢٠.

(٢٩) البير حبيب: الحركة اللغوية فى الأندلس، ص ١٣٧ يؤكد ابن خلدون (المقدمة، ص ٤٣٥- ٤٣٧)أنه لم يجد فى المغرب معلما يمكنه تدريس كتاب سيبويه بالكفاءة نفسها التى يتمتع بها الأندلسيون.

(٣٠) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٢٤٣.

(٣١) لمزيد من التفاصيل عن الزجل والموشحات أنظر: عبد العزيز الأهوانى: الزجل فى الأندلس، القاهرة، ١٩٥٧م؛ عبد العزيز الأهوانى: الأغنية الشعبية أصل التوشيح، المجلة، ع٢، فبراير، ١٩٥٧م؛ يونس شنوان: الأعجمية فى الموشحات الأندلسية؛ عباس الجرارى: أثر الأندلس على أوروبا فى الإيقاع والنغم، مجلة عالم الفكر، مج١٢، ع١،

١٩٨١م، منى حسن مخمود: المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة، ص ٢٥٧- ٢٦٢.

(٣٢) أحمد مختار العبادى: الإسلام فى أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر، مج١٠، ع٢، يوليو- أغسطس- سبتمبر، ١٩٧٩م، ص ٧٢.

(٣٣) المقرى: نفح الطيب، ج٤، ص ١٧٧.

(٣٤) عباس الجرارى: أثر الأندلس على أوروبا فى الإيقاع والنغم، مجلة عالم الفكر، مج١٢، ع١، ١٩٨١م.

(٣٥) ابن بسام: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، ج١، ق١، ص٢، ج١، ق٤، ص٢٢.

(٣٦) الحميرى: الروض المعطار، المقدمة.

(٣٧) أحمد مختار العبادى: المقال السابق، ص٦٥- ٦٦.

(٣٨) السجل العلمى لندوة الأندلس، ق٢، ص ٨٦.

(٣٩) خالد بن محمد القاسمى: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس، دار الثقافة العربية، الشـــارقة، ط١، ١٩٩٨م، ص ٢٠٠- ٢٣٦.

(٤٠) عبد العزيز شهير: التعايش بين الأديان فى الأندلس من خلال نصوص شعرية أندلسية، مجلة دراسات أندلسية، ع١٤، ص ٣١.

(٤١) أحمد مختار العبادى: المقال السابق، مج١٠، ع٢، ص ٥٩- ٦٠.

(٤٢) ابن حزم: طوق الحمامة، ص ٤٤٨، أحمد نختار العبادى: المقال السابق، ص٦٢- ٢٢.

(٤٣) أحمد مختار العبادى: المقال السابق، ص ٦٤.

(٤٤) السجل العلمى لندوة الأندلس، ق٣، ص١٦٦.

(٤٥) ابن بسام: الذخيرة، ق١، م١، ص ١٨١- ١٨٢؛ جمعة شيخة: فى التسامح بين المسلمين والنصارى من خلال الشعر الأندلسى، نجلة دراسات أندلسية، ع١٤ محرم ١٤١٦هـ/جوان، ١٩٩٥م، ص٧-٩.

(٤٦) المقرى: نفح الطيب،ج١، ص٢٠٧- ٢٠٨ فى القرن السادس الهجرى تروى قصة الرحالة الإنجليزى أديلارد الباثى المرتدى زى المسلمين. كما كان ثوب القداس الذى كان يرتديه القديس خوان دى أورتيجا يحمل إسم أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين، ولا يزال الثوب محفوظا فى كنيسة كينتانا أورتونيو ببرغش. وكان الملك القشتالى إنركو الرابع (١٤٥٤- ١٤٧٤م) يرتدى الملابس الأندلسية، ويحتفظ بحرس ملكى أندلسى فى بلاطه، كما وجد فى قبر الإمبراطور فريدرك الثانى امبراطور ألمانيا الشهير (ت١٢٥٠م)

كتابة عربية على أكمام قميصه، أنظر: بالباس: الفن المرابطى والموحدى، ١٩٧٦م، ص ٦٢؛ سلامة محمد البلوى: دولة المرابطين فى عهد على بن يوسف بن تاشفين، بيروت، ١٩٨٥، عادل سعيد بشتاوى: الأندلسيون المواركة، القاهرة، ١٩٨٣، ص٢٥٦.

(٤٧) أطلق الجغرافيون العرب اسم الصقالبة على الشعوب السلافية، وقد دأبت بعض القبائل الجرمانية على سبى تلك الشعوب وبيع رجالها ونسائها إلى عرب اسبانيا، ولقد ترك هؤلاء الصقالبة أثرا حضاريا فى الأندلس لا يمكن اغفاله إذ برز منهم الأدباء والعلماء نذكر منهم: فاتن الصقلبى فى الأدب، والأمير مجاهد العامرى الصقلبى صاحب دانية انظر، أحمد مختار العبادى المقال السابق، ص٩٢- ٩٣.

(٤٨) ذكروا فى المصادر والمراجع بعدة أسماء منها: الأردمانيين، والمجوس، والفيكنج انظر: الحميرى: الروض المعطار، ص٨٩؛ البكرى: جغرافية الأندلس وأوروبا، ص١١٢، فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص١١٥، ٢١٨. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا فى العصور الوسطى، ح١، ص٢١٠.

(٤٩) حسين مؤنس: غارات النورمانديين على الأندلس، مجلة الجمعية التاريخية المصرية، ع١، ١٩٤٩م؛ أحمد مختار العبادى: المقال السابقن ص٩٧.

(٥٠) ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ص٥١٩ حاشية رقم ٢٩٨.

(٥١) يقول الإمام القرافى: إن من حق أهل الكتاب علينا إذا تعرض الحربيون لبلادنا وقصدوهم فى جوارنا أن نموت فى الدفاع عنهم، وكل تفريط فى ذلك يكون إهمالا لحقوقهم علينا. ويقول أيضا: إن من واجبنا تجاه أهل الكتاب الرفق بضعفائهم، وسد خلة فقرائهم، وإطعام جائعيهم، وإلباس عاريهم، ومخاطبتهم بلين القول، واحتمال أذى الجار منهم... وإخلاص النصح لهم فى جميع أمورهم، ودفع من تعرض لإيذائهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يفعل معهم كل ما يحسن بكريم الأخلاق أن يصنعه. فضلا عن استخدامهم فى مختلف الوظائف أنظر: محمد بن شريفة: حول التسامح الدينى، مجلة دراسات أندلسية، ع١٤، ١٩٩٥م، ص١١؛ جمعة شيخة: فى التسامح بين المسلمين والنصارى من خلال الشعر الأندلسى، مجلة دراسات أندلسية، ع١٤، محرم ١٤١٦هـ، جوان ١٩٩٥م، ص٧-٨

(٥٢) أحمد مختار العبادى: المقال السابق، ص٦٠؛ عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسى من الفتح حتى سقوط غرناطة ص ١٤١.

(٥٣) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص١٧٧، احمد مختارالعابدى: المقال السابق، ص٨٥.

(٥٤) عبد الرحمن بدوى: دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى، ص٤٩؛ آسين بلاثيوس: أثر

الإسلام فى الكوميديا الإلهية، ترجمة جلال مظهر، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٨٠م.

(٥٥) السجل العلمى لندوة الأندلس، ق٢، ص٤٤٠.

(٥٦) الطاهر أحمد المكى: دراسات أندلسية، ص١٦٦-١٩٢، الفيلسوف رايموندو لوليو له منظومة تسمى أسماء الله المائة، ويقول: المسلمون لهم فى القرآن ٩٩ اسمًا لله وهى أسماء الله الحسنى، ومن يعرف الإسم المائة يعرف كل الأشياء، ولهذا ألفت هذا الكتاب أسماء الله المئة، وفى كل اسم من أسماء الله المائة نظمنا عشرة أبيات من الشعر، ويمكن أن ترتل فى الكنيسة على نغمات المزامير فلهذا السبب نظمناها لأن المسلمين يرتلون القرآن فى مساجدهم. كما دعا المسيحيين أن يضعوا المسيح على رأس رسائلهم كما يضع المسلمين البسملة والصلاة على النبى، ودعا إلى عدم اختلاط الرجال بالنساء فى الكنائس...

(٥٧) عن حركة الترجمة أنظر: لطفى عبد البديع: الإسلام فى اسبانيا، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م، ص٢٩؛ محمد سويسى: انتقال العلوم العربية والحضارة الإسلامية إلى الغرب، تونس، بيت الحكمة، ١٩٥٨م، ص٤- ٨؛ جمعة شيخة: دور مدرسة الترجمة بطليطلة فى نقل العلوم العربية، مجلة دراسات أندلسية، ع١١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص٣٥- ٤٧.

(٥٨) الراهب جربرت هو الذى أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثانى (٣٩٠- ٣٩٤هـ/٩٩٩- ١٠٠٣م)

(٥٩) المقرى: نفح الطيب، ج٤، ص١٣٨- ١٣٩؛ ق٢/ص ٢٦٤- ٢٦٥.

(٦٠) السجل العلمى لندوة الأندلس، ق٣، ص١٣٨- ١٣٩؛ ق٢/ص ٢٦٤- ٢٦٥.

(٦١) السجل العلمى، ق٣، ص١٣٨- ١٣٩.

(٦٢) ندوة الثقافة العربية الإسبانية عبر التاريخ جمع باسمه الجزائرى -دراسات وأبحاث- دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، ١٩٩١م، ص١٨٢.

(٦٣) محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ص٣١٦، علما بأن الأندلس كانت عامرة بالمكتبات منذ فترة مبكرة من تاريخها الإسلامى، فكانت على سبيل المثال مكتبة الحكم الثانى بن عبد الرحمن قوامها أربعمائة ألف كتاب، وكان فى قرطبة لوحدها ٣٧ مكتبة عامة أنظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص٢٤٠- ٢٤٩، محمد عبد الله عنان: أندلسيات، ص٢٨- ٣٨، جمال محرز: المكتبات وهواة الكتب فى اسبانيا الإسلامية، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ع٤، ج١، ١٩٥٨م.

(٦٤) من أهم المصادر الأندلسية التى تناولت أخبار الموريسكيين وأحوالهم السياسية والإجتماعية بعد سقوط الأندلس، المقرى: نفح الطيب، ج٢، ص٦١٦- ٦١٧، ابن

الخطيب: الإحاطة فى أخبار غرناطة، ج١، والحلل الموشية فى الأخبار المراكشية؛ ومن المراجع: عادل سعيد بشتاوى: الأندلسيون المواركة، القاخرة، ١٩٨٣م، محمد عبده حتاملة: التنصير القسرى زمن الملكيين الكاثوليكيين، السجل العلمى، ق٢، ص٢١- ٤٩

(٦٥) السجل العلمى لندوة الأندلس، ق٢، ص٤٩- ٥٠.

(٦٦) عن محاكم التفتيش انظر: محمد على قطب: مذابح وجرائم محاكم التفتيش فى الأندلس، القاهرة، ١٩٨٥م، حيث يذكر أن هذه المحاكم بقيت تمارس نشاطها حتى عام ١٨٠٩م، وقد قام الكولونيل ليمونسكى أحد ضباط الحملة الفرنسية فى أسبانيا بوصف أدوات التعذيب وأحوال الموقوفين من الرجال والنساء أنظر ص ٣٩، ٤٥، ٥٢، ٨٨، ١١٦- ١١٨.

(٦٧) لفظ موريسكو (Morisco) تصغيرة لكلمة مورو (Moro) وهذه مأخوذة من الكلمة اللاتينية موريتانيا، وكانت فيما تعنى المغرب كله، أما الاسم المصغر فأطلقه الاسبان أولا ثم الأوروبيون بعدهم على المسلمين الذين تخلفوا فى الأندلس بعد سقوطها تحقيرا لشأنهم.

(٦٨) السجل العلمى لندوة الأندلس، ق٢، ص٤٩٨.

(٦٩) المرجع السابق نفسه، ق٢، ص ١٣٠- ١٣٢

(٧٠) مصطفى الشكعة: المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٩١- ١١٢، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م، ج١، ص١٠.

(٧١) ولد جوسيه عام ١٧٦٦م، وهو أستاذ كرسى للدراسات العبرية والإغريقية والعربية، وعضو بالمجمع الملكى للغة والأكاديمية الملكية للتاريخ فى اسبانيا.

(٧٢) فرانشيسكو كوديرا ولد عام ١٨٣٦م، ويقال أنه ينحدر من أصول عربية، انظر مصطفى الشكعة: المغرب والأندلس، ص٤٠- ٤١.

(٧٣) عبد الرحمن بدوى: موسوعة المستشرقين، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م، ص ٤٨٠؛ محمد بن عبود: مباحث فى التاريخ الأندلسى ومصادره، ١٩٨٩، ص٢١.

(٧٤) آسين بلاثيوس: أثر الإسلام فى الكوميديا الإلهية، ترجمة جلال مظهر، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٨٠م.

(٧٥) السجل العلمى لندوة الأندلس، ق٢، ص ٢٤٤.

(٧٦) المرجع السابق نفسه، ق١، ص ٤٥٧- ٤٥٩.

(٧٧) نظمت جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية فى اسبانيا والتى يرأسها المؤرخ الأسبانى سلفادور غوميث نوغاليث (ت١٩٨٥م)، مؤتمرا عالميا بقرطبة عام ١٩٧٧، أقيمت خلاله

لأول مرة صلاة جامعة بمسجد قرطبة انظر: المنتصر الكتانى: الصحوة الإسلامية فى الأندلس اليوم، كتاب الأمة القطرى، ع٣١، ١٩٩٢م.

(٧٨) المرجع السابق نفسه، ع٣١، ص ١٧- ١٨.

(٧٩) مجلة دراسات أندلسية، ع ٢٥، شوال، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(٨٠) مجلة دراسات أندلسية، ع٢٢، ربيع الأول، ١٤٢٠هـ/ جوان ١٩٩٩م، ص٣- ٤ من الأمثلة على عدم. ادراك العرب لأهمية التجربة الأندلسية فى التثاقف مع الغرب عدم مشاركتهم الفاعلة فى المؤتمرات العلمية المتعلقة بتاريخ الأندلس ففى نهاية خريف عام ١٩٧٦م، أقامت الحكومة الإسبانية مؤتمرا علميا كبيرا اسمته المؤتمر الأول لتاريخ أسبانيا، وهو أول مؤتمر رسمى يتناول تاريخ اسبانيا بشكل عام ويركز على المرحلة الإسلامية بشكل خاص، ولم يحضر إلا عدد قليل من العرب رغم توجيه عشرات الدعوات لهم من المؤتمر انظر: مصطفى الشكعة: موقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية فى الأندلس (ضمن كتاب مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية، مكتب التربية العربى لدول الخليج الجزء الثانـــى، ١٩٨٥م، ص٢٧٥).

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- بالباس، ليوبولدو توريس: الفن المرابطي والموحدى، ترجمة سيد غازى، القاهرة، ١٩٧٦م.
- بدوى، عبد الرحمن: موسوعة المستشرقين، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م.
- ابن بسام، أبو الحسن على، الذخيرة فى محاسبة أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥- ١٩٧٩م.
- بشتاوى، سعيد: الأندلسيون المواركة، القاهرة، ١٩٨٣م.
- البكرى، عبد الله بن عبد العزيز: جغرافية الأندلس وأوروبا، منتخبة من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن الحجى، بيروت، ١٩٦٨م.
- ثلاثيوس، آسين: أثر الإسلام فى الكوميديا الإلهية، ترجمة جلال مظهر، القاهرة، ١٩٨٠م.
- البلوى، سلامة محمد الهرفى: دولة المرابطين فى عهد على بن يوسف بن تاشفين، بيروت، ١٩٨٥م.
- التميمى، عبد الجليل: الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين، تونس ١٩٨٩م.
- الجرارى، عباس: أثر الأندلس على أوروبا فى الإيقاع والنغم، مجلة عالم الفكر، مج٢، ع١، ١٩٨١م.
- الجوهرى، إسماعيل بن حماد: الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، القاهرة، ط٢ ١٩٨٢
- الحجى، عبد الرحمن: التاريخالأندلسىمن الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، دار الإصلاح، ١٩٨٣م.
- الحميرى، عبد المنعم: الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥م.
- ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود على مكى، بيروت، ١٩٧٣م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩م.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد: الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد

عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٣- ١٩٧٤م.

- السباعى، مصطفى: من روائع حضارتنا، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ١٩٩٨م.
- سويسى، محمد: انتقال العلوم العربية والحضارة الإسلامية إلى الغرب، تونس، بيت الحكمة، ١٩٨٥م.
- الشكعة، مصطفى: المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ابن شريفة، محمد: حول التسامح الدينى، مجلة دراسات أندلسية، ع١٤، ١٩٩٥م.
- شهير، عبد العزيز: التعايش بين الأديان فى الأندلس من خلال نصوص شعرية أندلسية، مجلة دراسات أندلسية، ع١٤، ١٩٩٥م.
- شيخة، جمعة: فى التسامح بين المسلمين والنصارى من خلال الشعر الأندلسى، مجلة دراسات أندلسية، ع١٤، ١٩٩٥م.
- العبادى، أحمد مختار: الإسلام فى أرض الأندلس أثر البيئة لأوروبية، مجلة عالم الفكر، ج١٠، ع٢، ١٩٧٩م.
- عبد البديع، لطفى: الإسلام فى اسبانيا، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م.
- ابن عذارى، أبو عبد الله محمد: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٧م.
- عنان، محمد عبد الله :
  - دولة الإسلام فى الأندلس، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.
  - نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ابن الفرضى، أبوالوليد عبد الله: تاريخ علماء الأندلس، القاهرة، ١٩٦٦م.
- القاسمى، خالد لن محمد: تاريخ الحضارة العربية والإسلامية فى الأندلس، دار الثقافة العربية، الشارقة، ط١، ١٩٩٨م.
- مجلة دراسات أندلسية، ع٩، ١٩٩٣م، ع١٤، ١٩٩٥م، ع٢٢، ١٩٩٩م،ع٢٥، ٢٠٠١م.
- محرز، جمال: المكتبات وهواة الكتب فى اسبانيا الإسلامية، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ع٤، ج١٩٥٨،١م.
- مؤنس، حسين؛ غارات النورمانديين على الأندلس، مجلة الجمعية التاريخية المصرية، ع١، ١٩٤٩م.

- المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م.
- الكتانى، المنتصر: الصحوة الإسلامية فى الأندلس اليوم، كتاب الأمة القطرى، ع٣١، ١٩٩٢م.
- ندوة الثقافة العربية الإسبانية عبر التاريخ، جمع باسمة الجزائرى- دراسات وأبحاث دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومى.

النظر في المظالم

في الخلافة العباسية

د. سعيد بن محمد الغيلاني
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة السلطان قابوس

تمهيد :

يعتبر النظام القضائي أحد الدعائم الأساسية التي قامت عليها الدولة الإسلامية وحضارتها، ويعتبر النظر في المظالم من الأركان الأساسية لهذا النظام القضائي، وبخاصة عندما توسعت الدولة الإسلامية في العصرين الأموي والعباسي، وتعقدت النظم ومن بينها النظام القضائي من حيث التشكيل والاختصاصات، وذلك من أجل تطبيق العدالة بين مختلف طبقات المجتمع وأفراده، إذ أصبح النظام القضائي يتكون من ثلاثة[١] عناصر أساسية هي : القضاء، والنظر في المظالم، والحسبة.

فبينما يتولى القضاء فض المنازعات، وإصدار الأحكام، فإن مهمة المحتسب: النظر فيما يتعلق بالنظام العام معتمدًا على أحكام الدين والعرف، وغالبًا ما تكون الأمور التي يفصل فيها تحتاج إلى السرعة والبت خدمة للجماهير، وتيسيرًا للحياة السوية للمجتمع وحمايته من الغش والجشع والتدليس وفساد الذمم[٢]. أما وظيفة قاضي المظالم، أو صاحب المظالم، فقوامها البت في الأحكام والنظر في المشاكل التي استعصى البت فيها أمام القضاء العادي بواسطة القاضي، كما يصعب التعامل معها بمقتضى سلطات المحتسب، كأن يكون الخصم صاحب مركز كبير في الدولة، أو أن تكون المظلمة مرتبطة بالدولة في شكل والي أو عامل أو ديوان خراج أو بيت مال، أو غير ذلك من الأمور التي يستعصى البت فيها على كل من القاضي والمحتسب[٣].

المظالم في اللغة :

المظالم، جمع مظلمة بكسر اللام ما تظلمه الرجل وأراد ظلامـــه، ومظالمتـــه أي ظلمة، والظُّلم بالضم وضع الشيء في غير موضعه، والمصدر الحقيقي الظَّلْـــمَ بالفتح ظلم يظلم ظلمًا بالفتح فهو ظالم وظلوم وظلمه حقه وتظلمه إياه، وتظلم أحـــال الظلم على نفسه، ومنه شكا من ظلمه. والمظالم مفردها مظلمة أو ظلامه، بمعنـــى انتهاك حق فرد، وهو تعبير اصطلاحي يدل على الظُّلم، والتعدي من الحـــق إلـــى الباطل قصدًا، وهو الجَوَرْ، وقيل هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد(٤).

والهدف من النظر في المظالم : وقف تعدي ذوي الجاه والـــسلطان، وكـــبح جماحهم، والأخذ على أيديهم ورد الظالم عن بغيه، وإنصاف المظلومين، والنظر في كل حكم يعجز عنه القاضي فينظر فيه من هو أقوى يدًا منه إذ غالبًـــا مـــا يكـــون النزاع بين طرفين قويين أو أحدهما قوي والآخر ضعيف، فقضاء المظـــالم، يرفـــع الظلم عن الضعفاء الذين لا يستطيعون رفع الظلم عن أنفسهم.

تطور النظر في المظالم حتى العصر العباسي :

يرى بعض المؤرخين أن النظر في المظالم قديم، وأن الفرس كانوا يرون أن ذلك من قواعد الملك وقوانين العدل الذي لا يعم الـــصلاح إلا بمراعاتـــه، ولا يـــتم التناصف إلا بمباشرته(٥)؛ وكانوا ينتصبون لذلك بأنفسهم في أيام معلومة، ولا يُمنـــع عنهم من يقصدهم فيها من ذوي الحاجات وأرباب الضرورات.

وسبب تمسكهم بذلك أن أصل قيام دولتهم رد المظالم، وذلـــك أن كيُـــومَرْث، أول ملوكهم ـــ وقيل : إنه أول مَلكٍ مُلّك من بني آدم ـــ كان سبب ملكه إنه لما كَثُر البغي في الناس، وأكل القوي الضعيف، وفشى الظلم بينهم، اجتمع أكـــابرهم ورأوا أنه لا يُقيم أمرهم إلا ملك يرجعون إليه، وملكوه(٦).

وقد عرف العرب ـــ قبل الإسلام ـــ فكرة رد المظـــالم ذلـــك أن القرشـــيين تعاونوا على لرد حقوق المظلومين، وعقدوا حلفًا فيما بينهم سموه " حلف الفضول"، وذلك رد المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم، وذلك بعد أن كثـــر فيهـــا الزعمـــاء وانتشرت الرئاسات، وشاهدوا من التغالب والتجاذب ما لم يكفهم عنه سلطان قاهر.

وكان سبب ذلك أن رجلاً من اليمن من بني زبيد قدم مكة معتمـرًا، ومعـه بضاعة، فاشتراها منه رجلٌ من بني سهم، قيل : إنه العاص بن وائل، فلواه بحقـه، فسأله ماله أو متاعه، فامتنع عليه، فقام على الحجر وأنشد بأعلى صوته :

يالَ قُـصيٍّ لمظلـوم بـضاعتُه ... ببطن مكة نـائي الـدار والنَّفَـر
وأشعثٍ مُحرِمٍ لم تُقضَ حُرْمَتُـه ... بين المقام وبين الحِجْرِ والحَجَـر
أقائمٌ مـن بنـي سـهم بـذمَّتهم ... أو ذاهبٌ في ضلالٍ مالُ مُعتَمَـر

وأن قيس بن شيبة السلمي باع متاعًا من أُبَي بن خلف فلواه وذهـب بحقـه، فاستجار برجل من بني جُمَح فلم يُجِره، فقال قيس :

يالَ قُصيٍّ كيف هـذا في الحَـرَم ... وحُرْمَـة البيت وأخـلاق الكـرم

أظلَمَ لا يُمنَع منِّي مَنْ ظلم

فأجابه العباس بن مرداس :

إن كان جارُك لم تنفعـك ذمتُـه ... وقد شربتَ بكأس الـذُّل أنفاسـا
فأت البيوتَ وكن من أهلها صَدَدًا ... لا تَلقَ ناديهم فُحْـشًا ولا بأسـا
وثم كن بفناء البيـت معتمـصمًا ... تلق ابن حرب وتلق المرءَ عبَّاسا
قَرْمَى قُريش وحَلا في ذوائبهـا ... بالمجد والحزم ما عاشا وما ساسا
ساقي الحجيج، وهذا ياسرٌ فَلَـجٌ ... والمجدُ يورثُ أخماسًا وأسداسـا

فقام العباس وأبو سفيان حتى ردا عليه ماله.

واجتمعت بطون قريش فتحالفوا في بيت عبدالله بن جُدْعان على رد المظـالم بمكة، وألا يظلم أحدٌ إلى منعوه وأخذوا للمظلوم حقه.

وكان رسول الله ﷺ معهم ـ قبل النبوة ـ وهو ابن خمس وعـشرين سـنة، فعقدوا حلف الفضول، فقال رسول الله ﷺ ذاكرًا للحال : " لقد شهدت في دار عبدالله ابن جُدْعان حلف الفضول، أما لو دعيت إليه في الإسلام لأحببتُ، وما أحب أن لي به حُمْرَ النعم ".

وأتى بقصته، وما يزيده الإسلام إلا شدة[٧].

ويرى بعض المؤرخين أن هذا الحلف لا يمثل الأساس التاريخي لنظام المظالم، لأن الحلف من حيث تكوينه واختصاصاته لا تتوافر له مقومات ديوان النظر في المظالم الذي هو نظام قضائي عالي، ومظهر لسلطان الحاكم، ويهدف بصفة أصلية إلى قمع الظلم الواقع من ممثلي السلطة الرئاسية على اختلاف درجاتهم، وتتم هذه الرقابة في شكل مجلس، بينما حلف الفضول ليس إلا اتفاقا بين بطون قبيلة واحدة هي قبيلة قريش، أي أنه لا يمثل السلطة الحاكمة، ويهدف إلى رد المظالم التي تقع من أفراد على أفراد، أي في منازعة كتلك التي يفصل فيها القاضي العادي، وأن نظام المظالم في العصر الإسلامي قريب الشبه بالنظام الذي كان يتبعه ملوك الفرس الساسانيين لفحص مظالم الشعب من الحكام أو من الملك الفارسي نفسه(٨).

ويرى آخرون أنه بالنسبة " لحلف الفضول " وتكوينه من رؤساء العشائر في قبيلة قريش، أن ذلك يتفق ــ آنذاك ــ مع ما كان عليه النظام الاجتماعي عند العرب قبل الإسلام، إذ أن السلطة العليا كانت لزعماء القبائل، كما أن هدف الحلف هو رفع الظلم أيًا كان نوعه، أي سواء كان من الأفراد أو من غيرهم(٩).

ويرجح الباحث الرأي الثاني الذي يعتبر حلف الفضول هو أساس فكرة رد المظالم عند العرب، بل وإنه أساس رد المظالم في العصر الإسلامي، فاستجابة الرسول ﷺ للدعوة إليه، والإشادة به بعد البعثة النبوية دليل على مشروعية رد المظالم، وعلى ضرورة أن يوجد في الدولة من يأخذ على أيدي الظالمين، ويوقف عدوانهم ويرد الحقوق المغصوبة إلى أصحابها.

ولقد باشر الرسول ﷺ بعد مبعثه، بنفسه النظر في المظالم، حيث كان يجلس عليه السلام للمظالم ويقضي فيها كما يجلس للقضاء. ويذكر الماوردي، وأبو يعلى الفراء أن الرسول ﷺ نظر المظالم في الشرب الذي تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار، فقد ورد عن عبدالله بن الزبير عن أبيه : " أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري سَرِّحْ الماء يمر، فأبى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ ، فقال رسول الله، للزبير : اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري فقال : أن كان ابن

عمتك!! فتلون وجه رسول الله ﷺ ، ثم قال : اسق يا زبير ثم أحبس المـاء حتـى يرجع إلى الجدار "[١٠].

فقال الزبير : والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلـك ﴿ فَـلاَ وَرَبِّـكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[١١].

وقد قيل في هذا الحديث : إن رسول الله ﷺ ندب الزبير أولاً إلى الاقتصـار على بعض حقه، على طريق التوسط والصلح، فلما لم يرض الأنصاري بذلك وقال ما قال، استوفى النبي ﷺ للزبير حقه، ويؤكد هذا القول : " ما جاء في آخر الحديث: " فاستوفى له حقه "، يعني الزبير[١٢].

كما يروي أن رجلاً كان له نخل في حديقة رجل من الأنصار، وكان صاحب النخل يضايق صاحب الحديقة، فطلب صاحب الحديقة أن يشتري النخل أو أن يناقله (أي يبادله نخلاً بنخل)، فرفض صاحب النخل، فقال له الرسول ﷺ : أنت مضار.

وأمر الأنصاري بأن يقطع ذلك النخل[١٣].

كما باشر الخلفاء الراشدون النظر في المظالم بعد الرسول ﷺ ، فقـد كـان أبوبكر الصديق يكشف أحوال عماله ويختار أكثرهم علمًا وعملاً.

كما حرص عمر بن الخطاب على مراقبة عماله، وكان علمه بمن نأى عنـه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه على وساد واحد، وكان من طرق مراقبتـه لعماله أنه كان يستدعى الولاة في مواسم الحج يفضح الجائر مـنهم علـى رؤوس الأشهاد، أو يبعث من يتحرى عنهم، ويحقق بنفسه كل شكوى ترفع إليه مهما كانت مرتبة الوالي[١٤].

وقد نهج عثمان بن عفان نفس السلوك بالنسبة لنظر المظالم، ومن بعده نهج نفس المنهج الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، فقد جلس هو الآخـر للنظـر فـي المظالم، وراقب عماله ووالاهم بالنصح والإرشاد.

وهكذا يتبين لنا أن الخلفاء الراشدين الأربعة باشروا النظـر فـي المظـالم بأنفسهم، إلا أنهم لم يفردوا لها أيامًا مخصوصة، ولا زمنًا محددًا، بل كان كل منهم

ينظر في شكاية من يأتيه من المتظلمين، ويعمل على إنصافه، كما أنهم لم يعينوا قضاة متخصصين للنظر في المظالم، بل كانوا أحيانًا يسندونها إلى قضاة الأقاليم(١٥).

وبعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب، ومحاولة الاعتداء على معاوية بن أبي سفيان، اتخذ الخلفاء الحجاب، وأصبحوا أقل اتصالاً بعامة الناس، في الوقت الذي انتشر الفساد، وتجاهر الناس بالظلم ولم تكفهم الزواجر والنواهي، كما لم تنفعهم المواعظ والعبر، كذلك عَمَّ ظلم العمال، وكثر جبروت الأمراء، وعجز القضاة العادلون عن الحكم في بعض الأحكام، لذلك خصص خلفاء بني أمة بعض الوقت لسماع الشكاوى والنظر في المظالم للحكم فيما عجز القضاة عن الحكم فيه(١٦).

وكان الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) أول من أفر للظلامات يومًا خاصًا يتصفح فيه قصص المظلومين، من غير مباشرة للنظر، فكان إذا وقف منها على مشكل، أو احتاج فيها إلى حكم مُنفذ رده إلى قاضيه أبي إدريس الأودي(١٧)، فكان أبو إدريس هو المباشر المنفذ لحكمه، وعبدالملك بن مروان هو الآمر(١٨).

ثم زاد جور الولاة وظلم العتاة واغتصاب الأموال في دولة بني أمية، إلى أن أفضت الخلافة إلى عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م)، فانتصب بنفسه للنظر في المظالم، وراعى السنن العادلة، ورد مظالم بني أمية على أهلها، فقيل له وقد شدد عليهم فيها وأغلظ : إنا نخاف عليك، من ردها، العواقب؛ فقال : كل ما أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وقيته(١٩).

كما حكى أن عمر بن عبدالعزيز، رحمه الله، خرج ذات يوم إلى الصلاة فصادفه رجل ورد من اليمن متظلمًا فقال :

تَدْعُونَ حَيْرَانَ مَظلومًا بِبَابِكُمُ فَقَد أتَاكَ بَعِيدُ الدَّارِ مَظلُومُ

فقال: ما ظلامتك ؟ فقال: غصبني الوليد بن عبدالملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) ضيعتي، فقال يا مراجم ائتني بدفتر الصوافي فوجد فيه أصفى عبدالله الوليد ابن عبدالملك ضيعه فلان، فقال أخرجها من الدفتر، وليكتب برد ضيعته إليه ويطلق

له ضعف نفقته[٢٠].

هذا وقد أهملت المظالم بعد عمر بن عبدالعزيز إلى أن آل الحكم إلى العباسيين سنة (١٣٢هـ/٧٥٠م).

الخلفاء العباسيون والنظر في المظالم :

يعتبر الخليفة المهدي العباسي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م) ثالث الخلفاء العباسيين، أول من اهتم من خلفاء بني العباس بالنظر في المظالم[٢١].

وكانت وفود البلدان يردون على المهدي من الأقاليم الإسلامية الأقرب فالأقرب، لتهنئته بالخلافة، فاجتمع ببابه كثير من أشراف العرب وملوك الأقاليم وكانوا يتبركون به، ويتوسمون فيه الخير، لأنهم رأوا منه عدولاً عن سيرة أبيه، وإنما كان محسنًا إليهم، محبًا لهم وساعيًا فيما تصلح به أمورهم، فاتخذ لهم من هذا الوجه مجلسًا لرد المظالم، ولم يكن قبله في الدولة العباسية من ينظر في تعدي الولاة على الرعية وجورهم فيما يجبونه من الأموال[٢٢].

وكان المهدي يجلس في كل وقت لرد المظالم، وروى عنه أنه كان إذا جلس للمظالم قال : " ادخلوا عليَّ القضاة، فلو لم يكن ردي للمظالم إلا للحياء منهم لكفى "[٢٣].

وذكر أحد الأشخاص ويدعى مسور بن مسور، قال : ظلمني وكيل المهدي وغصبني ضيعة لي، فأتيت سلاما، صاحب المظالم، فتظلمت منه وأعطيته رقعة مكتوبة، فأوصل الرقعة للمهدي، وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة، وعافية القاضي، فأمر المهدي بإدخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها، فقال له : ترضى بأحد هذين، فقال نعم، فقال تكلم، فقال مسور، أصلح الله القاضي، إن هذا ظلمني في ضيعتي وأشار إلى المهدي، فقال القاضي : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : ضيعتي وفي يدي، فقال مسور : أصلح الله القاضي، سله صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها، قال المهدي : بعد الخلافة، فقال القاضي: أطلقها له، قال : قد فعلت[٢٤].

وروى أن المهدي جلس يومًا للمظالم، فتقدم إليه رجل من آل الزبير، فذكر

ضيعة اصطفاها عن أبيه بعض ملوك بني أمية، وأنه لا يدري : الوليد أم سليمان، فأمر الخليفة أن يُخرج ذكرها من الديوان العتيق، فإذا بموضوعها قد عُرض على عدة من الخلفاء الأمويين ولم يروا رَدَّها، منهم عمر بن عبدالعزيز، فقال المهدي : يا زبير، هذا عمر بن عبدالعزيز، وهو منكم معشر قريش كما علمتم لم ير ردها، قال: وكل أفعال عمر تُرضى ؟ قال : وأي أفعاله لا ترضى ؟ قال : منها أنه كان يفرض للسقط من بني أمية في خرقة في الشرف من العطاء، ويفرض للشيخ من بني هاشم في ستين، قال : يا معاوية أكذلك كان يفعل عمر ؟ قال : نعم، قال : أردد على الزبيري ضيعته(٢٥).

وكان المهدي يجلس للمظالم وتدخل القصص عليه، فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها، فاتخذ بيتًا له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص، وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولاً فأول، فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض(٢٦).

تابع الخلفاء العباسيون بعد المهدي، الجلوس للنظر في المظالم، ومن هؤلاء الخلفاء الهادي العباسي (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٦م)، الذي كان يجلس للمظالم ويفصل فيها بنفسه، ولكنه كان يستغل جلوسه لمضايقة من كان يحقد عليهم، فيذكر "الجهشياري" أنه كان يحقد على عمارة بن حمزة، متولي الخراج بالبصرة، أيام كان وليًا للعهد، فلما ولي الخلافة دَسَّ إليه رجلاً يدعي عليه أنه غصبه ضيعته المعروفة بالبيضاء بالكوفة، وكانت قيمتها ألف ألف درهم، " فبينما الهادي ذات يوم قد جلس للمظالم وعمارة بحضرته، وثب الرجل فتظلم منه، فقال الهادي لعمارة : ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ فقال : إن كانت الضيعة لي فهي له، وإن كانت له فهي له، وانصرف عن المجلس "(٢٧).

وذكروا أن الخليفة الهادي تأخر عن المجلس للمظالم أيامًا، فدخل عليه علي ابن صالح وقال له إن العامة لا تستقيم أمرها إن لم تجلس للمظالم، فقال : إئذن للناس عليَّ بالجفلى لا بالنقرى، فخرج علي بن صالح وهو لا يدري ما أراد وخاف مراجعته، فسأل أعرابيًا عن الجفلى والنقرى، فأفهمه أن الجفلى دعوة العموم، والنقرى دعوة الخصوص، فأمر علي بن صالح برفع الستور وفتح الأبواب، فدخل

الناس على بكرة أبيهم، ولم يزل الهادي ينظر في المظالم إلى الليل[٢٨].

وبلغ من حرص الهادي على الجلوس للنظر في المظالم، أنه ركب يومًا يريد عيادة أمه الخيزران من علة كانت وجدتها، فاعترضه عمر بن بزيع، فقال له : يا أمير المؤمنين، ألا أدلك على وجه هو أعود عليك من هذا ؟ فقال : وما هو يا عمر؟ قال : المظالم لم تنظر فيها منذ ثلاث، قال : فأومأ إلي المطرقة أن يميلوا إلى دار المظالم، ثم بعث إلى الخيزران بخادم من خدمه يعتذر إليها من تخلفه، وقال : قل لها إن عمر بن بزيع أخبرنا من حق الله بما هو أوجب علينا من حقك، فملنا إليه، ونحن عائدون إليك في غد إن شاء الله[٢٩].

وفي عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) شهد قضاء المظالم اهتمامًا كبيرًا، حيث اهتم هارون الرشيد بالمظالم، وكان يجلس لها في كثير من الأحيان تنفيذًا للنصيحة التي وجهها إليه قاضي قضاته أبو يوسف في كتاب " الخراج "، إلا أنه فوض إلى جعفر بن يحيى البرمكي النظر في قصص المتظلمين، فكان جعفر يجلس للنظر فيها حتى أنه يمكن القول أنه تولى رئاسة ديوان المظالم في عهد الرشيد[٣٠].

ثم تابع الخليفة المأمون العباسي (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) سياسة المهدي والهادي، وكان يجلس للمظالم، ويروي ابن طيفور : أن المأمون قعد يومًا للمظالم، " فقدم سلم صاحب الحوائج بضعة عشر رجلاً، فنظر في مظالمهم، وأمر فقضى حوائجهم، وكان فيهم نصراني من كشكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له في طريقه، فلما بصر به المأمون أثبته معرفة فقال : أبطحوه، فضربه عشرين درة، ثم قال لسلم : قل له تعود تصيح بي ؟ فقال له سلم وهو مبطوح، فقال النصراني : قل له أعود وأعود وأعود حتى تنظر في حاجتي، فأبلغه سلم ما قال، فقال : هذا مظلوم موطن نفسه على القتال أو قضاء حاجته، ثم قال لأبي عباد : " اقض حاجته هذا كائنًا ما كانت الساعة "[٣١].

ولم يكن المأمون يكتفي بالنظر في المظالم في المجلس، وإنما كان ينصف المتظلمين الذين يعترضون موكبه، والأمثلة عديدة في كتب التاريخ والأدب، منها أنه اعترضه — وهو راكب بالشماسية ببغداد وخلفه أحمد بن هشام — رجل من أهل

فارس، وصاح به : الله لله يا أمير المؤمنين، فإن أحمد بن هشام ظلمني واعتدى علي، فقال له المأمون : كن بالباب حتى أرجع، فلما جاز الموضع التفت المأمون إلى أحمد وعنفه، ثم أمره بأن ينصفه من نفسه، وقال له : لا تجعل لنا ذريعة إلى ما تكره من أئمتك، فوالله لو ظلمت العباس ابني كنت أقل نكيرًا عليك من أن تظلم ضعيفا لا يجدني في كل وقت، ولا مجلوا له وجهي وسيمًا من تجشم السفر البعيد وكابد حر الهواجر وطول المسافة[٣٢].

وحكى أن المأمون كان يجلس للمظالم في يوم الأحد فنهض ذات يوم من مجلس نظره فلقيته امرأة في ثياب رثة فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد	ويا إمامًا به قدْ أشرق البلدُ
تشكو إليك عميد الملك أرملة	عدًا عليها فما تقوى به أسدُ
فابتز منها ضياعًا بعد منعتها	لمَّا تفرَّق عنهَا الأهْلُ والولدُ

فأطرق المأمون يسيرًا ثم رفع رأسه وقال :

من دون ما قلت عيل الصبر والجلد	وأقرح القلب هذا الحُزن والكمدُ
هذا أوان صلاة الظهر فانصرفي	واحضر الخصم في اليوم الذي أعد
المجلس السبت إن يقض الجلوس لنا	أنصفك منه وإلا المجلس الأحدُ

فانصرف وحضرت يوم الأحد في أول الناس، فقال لها المأمون: من خصمك؟ فقالت: القائم على رأسك العباس ابن أمير المؤمنين، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم، وقيل لوزيره أحمد بن أبي خالد: أجلسها معه وانظر بينهما، فأجلسها معه ونظر بينهما بحضرة المأمون وجعل كلامها يعلو، فزجرها بعض حجابه، فقال له المأمون: دعها فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه، وأمر برد ضيعها عليها[٣٣].

ولقد اهتم الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) برد المظالم اهتمامًا شديدًا، ذلك أنه كان ذات يوم مارًا من دار المأمون إلى داره، وكان شارع الميدان منتظمًا بالخيم فيها الجند، وإذا بامرأة تبكي وتقول: ابني ابني، وإذا بعض الجند قد أخذ ابنها، فدعاه المعتصم وأمره أن يرد ابنها عليها، فأبى، فاستدناه، فدنا فقبض عليه بيده، فسمع صوت عظامه، ثم أطلقه من يده فسقط، وأمر بإخراج

الصبي إلى أمه[٣٤].

وكان وزير المعتصم محمد بن عبدالملك الزيات يُعاب عليه شدته في معاملة العمال الذين يصادرهم لخيانتهم في الأعمال، وكان إذا قال له أحدهم: أيها الـوزير ارحمني، قال : الرحمة خور في الطبيعة[٣٥].

وكان الخليفة العباسي الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢-٨٤٧م)، إذا رأى على أحد عماله مظاهر الثروة في وقت قريب، وتلك الثروة لا تقوم بها أرزاقـه التـي يتقاضاها، حكم الخليفة عليه بأنه خائن، ولا يجد أمامه إلا مصادرة هذه الأموال[٣٦].

وكان آخر الخلفاء العباسيين الذين جلسوا لقضـاء المظـالم، هـو الخليفـة المهتدي بالله[٣٧] (٢٥٥-٢٥٦هـ/٨٦٨-٨٦٩م).

وقد حاول المهتدي أن يعيد للخلافة رونقها فأمر بإخراج المغنين والمغنيـات من سامرا ونقلهم إلى بغداد، وأمر بقتل السباع، وإبطال الملاهـي، ورد المظـالم، وجلس ليرفعها، فرفعت إليه قصص في الكسور، فسأل عنها، فقال وزيره سـليمان ابن وهب : شيئًا في تاريخ الخراج منذ عهد عمر إلى عهـد المنصـور، فأجـاب المهتدي ـ معاذ الله أن ألزم الناس ظلمًا تقدم العمل به أو تـأخر، أسـقطوه عـن الناس، فقال الحسن بن مخلد : إن أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أموال السلطان في السنة إثنا عشر ألف ألف درهم، فقال المهتدي: على أن أقرر حقا وأزيل ظلمًا، وإن أجحف بيت المال[٣٨].

وجلس المهتدى يومًا للمظالم فاستعداه رجل على ابن له، أي للأمير، فـأمر بإحضاره، فأحضر، وأقامه إلى جانب الرجل، فسأله عما ادعاه، فأقر بـه، فـأمره بالخروج له من حقه، فكتب له بذلك كتابًا، فلما فرغ، قال له الرجل شعرًا شكره فيه فقال له المهتدي: أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك، أما أنا فما جلسـت هـذا المجلس حتى قرأت المصحف ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[٣٩].

وبنى المهتدي قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها، وسماها قبـة المظـالم، وجلس يقضي فيها للعام والخاص، وقال صالح بن علي الهاشمي : حضرت يومًـا

من أيام جلوس المهتدي للمظالم، فرأيت من سهولة الوصول، ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي فيما يتظلم به إليه، ما استحسنته(٤٠).

وكان المهتدي إذا جلس للمظالم أمر بأن توضع كوانين الفحم في الأروقة والمنازل، عند تحرك البرد، فإذا جلس المتظلم أمر بأن يُدفأ ويجلس، ليسكن ويثوب إلى عقله، ويتذكر حجته، ثم يدنيه، ويسمع منه، ويقول : متى يلحن المتظلم بحجته إذا لم يُفعل به هذا، وقد تداخلته رهبة الخلافة وألم البرد(٤١).

وفي عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م)، وكان قد استخلف وهو صغير السن، فتدخلت أمه السيدة في إدارة الملك واتسع نفوذها وسلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها (وصيفتها) وتدعى ثومال صاحبة للمظالم عام ٣٠٦هـ/٩١٨م، فكانت تجلس في مكان بنته السيدة في حي الرصافة يومًا في كل جمعة، فأنكر الناس ذلك واستبشعوه وكثر عيبهم عليه والطعن فيه ـ ولم يكن في جلوسها أول يوم طائل ـ وفي اليوم الثاني أحضرت القاضي أبا الحسن معها فسكن الناس، كما كان يحضر معها الوزير والكاتب وأهل العلم، فانتفع بذلك المتظلمون، وكانت تبرز التواقيع وعليها خطها(٤٢).

ومن الوزراء الذين جلسوا للنظر في المظالم في العصر العباسي، الوزير ابن الفرات، ويحكى عنه أنه عزم يومًا على الصبوح، وكان يوم الأحد، ومن رسمه أن يجلس للمظالم فيه، ثم انتبه أنه لا يجوز أن يتشاغل بالسرور ويصرف عن بابه قومًا كثيرين قد قصدوه من نواح بعيدة وأقطار شاسعة متظلمين، فهذا من أمير، وهذا من عامل، وهذا من قاض، ويمضون مغمومين داعين عليه، فأجلس صاحب ديوان المظالم وشخصًا آخر من خاصته، يستدعيان القصص ويوقعان منها ما يجوز توقيعهما فيه، ويفردان ما لابد من وقوفه عليه ويحضرانه ليوقع عليه، وينصرف أرباب الظلامات مسرورين.

وعرض على ابن الفرات في وزارته الثالثة، وقد جلس للمظالم، رجل عَمْري رقعة تتضمن شكوى حاله ورقتها وإن عليه دينًا قد ضاق ذرعه به، وعلى ظهرها توقيع أحد الوزراء بأن يقضي دينه من مال الصدقات، فقال له : يا هذا إن مال الصدقات لأقوام بأعينهم لا يتجاوزهم، ولقد رأيت المهتدي بالله ـ رحمه الله ـ وقد

جلس للمظالم وأمر في مال الصدقات بما جرى هذا المجرى، فقال الفقهاء : لها أهلها : ليس لك يا أمير المؤمنين ذلك، إن حملتنا على أمرك وإلا حاكمناك إلى قضائك وفقهائك فحاكمهم فخاصموه، وإن شئت أنت حاكمتك، فقال له العمري : لا حاجة بي إلى المخاصمة، قال : الآن أواسيك وأقضي دينك، وكان مبلغه خمسمائة دينار(٤٣).

وفي عهد الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧هـ/١٠٧٥-١٠٩٤م) كان السلطان ملكشاه على دولة السلاجقة، وكان وزيره نظام الملك أبو الحسن بن علي، قد وضع كتابا في قواعد الحكم أسماه : سياسة نامة، ضمنه كثيرًا من قواعد الحكم التي يجب على السلاطين إتباعها، حيث أشار فيها إلى ضرورة جلوسهم للمظالم ومن أهم هذه القواعد ما يلي :

أولاً : يجب على الحاكم أن يكون عادلاً وأن يستمع إلى شكاوى المتظلمين، وذلك بأن يخصص جلستين من كل أسبوع لسماع ضحايا الظلم والجور من الإجراءات التعسفية، وعليه أن يستمع بنفسه، وبدون وسيط، إلى ظلاماتهم، ويسمح لكل ذي شكوى أن يتقدم بها في سهولة ويسر ليصدر فيها حكمه العادل، فمتى شاع في الناس أن الأمير أو الحاكم يلتقي بالشاكين والمتظلمين كف ذوو النفوذ والسلطة عن الظلم خوفا من عقابه.

ثانيًا : على الحاكم أن يتحرى سلوك وتصرفات محصلي وجباة الضرائب، والقضاة، وقادة الجند، ورؤساء الإدارات المدنية، حيال الرعية، لأنهم أمناء على مصالح الأمة، وهي أمانة في أعناقهم أمام الله وأمام ضمائرهم، وعلى الحاكم أن يراقب كل الأمور سواء كانت صغيرة أو كبيرة، كذلك مراقبة تصرفاتهم العلنية والخفية ومن ينحرف منهم عن الطريق القويم عليه أن يرده إلى الصواب والطريق الصحيح.

ثالثًا : على الحاكم مراعاة مباشرة العبادات، وعليه أن يتحرى العمل بمقتضى تعاليم الدين والشريعة، في كافة المعاملات وعليه أيضًا أن يرعى الله تعالى في كافة أفعاله، وأن يكون شاهدًا على ذلك جماعة الفقهاء والعلماء، وعليه أن يكفل لهم وسائل معيشتهم من بيت المال. كذلك يتعين على الحاكم أن يدعو

إلى مجلسه جماعة الفقهاء والعلماء مرتين في الأسبوع لسماع مناقشاتهم في تفسير القرآن وشرح السنة النبوية الشريفة، وكذلك سيرة الخلفاء الصالحين الذين كانوا يتصفون بالعدل، وذلك حتى يكون عالمًا بأمور الدين، وكذلك ما تقضي به الشريعة من واجبات، وما تنهي عنه من محظورات، وبالتالي فإنه يمضي عليه وقت طويل حتى تصبح مجالسته للفقهاء عادة منتظمة، وبالتالي يزداد تفقهًا في الدين، ويتضح أمامه الطريق القويم، فتختفي من ملكه كل أسباب الظلم والعسف والجور، وينشأ جيل جديد متحمس لعلوم الدين والشرع.

رابعًا : على الحاكم أن يتلقى شكايات المتظلمين، وخاصة الغرباء منهم، ويجب عليه أن يرد عليها كتابة في أسرع وقت ممكن، وعليه أن يأمر بإنصافهم، وإعادة حقوقهم إليهم حتى يغلق باب الظلم نهائيًا(٤٤).

نواب الخلفاء العباسيين في النظر في المظالم :

حرص الخلفاء العباسيون الأوائل على النظر في المظالم بأنفسهم، ولكن في بعض الأحيان كانوا ينتدبون بعض كبار رجال الدولة كالأمراء والكتاب والوزراء وغيرهم، ويعهدون إليهم بالنظر في المظالم، ومن أمثلة ذلك : إسناد الخليفة المأمون ليحيى بن أكثم، والمعتصم لأحمد بن أبي داوود النظر في المظالم.

وعندما غلب نفوذ السلاطين على الخلفاء العباسيين، في عصور الضعف، صار النظر في المظالم إليهم(٤٥).

وكان من ينوب عن الخليفة العباسي، أو يعهد إليه بالنظر في المظالم، يُعرف باسم " قاضي المظالم "، أو " صاحب المظالم "، أو " ناظر المظالم "، أو " والي المظالم "، أو " صاحب ديوان المظالم ". ولم يكن هذا المنصب بالضرورة وقفا على أحد القضاة إذ كان من الممكن أن ينوب عن الخليفة في النظر في المظالم أي موظف آخر، على أن تتحقق فيه شروط خاصة منها : " أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع، لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة، وثبت القضاة، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين، وأن يكون

بجلالة القدر نافذ الأمر في الجهتين "[٤٦].

لذلك كثيرًا ما كان يقوم بالنظر في المظالم القضاة أو الوزراء إذا لم يقم بـه الخليفة بنفسه.

ولقد كان مقر نظر المظالم، أو ديوان المظالم بالضرورة هو مقر الخليفة في عاصمة الدولة الإسلامية، أو مقر صاحب السلطة العليا ويكون في العادة بقصره، كما كانت محكمة المظالم تنعقد أيضًا في أحد المساجد كغيرها من المحاكم التي يعقدها القضاة في الدولة الإسلامية في العصر العباسي، هذا بالإضافة إلى أن صاحب المظالم كان يعين يومًا ـــ من أيام الأسبوع ـــ يقصده فيه المتظلمون، إذا كان من الموظفين الكبار بالدولة الإسلامية، لينصرف بقية أيام الأسبوع إلى عمله الآخر. وأما إذا كان الناظر ـــ في الأساس ـــ خاصًا بالمظالم فإنه كان ينظر في المظالم طيلة أيام الأسبوع[٤٧].

الفرق بين قاضي المظالم والقاضي العادي :

يتفق كل من قاضي المظالم، والقاضي العادي، في أن كُلًّ منهما يقوم عمله الأساسي على إنصاف الحق، وإقامة العدل بين الناس والقضاء على المظالم، كما أنه يجوز لقاضي المظالم أن يحكم فيما يرفع إليه من قضايا، كما يجوز ذلك للقاضي العادي[٤٨]. وأن يستعمل الطرق الموصلة إلى الحق، ويستعين بأهل الفقه فيما أشكل عليه من المسائل، وله من الأعوان ما للقاضي العادي، إلى غير ذلك مما يكفل تحقيق العدالة ونشر الأمن والطمأنينة بين الناس.

ومع هذا الاتفاق الواضح في المهام الأساسية بين كل من قاضي المظالم، والقاضي العادي، إلا أن هناك فروقًا عديدة ذكرها الماوردي ليوضح مدى سلطة قاضي المظالم واتساعها، وما كان يتمتع به من نفوذ وهيبة، حيث يقول : والفرق بين نظر المظالم، ونظر القضاة من عشرة أوجه[٤٩].

أولاً : أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة في كف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب.

ثانيًا : أن نظر المظالم يخرج من ضيق الوجوب إلى سعة الجواز، فيكون الناظر

فيه أفسح مجالاً وأوسع مقالاً.

ثالثًا : أنه يستعمل من فضل الإرهاب وكشف الأسباب بالأمارات الدالة وشواهد الأحوال اللائحة ما يضيق على الحكام، فيصل به إلى ظهور الحق ومعرفة المبطل من المحق.

رابعًا : أن يقابل من ظهر ظلمه بالتأديب، ويأخذ من بان عدوانه بالتقويم والتهذيب.

خامسًا : أن له من التأني في ترداد الخصوم عند اشتباه أمورهم واستبهام حقوقهم، ليمعن في الكشف عن أسبابهم وأحوالهم ما ليس للحكام إذا سألهم أحد الخصمين فصل الحكم فلا يسوغ أن يؤخره الحاكم ويسوغ أن يؤخره والي المظالم.

سادسًا : أن له رد الخصوم إذا أعضلوا وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحًا عن تراض، وليس للقاضي ذلك إلا عن رضى الخصمين بالرد.

سابعًا : أن يفسح في ملازمة الخصمين إذا وضحت أمارات التجاحد، ويأذن في إلزام الكفالة فيما يسوغ فيه التكفل، لينقاد الخصوم إلى التناصف ويعدلوا عن التجاحد والتكاذب.

ثامنًا : أنه يسمع من شهادات المستورين ما يخرج عن عرف القضاة في شهادة المعدلين.

تاسعًا : أنه يجوز له إحلاف الشهود عند ارتيابه بهم إذا بدلوا أيمانهم طوعًا، ويستكثر من عددهم، ليزول عنه الشك وينفي عنه الارتياب، وليس ذلك للحاكم.

عاشرًا : أنه يجوز أن يبتدئ باستدعاء الشهود ويسألهم عما عندهم في تنازع الخصوم، وعادة القضاة تكليف المدعي إحضار بينة ولا يسمعونها إلى بعد مسألته.

وفيما عدا ذلك فهما متساويان.

مجلس النظر في المظالم :

ينعقد مجلس النظر في المظالم، أو ديوان المظالم، أو محكمة المظالم، برئاسة الخليفة العباسي، أو الوالي، أو من ينوب عنهما.

وكان مقر المجلس، أو الديوان، أو المحكمة، بالضرورة هو مقر الخليفة العباسي في بغداد، أو في مقر صاحب السلطة العليا الذي ينوب عن الخليفة في النظر في المظالم، ويكون في العادة في قصره.

كما كان ينعقد مجلس النظر في المظالم أيضًا في أحد المساجد، كغيره من المحاكم الأخرى التي يعقدها القضاة في العصر العباسي.

ولقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على بناء أماكن خاصة لنظر قضايا المظالم، من ذلك أن الخليفة العباسي المهتدي شيد مكانًا خاصًا، وسمي هذا المكان باسم " قبة المظالم "، وكان يقابل فيه العامة والخاصة.

ولقد انتشر في الدولة الإسلامية بناء دور خاصة بقضاء المظالم ـ فيما بعد ـ وخاصة في بعض الولايات الإسلامية، مثل : الشام، ومصر، وكانت تسمى : " دار العدل "، كما كانت تسمى ولاية المظالم " نيابة دار العدل "[٥٠].

وينعقد مجلس النظر في المظالم في المقر المحدد للنظر في المظالم، وذلك برئاسة الخليفة أو الوالي أو من ينوب عن أحدهما، من كبار موظفي الدولة مثل الوزراء والكتاب وغيرهم من علية القوم.

ولمجلس المظالم هيكل ثابت التكوين لا يتم انعقاده ولا يستكمل أسباب شرعيته إلا بحضور أعضائه، وهم خمسة أصناف من الحكم والرعية، يحيطون برئيس مجلس المظالم، ولا يستغنى عنهم، ولا ينتظم نظره في قضايا المظالم إلا بحضورهم، والجماعات الخمسة التي يتكون منها مجلس قضاء المظالم هي[٥١] :

١- **الحماة والأعوان :** وكانوا من القوة بحيث يستطيعون جلب القوى وجذبه، والتغلب على من يلجأ إلى العنف، وتقويم الجرئ الذي يحاول العبث أو اللجوء إلى القوى أو يحاول الفرار من وجه القضاء.

٢- **القضاة والحكام** : وكانوا بمثابة المستشارين لصاحب المظالم، وذلك لسابق علمهم ببعض ما ينظر أمام المجلس من قضايا، والاستعلام عما لديهم من معرفة بأحوال الخصوم، والإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها، فكانوا يلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين.

٣- **الفقهاء** : وذلك ليرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية، ويسألهم عما اشتبه لديه من أمور تختص بعمله، وغير ذلك من المسائل المعضلة.

٤- **الكتاب** : ومهمتهم إثبات ما يجرى بين الخصوم، وتدوين أقوالهم، وإثبات ما لهم من الحقوق وما عليهم في سجل تقرر فيه الحقوق، ويرجع إليه في القضايا المقبلة.

٥- **الشهود** : وكانت مهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم، كما يشهدهم صاحب المظالم على ما أصدره من أحكام، وما أوجبه من حق، وما أمضاه من حكم، وبأن ما أصدره من أحكام لا ينافي الحق والعدل وأنه ينطبق على الشريعة الإسلامية.

وكان المتظلمون في غالب الأحوال من بسطاء الناس، ومن النساء المستضعفات، ومن أهل الذمة، الذين يأتون من نواحي بعيدة خارج حاضرة البلاد، وكان أغلب التظلم من الإشتطاط في جمع الضرائب، أو من الجزية التي لم تسقط عمن أسلم من أهل الذمة، أو من منع بناء الكنائس، أو من سوء معاملة الموظفين للأهالي، وغير ذلك من الشكاوى والظلامات، فكان المتظلمون يقدمون مظالمهم مكتوبة وهو ما عرف باسم : قصة، أو رقعة، أو مخاصمة، أو شكوى، أو مظلمة، أو ظلامة.

وتعرض الشكاوى بعد جمعها على ديوان المظالم ومجلسه برئاسة قاضي المظالم، وكانت الأحكام تصدر من محكمة المظالم مكتوبة وموقع عليها من رئيس مجلس المظالم، مع ملاحظاته المختلفة.

ونظرًا لأهمية قضاء المظالم، فإنه كان يتم نسخ أحكام صدرت من قبل في

قضايا مماثلة لتلك القضايا المعروضة، ويستنبط أحكامًا أخرى جديدة، وكان يحدث أحيانًا أن تقدم المظلمة أثناء انعقاد جلسة المظالم، فتوضع ضمن أوراق الشكاوى الأخرى المنظورة في نفس الجلسة(٥٢).

وكان يعمل بديوان المظالم في العصر العباسي، بالإضافة إلى المشرف على الديوان، موظفون آخرون، مهمتهم مساعدة مجلس النظر في المظالم وهيئته القضائية، في إنجاز أعماله، وذلك عن طريق إعداد القضايا وتجهيزها للنظر فيها.

وهؤلاء الموظفون هم : ١- صاحب الديوان. ٢- المثبت. ٣- الناسخ. ٤- المنشئ. ٥- المحرر(٥٣).

فأما " صاحب الديوان " فهو القائم بالإشراف على ديوان المظالم وإدارته ويجب أن يكون متحليًا بالصفات الحميدة من حيث حسن الخلق، وأن يكون عادلاً، صاحب دين وأمانة، ورحيمًا بالمتظلمين، وأن يعمل " جامعًا " بكل القصص، أو الشكاوى المقدمة للديوان من المتظلمين ليعرضه على الخليفة، أو من يقوم مقامه في كل يوم جمعة من كل أسبوع عند اجتماع مجلس قضاء المظالم وهيئته، حيث كان الخليفة العباسي أو من يقوم مقامه يفصل في المظلمة ويحكم فيها، ثم يوقع عليها بما يوجبه الحكم.

فإذا لم يقم الخليفة أو من يقوم مقامه بالفصل في المظلمة في اليوم المحدد لنظر المظالم، تحتم على صاحب الديوان أن يرفق بالمظلمة رقعة من الورق تفيد عدم البت فيها، ومن ثم ترفق مع بقية المظالم الأخرى للنظر فيها مرة ثانية، في جلسة أخرى، ويوقع بخطة على الرقعة الورقية المرفقة مثبتًا ذلك.

ومن بين اختصاصات " صاحب الديوان " إثبات مجموع القصص أو المظلمات في سجل خاص بالديوان، حتى لا يحدث أي خطأ أو تزوير في الوقائع، حتى ولو عاد المتظلم نفسه إلى الديوان مرة أخرى للشكوى ثانية أو ثالثة، عليه أن يثبت ذلك في السجل المذكور، ويشير إليه في موضع واحد بهذا السجل لكي يتمكن من معرفة ذلك بسهولة والرجوع إليه في يسر عند الحاجة إليه، حيث يتم معرفة هذا الأمر من السجل المقيد به القصص والشكاوى، " ... حتى إذا طولب بإخراج

حاله من ديوان المظالم، وجد أمره كله منسوقا مجموعًا في موضع واحد، وأخرجها صاحب الديوان من غير كلفة "[٥٤].

أما " المثبت "، فكانت مهمته إثبات المعاملة في سجل خاص بالمعاملات بالديوان.

وكانت مهمة " الناسخ "، أن يقوم بنسخ مجموعات القصص، أو الشكاوى بأعيانها حرفا حرفا، أي ينسخها طبق الأصل.

أما " المنشئ "، فكانت تنحصر مهمته في أنه يأخذ جوامع القصص أو الشكاوى عند الحاجة إلى العرض على صاحب الديوان.

أما " المحرر " فكانت مهمته تحرير القصص، والشكاوى هذا بالإضافة إلى تحرير ما يحتاج إليه من الكتابة ـــ بشأن هذه القصص ـــ إلى كل واحد من القائمين بالإشراف على دواوين الدولة المختلفة، أو ما شابهم عند الاحتياج إلى معونتهم في شيء يخص موضوع الشكاوى المعروضة على الديوان، أو الكتابة إلى القضاة ـــ بشأن هذه القصص ـــ أو من في حكمهم.

اختصاصات ديوان المظالم :

حدد كل من الماوردي، وأبي يعلي الفرّاء في كتاب كل منهما المسمى بالأحكام السلطانية، وتابعهما في ذلك النويري في كتابه نهاية الأرب[٥٥]، وغيرهم من الكتاب والفقهاء المسلمون طبيعة اختصاص ديوان المظالم، أو محكمة المظالم، والحالات التي ينظر فيها صاحب المظالم، أو قاضي المظالم، ويمكن تقسيمها إلى نوعين اثنين :

الأول : يقوم به صاحب المظالم تلقائيًا دون أن يلجأ إليه متظلم، ويرفع إليه ظلامته، ودون أن ينبهه أحد إليها.

الثاني : ما ليس له النظر فيه من تلقاء نفسه، بل لابد وأن يتقدم المتظلم بظلامته ليصحح له النظر.

النوع الأول الخاص بالحالات التي يقوم صاحب المظالم بالنظر فيها تلقائيًا فهي :

أولاً : النظر في تعدي الولاة على الرعية، وأخذهم بالعسف في السيرة، وإيقاع الظلم بهم، فعلى والي المظالم أن يراقب أحوال الولاة، ويستكشف أحوالهم، إن أحسنوا شكرهم وشجعهم، وإن ظلموا قوَّمهم واستبدل بهم غيرهم.

ثانيًا : جور العمال فيما يحصلونه من أموال، إن على والي المظالم، أن يراجع القوانين العادلة في الدواوين فيحمل الناس عليها ويأمر العمال بالتزامها وينظر فيما تعدوا فيه حدود القوانين، فإن كانوا رفعوه إلى بيت المال رده إلى من حصل منهم، وإن كانوا أخذوه لأنفسهم استرجعه لأصحابه.

ثالثًا : مراقبة كتاب الدواوين، لأنهم أمناء المسلمين على بيوت أموالهم فيما يستوفونه ويوفونه منها، فعلى والي المظالم أن يتصفح أحوال ما وكّل إليهم من أمور ليطمئن إلى سير الأمور من خلالهم على نمط صحيح من الدقة والأمانة، ولوالي المظالم مطلق الحرية في مؤاخذة المنحرف، ومكافأة المجد الأمين من كتاب الدواوين.

رابعًا : النظر فيما يأخذه الولاة من الرعية بغير حق كالأملاك المغصوبة وردها إلى أصحابها متى ثبت له من واقع سجلات الدولة ووثائقها صحة دعوى صاحب الملك المغتصب يستوي في ذل اغتصاب الدولة أو اغتصاب الأفراد.

خامسًا : مراعاة العبادات الظاهرة، مثل الجمع والأعياد والحج والجهاد من تقصير فيها، أو إخلال بشروطها فإن حقوق الله أولى أن تستوفى وفروضه أحق أن تؤدى.

سادسًا : النظر بين المتشاجرين، والحكم بين المتنازعين، فلا يخرج قاضي المظالم في النظر بينهم عن موجب الحق ومقتضاه ولا يسوغ له أن يحكم بينهم إلا بما يحكم به الحكام والقضاة.

سابعًا : الإشراف والنظر على الأوقاف العامة والخاصة، وإجرائها على شروط واقفيها، حيث لقاضي المظالم أن يتدخل من تلقاء نفسه ليجري ريعها على

سبيلها ويحصيها على شروط واقفيها، فإن أكثر المستحقين لها ضعفاء أمـــام نظار تلك الأوقاف، وتذهب حقوقهم ضياعًا، فكان لزامًا على قاضي المظالم أن يرد الحقوق إلى أربابها بحسب ما يظهر له من بينات.

أما النوع الثاني والخاص بالمظالم التي ينظر فيها والي المظالم بناء علـــى تظلم متظلم فتنحصر في القضايا التالية :

أولاً : تظلم الموظفين (المسترزقة) من نقص أرزاقهم أو تأخرها عنهم وإجحاف النظر بهم، فيأمر برفع الظلم عنهم وإجراء الأمور على طبيعتها، من حيـث فرض العطاء العادل من ديوانه فيجزيهم عليه، وينظر فيما نقصوه أو منعوه من قبل، فإن أخذه ولاة أمورهم استرجعه منهم، وإن لم يأخذوه قضاه من بيت المال.

ثانيًا : النظر فيما تغلب عليه ذوي الأيدي القوية وتصرفوا فيه تصـــرف المـــالكين بالقهر والقوة فهذا موقوف على تظلم أربابه.

ثالثًا : تنفيذ ما أصدره القضاة من أحكام لضعفهم عن إنفاذها وعجزهم عن تطبيقها على المحكوم عليه لتعززه، وقوة يده، أو لعلو قدره وعظم خطـــره، فيكـــون قاضي المظالم أقوى يدًا وأشد بأسًا وأنفذ أمرا فينفذ الحكم على من توجه إليه بانتزاع ما في يده، أو بإلزامه دفع ما في ذمته.

رابعًا : لقاضي المظالم النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسبة فـــي المصـــالح العامة مثل المجاهرة بمنكر ضعفوا عن دفعه، والتعدي في طريق عجـــزوا عن منعه، وفي حق لم يقدروا على رده، فيأخذهم بحـــق الله فـــي جميعـــه، ويأمرهم بحملهم على موجبه.

والخلاصة : أن " المظالم "، مؤسسة قضائية ثالثة، بالإضافة إلى القضاء والحسبة، يرجع الفضل في تكاملها إلى الخلفاء العباسيين الأوائل، وأنها كانت نوعًا من استئناف الأحكام أو عرض الظلامات على السلطات العليا، الخليفة أو من ينوب عنه، وهو المسئول عن إقامة العدل في البلاد.

وسلطة المظالم، التي أصبح لها ديوانها المستقل، تناولت كافة طبقات المجتمع بما فيهم الولاة والقضاة أنفسهم، كما تتناول الخلفاء أيضًا، وما ذكرناه من أمثلة فيما سبق، لها دلالتها في هذا الإطار، وهناك العديد من القصص المماثلة، على كافة المستويات تؤكد انتصاف بعض المتظلمين من كبار رجال الدولة، ومن بعض الخلفاء.

ولذا تعتبر " المظالم " نوعًا من صمام الأمان القضائي والإداري، إذ أنها تشكل سلطة قضائية عليا مستقلة، ومنفصلة، عن القضاء العادي، وهي في هذا تشبه إلى حد كبير ما يوجد في بعض المجتمعات الحديثة من محاكم إدارية، ومحاكم دستورية، فضلاً عن محاكم الاستئناف.

الهوامش :

١- يقسم السيد عبدالعزيز سالم القضاء في عصر الخلافة العباسية إلى قسمين اثنين : القضاء الشرعي، والقضاء المدني، ويفصل القاضي الشرعي في المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق والمواريث والأوقاف، أما القضاء المدني فيشتمل على ثلاث خطط هي : النظر في المظالم، والشرطة المدنية، والحسبة. انظر : العصر العباسي الأول، ج٣، ص٢٧٤.

٢- " الحسبة " من الوظائف الدينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي " هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة المدنية ... وهي خادمة لمنصب القضاء وقد كانت في كثير من الدول الإسلامية ... داخلة في عموم ولاية القاضي يُولي فيها باختياره ...". ابن خلدون، المقدمة، ص٢٢٥، ٢٢٦.

ويذكر الماوردي : أن الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم، وشرح تفصيلا أوجه الاتفاق والاختلاف بين الحسبة من جانب، والقضاء، وقضاء المظالم من جانب آخر، الأحكام السلطانية ص ص٢٤١-٢٤٣، وانظر أيضًا : عطية القوصي : الحضارة الإسلامية ص٤٨ وما بعدها، توفيق اليوزبكي، دراسات في النظم ص١٥٩ وما بعدها.

٣- يذكر ابن خلدون : أن الخلفاء المسلمين كانوا " يجعلون للقاضي النظر في المظالم، وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء، وتحتاج إلى عُلو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدي، وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم من إمضائه، ويكون نظره في البينات والتقرير واعتماد الإمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود، وذلك أوسع من نظر القاضي ". انظر : المقدمة ص٢٢٢.

٤- مادة : ظلم : في كل من : لسان العرب، أساس البلاغة، المعجم الوسيط.

٥- الماوردي، الأحكام السلطانية ص٧٨.

٦- النويري، نهاية الأرب ج٦ ص٢٦٦.

٧- ابن هشام السيرة النبوية، ج١، ص٤٥، ٤٦، وفيه أنه سُمي بالفضول، إما لأنهم تحالفوا على أنهم يردون الفضول إلى أهلها، وإما لأنه يشبه حلفا وقع لثلاثة من جرهم كل واحد يقال له الفضل.

انظر أيضًا : الماوردي، الأحكام السلطانية ص٧٨-٧٩، النويري، نهاية الأرب، ج٦

ص٢٦٦-٢٦٨، صالح العلي، محاضرت في تاريخ العرب، ج١، ص٢٦٧.

٨- تيان، تاريخ النظم القضائية في البلاد الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٩٦٠م، ص٥١٥ وما بعدها.

٩- حمدي عبدالمنعم، ديوان المظالم، نشأته وتطوره واختصاصاته مقارنًا بالنظم القضائية الحديثة، ص٣٨.

١٠- انظر: الأحكام السلطانية للماوردي ص٧٧، والأحكام السلطانية لأبي يعلي محمد بن الحسن الفراء ص٧٤، النويري، نهاية الأرب ج٦ ص٢٦٨-٢٦٩.

الشرج : مسيل الماء من الحرة إلى السهل والجمع شراج، وشروج.

والحرة : أرض ذات حجارة نخرة سود.

والجدر : الحائط كالجدار.

هذا ولقد ورد هذا الحديث في معظم كتب الحديث النبوي ومنها صحيح البخاري، ولقد أخرج البخاري هذا الحديث بروايات أخرى تحوى نفس المضمون.

١١- جزء من الآية ٦٥ من سورة النساء رقم ٤.

١٢- النويري، نهاية الأرب، ج٦، ص٢٦٩.

١٣- حمدي عبدالمنعم، ديوان المظالم، ص٥١.

١٤- حمدي عبدالمنعم، ديوان المظالم، ص٥١، أحمد شلبي، موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، ج٧، ص٢٣٩.

١٥- شوكت عليان، قضاء المظالم في الإسلام، ص٥٢-٥٤.

١٦- الماوردي، الأحكام السلطانية ص٧٨، أحمد مجاهد مصباح، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ط٢، ص١٠٠.

١٧- الأودي : بفتح الألف وسكون الواو وفي آخرها دال مهملة نسبة إلى أود بن صعب بن سعد العشيرة من قبيلة مذحج، انظر : أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ص١٢٤، حاشية رقم ٢.

١٨- الماوردي، الأحكام السلطانية ص٧٨، النويري، نهاية الأرب، ج٦، ص٢٦٩، شاكر مصطفى، دولة بني العباس، ج١، ص٥٧٣.

١٩- النويري، نهاية الأرب، ج٦، ص٢٦٩-٢٧٠.

٢٠- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٨٢.

٢١- المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٣١٢.

٢٢- جميل نخلة المدور، حضارة الإسلام في دار السلام، ص٦٥-٦٦.

٢٣- ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص١٦١، الطبري تاريخ الرسل والملـوك، ط٢، ج٨، ص١٧٢، ابن الأثير، الكامل، ج٦ ص٨٣.

٢٤- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٧٤، الخضري، تاريخ الدولـة العباسـية، ص٩٤.

٢٥- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٧٧-١٧٨.

٢٦- الخضري، تاريخ الدولة العباسية، ص٨٨.

٢٧- الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب ص١٠٨، الماوردي، الأحكام السلطانية ٩٠.

٢٨- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢١٥، ابن الأثير، الكامـل، ج٦، ص١٠١-١٠٢، الاربلي، خلاصة الذهب، ص١٠٤.

٢٩- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٢١٥-٢١٦، ابن الأثير، ج٦، ص١٠٢.

٣٠- الجهشياري، كتاب الوزراء ص١٦٤، حمدي عبـدالمنعم، ديـوان المظـالم، ص٨٢، ص٨٥.

٣١- ابن طيفور، كتاب بغداد في تاريخ الخلافة العباسية، ص٥٥.

٣٢- ابن طيفور، كتاب بغداد، ص٥٦.

٣٣- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٨٤-٨٥.

٣٤- حمدي عبدالمنعم، ديوان المظالم، ص٨٨.

٣٥- الخضري، الدولة العباسية، ص٢٣٣.

٣٦- الخضري، الدولة العباسية، ص٢٥٢.

٣٧- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٧٨، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٢.

٣٨- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٨٠-٨١.

٣٩- حمدي عبدالمنعم، ديوان المظالم ص٨٩.

الآية ٤٧ من سورة الأنبياء رقم ٢١.

٤٠- المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٤٣١، ص٤٣٦.

٤١- آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج١، ص٤٣١.

٤٢- المسعودي، التنبيه والإشراف ص٣٧٨، حمدي عبدالمنعم، ديوان المظالم، ص٩١.

٤٣- كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، ج٢، ص٢٥٤.

٤٤- سياسة نامة (ط. باريس سنة ١٨٩٣م) صفحات : ١٢، ٦٥، ٨٢-٨٣، ٣٠٢-٣٠٣.

٤٥- أنور الرفاعي، الإسلام في حضارته ونظمه، ص١٦٣.

٤٦- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٧٩-٨٠.

٤٧- الماوردي، الأحكام السلطانية ص٨٠، النويري نهاية الأرب، ج٦، ص٢٧٠.

٤٨- شوكت عليان، قضاء المظالم في الإسلام، ص١١٤.

٤٩- الأحكام السلطانية، ص٨٣-٨٤، النويري، نهاية الأرب، ج٦، ص٢٧٤-٢٧٥.

٥٠- النويري، نهاية الأرب، ج٦، ص٢٦٥.

٥١- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٨٠، النويري، نهاية الأرب، ج٦، ص٢٧٠.

٥٢- آدم متز، الحضارة الإسلامية ص٤٣١، عبدالمنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٥٤.

٥٣- قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق د. محمد حسين الزبيدي، بغداد، ١٩٨١م، ص٦٣-٦٤.

٥٤- قدامة بن جعفر، الخراج، ص٦٣.

٥٥- الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٨٠-٨٣، أبو يعلي الفراء، الأحكام السلطانية، ص٧٦، النويري، نهاية الأرب، ج٦، ص٢٧١-٢٧٤.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١- القرآن الكريم.

٢- البخاري (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم) :

- صحيح البخاري.

٣- ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم ت٦٣٠هـ) :

- الكامل في التاريخ، ١٣ جزءاً، دار صادر، بيروت، ١٩٨٢م.

٤- الإربلي :

- خلاصة اذهب المسبوك، بغداد، ١٩٦٤م.

٥- الجهشياري (محمد بن عبدوس ت ٣٣١هـ) :

- كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبدالحفيظ شلبي، القاهرة، ١٩٨٠م.

٦- ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ) :

- مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ١٩٧٨.

٧- السيوطي (عبدالرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ) :

- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين، القاهرة، ١٣٥١هـ.

٨- ابن طباطبا (محمد بن علي، المعروف بالطقطقي ت ٧٠٩هـ) :

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، القاهرة ١٣١٧هـ.

٩- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ) :

- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٠- ابن طيفور (أبو طاهر أحمد) :

- كتاب بغداد في تاريخ الخلافة العباسية، بغداد، ١٩٦٨م.

١١- الفراء (أو يعلي محمد بن الحسن) :

- الأحكام السلطانية، صححه محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٢- قدامة بن جعفر (أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد الكاتب البغدادي ت

٣٣٧هـ) :

- الخراج وصنعة الكتابة، شرح وتحقيق محمد حسين الزبيدي، بغداد، ١٩٨١م.

١٣- القلقشندي (أحمد بن علي ت ٨٢١هـ) :

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ جزء، القاهرة، ١٩١٣م.

١٤- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، البصري، البغدادي ت ٤٥٠هـ) :

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٥- المسعودي (علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ) :

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٤م.

- التنبيه والإشراف، بغداد، ١٩٣٨م.

١٦- النويري (أحمد بن عبدالوهاب) :

- نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٦ طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٣م.

ثانيًا : المراجع :

١- آدم متز :

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، مجلدان، بيروت، ١٩٦٧.

٢- أحمد شلبي :

- موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٦م.

٣- أحمد مجاه مصباح :

- تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٨م.

٤- توفيق سلطان اليوزبكي :

- النظم العربية والإسلامية، جامعة الموصل، ١٩٧٧.

٥- السيد عبدالعزيز سالم :

- دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي الأول، الإسكندرية، ١٩٧٩م.

٦- أنور الرفاعي :

- الإسلام في حضارته ونظمه، القاهرة، ١٩٧٣م.

٧- بدر عبدالرحمن محمد :

- الدولة العباسية، دراسة في سياستها الداخلية في القرنين الثاني والثالث الهجري، القاهرة ١٩٨٦م.

٨- جميل نخلة المدور :

- حضارة الإسلام في دار السلام، المطبعة الأميرية ببولاق، ١٩٣٦م.

٩- حمدي عبدالمنعم :

- ديوان المظالم، بيروت، ١٩٨٢م.

١٠- شاكر مصطفى :

- دولة بني العباس، جزءان، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٧٣م.

١١- شوكت عليان :

- قضاء المظالم في الإسلام، بغداد، ١٩٧٧م.

١٢- عبالمنعم ماجد :

- تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٨م.

١٣- عطية القوصي :

- الحضارة الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٥م.

١٤- عطية مصطفى مشرفة :

- القضاء في الإسلام، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٥- علي ابراهيم حسن :

- النظم الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٦- علي حسني الخربوطلي :

- الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٧- محمد جمال الدين سرور :

- تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، القاهرة، ١٩٦٥م.

١٨- محمد الخضري :

- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٣٤م.

١٩- محمد سلام مدكور :

- القضاء في الإسلام، القاهرة، ١٩٦٤م.

٢٠- محمد كرد علي :

- الإسلام والحضارة العربية، جزءان، القاهرة، ١٩٦٨م.

٢١- مصطفى الشكعة :

- معالم الحضارة الإسلامية، بيروت، ١٩٧٥م.

القُسطَنْطِينية في الكِتَابات الصلِيبية

١٠٩٦-١٢٠٤م

دراسة تحليلية للرؤى الصليبية لمدينة قسطنطين

د. طارق منصور*

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب ــ جامعة عين شمس

اعتاد المؤرخون المحدثون لفترة طويلة النظر إلى حقبة الحروب الصـــليبية من الزاوية السياسية، الأمر الذي أفرز مئات الدراسات التي تعالج شتى الجوانـــب السياسية للحركة الصليبية، سواء في أوروبا أو في الشرق العربي. وإلى جانب هذه الدراسات، التي شكلت الخط الرئيسي في رؤية المؤرخين للحركة الصليبية، ظهرت مجموعة من الدراسات الحديثة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والعربيـــة تعـــالج جوانب حضارية في تاريخ هذه الحركة. وبقي للمهتمين بتاريخ العلاقات البيزنطية الأوربية أن يعيدوا فحص الروايات الصليبية والبيزنطية والعربية لإعادة صـــياغة هذه العلاقات.

وتأتي هذه الدراسة[١] لترصد أهم المعالم الدينية والمدنية لمدينة قســـطنطين[٢] التي لفتت أنظار الكُتاب الصليبيين[٣] وكتبوا عنها بنوع من العجـــب أو الانبهـــار، والتي تعتبر دون شك أبرز معالم المدينة في الفترة من القرن الحادي عشـــر إلـــى القرن الثالث عشر الميلادي. وتطرح هذه الدراسة عدة أسئلة مهمة تودي بالباحـــث إلى الغوص في الأيديولوجية الصليبية لفهم سبب الاختلاف بين كاتب صليبي وآخر في رؤيته الحضارية للمدينة، ولماذا نجد كاتباً مثل وليم الصـــوري[٤] William of Tyre أو أودو الدويلي[٥] Odo of Deuil يكتبا روايات شبه مقتضبة عنها، علـــى عكس بعض كُتاب الحملة الصليبية الرابعة[٦] من الصليبيين الذين فصلوا الحديث عن بعض منشآتها المدنية والدينية بنوع من الانبهار، سواء عن عمد أو غيـــر عمـــد. ويحاول الباحث تحليل أسباب الكتابة التاريخية عند كل كاتب صـــليبي عـــن هـــذه

المنشآت أو تلك، أو عدم كتابته أيضاً؛ وإذا ما كان لوضعه الاجتماعي أو السياسي أو الديني دور في هذا أم لا.

لقد مارست مدينة القسطنطينية، على الأقل منذ عهد شارلمان، سحراً على الغرب الأوربي، لا يقل عما كان لمدينة بيت المقدس عندهم.[٧] فقد كانوا ينظرون إليها على أنها مدينة الذهب،[٨] أو بالمعنى الحديث مدينة المال والجمال؛ فأتاها التجار والرحالة والحجاج من كل فج عميق.[٩] ويتأكد ثراء هذه المدينة من كلمات روبرت كلاري، وهو من مؤرخي الحملة الصليبية الرابعة، عندما يقول: "...لم يحدث مطلقاً-منذ بداية العالم-أن رأت العين أو غنم قوم مثل هذه الغنيمة الضخمة الغالية العظيمة، بل لم يحدث ذلك زمن الاسكندر أو شارلمان، لا قبلهما ولا بعدهما؛ ولا أظن-أنا شخصيا-أنه توفر في أغنى مدن العالم الأربعين من الثروة الهائلة ما توفر في القسطنطينية وما عثروا عليه بها؛ إذ يقول اليونانيون [البيزنطيون] إن ثلثي كنوز العالم موجودة في القسطنطينية، أما الثلث الآخر فموزع في بقية أنحاء العالم..."[١٠] وفي موضع آخر يقول: "...فإن ذكر لك أحد جزءاً من مئة عما في كنائسها وقصورها من ثروة وجمال وعظمة، بدا لك كأنه يروي أكذوبة، ولن تصدق ذلك..."[١١] لقد كانت المدينة تتمتع بكثير من المعالم والمفاتن بصورة يصعب على المرء وصفها. وكان البيزنطيون أنفسهم يدركون جيداً مدى مفاتن عاصمتهم وإشعاعها الثقافي؛[١٢] كما أن حجم المدينة الكبير كان شيئاً عظيماً عند هؤلاء الرحالة، فنرى ستفن النوفوجوردي يشبه الدخول إلى القسطنطينية بالدخول إلى غابة عظيمة، وأن المرء لابد له من مرشد جيد حتى يتمكن من أخذ جولة بها؛[١٣] بل إن روبرت كلاري وفلهاردوان، على حد قول روث ماكريديس، يقارنان بينها وبين بعض مدن فرنسا أو الفلاندرز.[١٤]

وبالإضافة إلى هذا يمكن القول أنها كانت مدينة الغفران أيضا لكل حاج مسيحي يذهب إليها بحثاً عن الخلاص، فعلى الرغم من أن مدينتي روما وبيت المقدس كانتا تحتويان على الكثير من الكنائس المهمة ورفات القديسين إلا أنهما لا يعتبرا شيئاً يذكر في هذا المضمار إذا ما قورنا بما حوته مدينة القسطنطينية من الكنائس والأديرة[١٥] وآثار القديسين. فقد كانت كنيسة آيا صوفيا،[١٦] التي أعاد بناءها الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) في القرن السادس الميلادي، واحدة من عجائب العالم، وكانت تحوي أكبر وأهم مجموعة من آثار القديسين والمعروفة باسم

"آلام المسيح" Passion؛ ونظراً لأهمية كنيسة آيا صوفيا فقد أمَّها كل زوار القسطنطينية الأجانب تقريباً، حيث أدهشتهم بروعتها وكنوزها وقدسيتها وذخائرها المقدسة؛ وكذلك كنيسة القصر الإمبراطوري الصغيرة المعروفة باسم كنيسة عذراء فاروس. كما كانت كنيسة الرسل المقدسين[17] Holy Apostles واحدة من مفاتن القسطنطينية،[18] حيث كانت تحوي رفات سبعة من القديسين، على حد قول روبرت كلاري.[19] وهذا الأمر الأخير كان يضفي على المدينة جاذبية فريدة،[20] خاصة لأولي القلوب الرقيقة، من الذين يبحثون عن رضا الرب وطهارة النفس.

ولا غرو، فقد كان العصر الوسيط عصر الإيمان. فهاهم صليبيو الحملة الثانية، وعلى رأسهم مليكهم لويس السابع، عند احتفالهم بذكرى القديس دينيس St. Denis في القسطنطينية أرسل إليهم الإمبراطور البيزنطي مجموعة منتقاة من رجال الاكليروس، كان أغلبهم من الخصيان ذوي الأصوات الرخيمة، الذين بهروا الفرنجة، ليس بملابسهم الفخمة الموشاة بالذهب، الرائعة الألوان فحسب، بل بغنائهم الديني العذب الذي رقت له قلوبهم؛ كما أدخلوا عليهم البهجة بأسلوبهم الرشيق وتصفيقهم الرقيق وانحناءاتهم.[21] وهكذا، كان حال البعض ممن يدلفون إلى المدينة إما لزيارة معالمها، أو للتعبد فيها بإخلاص.[22]

وجدير بالذكر أنه كان بالقسطنطينية ما يمكن أن نطلق عليه اليوم اسم "دليل المسافر"، وهو عبارة عن قائمة بكنائس العاصمة البيزنطية الأكثر أهمية وذخائرها المقدسة؛ وكان يحوي بعض القصص الخارقة المتصلة برفات القديسين والأيقونات الموجودة في تلك الكنائس. وقد ترجم هذا الدليل إلى اللاتينية وشاع في الغرب الأوربي أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، على ما يبدو للمرة الأولى تحت اسم anonymus Mercati ، ربما بواسطة حاج انجليزي.[23] وقد سار على نهجه الأسقف الأيسلندي نيقولاس Nicholas من ثينجيرار Thingeyrar، ووليم من مالمسبيري William of Malmesbury، الذي أدمج قائمة برفات القديسين الموجودة في القسطنطينية في كتابه تاريخ ملوك إنجلترا، وغيرهم.[24] وقد دفعت هذه الأهمية الدينية للقسطنطينية أحد الكتاب المعاصرين للحملة الصليبية الرابعة ويدعى جونتر الباريسي Gunther of Pairis [25] إلى أن يخصص كثيراً من سطور مصنفه "تاريخ القسطنطينية"، للحديث عن الذخائر الدينية المقدسة وآثار القديسين

والشهداء.[٢٦]الأمر الذي جعل كتابه يحتل مكانة تالية، من الناحية التاريخيـــة، بعــد فلهاردوان[٢٧] Villehardouin وروبرت كلاري Robert of Clari[٢٨]،ممن كتبوا عن أحداث هذه الحملة وعاصروها.

وقد بلغت المدينة درجة من الرقي الحضـــاري جعلــت بعــض الصـــليبيين ينظرون إلى معالمها على أنها من العجائب، فها هو فوشيه الشارتري Fulcher of Chartres[٢٩]يبدى انبهاره صراحة بالمدينة وحجمها وآثارها وثراءهـــا عنـــدما قال:

"أواه! يا لها القسطنطينية من مدينة نبيلة وجميلة! كـــم بهـــا مـــن الأديـــرة والقصور التي شيدت بمهارة فائقة! وكم من الأعمال الباهرة تصافح البصــــر فـــي شوارع المدينة وأحيائها! سيكون أمرا مضجراً أن نعدد الثروات كافـــة الموجـــودة هناك من كل نوع؛ من ذهب وفضة، وأنواع كثيرة من العباءات، والذخائر المقدسة. ففي كل فصل من فصول السنة يُحضر التجار الذين يفدون كثيرا عن طريق البحر إلى هذا المكان جميع ما يحتاج إليه الإنسان..." [٣٠]

أما روبرت كلاري فيرى في كنيسة القديسة مريم، والهيبـــودروم والأعمـــدة التي تزين ساحة المدينة عجائب لم يرها من قبل.[٣١] بل أن الصليبيين اســـتبد بهـــم الإعجاب بروائع المدينة وعجبوا كل العجب لمنظر كاتدرائية آيا صوفيا، وما حوته من كنوز.[٣٢]ويشير فلهاردوان أيضاً، وهو من مؤرخي الحملة الصليبية الرابعة، إلى الانبهار الصليبي بهذه المدينة عندما يقول أن الذين لم يروا القسطنطينية من قبـــل "أخذوا يملئون أبصارهم منها، إذ لم يخطر ببالهم أبداً أن يكون في العالم بلد كهـــذا البلد في روعته وعظمته..."[٣٣]

وبالرغم من هذا فإن صليبيي الحملـــة الأولـــى المعســـكرين أمـــام أســـوار القسطنطينية، بأمر الإمبراطور البيزنطي، لفترات طويلة بلغت في بعض الأحيـــان أربعة عشر يوما، لم تُتح لهم الفرصة لمشاهدة المدينة ومعالمها عندما كانوا يخلدون للراحة، باستثناء قلة قليلة منهم،[٣٤]وهو ما يشير إليه فوشيه الشارتري عند حديثـــه عن الحملة الصليبية الأولى.[٣٥] أما صليبيو الحملة الرابعة فقد كانوا أكثر حظاً مـــن سابقيهم، بحيث ما أن انطلقوا في المدينة حتى أخذوا "...في مشاهدة ضخامة المدينة وقصورها وأديرتها وكنائسها الجميلة وما حفلت به من الروائع العظيمة، واستبد بهم

العجب منها غاية الاستبداد، وعجبوا أشد العجب لمنظر كنيسة القديسة صوفيا وما فيها من كنوز..."٣٦

لقد تمتعت هذه المدينة بهيبة شديدة في عيون الأوربيين المعاصرين لها،٣٧ مما دفع كتاب الحقبة الصليبية للإشادة بمظاهرها الجمالية بانبهار، كما سبق القول، من أمثال وليم الصوري، الذي ذهب إليها في بعثة دبلوماسية عام ١١٦٨م،٣٨ وقدم بعض التفاصيل المهمة عنها،٣٩ وفوشيه الشارتري، وأودو الدويلي، الذي رافق الملك لويس السابع، ملك فرنسا، إلى الشرق وزار المدينة، وأشاد بجمالها، وفُتن بجمال صوت المنشدين فيها،٤٠ وقصر قسطنطين،٤١ وقصر البلاشيرن،٤٢ وفلهاردوان،٤٣ وروبرت كلاري، وجونتر الباريسي، السابق الإشارة إليهم. وبالإضافة إلى الكتاب الصليبيين هناك البعض من غير الصليبيين وعاشوا في الحقبة الصليبية، تحدثوا عن مظاهر المدنية في المدينة وطبوغرافيتها وآثارها من أمثال بنيامين التطيلي، والادريسي، وأنطونيوس، أسقف نوفجورود، الذي زار المدينة نحو عام ١٢٠٠م،٤٤ ووليم من مالمِسبيُري، الذي كتب عمله عنها نحو عام ١١٣٥م وغيرهم.٤٥

ويبدو أن هذا الانبهار العالمي بالقسطنطينية جعل هذه المدينة مدينة عالمية، يؤمها الزائرون من كل أنحاء العالم؛ وهذا أدى بدوره إلى توافد غالبية الأجناس عليها، إلى درجة جعلت يوستاثيوس التسالونيكي يقول: "يا إلهي! يا لهذه الملابس العجيبة! ويا لذلك الكم من اللغات الغريبة! إني اشعر وكأن كافة الأجناس من شتى الأنحاء ماثلة هنا، فذلك الكوماني أعرفه جد المعرفة، وباتت رؤيته لا تدهشني، أما هذان الرجلان الصربي والمجياري، فهما من رعايانا، كما أعرف ذلك الرجل فهو من سلالة الأتراك المتسمين جميعا بالبدانة المفرطة، وكذلك هذا الأرمني الذي يكشف بدهاء عينيه وبحاجبيه الملتصقين عما يدور في أعماق نفسه من خبث ودهاء، وأعرف ذلك الهندي، ذا البشرة الداكنة، وذلك الحبشي ذا البشرة الحالكة السواد، وأعرف أيضا ذلك الفرنجي المتغطرس ذا الطلعة البهية، أما ذلك الأخير الذي يليهم فمن الجنس الإيطالي المتغطرس، الذي أتعرف عليه بمجرد رؤيته... بيد أن هناك أناسا لا أعرف هويتهم، فلهجتهم الغريبة وهيئتهم العجيبة تبعث على الدهشة، وتدفع المرء إلى إطالة النظر فيهم، أولئك أتوا من أقاصي الأرض من حيث لا يتوقع المرء".٤٦ وقد راح يوحنا تزيتزس J. Tzetzes٤٧ يسوق سبع تحيات

بسبع لغات أجنبية مختلفة، مؤكدا على أنه قد أصبح من الضروري الإلمام بها في بيزنطة.٤٨

على أية حال، هاهو فوشيه الشارتري، أحد كتاب الحملة الصليبية الأولى الذين كتبوا عن القسطنطينية، لا يُفصل الحديث عن المدينة ومعالمها، بل يبد انبهاره بها فقط، مثله مثل باقي الصليبيين؛ ولعل تفسير هذا يكمن ببساطة شديدة في أنه كان ضمن زمرة أعضاء الحملة الصليبية الأولى٤٩ القابعين خارج أسوار القسطنطينية، بأمر الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنينوس، خوفا من عبثهم بالمدينة ونهبها. ويقول فوشيه الشارتري صراحة: "...لم يكن بمقدورنا دخول المدينة، لأن الإمبراطور لم يسمح بهذا، إذ كان يخشى أن ننتهز الفرصة ونتآمر للإضرار به...ولم يكن مسموحا إلا لخمسة أو ستة أفراد بالدخول إلى المدينة مرة كل ساعة. وهكذا، بينما كان البعض منا يخرج منها، كان الآخرون يدخلون إليها للصلاة في الكنائس".٥٠وبهذا لم تتأت الفرصة لفوشيه الشارتري للتجول في المدينة بحرية والتحقق من معالمها، إلا لمدة ساعة فقط، وهو الأمر الذي لا يتيح له زيارة معالم المدينة الرئيسية على الأقل، خاصة إذا كان راجلاً، والتي لو كان قد زارها لكتب عنها، أو على الأقل كتب عن كنيسة آيا صوفيا وكنيسة الرسل المقدسين والقصور الإمبراطورية، وهي أبرز المعالم التي لفتت انتباه بعض الكتاب الصليبيين الآخرين.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف المجهول٥١ لكتاب "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس" يشير إلى حجم التخريب الذي ألحقه الصليبيون بقصور وكنائس القسطنطينية عشية الحملة الصليبية الأولى. فقد خربوا الكنائس، وخلعوا الرصاص عن أسقفها وباعوه للبيزنطيين، وأضرموا النار في قصور المدينة وبيوتها؛ الأمر الذي استشاط له الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس غضبا.٥٢

على أية حال، هذا عن صورة القسطنطينية في عيون كتاب الحملة الصليبية الأولى، أما أودو الدويلي، الذي كان برفقة سيده لويس السابع ملك فرنسا، في الحملة الصليبية الثانية،٥٣ فقد أتيحت له فرصة لزيارة المدينة كأحد أعضاء حاشية الملك الفرنسي عند وصولهم إليها، وإقامتهم بها في أحد القصور الإمبراطورية شمال غرب المدينة.٥٤ وكتب عن بعض معالمها من وجهة نظره الخاصة. ولا شك أن الموقف السياسي الذي تعرض له الفرنجة في هذه الحملة اختلف عن الذي

تعرض له الألمان، الذين ذاق سيدهم كونراد المذلة والهوان في آسيا الصغرى، كان عاملاً مؤثراً على كتابات أودو الدويلي عن العاصمة البيزنطية. فنجده يقول: "إن المرء لا يستطيع فهم اليونانيين [البيزنطيين] دون أن يكون لديه خبرة بهم أو دون حصوله على إلهام نبوئي".[٥٥] وفي موضع آخر يضيف مثالاً آخر من الانيادة[٥٦] حيث يقول: "أخشى من اليونانيين، حتى عندما يحملون الهدايا"؛[٥٧] ثم يقول عن القسطنطينية : " إن المدينة تسلب ضيوفها أيضاً، كما لو كانوا أعداءً لها ".[٥٨]

يبدو أن أودو الدويلي لم يختلف عن بقية الصليبيين عند رؤيتهم لمدينة القسطنطينية للمرة الأولى، عندما لفت نظره جمالها وثرائها، حيث تحدث عن طبوغرافية المدينة فقال: "القسطنطينية، مجد اليونانيين، ذائعة الصيت التي لم تزل غنية بالأملاك، تبدو مثلثة الشكل كشراع سفينة. وفي داخل هذا المثلث تقع سانتا صوفيا وقصر قسطنطين، الذي يحتوي على كنيسة مبجلة بفضل ما تحويه من آثار مقدسة جدا".[٥٩]

وهكذا، يبدو أن أول ما لفت نظره في المدينة كان كنيسة آيا صوفيا والقصور الملكية. غير أنه يُفصل الحديث بعد ذلك عن قصر البلاشيرن، الذي يقول عنه أنه على الرغم من أن أساساته تمتد على أراض منخفضة، إلا أنه يكتسب سمواً من خلال عمارته الممتازة وبهائه، وبسبب ما يقع حوله من ثلاثة جوانب فإنه يبعث في سكانه البهجة الشديدة بوقوعه على البحر والحقول والمدينة. وما يقع خارجه جماله فائق، أما ما يقع داخله فيفوق جماله الوصف. فهو مزين في كافة أرجائه بالذهب بشكل متقن، وتشكيلة عظيمة من الألوان؛ وأرضيته مصنوعة من الرخام، ومعبدة بمهارة فائقة. ويضيف أودو الدويلي قائلا: "...ولا أعرف إذا ما كان الفن الرائع أم المواد الثمينة جداً هما اللذان يهبانه هذا الجمال الشديد والقيمة العالية"؛[٦٠] ثم يضيف معلومة مهمة عن هذا القصر عندما يذكر أن هذا القصر هو المبنى الوحيد الذي كان يعلو فوق الأسوار.[٦١] وقبل المضي مع رواية أودو الدويلي يلوح سؤال في الأفق: لماذا فصل أودو الحديث عن قصر البلاشيرن دون غيرة من القصور الإمبراطورية في المدينة؟

ومن الملاحظ على معظم الكتاب الصليبيين الذين زاروا أو كتبوا عن القسطنطينية أنهم يصفون بعض معالمها وصفاً عاماً، وفي مواضع أخري يصفونها وصفا دقيقا، مما يوحي بزيارتهم لها شخصياً والوقوف عند التفاصيل الدقيقة لهذا

المَعْلم أو ذاك. ومن أصحاب الفئة الأخيرة أودو الدويلي، الذي كان لرفقته لسيده لويس السابع الفضل في هذا، حيث كتب عن الأماكن التي زارها لويس السابع وأودو بطبيعة الحال؛ ووصفه لقصر البلاشيرن يوحي بأن الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس خصص ذلك القصر لإقامة لويس السابع وحاشيته، فما كان لأودو الدويلي أن يدخل القصر البيزنطي إلا برفقة سيده لويس السابع. ولعل قصر البلاشيرن هو المَعْلم الوحيد الذي تحدث عنه بالشكل الذي عرضناه، دون بقية معالم المدينة، التي أوجز الحديث عنها. خلاصة القول أن تحركات أودو كانت طبقا لتحركات سيده لويس السابع، ووصفه يتسم بالإسهاب أو الاقتضاب طبقاً لمواقع زيارات سيده.

ومما يحسب لأودو الدويلي أنه أشار بين ثنايا كتابه عن "رحلة لويس السابع إلى الشرق" إلى سوق الصيارفة الذي كان يقع قبالة القصر الإمبراطوري في القسطنطينية، وكان معدل سعر تغيير العملة آنذاك مناسباً تماماً لهم، حيث كان أقل من دينارين مقابل واحد ستامينا٦٢ stamina وماركاً واحداً لكل ثلاثين ستامينا (=ثلاثة صولدات). ويفهم من روايته أيضاً أن هذا المعدل لم يكن ثابتاً في شتى أنحاء بيزنطة، فقد اختلف معدل تغيير العملة خارج القسطنطينية عن داخلها. فقد دفعوا خمسة أو ستة دنانير مقابل ستامينا واحدة، وماركاً واحداً لكل اثنا عشر صولدي، بعد رحيلهم عن القسطنطينية بمسيرة ثلاثة أيام.٦٣

وهكذا، قدم أودو معلومات مهمة عن الحالة الاقتصادية في بيزنطة، عن دون قصد منه بطبيعة الحال، وهي تدل على مدى الاضطراب في العملة البيزنطية آنذاك.وينتقل أودو الدويلي بعد ذلك للحديث عن أسوار المدينة٦٤ والحقول التي تحيط بها، والتي كانت تزخر بالحدائق، التي تزود المواطنين جميعاً بكل أنواع الفواكه،٦٥حيث يقول: "تقف أمام المدينة حلقة ممتدة ومؤثرة من الأسوار التي تشتمل على أنواع مختلفة من الشراك وتحتوي على قنوات مائية وبرك. وتوجد بداخلها أيضاً تجاويف معينة وكهوف ومزودة بحظائر للحيوانات في موقع من الغابات"٦٦؛ ثم يعاود الحديث بقوله "...والضلع الثالث من المدينة المثلثة، محصن بالأبراج والأسوار المزدوجة التي تمتد لما يقرب من ميلين من البحر إلى القصر. وهذا الجزء من الأسوار ليس قويا للغاية، وليس به أبراج شاهقة.٦٧ويشير إلى أن مصدر قوة المدينة يكمن في أنها تضع ثقتها في حجم سكانها وفي فترة السلام

الطويلة التي تنعم بها.٦٨ولعله بهذا يقصد الجزء الشمالي من الأسوار، الذي يـربط مابين الأسوار البحرية شرق المدينة، والأسوار البرية غربها.

وإذا كان أودو الدويلي قد تناول قصر البلاشيرن والأسوار من واقع رؤيته الخاصة، فإنه ينفرد برواية مهمة تشير إلى مساكن فقراء القسطنطينية، وإلـى أي مدى تنتشر بها الجرائم واللصوص والمجرمين، الذين يعيشون هناك دون قـانون يردعهم. وفي هذا الصدد يقول:"أن المدينة نفسها قذرة ونتنة، وفـي العديـد مـن الأماكن التي يضربها الظلام الدائم، نظرا لأن بنايات الأغنياء تلقي بظلالها علـى الشوارع،٦٩ تاركة هذه الأماكن القذرة المظلمة للفقراء والرحالة، تقع هناك جـرائم قتل وسرقات وجرائم أخرى، ممن تحب حياة الظلام. وعلاوة على ذلك، نظرا لأن الناس يعيشون بشكل فوضوي في المدينة، التي لها أسيادها من الأثرياء، بقدر مـا فيها من الفقراء واللصوص، فإن المجرم لا يعرف الخوف ولا الحياء، لأن الجريمة هناك ليس لها قانون يُعاقب بها فاعلها ولا ترى النور أبداً."٧٠وهو بهذا يقدم دلـيلاً على التناقض ما بين رؤية الأجانب للقسطنطينية وهم خارجها، وبين حقيقة الوضع الداخلي لها، والمعلوم لسكانها.٧١

أما كنائس المدينة فيبدو أنه لم تُتح فرصة لأودو الدويلي ليتجول بها كيفمـا شاء، فقد أشار إلى كنيسة آيا صوفيا فقط، أما بقية الكنائس فقد قال عنها أنها ليست مساوية لآيا صوفيا في الحجم، غير أنها تساويها في الجمال، الذي يُـدهش المـرء لجمالها وآثارها المقدسة.٧٢غير أنه يوما ما زار برفقة سيده والإمبراطور البيزنطي بعض الأضرحة، التي يبدو أنها لم تثره للكتابة عنها.٧٣

بيد أن أهمية رواية أودو الدويلي عن القسطنطينية لا تقف عند حد وصـفه لبعض معالم المدينة، بل تمتد لتشمل رؤية خاصة للمراسم الإمبراطورية فيها، وهو بهذا يعطي مزيداً من الضوء حول هذا الأمر،٧٤الذي سيقدم وليم الصوري تفاصيلاً مهمة عنه. فيذكر أودو أن من عادات البيزنطيين أن تظل حاشية الملك كلها واقفـة بينما سادتهم قعود. ويستطيع المرء أن يرى الشباب واقفين ثابتين، بروؤس محنيـة ونظراتهم متجهة بتركيز وهدوء صوب سادتهم، وجاهزون لإطاعة أوامرهم. وهم ليست لديهم عباءات، غير أن لهم ثياب حريرية ثمينة، قصيرة، ذات أكمام ضـيقة، ومخيطة بإحكام من كل الجوانب؛٧٥ لذلك فهم يتحركون دائما دون إعاقة، كما يفعل الرياضيون. والجماعات الفقيرة منهم يجهزون أنفسهم بثياب كتلك القصيرة، لكن من

نوع أرخص.٧٦ ويستمر أودو الدويلي في تسجيل مشاهداته على المراسم الإمبراطورية البيزنطية عند استقبال الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس للملك لويس السابع عام ١١٤٧م في القصر الإمبراطوري. فيقول أودو الدويلي: "...عندما اقتربنا من القسطنطينية خرج كل النبلاء [البيزنطيين] والرجال الأثرياء، ورجال الدين وسكانها لمقابلة الملك [لويس السابع] واستقبلوه بشرف يليق به، وطلبوا منه بتواضع أن يمثل أمام الإمبراطور وأن يلبي رغبة الإمبراطور أن يراه ويتحدث معه..."وقد استجاب لويس السابع لطلب الإمبراطور، حيث دخل إليه في عدد قليل من رجاله، واستقبلوا استقبالاً إمبراطورياً في رواق القصر.٧٧ ويشير أودو إلى أن الإمبراطور البيزنطي استقبل ملك فرنسا بالأحضان والقبلات، ودلفا إلى الداخل، حيث كان هناك كرسيان موضوعان لهما، ومن ثم جلسا سوياً.٧٨ وكان يحيط بهما رجالهما، حيث بدأت محادثاتهما وقام المترجم بممارسة عمله. وبعد انتهاء المحادثات بين الطرفين افترقا كما لو كانا أخوين، واصطحب النبلاء الملك لويس السابع إلى الخارج، إلى القصر الذي أعد لإقامته.٧٩ وهكذا، على الرغم من أن أودو الدويلي أراد في روايته أن يعلي من شأن سيده، الذي قبل دعوة الإمبراطور للقائه شفقة به،٨٠ ولم يشر إلى أن سيده جلس على كرسي أقل من الكرسي الإمبراطوري، قدم تفاصيل مهمة عن مراسم استقبال الملوك الأجانب في القسطنطينية، والبرامج الترفيهية التي كانت تعد لهم؛ وتعكس لنا كلماته أن الإمبراطور البيزنطي كان يستقبل الملوك الأجانب وهو قابع في قصره، وليس خارجه؛ وهو الأمر الذي سنراه أيضاً مع عموري الأول، ملك بيت المقدس.

على أية حال، ننتقل الآن إلى مشاهدات وليم الصوري عن القسطنطينية، التي أشار فيها عدة مرات إلى القصور الإمبراطورية، لاسيما قصر البلاشيرن، أو القصور الخاصة المنتشرة على ساحل البسفور،٨١ والتي تمتد بطوله إلى مسافة ستة أو سبعة أميال.٨٢ وينبغي التنويه هنا إلى أهمية رواية وليم الصوري، لأنها رواية شاهد عيان، حيث سبق وأن زارها في عام ١١٦٨م ضمن سفارة دبلوماسية صليبية أوفدها عموري الأول، ملك بيت المقدس، إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس؛٨٣ كما كان ضمن أعضاء الوفد المصاحب للملك عموري الأول، ملك بيت المقدس، عند زيارته للمدينة في العاشر من مارس عام ١١٧١م، وهي الزيارة التي استمرت أكثر من أربعة شهور.٨٤

يشير وليم الصوري إلى طبوغرافية المدينة حيث يذكر أنها تقع جنوب بحر بُنطس (البحر الأسود) بنحو ثلاثين ميلا. كما يشير إلى مضيق الهلليسبونيت أو البروبونتس كما كان يسمي أيضاً.٨٥ ويذكر أن هذه المدينة عبارة عن مثلث غير متساوي الأضلاع، التي يمتد أولها من تلك الزاوية الواقعة بين البحر وبين الهلليسبونيت، حيث توجد كنيسة سان جورج، المعروفة باسم مانجانا، ويمتد هذا الضلع بامتداد الميناء إلى القصر الجديد المسمى البلاشيرن. أما الضلع الثاني فيمتد على طول البسفور عند دير سان جورج وحتى البوابة الذهبية. أما الضلع الأخير فيمتد بطول الإقليم من البوابة الذهبية وحتى قصر البلاشيرن، الموجود عنده نهر تغزر مياهه شتاء وتقل صيفا ويصب في الميناء، ويقع عليه جسر.٨٦ وبهذا يتفق وليم الصوري مع أودو الدويلي في ملاحظتيهما أن القسطنطينية مثلثة الشكل، غير متساوية الأضلاع. ويصف وليم الصوري قصر البلاشيرن بأنه محصن بالأسوار والأبراج ووسائل الدفاع اللازمة له،٨٧وأنه مقسم من الداخل إلى عدة أجنحة وغرف؛ ويستشف من كلامه أنه كانت تقع بالقرب منه عدة دور مخصصة لإقامة أعضاء الوفود الرسمية.٨٨ ويشير وليم الصوري إلى أنه عند هذا القصر كانت تقع كنيسة الشهيدين قوزماس وداميانوس.٨٩

ويتحدث وليم الصوري أيضاً عن القصر الإمبراطوري، الذي كان يقع على شاطئ البحر مواجهاً الشرق، وكان له رصيف عجيب من الرخام الرائع يصله بالبحر. وكانت السلالم المؤدية إلى الماء وتماثيل الأسود والأعمدة منحوتة كلها من الرخام، وتضفي على القصر روعة ملكية. ويشير إلى أن هذا المدخل كان مخصصاً للإمبراطور فقط، عندما يريد الصعود إلى القسم العلوي من القصر.٩٠وفي الطابق الثاني من القصر الإمبراطوري كانت توجد عدة حجرات وأجنحة، منها ما هو مخصص للاجتماعات الإمبراطورية، حيث اجتمع فيه الإمبراطور مانويل كومنينوس مع الملك عموري الأول، عند زيارة الأخير للقسطنطينية، وكانت تسدل ستائر غاية في الفخامة والدقة وروعة النقوش والزخارف لحجبهما عن باقي أعضاء الوفد الواقفين بالخارج. وفي قاعة الاجتماعات هذه كان الإمبراطور يجلس على عرشه الذهبي الفخم مرتديا ملابسه الإمبراطورية؛ كما كانت بعض هذه الأجنحة مخصصة لإقامة الملوك الوافدين على الإمبراطور.٩١

ويقدم وليم الصوري تفاصيلاً مهمة عن مراسم زيارة الملك عموري الأول للقسطنطينية واستقبال الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس له في القصر الإمبراطوري.٩٢ فقد تم استقبال عموري الأول عند وصوله إلى المرفأ الإمبراطوري، حيث صعد، دون غيره، من المدخل المخصص للإمبراطور، وهذه ملاحظة مهمة تحسب لوليم الصوري؛٩٣ ثم مضى رجال القصر البيزنطي به هو وحاشيته وساروا بهم في أبهاء متنوعة وحجرات مختلفة الأنواع حتى انتهوا إلى الطابق العلوي من القصر، حيث كان الإمبراطور مع كبار نبلائه، وقد أسدلت الستائر على قاعة الاجتماعات الإمبراطورية. أما كبار الشخصيات فوقفوا خارج هذه القاعة في استقبال الملك عموري الأول، ثم ساروا به إلى ما وراء السجوف. ويلفت وليم الصوري النظر هنا إلى أن البيزنطيين فعلوا هذا من أجل أن تظل هيبة الإمبراطور محفوظة، وأن يظل جلاله قائماً في أعين الوافدين عليه. وعند وصول عموري الأول قام الإمبراطور مانويل كومنينوس بتحيته تحية تليق به. وما كاد الملك عموري الأول يدخل القاعة حتى رفعت الستائر، وبدا الإمبراطور وهو جالس على عرشه المذهب الفخم.٩٤

وقد أدى الإمبراطور التحية لعموري في رقة بالغة تلفها مظاهر التحية المألوفة في البلاط البيزنطي، وعبر بالإشارة تعبيراً واضحاً عن سعادته بلقاء عموري الأول ورجاله. وكان قد أمر خدم القصر وموظفيه بإعداد أجنحة خاصة، غاية في الروعة، للملك ورفاقه. ثم أذن للجميع بالانصراف للراحة، بعد أن حدد لهم ساعة اللقاء التالي.٩٥وكان الوفد الصليبي يعقد اجتماعات يومية مع البيزنطيين تارة ومع الإمبراطور مانويل كومنينوس تارة أخرى، في ساعات محددة للمحادثات. وفي هذه الأثناء أغدق الإمبراطور البيزنطي الهدايا التي تتناسب وعظمته على ضيوفه، بالإضافة إلى سؤاله الدائم عنهم وعن مدى راحتهم في إقامتهم بالقصر. ووصل الأمر أن الإمبراطور أمر بفتح الأماكن الخاصة في القصر لهم، بما فيها حجراته، إذا طلبوا ذلك.

ولم يفت وليم الصوري الإشارة إلى الذخائر المقدسة بالقصر، والتي كانت محفوظة به منذ زمن بعيد في غرف خاصة، أمثال ذخائر القديسين، آثار السيد المسيح، كالصليب والمسامير والحربة، والإسفنجة، وقصبة الغاب، والتاج الشوكي، والثوب الكتاني، والخفين؛ وكذلك آثار الأباطرة الأوائل أمثال الإمبراطور قسطنطين

وثيودوسيوس وجستنيان الأول، المحفوظة في الخزائن بغرف القصر الإمبراطوري المقدسة.٩٦

وكان الإمبراطور يدعو الملك وحاشيته بين حين وآخر ليروحوا عن أنفسهم بشتى أنواع التسلية اللائقة بهم، حيث زاروا الهيبودروم، وشاهدوا عروضاً موسيقية وفنية، وزاروا أعمدة المدينة وأقواس النصر.٩٧

وبعد هذه المدة من الإقامة في القصر الإمبراطوري أمر الإمبراطور بنقل إقامتهم إلى قصر البلاشيرن، ربما كنوع من التغيير أو إظهار جمال القصور البيزنطية أمام الزوار الصليبيين. وصدرت الأوامر بتوفير أماكن تتوفر بها الراحة وتليق بنزلاء الإمبراطور، على أن يراعى في هذه الأماكن ألا تبعد كثيراً عن القصر. وقد كان الملك عموري الأول يتحرك في المدينة مصحوباً بحراسة إمبراطورية خاصة به، حيث زار آثار المدينة من كنائس وأديرة، والتي لا تحصى على حد قول وليم الصوري، وشاهد أقواس النصر والأعمدة التذكارية؛ وكان يقوم بالشرح له مرشدون بيزنطيون من كبار النبلاء؛٩٨ثم انتقل الملك عموري الأول بعد ذلك لزيارة مدخل البسفور من جهة البحر الأسود، لرغبته الخاصة في التعرف على المكان؛٩٩وعاد بعد ذلك لإتمام المفاوضات مع الإمبراطور مانويل كومنينوس. وبعد انتهاء الزيارة وإتمام المفوضات بين الطرفين استأذن الملك عموري الأول الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس بالرحيل للعودة إلى بيت المقدس. وهنا أغدق عليهم الإمبراطور من كرمه ثانية بسخاء لدرجة أن قال عنها وليم الصوري: "وأغدق الإمبراطور عليه وعلى من معه من كرمه ما يفوق كل ما كان أغدقه عليهم من قبل وما يعجز اللسان عن إيفائه حقه من الثناء، فقد وصله الإمبراطور بأثقال من الذهب وأحمال من الملابس الحريرية وكثير من السلع الأجنبية الصنع؛ كما نال من معه-حتى أصغرهم مكانة-هدايا لا حصر لها"...١٠٠وعندما وجد النبلاء البيزنطيون ما فعله الإمبراطور مع أعضاء الوفد الصليبي ومليكهم، بدأوا في تقديم الهدايا الثمينة، الدقيقة الصنع إليهم أيضاً.١٠١

على هذا النحو، انتهت مراسم استقبال الملك عموري الأول بالقسطنطينية، والتي يظهر من وصف وليم الصوري لها، أن الملك عموري الأول استقبل في القسطنطينية بحفاوة بالغة، أكثر من تلك التي قوبل بها لويس السابع ملك فرنسا هناك، ووصل الحد أن أغدق عليه الإمبراطور من الهدايا الثمينة ما لم يكن متوقعاً؛

وقد أعد له وحاشيته برنامجاً ترفيهياً شاملاً. وإذا كانت رواية وليم الصوري عن مراسم الاستقبال في البلاط البيزنطي تتفق في خطوطها العامة مع رواية أودو الدويلي إلا أنه من الواضح أن الإمبراطور البيزنطي كان يتعامل من ضيوفه من منطلق أنه ذا اليد العليا.

ولعل اختلاف درجة الحفاوة البيزنطية الإمبراطورية فيما بين لويس السابع، ملك فرنسا، وعموري الأول، ملك بيت المقدس، له دوافعه الوجيهة. فلويس السابع لم يأت إلى بيزنطة زائراً أو لمقابلة الإمبراطور، بل عابراً بها في طريقه إلى الأراضي المقدسة، ومعسكراً بقواته أمامها لحين وصول بقية القوات الصليبية المرافقة له؛ وقد طلب الإمبراطور البيزنطي لقاءه، مثلما كانوا يفعلون مع قادة الحملات الصليبية، لترتيب الأمور معه. كما أن لويس السابع كان معنياً بشيء واحد فقط ألا وهو أورشليم، واضعاً في حسبانه المصير الذي آل إليه كونراد، ملك ألمانيا. أما عموري الأول، ملك بيت المقدس، فكان من الطبيعي أن يستقبله نفس الإمبراطور بحفاوة بالغة، أولا: لأن عموري الأول جاء في زيارة رسمية إلى القسطنطينية، استمرت عدة أشهر. ثانيا: لأن المصالح المشتركة بين الطرفين، البيزنطي والصليبي، جمعتهما على مصلحة واحدة، وهي اتخاذ التدابير العسكرية المشتركة ضد مصر. ثالثاً: حرص بيزنطة على مصالحها في بلاد الشام، لاسيما مع الممالك الصليبية، أدى كل هذا للحفاوة البيزنطية البالغة بالملك عموري الأول، ملك بيت المقدس، أكثر من لويس السابع، ملك فرنسا.

وهكذا، على الرغم من أن وليم الصوري زار المدينة عام ١١٦٨م، إلا أنه لم يسهب الحديث عن معالمها لاسيما كنيسة آيا صوفيا، كما يتوقع المرء، بل جاءت روايته مقتضبة، ولم تخرج عن وصفه لمراسم استقبال الملك عموري الأول في القسطنطينية، عند ذهابه إليها ثانية معه عام ١١٧١م. وهذا ربما يشير إلى أن زيارة وليم الصوري الأولى إلى المدينة كانت إما قصيرة الأمد أو لم يكن لها برنامجاً ترفيهياً سياحياً معد سلفاً من قبل الإدارة الإمبراطورية بالقسطنطينية، كما كان متبعاً مع السفراء الأجانب الوافدين إليها، وعندما زارها مع الملك عموري الأول، ملك بيت المقدس، كان ملزماً بتحركات سيده في المدينة. بيد أن أهم ما في رواية وليم الصوري هو وصفه المراسم الإمبراطورية داخل القصر الإمبراطوري البيزنطي في عصر آل كومنينوس، كشاهد عيان.

وإذا ما انتقلنا إلى أهم الكتاب الصليبيين الذين تناولوا القسطنطينية في كتاباتهم، وهم صليبيو الحملة الرابعة، التي غيرت مسارها من مصر إلى القسطنطينية، والذين جعلوا القسطنطينية مشاعاً لهم عقب دخولهم إليها، مما أثر على رؤاهم لها وكتابتهم عنها. فقد أفاض روبرت كلاري وجونتر الباريسي وفلهاردوان الحديث عن معالمها الدينية والمدنية، الأمر الذي يحدو بالباحث إلى التريث أمام هذه الروايات، التي تطرح أسئلة عدة تأتي في موضعها. ولنبدأ بالحديث عن رواية روبرت كلاري، والتي يميزها عن غيرها أن صاحبها قدم رواية عن العاصمة البيزنطية أكثر تفصيلاً من غيره من الكتاب الصليبيين أمثال فوشيه الشارتري، وأودو الدويلي، وفلهاردوان، وجونتر الباريسي الذين كتبوا بصورة عامة عن القصور والكنائس والأديرة والذخائر المقدسة؛ وهو في المقابل يبدو كما لو كان يقدم لنا تفاصيل "جولة موجهه".١٠٢وبالإضافة إلى هذا كان كلاري من عامة فرسان هذه الحملة، أو بكلمات أخرى كان من أبناء الطبقة الشعبية المشاركة في الحملة، وليس من خاصتهم، حيث عمل تحت لواء سيده بطرس داميان Pierre d'Amiens١٠٣مما أثر في رؤيته للمدينة.

لقد اهتم روبرت كلاري بوصف المنشآت المدنية١٠٤ومنها القصور الإمبراطورية الرئيسية في القسطنطينية، مبرزا جمالها الخلاب وثراءها الفاحش لقرائه؛ فيقول عن القصر الكبير أو قصر بوكليون Boukoleon:١٠٥ "أنه كان قصراً غنياً جداً"، ثم يبدأ في وصف القصر على النحو التالي: "كان في هذا القصر الذي احتله الماركيز خمسمائة قاعة متصلة بعضها ببعض، ومبنية جميعها بالفسيفساء المذهبة، وفيه ثلاثون كنيسة ما بين صغيرة وكبيرة، تعرف إحداها بالكنيسة المقدسة، وكانت غنية جدا ورائعة..."١٠٦وينتقل بعد ذلك إلى وصف الكنيسة المقدسة بقصر بوكليون، مبرزاً جمالها وثرائها الفاحش، وما حوته من الذخائر والمقدسات الدينية.

ويتحدث روبرت كلاري أيضاً عن قصر البلاشيرن، الذي كان يضم بين جوانبه عشرون كنيسة، وما لا يقل عن مائتين أو ثلاثمائة قاعة، متصلة ببعضها البعض، ومصنوعة كلها من الفسيفساء المذهبة. وقد بلغ هذا القصر من الفخامة والروعة حدا يعجز كل فرد عن وصفه، أو أن يروي ثراءه وفخامته. وكان هذا القصر يحوي ثروات باهظة استولى عليها الصليبيون، حيث عثروا على تيجان

الأباطرة البيزنطيين السابقين، وعلى حلي ذهبية ثمينة، وأقمشة حريرية غالية؛ كما عثروا على الأثواب الإمبراطورية الغالية والأحجار الكريمة النفيسة، وعلى كثير من الكنوز العظيمة. وأقر روبرت كلاري بأنه لا يستطيع أحد أن يقدر كميات الذهب والفضة الضخمة التي كانت بتلك القصور الإمبراطورية، وفي أماكن أخرى من القسطنطينية.١٠٧

وإلى جانب القصور الملكية يتحدث روبرت كلاري عن الهيبودروم،١٠٨حيث يقول عنه: "وبناحية أخرى من المدينة منظر عجيب آخر، إذ يوجد على مقربة من قصر بوكليون ساحة فسيحة تسمى بالملعب الإمبراطوري، وتبلغ رمية ونصف رمية قوس طولا، ورمية واحدة عرضا.١٠٩وكان يحيط بهذا المكان ثلاثون أو أربعون صفاً من المقاعد، يجلس عليها اليونانيون [البيزنطيون] لمشاهدة اللعب، تعلوها مقصورة كبيرة شديدة الأناقة والفخامة، حيث يجلس الإمبراطور وعلية القوم ونساؤهم، إذا عقدت حلقات اللعب.١١٠ فإذا كان هناك طرفان يلعبان في وقت واحد راهن الإمبراطور والإمبراطورة كل منهما الآخر، على أن النصر سيكون في هذا الجانب أو ذاك، وكذلك يفعل جميع من يشاهدون اللعب." ويشير بعد ذلك روبرت كلاري إلى ارتفاع أسوار هذا المضمار، وقدرها بخمسة عشر قدما، وعرضها بعشرة أقدام؛ كما قدم وصفا للمناظر المنحوتة على هذه الجدران من رجال ونساء وجياد وثيران وجمال ودببه وأسود وحيوانات عديدة أخرى، وجميعها قد صنعت من النحاس الأحمر، والتي يشير كلاري إلى أنه كانت لها قوة سحرية في الماضي، إلا أنها بطلت في عهده؛١١١وهذا يشير بدوره إلى اعتقاد البيزنطيين في قوتها السحرية آنذاك؛ بل إن عبارات كلاري، من ناحية ثانية، تشير إلى أنه ظن أن هذا السحر كان يمد هذه التماثيل أو التصاوير بالقوة اللازمة لتشارك في الألعاب. وتجدر الإشارة إلى أن المعلومة الأخيرة لكلاري عن تماثيل الهيبودروم لا تقدم شيئاً جديداً للمؤرخين، مقارنة بالمعلومات المتوافرة عنها.١١٢

ويتحدث روبرت كلاري أيضاً عن بعض التماثيل التي كانت تزين المدينة، ومنها تمثالان لامرأتين مصنوعان من النحاس، غاية في الروعة والجمال، كانا يقعان في طرف من أطراف المدينة أمام سوق الصيارفة، شديد الزحام، ويبلغ ارتفاع الواحد منهما عشرون قدما. وقد كان مكتوبا على أحد هذين التمثالين، الذي يمد يده صوب الغرب، "سيأتي من الغرب أولئك الذين سيستولون على

القسطنطينية"، أما يد التمثال الآخر فمبسوطة صوب مرذولة ومكتوب عليها "هـذا هو المكان الذي سيرمونهم فيه".١١٣وهذا المكان الذي يقع فيه هذان التمثالان ويجلس فيه البائعون وأمامهم أكوام من البيزنطات والأحجار الكريمة، يتطابق مـع ميـدان قسطنطين، حيث كان مقراً لحوانيت الصيارفة وصائغي الفضة.١١٤ويشير نيقتـاس الخونياتي إلى أن هذا التمثال كان للربة أثينا، وكان يبلغ ارتفاعه ثلاثون قدما، وتمتد ذراعه اليمنى إلى الجنوب، غير أن الذين لا يعلمون شيئاً مطلقـاً عـن اتجاهـات البوصلة ظنوا أن التمثال كان يشير بذراعه نحو الغرب. وقد حطم السـكان هـذا التمثال في عام ١٢٠٣م ظناً منهم أنهم بهذا يتجنبـون خطـر القـوات الصـليبية المعسكرة هناك.١١٥

كما يشير أيضاً إلى تمثال موضوع فوق أحد الأعمدة الرخامية قبالة كنيسـة آيا صوفيا، مصنوع من نحاس لإمبراطور يمتطي جواداً نحاسياً كبيراً، ومثبتاً على قاعدة مسطحة مساحتها خمسة عشر قدما طولاً وعرضاً أيضاً، مثبتة بدورها فوق عمود يواجه كنيسة آيا صوفيا، مصنوع من الرخام المكفـت بالنحـاس الأصـفر، ومثبت بأشرطة قوية من الحديد، يبلغ قطره قـدر اسـتدارة أذرع ثلاثـة رجـال، وارتفاعه ثلاثمائة قدم. وكان يشير تمثال ذلك الإمبراطور بإصـبعه نحـو بـلاد المسلمين، ونقشت عليه كتابة مفادها أن ذلك الإمبراطور أقسم ألا يهادن المسـلمين أبداً، كما أمسك بالأخرى كرة من الذهب عليها صليب. وقد أخبر روبرت كـلاري أن هذا الإمبراطور هو الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م).١١٦وتعتقـد المؤرخـة الانجليزية روث ماكريديس أن الخطأ الذي انزلق إليه كلاري في نسبته هذا التمثال لهرقل، مثله مثل بعض الرحالة والجغرافيين المسـلمين، الـذين زاروا المدينـة، ويذكرون نفس صفات هذا التمثال غير أنهم ينسبونه إلـى قسـطنطين١١٧ولـيس هرقل،١١٨إنما راجع إلى البيزنطيين أنفسهم وإلى معلوماتهم المغلوطـة؛ وأن هـذا التمثال هو للإمبراطور جستنيان.١١٩وهكذا، فإن الرواية التي زُودّ بها كلاري فـي القسطنطينية عن هذا التمثال غير صحيحة.

أما عن الأعمدة التي كانت تزين المدينة فقد شاهد روبرت كلاري بعضـها، وكتب عنها بإعجاب، حيث اعتبرها عجيبة كبيرة. ومن هذه الأعمدة التـي رآهـا عمود كان يقع قبالة كنيسة آيا صوفيا مصنوع من الرخام المكفت بالنحاس الأصفر، والمربوط بأشرطة قوية من الحديد، ويبلغ قطره قدر استدارة أذرع ثلاثـة رجـال

وارتفاعه ثلاثمائة قدم. وكان يقع أعلاه قاعدة منبسطة من الحجر طولها خمسة عشر قدما وكذلك كان عرضها؛ ومنصب فوقها تمثال جستنيان، السابق الإشارة إليه.١٢٠ كما أشار روبرت كلاري إلى عمودين آخرين، أطلق عليهما اسم أعمدة النساك. وقد كان قطر كل منهما امتداد ثلاثة أذرع رجال، ولا يقل ارتفاع كل منهما عن ثلاثمائة قدم،١٢١أو ثلاثمائة وستون قدماً.١٢٢ وقد اعتاد النساك أن يعيشوا فوق قمة هذين العمودين في قلايات صغيرة موجودة بها، وبالعمودين أبواب يستطيع المرء الصعود من خلالها إلى القمة. وقد نُحت على العمودين بعض المناظر التي يدعي روبرت كلاري، نقلاً عن البيزنطيين، أنها تشير إلى الأحداث التي وقعت بالقسطنطينية على مدى تاريخها، والتي لم يستطع أهلها فهمها، وإذ ذاك كان الناس يهرعون إلى هناك ويمعنون النظر فيما يرون، فيطالعون ويفهمون لأول مرة خبر ما جرى، ومنها غزو الصليبيين لها عام ١٢٠٤م؛ بل يذهب إلى القول أنه كتب على هذين العمودين عبارة تقول "إن قوماً قصار الشعور ذوو سيوف حديدية سيأتون من الغرب لغزو القسطنطينية".١٢٣وهذان العمودان هما عمود ثيودوسيوس الكبير، الذي يقع في ميدان ثيودوسيوس (ميدان الثيرانForum Tauri)،١٢٤والآخر هو عمود أركاديوس، الذي يقع في ميدان اكسروفولوس Xeropholos.١٢٥

وتجدر الإشارة هنا إلى أن روبرت كلاري يشير في موضع آخر من كتابه إلى حادثة مقتل مُرزوفليوس Murzuphlus رمياً من فوق أحد هذين العمودين، حيث اقترح دوج البندقية عقاب مُرزوفليوس بهذه الطريقة، والتي وافق عليها كل البارونات.١٢٦وبهذا يتفق روبرت كلاري مع فلهاردوان في روايتيهما عن مقتل مُرزوفليوس،١٢٧الذي يشير إليه جونتر الباريسي أيضاً. وفي الوقت الذي يسهب روبرت كلاري في الحديث عن النقوش الموجودة على بدن العمود، يشير فلهاردوان إليها فقط، مع تفسيره بأن إحدى النبوءات القديمة كانت تقول أن أحد أباطرة القسطنطينية سيلقى حتفه من فوق أحد هذه الأعمدة، وقد تحققت هذه النبوءة بموت مُرزوفليوس.١٢٨

وأخيراً يسجل روبرت كلاري مشاهداته عن بوابات القسطنطينية ورؤيته الخاصة لها، وبالتحديد لبوابتين من بواباتها وهما البوابة الذهبية،١٢٩وبوابة أطلق عليها اسم العباءة الذهبية. ويشير روبرت كلاري إلى أن البوابة الأولى كانت مخصصة للأغراض الإمبراطورية، أي لدخول أو خروج الإمبراطور لاسيما إذا

كان خارجا للحرب. وإذا عاد من حربه خرجت جموع الشعب لاستقباله، وحينئذ تفتح البوابة لتدخل منها العربة الإمبراطورية المذهبة، ذات العجلات الأربع، حيث زودت بعرش للإمبراطور يحوطه أربعة أعمدة تحمل مظلة يستظل بها العرش، الذي يبدو وكأنه صنع كله من الذهب، ويجلس الإمبراطور على هذا العرش لابساً تاجه الإمبراطوري.١٣٠ولم يفت روبرت كلاري أن يسجل أن هذه البوابة كان يقع عليها تمثالين نحاسين لاثنين من الفيلة، يتسمان بالضخامة وعجب المنظر.١٣١

أما البوابة الثانية، بوابة العباءة الذهبية، فيقول أنها كانت تقع عليها كرة أرضية ذهبية عليها رقية يقول البيزنطيون إنه لن تقع صاعقة بالمدينة طالما هي قائمة في مكانها. وعلى هذه الكرة أيقونة من النحاس قد تدثرت بعباءة ذهبية، وقد مدت ذراعيها نحو الأمام، وكتب عليها: "من يعيش في القسطنطينية عاماً، يستطيع أن تكون له عباءة ذهبية كالتي أرتديها".١٣٢

أما عن المنشآت الدينية فلم يتحدث روبرت كلاري سوى عن أربع فقط من الكنائس بالقسطنطينية وهى الكنيسة المقدسة بقصر البوكليون، وكنيسة آيا صوفيا، وكنيسة الرسل المقدسين، وكنيسة القديسة مريم، مركزا على إبراز ثراء وفخامة كل هذه الكنائس، وما حوته من مقدسات وذخائر دينية، تهفو إليها قلوب المسيحيين الأتقياء. ويبدأ روبرت كلاري بوصف الكنيسة المقدسة حيث يقول عنها أنها: "... كانت غنية جداً ورائعة، حتى إنه لم يكن بها من مفصلة باب أو شريط مما يصنع عادة من الحديد إلا وقد صب كله من الفضة، ولم يكن بها من عمود لم يصنع من الشب أو الرخام السماقي أو غير ذلك من الأحجار الكريمة الأخرى، وكانت أرض هذه الكنيسة من الرخام الأبيض الذي يحاكي البللور في نعومة الملمس وصفاء اللون، وبلغت تلك الكنيسة من فاحش الثراء والروعة حداً يعجز أي امرئ عن تصويرها لك بما حوت من جمال وفخامة".١٣٣

وهنا ينتقل روبرت كلاري إلى وصف الذخائر الدينية المقدسة في هذه الكنيسة، حيث يقول: "...وتضم بين جنباتها كثيراً من الآثار المقدسة الجليلة، حتى لقد عثر البعض على قطعتين من صليب الصلبوت في حجم ساق الرجل، ويبلغ طولهما ثلاثة أقدام، كذلك وجد بها بعض حديد الحربة التي ضرب بها سيدنا في جنبه، كما وجدوا مسمارين من المسامير التي دقت بها كفاه وقدماه، وعثر أحدهم على قارورة بلورية فيها بعضا من دمه، ووجد غيره في هذه الكنيسة القميص الذي

كان يرتديه، والذي نزعوه عنه حينما ساقوه إلى جبـل كلفـاري Calvary؛ كمـا عثروا على التاج المبارك الذي توجوه به، والذي صنع من عيـدان القـصب، ذات الشوك القاطع، كأنه أسنة الخناجر.

ووجد أحدهم بها جزءاً من ثوب سيدتنا العذراء، ورأس سيدي القديس يوحنـا المعمدان، وكثيراً غير هذا من المخلفات والآثار المقدسة الكريمة، التي لا أسـتطيع تعدادها لك وإخبارك بها في صدق تام.

على أنه كان لا يزال بهذه الكنيسة أثر مقدس آخر...وهو عبارة عن وعاءين ثمينين من الذهب معلقين في وسطها ويتدليان من سلسلتين من الفضة الثقيلة، وفـي أحد هذين الوعاءين قطعة من الآجر، وفي الأخرى قطعة من القماش...".١٣٤وينتقل روبرت كلاري ليقص على القارئ مصدر هذين الأثرين المقدسـين. وكـان بهـذه الكنيسة أثر آخر هو أيقونة للقديس ديمتريوس، المرسومة على لوحة، وكانت هـذه الصورة تنضح بالزيت الكثير، الذي لم يكن في الاستطاعة محوه بالـسرعة التـي يتدفق بها من الصورة.١٣٥

وجدير بالذكر أن كلاري يعود إلى موضوع الذخائر المقدسة ثانية عند حديثه عن كنيسة الرسل المقدسين عندما يقول: " ...وهي تضم بين جوانبها رفات سـبعة من الرسل؛ وبها أيضا العمود الرخامي الذي أوثقوا إليه صليب سيدنا المسيح قبـل رفعه على الصليب. ويقال إنه في هذا المكان يرقد الإمبراطور قسطنطين وهيلينـا وكثير من الأباطرة سواهما".١٣٦

وينتقل روبرت كلاري إلى الحديث عن كاتدرائية آيا صوفيا، ويصفها علـى النحو التالي: "سانت صوفيا يقـصد بهـا فـي اليونانيـة الثـالوث المقـدس فـي الفرنسية..."١٣٧وهنا يخطيء روبرت كلاري في هذا التفسير١٣٨لأن الاسم يتكـون من كلمتين يونانيتين الأولى هجياἅγια وينطقها البعض آيا إنما تعني "المقدسة" في حالة وقوعها صفة، و"القديسة" في حالة وقوعها اسما، أما صوفيا σοφία فتعنـي "الحكمة".١٣٩ومن ثم فتعرف الكنيسة باسم كنيسة الحكمة المقدسة، ويطلـق عليهـا البعض مجازاً اسم "كنيسة القديسة صوفيا St. Sophia.

ويضيف روبرت كلاري أنها مستديرة البناء وبها قباب دائرة حولها محمولـة على أعمدة ضخمة رائعة جدا، وليس بها من عمود إلا وهو مصنوع من الـشب أو

من الرخام السماقي أو غير ذلك من الأحجار الثمينة.١٤٠وليس بها عمود إلا ولـــه قدرة على الشفاء. وليس بهذه الكنيسة من باب أو مفصلة أو شريط أو شيء آخـــر مما يصنع من الحديد إلا وهو مصنوع كله من الفضة. ويشير أيضاً إلى أن مـــذبح الكنيسة الرئيسي ثمين جداً لا يقدر بمال وإن غلا، لأن مائدته-التـــي أمـــر أحـــد الأباطرة بصنعها- كانت من الذهب والأحجار النفيسة المفتته المخلوطة ببعضـــها البعض؛ ويبلغ طول هذه المائدة أربعة عشر قدما. وتوجد حول المذبح أعمدة فضية تسند عرشا قائما على الهيكل وهو أشبه ببرج كنيسة مستدق الطرف، وقد صب كله من الفضة الخالصة مما يعجز أي فرد عن تقدير المال الذي يقدر به. أما المكـــان الذي يرتلون فيه الإنجيل فكان رائعاً جداً، بالغ الجمال، حتى أنه لا يمكن وصـــف كيف صنع.١٤١

ويضيف روبرت كلاري أنه كان بكنيسة آيا صوفيا من الداخل مائة شمعدان، ليس فيها واحد إلا وهو معلق إلى سلسلة فضية ضخمة تبلغ قطـــر ذراع الرجـــل، ولكل شمعدان خمسة وعشرون مصباحا أو أكثر، ولا يقل ثمن الشمعدان عن مائتي مارك فضي. ويشير أيضا إلى أنه علقت على حلقة باب الكنيسة الأعظم، المصنوع كله من الفضة، أنبوبة لا يعرف أحد كون مادتها، في حجم مزمار الرعاة، له قدرة على شفاء المرضى، وتخليصهم من الآلام.١٤٢

أما كنيسة الرسل المقدسين فقد أشار روبرت كلاري إلى أنها تقع فـــي أحـــد أحياء المدينة، وأن التسمية كانت تعني كنيسة الرسل السبعة، وهو خطـــأ يحســـب عليه١٤٣ناجم عن سوء سمعه ومن ثم فهمه للكلمة اليونانية panseptoi ، والتـــي تشبه في سماعها الرقم سبعه sept في الفرنسية.١٤٤ويسترسل حديثه عنها بقولـــه: "...يقال إنها أعظم وأروع من كنيسة القديسة صوفيا، ولا يستطيع أحد أن يقدر لك ثروة هذه الكنيسة أو يصور لك فخامتها"؛ ثم ينتقل لوصف الذخائر المقدســـة بهـــا والإشارة إلى قبري الإمبراطور قسطنطين الكبير وأمه هيلينا.١٤٥

ويختم روبرت كلاري حديثه عن كنائس المدينة بحديثه المقتضب عن كنيسة القديسة مريم، وكانت واحدة من العجائب على حد تعبيره. ويقول أن كنيسة القديسة مريم، قديسة البلاشيرن، كانت تحتفظ بالحنوط الذي كفن به السيد المسيح، والتي لا يعرفون أين ذهبت عقب دخول الصليبيين للمدينة.١٤٦

وتعتبر واحدة من محاسن روايته تكمن في اهتمامه، دون غيره من الكتاب الصليبيين، بالإشارة إلى الأيقونات، مثل أيقونة القديس ديمتريوس وأيقونات السيدة العذراء؛ الأمر الذي يعكس بدوره إحدى اهتمامات البيزنطيين ومعتقداتهم.١٤٧

وهكذا أنهى روبرت كلاري حديثه عن أربع فقط من كنائس القسطنطينية، غير أنه أشار إلى أحد الأديرة، دون ذكر اسمه، ولم يبرز من معالم ذلك الدير غير أن الإمبراطور مانويل كومنينوس دفن فيه؛ وأنه يحوي اللوحة الرخامية التي أرقدوا عليها المسيح حينما أنزلوه من على الصليب؛١٤٨وهذا الدير هو دير المسيح البانتوقراتور.١٤٩

ومن الملاحظ هنا على روبرت كلاري أنه لم يسهب في وصف القصور الإمبراطورية، بل كل ما أكد عليه هو ثراءها الفاحش والكنوز والثروات التي تحويها. وهذا يدفع الباحث لأن يضع علامة استفهام حول عدم تفصيله الحديث عنها. لكن ربما تكمن الإجابة في أن روبرت كلاري كواحد من عامة الفرسان وليس خاصتهم لم يكن مسموحاً له بزيارة القصور الإمبراطورية، التي استولى عليها السادة، وربما لو كان سيده بطرس داميان قد استولى على أحد هذه القصور لكان روبرت قد أسهب في وصفها، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، سنجد أنه يسهب في وصف بعض المنشآت المدنية العامة، كبوابات المدينة والأعمدة والتماثيل، وذلك لأن رؤيتها كان مباحاً لكل من يتجول بالمدينة. كما أن النزعة الدينية عند روبرت كلاري، التي تبدو في حرصه الشديد على وصف الذخائر المقدسة الموجودة بالكنائس، تشير إلى الوازع الديني عنده، كواحد من العامة؛ خاصة وأنه أخذ معه بعض الذخائر المقدسة من القسطنطينية عند عودته إلى فرنسا.١٥٠وهناك افتراض آخر ألا وهو محاولة فرسان الحملة الصليبية الرابعة، ممن كتبوا عنها، إبراز إلى أي مدى تمكن الصليبيون من فتح مدينة المال والجمال، وتحويل كنيستها المارقة إلى تابع للكنيسة الكاثوليكية في روما، أي للبابوية.١٥١وبهذا لا يكون البابا محقا في توقيع قرار الحرمان على زعماء هذه الحملة، جزاء تحويل مسارها وغزوهم للقسطنطينية بدلا من غزو مصر.١٥٢

بيد أن هناك عبارة وردت عند روبرت كلاري يفهم منها أنه لم ير الكنائس الأربع كلها، وذلك عندما يقول عن كنيسة الرسل المقدسين:" ...يُقال إنها أعظم وأروع من كنيسة القديسة صوفيا..."، وهذا يفيد إما أنه لم يزر كنيسة الرسل

المقدسين، أو أنه رآها بنفسه وسأل المرشدين المصاحبين له عنهـا مـن اللاتـين المقيمين بها،١٥٣فأجابوه بتلك الرواية المقتضبة المأخوذة بالطبع عن البيـزنطيين؛ على الرغم من أنها تلي كنيسة آيا صوفيا في الأهمية.١٥٤وهذا الأمر ينطبق علـى كنيسة القديسة مريم أيضاً. وعلى العكس نجده يسهب في الحديث عن كنيسـة آيـا صوفيا، مما يفيد أنه رآها بنفسه وتفحصها، وذلك ببساطة شديدة لأنها أبرز وأبهى معلم من معالم القسطنطينية، ولا يمكن لأي زائر جاء إلى المدينة أن يمضـي دون زيارتها. ويبدو أن الاحتمال الأخير هو الصحيح، لأن كلمات كلاري في أكثر مـن موضع تشير إلى أنه اعتمد على رواية البيزنطيين (اليونـانيين) فـي كثيـر مـن معلوماته، حتى لتبدو روايته بيزنطية (يونانية) الطابع.١٥٥وهذه النقطة الأخيرة تشير إلى وجود أدلاء أو مرشدين في القسطنطينية، سواء من اللاتين المقيمـين بهـا أو البيزنطيين، لاصطحاب الرحالة أو الزائرين في جولتهم بها، حيث نجـد الكاتـب المجهول من شمال تُرراجون، الذي كتب وصفه للقسطنطينية أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، يعتمد على رواية البيزنطيين في معلوماته عن معالم المدينة، التي ذهب إليها ليدرس اليونانية ويجمع الكتب؛ لذلك جاءت روايته متشابهه مع روايـة روبرت كلاري،١٥٦ولا يَفرقها عنها سوى أنها تخلو من العداء للبيزنطيين.١٥٧أمـا الأديرة فلم يتحدث كلاري عنها، اللهم إلا إشارته المقتضبة لأحد أديـرة المدينـة، ليبرز في روايته أن الإمبراطور مانويل، نصير اللاتين، مدفون به؛ على الرغم من أن المدينة وضواحيها كانت تزخر بمئات الأديرة والكنائس.١٥٨ فيذكر ابن رسته١٥٩ (القرن ١٠م) أن تعداد ما فيها من الكنائس أربع وعشرون (ألف) كنيسة وكنيسـة أخرى؛ ويضيف ابن بطوطة ١٦٠(القرن ١٤م) أن كنائس القسطنطينية لا تحصـى. ويذكر ابن الفقيه الهمذاني١٦١(القرن٩-١٠م) أن في القسطنطينية "مائتان وعشرون دير للراهبات". ويؤكد هذه الكثرة العددية روبرت كـلاري١٦٢بقولـه: "...والظـن عندي أنه لا يوجد أحد ما على وجه البسيطة يستطيع أن يعدد جميع أديرة المدينة، لكثرتها وكثرة من بها من الرهبان والراهبات، إلى جانب الكنائس الأخرى التي في خارجها؛ وقد قدر من بها من القساوسة والرهبان وغيرهم بثلاثين ألفا"؛ وهـو مـا يؤكده فلهاردوان أيضاً.١٦٣وهكذا، من المحتمل أن هذه الكثـرة العدديـة للكنـائس والأديرة إلى درجة يصعب معها إحصاؤها، تعتبر واحدة من أسباب اقتضاب رواية روبرت كلاري عنها. ويمكن إضافة أن افتقار الأديرة إلى البهاء والجمال الموجود

في الكنائس العامة كان سبباً في عدم إقبال المؤرخين الصليبيين على الكتابة عنها بالتفصيل، لاسيما وأنهم جاءوا إليها غزاة وليس حجاجاً. وأخيراً من المحتمل أن استيلاء السادة النبلاء على أغنى القصور وأثرى الكنائس والأديرة الواقعة في القسطنطينية دون الفقراء من عامة فرسان الحملة،١٦٤ كان سبباً في خروج رواية روبرت كلاري بهذا الشكل، واكتفائه بتسجيل ما سمعه أو رآه عن هذه الكنائس والأديرة، التي آلت إلى سادته من قادة الحملة.

وأخيراً ينبغي الإقرار بأن رواية كلاري عن معالم القسطنطينية تعتبر الأكثر تفصيلاً من غيره من الكتاب الصليبيين، على الرغم من بعض الأخطاء التي انزلق إليها كلاري واعتماده على روايات شفهية بيزنطية في كثير من الأحيان، جعلت وصفه للمدينة أشبه برواية مشتركة بينه وبين أهل المدينة.

على أية حال، ننتقل الآن إلى رواية جونتر الباريسي، كأحد معاصري الحملة الصليبية الرابعة،١٦٥ لنتفحص ما كتبه عن المدينة. كان جونتر الباريسي أحد الرهبان الألمان البندكتيين من دير باريس بالألزاس،١٦٦ ولد نحو عام ١١٥٠م؛ وقد وضع أربعة أعمال باللاتينية،١٦٧ ثلاثة منها تاريخية والرابع ديني.١٦٨ ومن هذه الكتب الأربعة ترك جونتر الباريسي كتاباً عن الغزو الصليبي لمدينة القسطنطينية، انتهى من كتابة الفصول الأربعة والعشرين الأولى منه قبل عام ١٢٠٥م، أما الفصل الخامس والعشرون فيبدو أنه كتب وأضيف إلى كتابه بعد ذلك التاريخ إما في عام ١٢٠٧م أو ١٢٠٨م.١٦٩ ولا نعرف على وجه التحديد لماذا أقدم جونتر على كتابة هذا المصنف التاريخي. غير أنه من المحتمل أنه كتبه بتكليف من مارتين Abbot Martin،١٧٠ رئيس دير باريس، الذي شارك الصليبيين في حملتهم،١٧١ وكان شاهد عيان على أفعالهم، ولا شك أنه كان المصدر الشفهي لجونتر الباريسي عن هذا الحدث، والبطل أيضاً في هذا العمل نصف الملحمي.١٧٢ ويبدو أن هدف مارتين من تكليف جونتر بوضع هذا الكتاب كان لتبرير مسألة قيامه بسرقة آثار القديسين والذخائر المقدسة من كنائس بيزنطية إبان الغزو الصليبي للمدينة، وهي العملية التي تتنافى مع وضعه الديني؛ حيث نلمس من عبارات جونتر محاولاته تبرير فعلة أبوت مارتين واعتبار أن غرضه مما قام به كان غرضاً نبيلاً وسامياً،١٧٣ وأنه لم يفكر في لمس الغنائم غير الدينية بيديه المقدستين؛١٧٤ خاصة وأن البابا أدان عمليات النهب التي قام بها البنادقة والصليبيون لكنائس

القسطنطينية.[175] لقد اعترف مارتين صراحة في مستهل الفصل التاسع عشر من كتاب جونتر أنه "بعد قيام الصليبيين بعمليات النهب والسلب في المدينة بسرعة، على أنها غنيمة تخصهم، بدأ يفكر في كيفية الحصول على ما يخصه من الغنيمة، خشية أن يخرج خالي الوفاض، في حين صار كل فرد ثرياً، ومن ثم عزم على إطلاق يديه المقدستين للسلب. وهكذا، بدأ يخطط في كيفية الحصول على نصيبه من آثار القديسين، التي كان يعلم أنها كانت هناك بكمية عظيمة".[176]ويبدو أن هذا العمل الذي قام به أبوت مارتين أبهج اللاتين عامة، حيث نستشف من عبارات أوتو من سان بلازين St. Blasien ، نحو عام ١٢٠٩م، ما يؤكد ذلك، حيث يقول: "... وهكذا، حُملت ثروات اليونان إلى أراض غربية عديدة، خاصة حُلي تلك الكنيسة الكبيرة التي بناها جستنيان منذ زمن، على شرف آيا صوفيا، وشُحنت بكميات عظيمة من الذهب وآثار القديسين، التي تبز بها هذه المدينة الشرق كله. وحملت هذه الذخائر بدرجة كبيرة إلى البندقية، وزخرت المناطق والمدن الأخرى بهذه الرفات والذخائر بدرجة عظيمة. وبالإضافة إلى هذا هناك رئيس دير بندكتي يدعى مارتين، من دير باريس، الذي يقع في الألزاس، ذهب في هذه الحملة، وشارك في العصف بالقسطنطينية، وحمل معه في عودته إلى وطنه جزءاً كبيراً جداً من الصليب واهب الحياة وآثار سيدنا المسيح الأخرى، علاوة على الكثير من رفات القديسين، المزينة بالذهب، والفضة، والأحجار الكريمة..."[177]

على أية حال، يشير جونتر الباريسي إلى أن مدينة القسطنطينية مدينة عظيمة ورائعة،[178]وبطبيعة الحال يؤكد على الثراء الذي كانت تتمتع به، حيث يذكر أن الصليبيين، على الرغم من أنه كان محرماً عليهم نهب المدينة قبل إتمام الاستيلاء عليها، تحت تهديد عقوبة الموت،[179] قد اكتشفوا هنا وهناك ثروة عظيمة جداً من الذهب والفضة، وكثيراً من الملابس والمجوهرات الرائعة، وكثيراً جداً من البضائع التجارية القيمة، وكميات عظيمة جداً من أدوات الطعام، والسلع المختلفة الأنواع التي كانت تزخر بها المنازل. ومن ثم تحول كل فرد من الصليبيين ليصبح ثرياً بين عشية وغداها.[180]

ويشير جونتر الباريسي أيضاً إلى طبوغرافية المدينة، حيث يقول أنها مثلثة الشكل، يمتد كل جانب من جوانبها نحو ميل كبير أو أكثر.[181]وعلى الرغم من اتفاقه مع وليم الصوري وأودو الدويلي حول شكل المدينة المثلث، إلا أنه أضاف

معلومة مهمة حول طول كل ضلع من أضلاع ذلك المثلث الجغرافي. بيد أن المعلومات التي يقدمها جونتر الباريسي ذات القيمة التاريخية المهمة عن المدينة إنما تتمثل في ثلاثة أشياء رئيسية هي: حديثه عن أسوار المدينة، ثم حديثه عن الأعمدة التي تزينها، وأخيراً حديثه عن ذخائرها الدينية المقدسة؛ والشيء الأخير يكاد ينفرد بتفاصيله جونتر الباريسي عن غيره.

وفيما يتعلق بالمنشآت العامة، فقد تحدث جونتر الباريسي عن أسوار المدينة١٨٢ وأبراجها فقد أشار إلى أن الجانب البري من القسطنطينية متصل بسور هائل وحائط قوي، له أبراج منيعة عالية على طول محيط المدينة، وكل برج قريب من الآخر لدرجة أنه يمكن لصبي ذو سبع سنوات أن يرمي تفاحة من برج لأخر.١٨٣ أما جانب الهلليسبونيت، ويقصد البحري، الذي يفصل الجانب الأسيوي عن الأوربي، فهناك أسوار شاهقة ذات سمك مدهش، مزودة بأبراج قريبة من بعضها البعض، وقد ارتفعت إلى مثل هذا الارتفاع الشاهق حتى يدب الرعب في كل من يلقي بنظره إلى قمتها.١٨٤ وهنا يحسب لجونتر ملاحظته الذكية حول سُمك الأسوار البحرية، والتي كانت تتطلب هذا السُمك لخروج قواعدها من شاطئ الدردنيل مباشرة، وبهذا تتمكن من مقاومة ملوحة مياه البحر؛ أما عن ارتفاع الأسوار الشاهق وقرب الأبراج من بعضها البعض، فقد كان شيئا يدهش كل من يمر بجوار المدينة أو يدخلها.

ومن معالم القسطنطينية الأخرى التي سجلها جونتر، نقلا عن مارتين، مشاهداته وملاحظاته عن الأعمدة التي كانت تزين المدينة، حيث يقول عن عمود ثيودوسيوس الكبير: "هناك شيء يستحق القول عن ذلك الهرم،١٨٥ الذي ألقي من فوقه ذلك الرجل،١٨٦والذي يطلق عليه الكثيرون مسمى عمود. وقد شيد من الأحجار الضخمة المرتبطة بشدة مع حديد متشابك؛ ويرتفع من قاعدة سميكة جداً، ومستدق بشكل تدريجي إلى نقطة على ارتفاع هائل؛ ويذكرون (أي البيزنطيون) أن أحد النساك كان مختبئا على قمته..."١٨٧وهكذا، إذا كان جونتر قد اتفق مع روبرت كلاري وفلهاردوان في حديثهما عن عمود ثيودوسيوس، إلا أن جونتر وكلاري قدما معلومات تكمل بعضها البعض، ولم يلتقيا سوى عند حديثهما عن المنحوتات التي صورت على العمود، وما دار حولها من أساطير ومعتقدات عند البيزنطيين. بيد أن جونتر يضيف على رواية كلاري في هذا الموضع أن البيزنطيين بعد أن

قارنوا ما على العمود من أحداث مصورة وبين ما وقع لهم، وأدركوا أن المنحوتات الموجودة على العمود إنما تشير إلى الغزو الصليبي للمدينة، قاموا بتحطيم هذه الصور المنحوته على العمودين بالأحجار والمطارق الحديدية، وشوهوها بدرجة عظيمة، معتقدين أنهم بهذه الطريقة يردون على الصليبيين طالع الشؤم.١٨٨

أما عن المعالم الدينية في القسطنطينية فقد أشار جونتر الباريسي إلى إحدى كنائس القسطنطينية، دون أن يذكر اسمها، بل أشار إلى أنها كانت كنيسة مبجلة بسبب أن أم الإمبراطور مانويل كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠م) اتخذت قبراً رائعاً فيها؛ كما أن البيزنطيين قد حفظوا فيها كنزاً كبيراً من المال، جمعوه من الريف المحيط بها، وحفظوا بها آثاراً ثمينة أحضرها البيزنطيون من الكنائس والأديرة المجاورة إلى هذه الكنيسة١٨٩؛وهذه الكنيسة هي كنيسة دير المسيح البانتوقراتور.١٩٠

وأخيرا نأتي إلى أهم ما سجله جونتر الباريسي عن القسطنطينية وهو مكانتها الدينية العالية بين المسيحيين، نظراً لما حوته من الآثار المقدسة ورفات القديسين، التي قال عنها مارتين أنها كانت هناك بكميات عظيمة.١٩١ ويقدم جونتر الباريسي تقريراً فريداً بأهم ذخائر المدينة المقدسة ورفات القديسين، التي كانوا يعتقدون فيها، ومن أهم هذه الآثار المقدسة والذخائر الدينية بقايا دماء للسيد المسيح محفوظة في وعاء مقدس، وأجزاء خشبية من الصليب المقدس، الذي صلب عليه السيد المسيح، وجزء معتبر من جمجمة القديس يوحنا المعمدان، وذراع للقديس جيمس الرسول، وآثار للشهيد كريستوفر، والشهيد جورج، والشهيد ثيودور، وجزء من المنضدة التي تناول عليها السيد المسيح العشاء الأخير، وأثر من المكان الذي أسر فيه السيد المسيح، وغير ذلك من الآثار الدينية المقدسة، والتي كانت محفوظة جميعها في كنيسة دير المسيح البانتوقراتور.١٩٢وهكذا يمكن القول أن جونتر الباريسي انفرد بتقديم معلومات قيمة دون غيرة عن أسوار القسطنطينية، وعن عمود ثيودوسيوس، وبعض الإشارات إلى كنيسة دير المسيح البانتوقراتور، وأخيراً خصص فصلاً من كتابه للحديث عن الآثار المقدسة والذخائر الدينية التي كانت المدينة مكتظة بها، والتي يمكن القول أن الذين اهتموا بها في المقام الأول رجال الدين المصاحبين للحملة الصليبية الرابعة أكثر من الفرسان والنبلاء، اللذين كان جلّ همهم مال القسطنطينية وذهبها.

وعلى عكس روايتيّ روبرت كلاري وجونتر الباريسي، نجد أن رواية فلهاردوان لم تقدم سوى القليل عن المدينة، بل لم تضف أكثر من مجرد إشارات فقط، يلفها الاعتراف بثراء وجمال المدينة؛١٩٣ وهذا عكس ما كان متوقعاً منه كفارس ومؤرخ وشاهد عيان على أحداث الحملة الصليبية الرابعة أوتي الفرصة لدخول المدينة. ويستشف من رواية فلهاردوان أن الصليبيين كانوا مندهشين من أسوار المدينة العالية، وأبراجها الشاهقة القوية، التي تحيط بها من كل الجوانب؛ كما كانوا في غاية الإعجاب من قصورها الثرية، وكنائسها الرائعة، التي يصعب إحصاؤها إلا لمن يراها بنفسه. وخلاصة القول أن القسطنطينية كانت في أعين الصليبيين سيدة المدن آنذاك، لم يروا جمالاً يوازي جمالها منذ خُلق العالم.١٩٤

وتتأكد دهشة الصليبيين من شدة ثراء قصور الأباطرة البيزنطيين عندما يروي فلهاردوان إلى أي مدى أعجبوا بالقصر الإمبراطوري الواقع قبالة القسطنطينية على الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى، عند خلقدونية، والذي كان واحداً من قصور الإمبراطور الكسيوس الرابع، ويقول عنه "كان القصر من أجمل وأروع ما يمكن أن تراه العين، حوى من البهجة ما قد يتمناه المرء، أو أنه قد يكون قصراً لأمير من الأمراء".١٩٥

وقد أشار فلهاردوان أيضاً إلى القصور الإمبراطورية الرئيسية في القسطنطينية، قصر بوكليون الإمبراطوري، وقصر البلاشيرن. غير أنه لم يسهب الحديث عنهما، واكتفى بالإشارة إلى حجم الثراء الذي كانا عليه، حيث يقول: "ركب المركيز بونيفاس دو مونتفرات وسار بطول الساحل حتى وصل إلى قصر بوكليون، الذي استسلم من فيه له...وإن المرء ليعجز عن وصف ما ضمه هذا القصر من ثروة هائلة، بلغت من ضخامتها حداً جاوزت معه الحصر وفاقت العدد". وعن قصر البلاشيرن يقول: "استسلم قصر البلاشيرن لهنري أخي بلدوين كونت الفلاندرز. وعثر في هذا القصر أيضاً على ثروة لا تقل في ضخامتها عن تلك التي عثر عليها في قصر بوكليون..."١٩٦

وإلى جانب هذا يشير فلهاردوان دون غيره من الكتاب الصليبيين محل البحث إلى الحي اليهودي بالقسطنطينية المسمى استانور Estanor،١٩٧ وكيف كان بالغ الروعة، وافر الثراء وكأنه مدينة صغيرة.١٩٨

ويتميز فلهاردوان أنه ذكر السلسلة١٩٩ التي كانت تسد فم خليج القسطنطينية، ممتدة من ميناء القسطنطينية حتى برج غلاطيا، لتمنع السفن الغريبة من المـرور عبر البسفور إلا بإذن من حراس برج غلاطيا. ولهذا كان الصليبيون حريصون كل الحرص على الاستيلاء على البرج والسلسلة حتى يتجنبوا الهـلاك علـى أيـدي البيزنطيين.٢٠٠

وإذا كان وليم الصوري قد أشار إلى الذخائر الدينية المقدسة، وزودنا جونتر الباريسي، دون غيره بتفاصيلها، والمحفوظة في القصور الإمبراطورية وكنـائس وأديرة المدينة، فإن فلهاردوان لم يفته الإشارة إلى هذه الكنوز الدينية أيضاً، حيـث قال عنها: "ولست أراني في حاجة إلى الكلام عما بها من الآثار المقدسة، فقد كـان بها يومذاك ما يوزاي الذي من هذه المخلفات الدينية في بقية العالم منها كلها".٢٠١

ومن اللافت للنظر أن فلهاردوان لم يصف كنيسة آيا صوفيا، وهـي أشـهر معلم ديني في القسطنطينية، غير أنه أشار إلى أن تتويج الأباطرة كان يـتم فيهـا، وفق التقليد البيزنطي، عندما ذكر تتويج مُرزفليوس إمبراطوراً بيزنطياً فيها.٢٠٢

وأخيراً يشير فلهاردوان إلى أحد الأعمدة الرخامية الشاهقة التي كانت تقع في وسط مدينة القسطنطينية، وهو عمود ثيودوسيوس، ويقول عنه: "أنه مـن أطـول وأحسن الأعمدة التي رأتها العين". وكان محفوراً عليه صوراً مختلفة، منها واحـدة تمثل إمبراطوراً يسقط منكس الرأس؛ حيث كانت هناك نبوءة قديمة تقول بأنه سوف يرمى من قمة هذا العمود أحد أباطرة القسطنطينية. ولعل ما حدا بفلهاردوان لـذكر هذا العمود دون غيره من أعمدة المدينة هو حادثة إعدام الإمبراطور مُرزوفليـوس رمياً من فوقه٢٠٣؛ وهي الحادثة التي سبق وأن سجلها روبرت كلاري أيضاً، بيـد أن الأخير ومعه جونتر الباريسي قدما كثيراً من التفاصيل عن ذلك العمود.٢٠٤

وهكذا، بدا جليا للقارئ أن غالبية الكتّاب الصليبيين جمعتهم صفة الانبهـار الشديد والإعجاب البالغ بحجم مدينة القسطنطينية وثرواتهـا ومنشـآتها، لاسـيما القصور والكنائس والأديرة. وهذا الهوس الذي أصابهم من بريقها الحضاري، الذي كانوا يفتقرون إليه في أوطانهم بغرب أوربا، جعلهم يحاولون النيل منها بكل السبل الشرعية أو غير الشرعية، حتى أسقطوها عام ١٢٠٤م في قبضتهم، وأشبعوا نهمهم بالاستيلاء على قصورها وكنائسها وثرواتها وذخائرها المقدسة.

لقد كانت لكل كاتب صليبي ظروفه الخاصة في رؤيته لمدينة القسطنطينية، فمن تمكن منهم في التجول بحرية في أرجائها فصل الحديث عن معالمها، ومن لم تتح له هذه الفرصة تناولها بين ثنايا مؤلفه بصفة عامة؛ وعلى هذا تفاوتت القيمة التاريخية لكتابات الصليبيين عن القسطنطينية من كاتب إلى آخر. بيد أن السؤال الذي يطرح نفسه في ختام البحث هو: هل لعبت النظرة العنصرية أو البربرية للصليبيين تجاه البيزنطيين دوراً مؤثراً في رؤيتهم للقسطنطينية وكتابتهم عنها؟

والإجابة على هذا التساؤل ربما تدفع الباحث إلى الحديث عن الشقاق الذي كان قائماً بين كنيستي روما وبيزنطة، والذي لا يمكن إغفاله كأحد بواعث البابوية في دفع الحركة الصليبية صوب الشرق. بيد أننا سنكتفي بالقول أن كلمات البابا في كليرمونت عام ١٠٩٥م جاءت بمثابة جواز المرور لأمراء أوروبا الإقطاعيين ليخرجوا للنيل من الشرق الحضاري بشقيه الإسلامي والبيزنطي، فكلاهما كان هرطوقا في الفكر الأوربي لاسيما الفكر الكنسي. بيد أن بيزنطة لم تكن لتعرف التواضع والتسامح بمفهومنا العربي تجاه الآخر، والمرتكز على أصول دينية؛ وهو الأمر الذي زرع الحقد في قلب أوربا الغربية تجاهها؛ والمتصفح لكتاب إدارة الإمبراطورية البيزنطية لقسطنطين بورفيروجنيتوس سيعي تماما قواعد بيزنطة في التعامل مع الآخر؛ حيث نظرت إلى معظم الشعوب الأخرى على أنهم برابرة، باستثناء الفرنجة.٢٠٤ ففي هذا الكتاب المهم يوضح قسطنطين بورفيروجنيتوس القواعد الدبلوماسية البيزنطية في التعامل مع الآخر٢٠٥وأولها: اتخاذها مبدأ فرق تسد؛ ثانيها: استخدام الهدايا والتحف والحلي الثمينة والملابس الفاخرة كرشاوي لزعماء القبائل أو الحكام لتأليب هذا الحاكم على ذاك، أو لتأليب هذه القبيلة على تلك؛ ثالثها: استخدام البعثات التبشيرية المسيحية في السيادة على بعض الشعوب؛ رابعاً: عدم السماح للأمراء الأجانب بالزواج من الأميرات البيزنطيات (على الرغم من حدوث بعض حالات زواج).

لقد ساهمت كل هذه العوامل، بالإضافة إلى رغبة بيزنطة في التفوق والسيادة السياسية والدينية على جيرانها، في تربص الأعداء بها، وتأهبهم على كل حد من حدودها للنيل منها. ولم يكن الصليبيون إلا بضع حبات في عقد أعداء بيزنطة، غير أنهم كانوا الأشد كرهاً لها، وهو ما تعكسه كلمات مؤرخيها الصليبيين عبر مدوناتهم التاريخية، بل وصل الحد بهم إلى اتهامها بالغدر والخيانة.٢٠٦وهنا يقول أودو

الدويلي أن فكرة الاستيلاء على القسطنطينية طرحت على الملك لويس السابع عند تواجده بالمدينة وكانت المبررات الدينية أن القسطنطينية مدينة مسيحية اسماً لا فعلياً، وأن أساقفة بيزنطة هراطقة.[٢٠٧] أما فلهاردوان فيقول عن البيزنطيين:"...هل سمعت عن شعب مذنب وغارق في الخيانة المروعة أكثر من هؤلاء!"[٢٠٨]، بل تشير كلماته في موضع آخر إلى نظرتهم لبيزنطة على أنها دولة مارقة ولابد من إعادتها إلى حظيرة روما، حيث يقول: "إن هؤلاء اليونانيين قد جاوزوا كل حد، وخرجوا عن طاعة كنيسة روما..."[٢٠٩] بل صار الوعد بالغفران البابوي مكافأة لكل من ينهض أو يستشهد لفتح القسطنطينية؛[٢١٠] وفي المقابل نظر البيزنطيون لقادة الحملات الصليبية بعين الاحتقار، وأنهم نوع غريب وبربري من البشر، حثالة يتكلمون لغة غير مفهومة، لا يتسمون بشيء سوى الجشع وسوء السلوك، ولديهم تيه بالنفس لا يحتمل.[٢١١]

على أية حال، ليس من المستبعد أن كل هذه العوامل أثرت على كتابات الصليبيين عن القسطنطينية، وأدت بالبعض منهم أن يهمشها، ربما عن عمد، في كتاباته عن الحركة الصليبية، برغم أنهم كانوا شهود عيان. ومع هذا لا يمكن إغفال التفاصيل التي قدمها أودو الدويلي أو روبرت كلاري أو جونتر الباريسي عنها.

ملحق رقم (١)

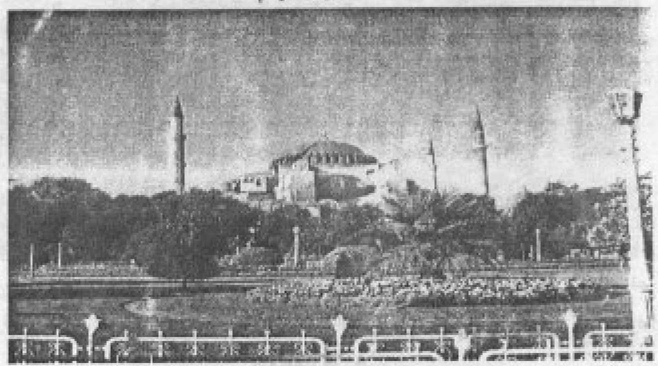
حصر بمعالم القسطنطينية من واقع الكتابات الصليبية

ع	الاسم	الكاتب الصليبي
١	الأديرة	روبرت كلاري
٢	الأسوار البرية	أودو الدويلي، جونتر الباريسي، فلهاردوان
٣	الأعمدة والنصب	جونتر الباريسي، روبرت كلاري، فلهاردوان
٤	الأيقونات	روبرت كلاري
٥	البوابات	روبرت كلاري
٦	التماثيل	روبرت كلاري
٧	الحدائق	أودو الدويلي
٨	الحي اليهودي	فلهاردوان
٩	سلسلة فم الخليج	فلهاردوان
١٠	سوق الصيارفة	أودو الدويلي، روبرت كلاري
١١	قصر البلاشيرن	وليم الصوري، أودو الدويلي، روبرت كلاري، جونتر الباريسي.
١٢	قصر الكسيوس بخلقدونية	فلهاردوان
١٣	قصر بوكليون الإمبراطوري	وليم الصوري، روبرت كلاري
١٤	القصور الخاصة	وليم الصوري
١٥	كنيسة الرسل المقدسين	روبرت كلاري
١٦	كنيسة القصر الإمبراطوري	روبرت كلاري
١٧	كنيسة آيا صوفيا	أودو الدويلي، روبرت كلاري، جونتر الباريسي
١٨	كنيسة دير المسيح البانتوقراتور	جونتر الباريسي
١٩	كنيسة سان جورج	وليم الصوري
٢٠	كنيسة سان ماري	روبرت كلاري
٢١	كنيسة قوزماس وداميانوس	وليم الصوري
٢٢	مساكن الفقراء	أودو الدويلي
٢٣	الهيبودروم	وليم الصوري، روبرت كلاري
٢٤	رفات القديسين والذخائر المقدسة	وليم الصوري، جونتر الباريسي، روبرت كلاري، فلهاردوان

ملحـق رقـــم (٢)

اللوحـــات*

اللوحة رقم ١



كنيسة آيا صوفيا والتي تعرف الآن باسم متحف آيا صوفيا باستانبول

اللوحة رقم ٢



أحد مداخل كنيسة آيا صوفيا الرئيسية

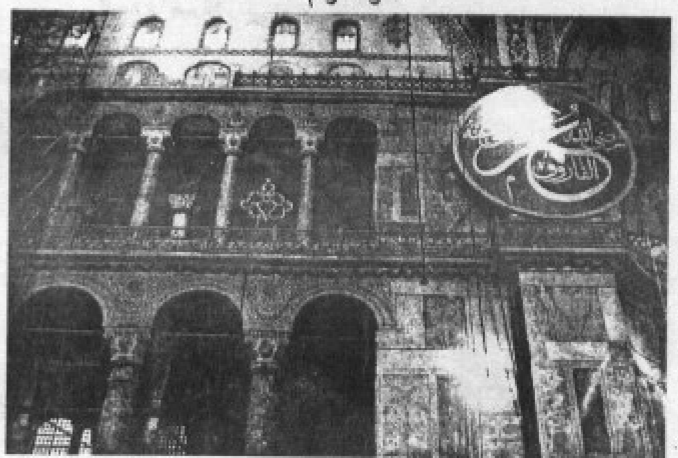
* هذه اللوحات مأخوذة من الموقع التالي: www.patriarchate.org/ecumenical_patriarchate

اللوحة رقم ٣



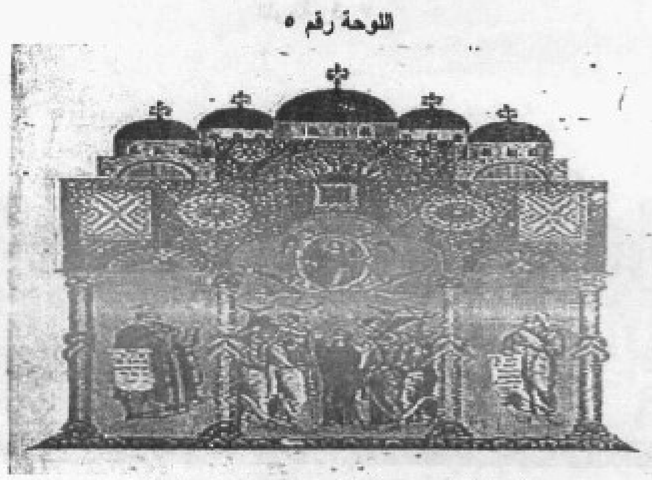
لوحة من الموزايك المذهب تمثل السيدة العذراء في الوسط تحمل السيد المسيح وعن يمينها الإمبراطور يوحنا كومنينوس وعن يسارها الإمبراطورة ايرين، منظر داخلي من آيا صوفيا

اللوحة رقم ٤



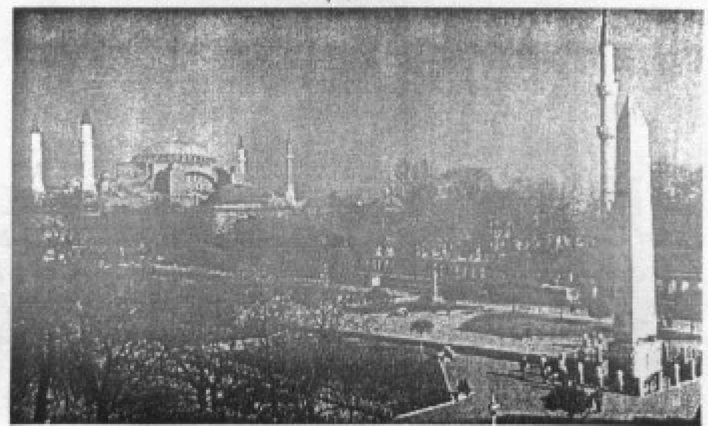
منظر داخلي يمثل جانبا من الأعمدة الرخامية التي تحمل قباب آيا صوفيا

اللوحة رقم ٥



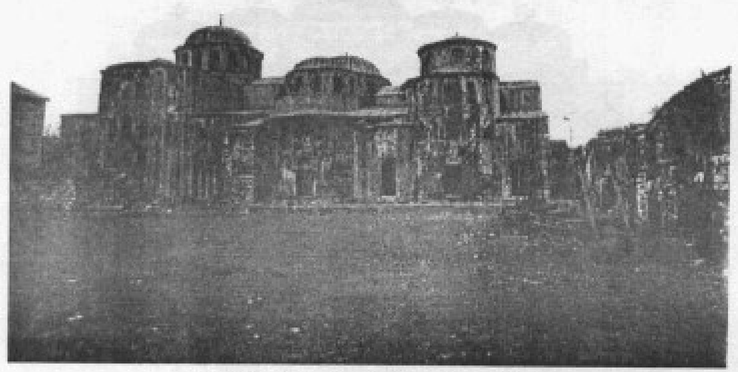
كنيسة الرسل المقدسين، مأخوذة عن إحدى المخطوطات اليونانية

اللوحة رقم ٦



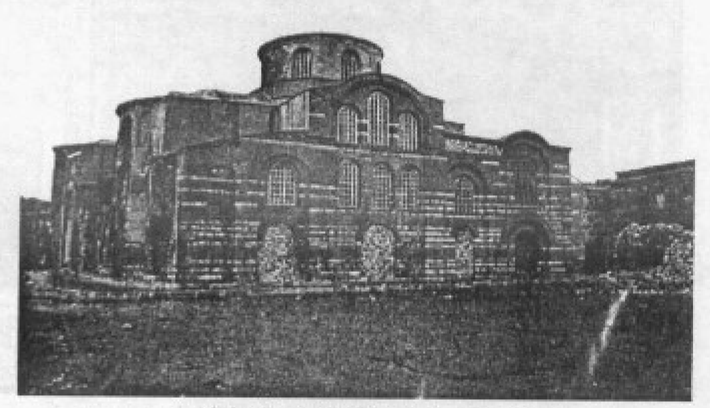
منظر يجمع بين ساحة الهيبودروم، حيث يظهر عمود قسطنطين، وآيا صوفيا

اللوحة رقم ٧



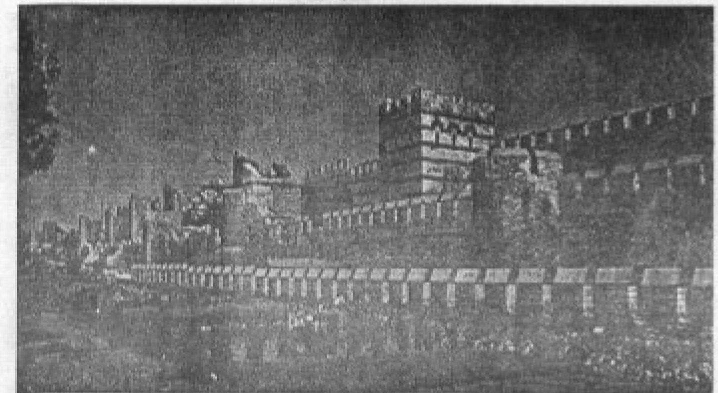
بقايا دير المسيح البانتوقراتور بالقسطنطينية

اللوحة رقم ٨



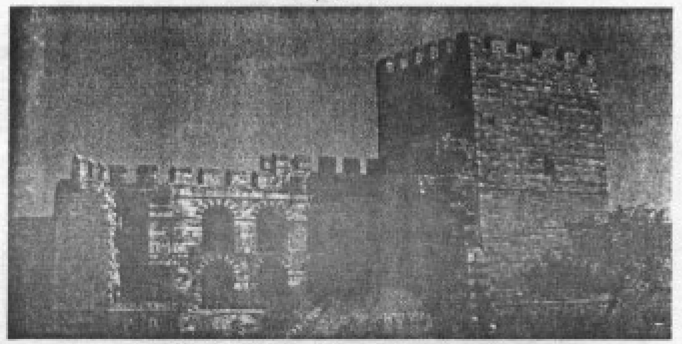
كنيسة دير المسيح البانتوقراتور بالقسطنطينية

اللوحة رقم ٩**



جزء من الأسوار البرية لمدينة القسطنطينية

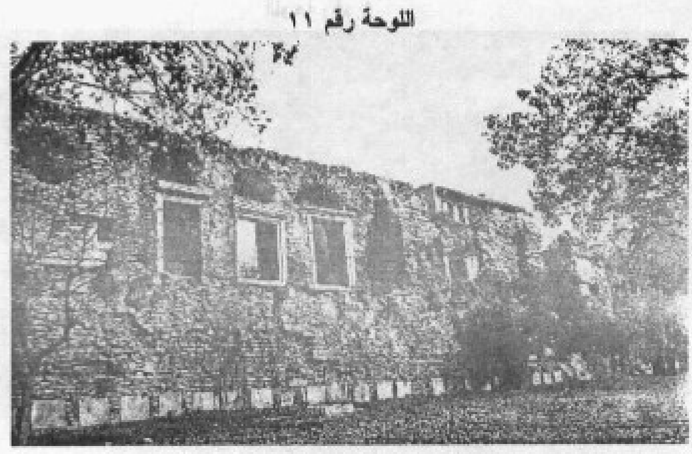
اللوحة رقم ١٠



أحد الأبراج الرخامية لأسوار القسطنطينية

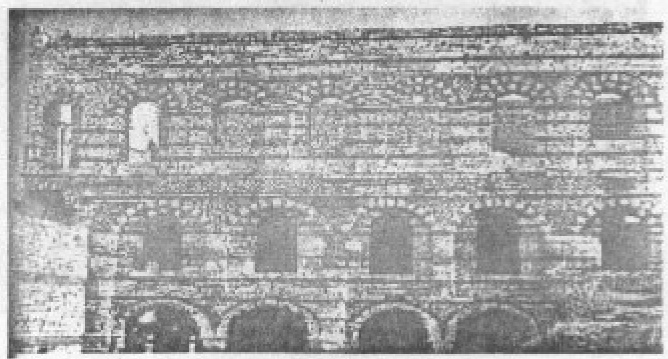
** اللوحات من ٩-١١ مأخوذة عن الموقع التالي: http://www2.arch.uiuc.edu/research/rgouste

اللوحة رقم ١١



جزء من قصر بوكليون الإمبراطوري

اللوحة رقم ١٢*

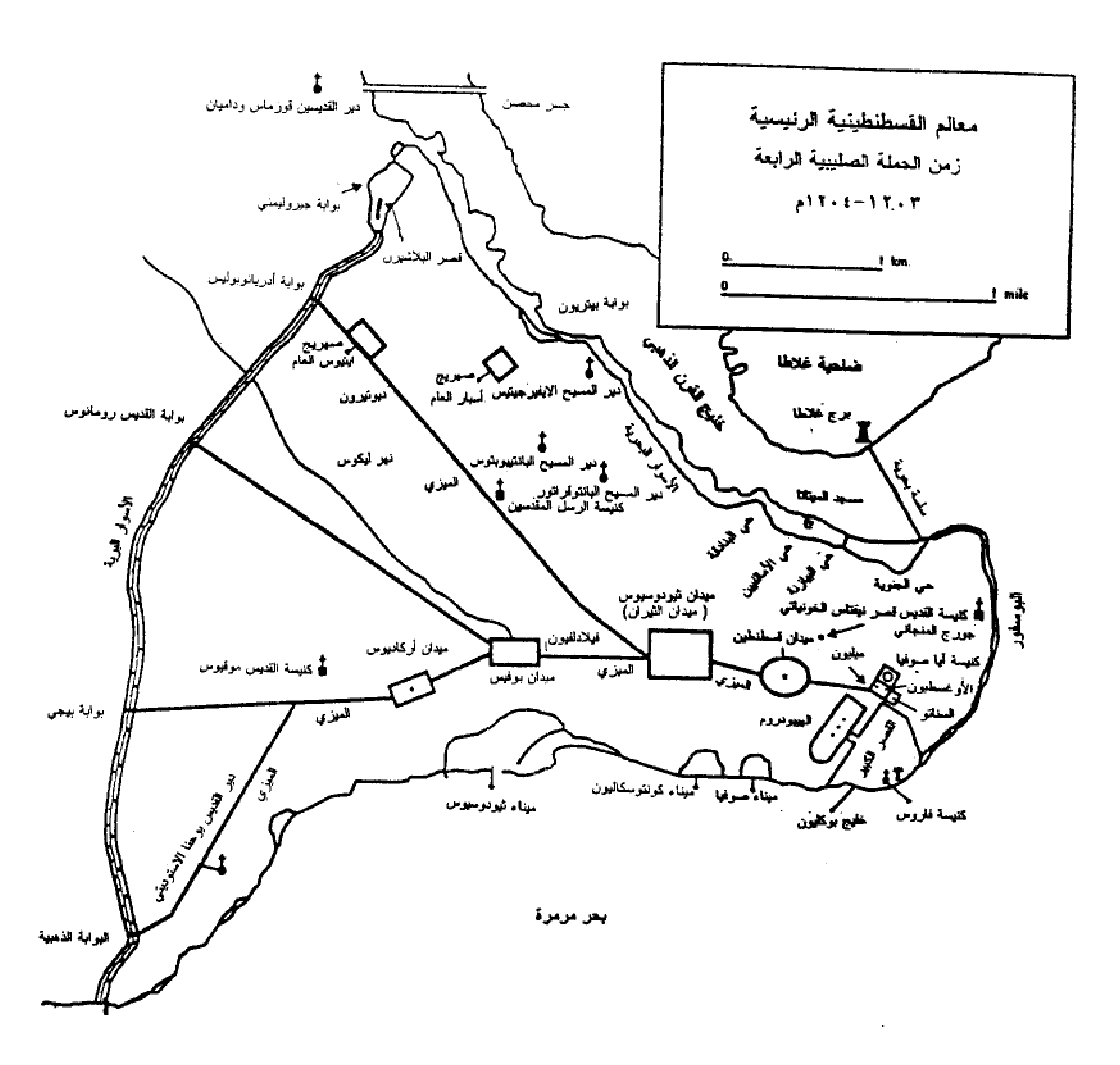


جزء من القصر الإمبراطوري بالقسطنطينية

* نقلا عن الموقع التالي: http://www.fstav.tripod.com/english.html

ملحق رقم (٣)

خريطة بمعالم القسطنطينية زمن الحملة الصليبية الرابعة



نقلا عن: Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, p.110.

الحواشي :

1 هناك عـــدد مـــن الدراســـات المهمـــة عـــن القســـطنطينية: R. Guilland, *Études de topographie de Constantinople byzantine* (Amsterdam, 1969); R. Janin, *Constantinople byzantine* (Paris, 1950); Idem, *Les églises et les monastères des grands centres byzantins* (Paris, 1971), 298-341; G. Majeska, "The Body of St. Theophano the Empress and the Convent of St. Constantine", *Byzantinoslavica* 38(1977), 14-21; C. Mango. *Studies on Constantinople* (Aldershot, 1993).

2 تجدر الإشارة إلى أن هناك دراسة باللغة العربية تتناول القسطنطينية في الفترة السابقة علـــى البحث قدمتها الباحثة نجلاء مصطفى شيحة، بعنوان "مدينة القسطنطينية فـــي القـــرن العاشـــر الميلادي"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٩، وهي عبـــارة عن موسوعة تاريخية لهذه المدينة في تلك الحقبة.

3 سوف تقتصر هذه الدراسة على الكتاب الصليبيين الذين، إما زاروا المدينة بالفعـــل أو كتبـــوا عنها؛ وبهذا سيتخطى الباحث رهط من الكتاب الصليبيين، الذين أرخوا للحمـــلات الصـــليبية، لاسيما من الأولى إلى الرابعة، غير أنهم لم يتعرضوا للحديث عن المدينة.

4 ولد وليم الصوري في مدينة بيت المقدس عام ١١٢٨م تقريبا، كواحد من أبناء الجيـــل الثـــاني الصليبي الجديد في الشرق. تلقى تعليمه الأول في بيت المقدس، غير أنه عند بلوغه سافر إلى باريس، كعبة العلم آنذاك في الغرب، ودرس بها كما درس ببولونيا. وبعد عودتـــه فـــي عـــام ١١٦٣م إلى فلسطين أصبح رئيسا لشمامسة كنيسة صور عام ١١٦٧م. وفـــي عـــام ١١٦٨م أرسله الملك عموري في بعثة دبلوماسية إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينـــوس؛ كمـــا ذهب في بعثة أيضا إلى روما. وبعد عودته أصبح وصيا على بلدوين الرابع، الذي صار ملكـــا على بيت المقدس فيما بعد عام ١١٧٣م. وقد أصبح وليم رئيسا لأساقفة صور في عام ١١٧٥م. وقد توفي عام ١١٨٦م. انظر: السيد الباز العريني، مؤرخو الحـــروب الصـــليبية (القـــاهرة، ١٩٦٢)، ص ٩٩-١٥٢؛ August C. Krey, "William of Tyre", *Speculum* 16(1941), 149-66.

5 كان أودو الدويلي راهبا في دير القديس دينيس St. Denis، وقد أتي من دويل Deuil، الواقعة في وادي مونتمورينسيMontmorency. وفي عام ١١٤٧م التحق بالملك لويس السابع، ملك فرنسا، في الحملة الصليبية الثانية على الشرق. انظـــر: Odo of Deuil, *De profectione Ludovici VII in Orientem,* ed. and Eng. trans. V. G. Berry (New York, 1948), xiv-xv.

6 عن الحملة الصليبية الرابعة انظر الدراسات الحديثة التالية: هانس مـــاير، تـــاريخ الحـــروب الصليبية، ترجمة وتعليق عماد الدين غانم، منشورات مجمـــع الفـــاتح للجامعـــات (طـــرابلس، ١٩٩٠)، ٢٧٧-٣٠٠؛ ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القـــرن الحـــادي

عشر- القرن الرابع عشر، ترجمة بشير السباعي (القاهرة، ٢٠٠٣)، ص ٢٠٢-٢١٨؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢ (القاهرة، ١٩٦٣)، ص ٩٢٩-٩٤٠؛ اسمت غنيم، الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية (الإسكندرية، ١٩٨٢)؛ عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى (دمشق، ١٩٨٠)، ص ٢٩٤-٣١٣؛ ليلى عبد الجواد، السياسة الخارجية للملكة اللاتينية في القسطنطينية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٠، ص ١-٥١؛
E. Pears, *The Fall of Constantinople being the Story of the Fourth Crusade* (new York, 1975); J. Jill, *Byzantium and the Papacy 1198-1400* (New Jersey, 1979), 9-47; D. E. Quller and T. F. Madden, *The Fourth Crusade: the Conquest of Constantinople* (Philadelphia, 1997); J. Harris, *Byzantium and the Crusades* (London, 2003), 145-163.

7 E. M. Langille, "La Constantinople de Guillaume de Tyr", *Byzantion* LXIII(1993), 178.

8 لقد حدا هذا بالمؤرخ الفرنسي ميشيل كابلان إلى أن يعنون أحد كتبه باسم:
M. Kaplan, *Tout l'or de Byzance* (Paris, 1998).

9 انظر الكتاب المهم الذي قدمه سيجّار عن الرحالة الغربيين إلى القسطنطينية، والذي يؤكد فيه هذه الحقيقة. K.Ciggaar, *Western Travellers to Constantinople, the West and Byzantium, 962-1204: Cultural and Political Relations* (Leiden, 1996), 45-77.

10 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية على أيدي الصليبيين، ترجمة وتقديم حسن حبشي (القاهرة، ١٩٦٤)، ص ١٢٣؛ Robert of Clari, *The Conquest of Constantinople,* Eng. trans. E. H. McNeal (Toronto, London,, 1936), repr. 1996, 101. تتردد نفس العبارات أيضاً في رواية الراهب المجهول من شمال تَرراجون Tarragon عن القسطنطينية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، والذي كتب معتمدا على روايات البيزنطيين الشفهية له عند زيارته للمدينة. انظر: K. Ciggaar, "Une description de Constantinople dans le *Tarragonensis* 55", *Revue des Études Byzantines* 53(1995), 119, 120, 121, 122.

11 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٣٢؛ *Robert of Clari,* 112.

12 Ciggaar, *Western Travellers*, 46.

13 Stephen of Novgorod, *The "Wonderer" of Stephen of Novgorod,* in *Russian Travelers to Constantinople in the Fourteenth and Fifteenth Centuries*, Eng. trans. G. Majeska (Washington, D. C., 1984), 44.

14 R. Macrides, "Constantinople: the Crusaders' Gaze", in (ed.) R. Macrides, *Travel in the Byzantine World, Papers from the Thirty-fourth Symposium of Byzantine Studies, Birmingham, April 2000* (Aldershot, 2002), 195-196.

15 عن كنائس القسطنطينية انظر الدراسات المهمة التالية: J. Ebersolt et A. Thiers, *Les églises de Constantinople* (Paris, 1913); idem, *Sainte-Sophie de Constantinople, étude de topographie d'après les cérémonies* (Paris, 1910); C. Mango and J. Parker, "A Twelfth Century Description of St. Sophia", *Dumbarton Oaks Papers* 14(1960), 233-245;Ciggaar,*Une description de Constantinople dans le Tarragonensis*, 117-140.

16 أنشأ الإمبراطور قسطنطين العظيم هذه الكنيسة مع إنشائه لمدينة القسطنطينية، وكانت مبنـــى متواضعا يختلف عن الذي شيده جستنيان في القرن السادس الميلادي. وقد احترقــت مـــرتين واحدة في القرن الخامس الميلادي والثانية في القرن السادس الميلادي، إلى أن أعاد جســتنيان بنائها بالفخامة التي عليها حتى الآن. وكان يربط بينها وبـــين القصـــر الإمبراطـــوري رواق خشبي، يرتاده الإمبراطور وحاشيته عند الذهاب إليها للصلاة أو الاحتفالات. انظـــر: أومـــان، ش.، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بـــدر (القـــاهرة، ١٩٥٣)، ص ٢٣؛ A. Cameron, "Procopius and the Church of St. Sophia", *The Harvard Theological Review* 58(Cambridge, Mass., 1965), 161-163. انظـــر أيضـــا اللوحات رقم ١، ٢، ٣، ٤.

17 انظر اللوحة رقم ٥.

18 Ciggaar, *Western Travellers*, 48.

19 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص١٢٩؛ *Robert of Clari*, 107-108.

20 Ciggaar, *Western Travellers*, 47.

21 Odo of Deuil, *De profectione* , 69.Cf. also Ciggaar, *Western Travellers*, 50-51.

22 Odo of Deuil, *De profectione* , 67.

23 نشر روايته اللاتينية ســيجّار، K. Ciggaar, "Une description de Constantinople traduite par un pèlerine Anglais du XIIe siècle", *Revue des Études Byzantines* 34(1976), 211-267.

24 Ciggaar, *Western Travellers*, 48.

25 كان جونتر الباريسي أحد الرهبان الألمان البندكتيين من دير باريس بالألزاس، ولد نحو عام ١١٥٠ من الذين كتبوا عن الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية من واقع شـــهود عيـــان. انظـــر: Gunther of Pairis, *The Capture of Constantinople, The Hystoria*

Constantinopolitana, ed. and trans. A. J. Andrea (Philadelphia, 1997), 130-131.

26 انظر بصفة خاصة الفصلين التاسع عشر والخامس والعشرين من مؤلفه.

27 كان جودفري فلهاردوان من أسرة فرنسية نبيلة، عرفت باسم "فلهاردوان" نسبة إلى قلعة بهذا الاسم في إقليم تروي في شمبانيا بفرنسا. ونظرا لأن أباه كان نبيلا إقطاعيا فقد نشأ جودفري نبيلا أيضا. ومن المحتمل أنه ولد فيما بين ١١٥٠-١١٥٤م أو ربما ١١٦٠م. اشترك جودفري فلهاردوان في الحملة الصليبية الرابعة، كأحد اتباع الكونت ثيبوت، كونت شمبانيا؛ وقد أرخ لها كشاهد عيان، مما أعطى أهمية كبيرة لعمله التاريخي عن "فتح القسطنطينية". وكان فلهاردوان ذا مكانة عند سيده ثيبوت، أهلته لتولي بعض المهام الدبلوماسية والسياسية؛ كما أهلته لتولي بعض المفاوضات مع البنادقة عند إكري، وكذلك ليكون ضمن الوفد المفاوض للإمبراطور البيزنطي اسحق كومنينوس. لمزيد من التفاصيل عن جودفري فلهاردوان ومكانته التاريخية ضمن مؤرخي الحروب الصليبية انظر: فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ترجمة وتعليق حسن حبشي (جدة، ١٤٠٣هـ)، ص ١١-١٥؛ بيريل سمالي، المؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم (القاهرة، ١٩٨٤)، ص ١٤٨-١٥١.

28 لا توجد معلومات كافية عن روبرت كلاري، برغم أنه كان أحد المشتركين في الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية ١٢٠٤م، وشهد بنفسه سقوط المدينة في أيديهم. ولعل مرجع ندرة المعلومات عن روبرت كلاري ترجع إلى أنه كان من أبناء الطبقة الشعبية المشاركة في الحملة، ومن ثم لم يرق إلى المكانة التي قد تؤهله للعناية الجديرة به. وقد أسهم كلاري في الحملة تحت لواء بطرس داميان Pierre d'Amiens. وقد نعت روبرت بكلاري نسبة إلى الناحية التي جاء منها وهي ناحية Clery les Pernois ، بل إنه سمى نفسه بهذا الاسم في مذكراته عن الحملة. كانت هذه الإقطاعية الصغيرة في حوزة أبيه جيلو Gilo من قبل، إذ كان فصلاً إقطاعيا لبطرس داميان، ولم تكن فصيلته بالتي ترقى به إلى المكان الأعلى. لمزيد من التفاصيل انظر: روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ٢٣-٢٤؛

Robert of Clari, 3-7; Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze*, 198.

29 كان فوشيه الشارتري واحداً من رجال الدين الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى، فقد كان القس الخاص ببلدوين الأول حاكم الرها من عام ١٠٩٨-١١٠٠م، وأول ملك صليبي لبيت المقدس من عام ١١٠٠-١١١٨م. واستقر فوشيه أو فوشيه من شارتر كما يذكر عن نفسه، بالقدس منذ نهاية عام ١١٠٠ وحتى عام ١١٢٧م على أدنى تقدير. ويميز كتاب فوشيه الشارتري، ليس أنه شاهد عيان فحسب، بل لأنه فصل علاقات مملكة بيت المقدس بجيرانها المسلمين بمصر والشام، مما أدى لاعتماد وليم الصوري عليه بصورة جزئية. بيد أن رائحة العداء في كتابه تفوح منه، حيث ينعتهم بأفظع الألفاظ التي هم منها براء. والتاريخ الذي كتبه فوشيه هو المؤلف الوحيد الذي كتبه مستوطن فرنجي محلي يغطي كل الفترة التكوينية الباكرة التي أعقبت الحملة الصليبية الأولى. لمزيد من التفاصيل عنه انظر: فوشيه الشارتري،

الاستيطان الصليبي في فلسطين: تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة ودراسة وتعليق قاسم عبده قاسم (القاهرة، ٢٠٠١)، ص ٢٣-٧١.

30 Fulcher of Chartres, *A History of the Expedition to Jerusalem 1095-1127*, ed. H. S. Fink, Eng. trans. F. R. Ryan (Knoxville, 1969), 79.

انظر أيضا: فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ص ٩٦-٩٧.

31 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٣٠-١٣٣؛ *Robert of Clari,* 109-112.

32 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٦؛ *Robert of Clari,* 105.

33 Villehardouin, *The Conquest of Constantinople*, in: Joinville & Vellehardouin, *Chronicles of the Crusades*, Eng. trans. M. R. B. Shaw (Penguin books, n.d.), 58-59.

انظر أيضا: فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ٨٩.

34 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,* 194.

35 Fulcher of Chartres, *A History of the Expedition to Jerusalem*, 78.

انظر أيضا: فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ص ٩٦.

36 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٦؛ *Robert of Clari,* 105.

37 Ciggaar, *Western Travellers*, 47.

38 انظـــر: ولـــيم الصـــوري، ج٤، ص ١٠٠-١٠٢؛ William Archbishop of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea,* Eng. trans. E. W. Babcock and A.C. Krey, II (New York, 1943), 348-349.

39 Ebersolt, *Constantinoiple byzantine*, 32-33.

40 Ciggaar, *Western Travellers*, 51.

41 يطلق عليه أيضا اسم القصر الكبير أو القصر المقدس. انظـــر: Janin, *Constantinople byzantine,* 107.

42 أنشأ الإمبراطور مارقيان وزوجته بولخيريا هذا القصر في البلاشيرن للراحة أو التقاعد به. انظر: Janin, *Constantinople byzantine,* 124.

43 J. Ebersolt, *Constantinoiple byzantine et les voyageurs du levant* (Paris, 1918), 38-40.

44 Ebersolt, *Constantinoiple byzantine*, 33-36.

45 Ciggaar, *Une description de Constantinopl,* 244; Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,*193.

46 نقلا عن: عبد العزيز رمضان، العلاقات البيزنطية اللاتينية في عهد الإمبراطـــور مانويـــل الأول كومنينوس ١١٤٣-١١٨٠م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعـــة عـــين شمس، ٢٠٠٠، ص ١٠٤.

47 ولد يوحنا تزتزس حوالي عام ١١١٠م، وتوفي فيما بين عامي ١١٨٠ و ١١٨٥م. وقد ولد لأم جورجية وأب بيزنطي.وبرغم أن جده لبيه كان غنيا فقد كان تزتزس سيئ الحظ. كان تزتزس من الشعراء البيزنطيين الذين عاشوا في القرن الثاني عشر الميلادي؛ حيث ترك خلفه عددا من الأعمال الأدبية. انظر: Sv. Tzetzes, *ODB*, III (Oxford, 1992), 2136.

48 A. Kažhdan & A. Epstein, *Change in the Byzantine Culture in the 11th Century* (London, 1985), 259-260.

49 عن الحملة الصليبية الأولى انظر الدراسات الحديثة التالية: قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥-١٠٩٩م (القاهرة، ١٩٨٣)؛ سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (القاهرة، ١٩٧٦)، ص ٧-٢٢٧؛ علية الجنزوري، الحروب الصليبية:المقدمات السياسية (القاهرة، ١٩٩٩)، ص ٢٤٥-٢٩٦؛ هـ. ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٣-٩٥؛ س. رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ج١ (بيروت، ١٩٨١)، ص ١٣٥-٤٨٣؛ ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص ٤٥-٩٦؛ Harris, *Byzantium and the Crusades*, 53-93.

50 Fulcher of Chartres, *A History of the Expedition to Jerusalem*, 78.
انظر أيضا: فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ص ٩٦.

51 كان المؤلف المجهول أحد شهود العيان للحملة الصليبية الأولى. ويبدو أنه كان ينتمي إلى أسرة نورمانية استقرت في جزيرة صقلية بعد غزو النورمان لها، وانضم إلى الفرقة الصقلية تحت قيادة بوهيموند النورماندي، الذي كان ابنا غير شرعي صقلي-نورماني آخر، أي أن بوهيموند كان سيده. ويعتبر كتابه المسمى "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس" رواية شاهد عيان على أحداث الحملة الصليبية الأولى. ويبدو أن الكاتب بدأ في كتابة مذكراته أثناء تواجده مع الصليبيين في أنطاكية. ومن المحتمل أن يكون قد مات عام ١٠٩٩م، عقب انتصار الصليبيين عند عسقلان. انظر: سمالي، المؤرخون في العصور الوسطى، ص ١٣٧-١٤٢.

52 *Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum*, ed. & Eng. trans. R. Hill (London, 1962), 3.
انظر أيضا: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتعليق حسن حبشي (القاهرة، ١٩٥٨)، ص١٩ .

53 عن تفاصيل الحملة الصليبية الثانية انظر أيضا: وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، ج٣ (القاهرة، ١٩٩٤)، ص ٢٢٩-٣٧٥؛ ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٤٣-١٦٠؛ س. رنسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ج٢ (بيروت، ١٩٦٨)، ص ٣٩٧-٦٤٨؛ ميشيل بالار، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، ص

١٨٣-١٩١؛ السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج١ (القاهرة، ١٩٦٣)، ص ٥٤٤-٥٧٤؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٦٢١-٦٤٤.

54 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze*, 194.

55 Odo of Deuil, *De profectione*, 69.

56 عن تأثير فرجيليوس على الثقافة الأوربية ورؤيتهـا للبيـزنطيين [اليونـانيين] انظـر: M. Carrier, *L'image du Grec selon les chroniqueurs des croisades: perceptions et reactions face au cérémonial byzantin 1096 à 1204,* Unpublished MA. thesis, University of Sherbrooke (June 2000), 40-44.
See also:
www.callisto.si.usherb.ca/~croisade/Byzance.htm

57 Odo of Deuil, *De profectione* ,27.

58 Odo of Deuil, *De profectione* , 75.

59 Odo of Deuil, *De profectione*, 63.

60 Odo of Deuil, *De profectione* , 65.

61 Odo of Deuil, *De profectione*, 49.

62 الاستامينا مصطلح شعبي استخدمه البيزنطيون للإشارة إلى العملة، لاسيما العملة النحاسـية التي كانت متداولة آنذاك، والتي من المحتمل أن مانويل كومنينوس قام بسـكها، علـى أثـر الصعوبات المالية التي مرت بعهده. انظر: Odo of Deuil, *De profectione* , 40, n. 1, 41.

63 Odo of Deuil, *De profectione* , 41, 67.

64 كانت القسطنطينية محاطة بعدد من الأسوار البرية والبحرية لحمايتها، تعود إلى عـدد مـن الأباطرة. وكانت الأسوار البرية ثلاثية ومزودة بعدد من الأبراج الشاهقة وخندق مائي؛ ويقـع على بعد ٤٠ ميلا غرب القسطنطينية سور انستاسيوس الطويل. عن أسوار القسطنطينية انظر:
A. Van Millingen, *Byzantine Constantinople, the Walls of the City and Adjoining Historical Sites* (London, 1899); G. Baker, *The Walls of Constantinople* (New York, n.d.). M. Whitby, "The Long Walls of Constantinople", *Byzantion* 55(1985), 560-583; Janin, *Constantinople byzantin,* 245-282.

انظر أيضا: ابن خرداذبه، المسالك والممالك (بغداد، د.ت.)، ص ١٠٤-١٠٥؛ الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق (القاهرة، د.ت.)، ص ٧٣-٧٤؛ قدامة بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج، ملحق على كتاب المسالك والممالك (بغداد، د.ت.)، ص ٢٥٧؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣ (بيروت، ١٩٨٤)، ص ٩٨؛ طارق منصور، الجيش فـي الإمبراطوريـة

البيزنطية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية آداب بنهـا، جامعـة الزقـازيق، ١٩٩٣، ص ٢١٥-٢١٧.

65 عن حدائق القسطنطينية انظر الدراسـات التاليـة: A. Littlewood, "Gardens of the Palaces", in *Byzantine Court Culture from 829 to 1204*, ed. H. Maguire (Washington, D.C., 1997), 13-38; H. Maguire, "Gardens and Parks of Constantinople", *Dumbarton Oaks Papers* 54(2000), 251-264.

66 Odo of Deuil, *De profectione*, 49.

67 يشير أودو إلى أن أسقف لانجرLangres أشار على لويس السابع بالاستيلاء على المدينـة، مستغلين ضعف أسوارها، التي انهار جزء كبير منها أمام أعينهم. مشيرا إلـى أنـه لـو تـم الاستيلاء على هذه المدينة فلا حاجة لفتح غيرها. فالقسطنطينية مسيحية اسما فقط، وليس فعليا. وقد قدم مبررات غير ذلك منها سلوك البيزنطيين نحو الحملة الصليبية الأولى ومسألة المـدن. وهذا يشير إلى أن فكرة استيلاء الصليبيين على القسطنطينية كانت مبكرة عن الحملة الصليبية الرابعة، وأن فكرة خيانة بيزنطة للقضـية الصـليبية كانـت ماثلـة فـي أذهـانهم. انظـر: Odo of Deuil, *De profectione* , 69 ff.

68 انظر الخريطة الملحقة بالبحث Odo of Deuil, *De profectione* , 65.

69 عـن شـوارع القسـطنطينية انظـر: A. Berger, "Streets and Public Spaces in Constantinople", *Dumbarton Oaks Papers* 54(2000), 161-172.

70 Odo of Deuil, *De profectione*, 65.

71 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,* 196.

72 Odo of Deuil, *De profectione* , 65, 67.

73 Odo of Deuil, *De profectione*, 67; I. Cinnamus, *Epitome Historiarum*, ed. I. Bekker, *CSHB*, II (Bonn, 1836), 17. Cf. also Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,* 194.

74 انظر: Odo of Deuil, *De profectione*, 27, 59, 61; Carrier, *L'image du Grec,* 133-136, 192, 193.

75 تتطابق هذه الملابس مع رداء الاسكارامنجيون البيزنطي. انظـر: N. Kondakov, "Les costumes orientaux à la cour byzantine", *Byzantion* 1(1924), 13; Carrier, *L'image du Grec,* 134.

76 Odo of Deuil, *De profectione*, 27.

77 يقول أودو أن العاهلين كانا متقاربين في السن تقريبـا، ولا يفرقهمـا إلا اخـتلاف الـزي والعادات. انظر: Odo of Deuil, *De profectione*, 59.

78 كان من التقاليد البيزنطية أن يكون كرسي الضيف أقصر في القامة من كرسي الإمبراطور، وهذا ما أكدته رواية وليم الصوري، عندما استقبل الإمبراطـور مانويـل كومنينـوس الملـك

عموري، ملك بيت المقدس بالقصر الإمبراطوري. انظر: وليم الصوري، الحروب الصليبية، تحقيق حسن حبشي، ج٤ (القاهرة، ١٩٩٥)، ص١٤١-١٤٢. ويقول يوحنا كيناموس أن لويس السابع حضر إلى الإمبراطور، الذي كان جالساً على عرشه الذهبي السامق، وسمح للويس السابع بالجلوس إلى جواره على كرسي اقل من كرسي العرش الإمبراطوري. انظر:
Cinnamus, II, 17.

79 Odo of Deuil, *De profectione*, 59, 61.

80 Odo of Deuil, *De profectione*, 59.

81 William of Tyre, *Deeds*, I, 125.
انظر أيضا: وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق حسن حبشي، ج١ (القاهرة، ١٩٩١)،ص ١٥٧.

82 وليم الصوري، ج١، ص ١٦١. كانت هناك عدة قصور إمبراطورية في المدينة غير القصر الإمبراطوري وقصر البلاشيرن. عنها انظر:
Janin, *Constantinople byzantine,* 123-144.

83 وليم الصوري، الحروب الصليبية، ص ١٠٠؛ Carrier, *L'image du Grec,* 115.

84 محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠م (القاهرة، ١٩٨٥)، ص ٣٢٢. كانت زيارة عموري إلى القسطنطينية تستهدف التباحث مع الإمبراطور مانويل كومنينوس حول المساعدات التي يحتاجها الصليبيون في فلسطين ضد جيرانهم المسلمين، لاسيما مصر على وجه الخصوص. انظر، نفس المرجع، ص ٣٢١-٣٢٢.

85 يتتبع وليم الصوري هنا أصل تسمية البروبونتس أو الهيللسبونيت. انظر: وليم الصوري، ج١، ص ١٥٨-١٥٩؛ انظر أيضا: William of Tyre, *Deeds*, I, 125-127.

86 وليم الصوري، ج١، ص١٥٩-١٦٠؛ William of Tyre, *Deeds*, I, 127. Cf. also Langille, *La Constantinople de Guillaume de Tyr*, 181.
عن موقع القسطنطينية الجغرافي انظر: Janin, *Constantinople byzantine,* 7-14.

87 وليم الصوري، ج١، ص١٦٠؛ William of Tyre, *Deeds*, I, 127.

88 وليم الصوري، ج٤، ص ١٤٤-١٤٥؛ William of Tyre, *Deeds*, II, 382.

89 وليم الصوري، ج١، ص ١٦٢.

90 وليم الصوري، ج٤، ص ١٤١؛ William of Tyre, *Deeds*, II, 379.

91 وليم الصوري، ج٤، ص ١٤٢؛ William of Tyre, *Deeds*, II, 379-380. Cf. also Langille, *La Constantinople de Guillaume de Tyr*, 183-185.

92 انظر مناقشة هذا الموضوع في: Langille, *La Constantinople de Guillaume de Tyr*, 186-192; Carrier, *L'image du Grec,* 115-120, 190-191; S. Runciman, "The Visit of Amalric I to Constantinople in 1171", in (eds.) B. Z. Kedar,

R. C. Smail, and H. E. Mayer, *Outremer: Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem* (Jerusalem, 1982), 153-158.

93 Janin, *Constantinople byzantine,* 121.

94 وليم الصوري، ج٤، ص١٤١-١٤٢.

95 وليم الصوري، ج٤، ص١٤٢-١٤٤.

96 وليم الصوري، ج٤، ص ١٤٣-١٤٤؛ William of Tyre, *Deeds*, II, 381. Cf. also Langille, *La Constantinople de Guillaume de Tyr*, 195.

97 وليم الصوري، ج٤، ص١٤٤؛ William of Tyre, *Deeds*, II, 381-382. Cf. also Langille, *La Constantinople de Guillaume de Tyr*, 196-197.

98 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze*, 208.

99 Langille, *La Constantinople de Guillaume de Tyr*, 192-193.

100 وليم الصوري، ج٤، ص١٤٤-١٤٦.

101 وليم الصوري، ج٤، ص١٤٦.

102 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,* 197.

103 طارق منصور، دراسة نقدية تحليلية لمصادر تاريخ الدولة البيزنطية في عصرها الأخير، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٦٤.

104 عن مواقع المنشآت المدنية والدينية الواردة في البحث انظر الخريطة الملحقة به.

105 انظر اللوحة رقم ١٢. سمي هذا القصر الإمبراطوري باسم قصر بوكليون نسبة إلى مرفأ القصر المسمى بذلك الاسم حيث نصب تمثال ضخم لثور يقاتل أسدا. وهذا القصر عبارة عن مجموعة من المباني المتجاورة شيدت بأيدي أباطرة مختلفين. وقد ظل هو القصر الإمبراطوري الذي تدار دفة الحكم منه، ربما حتى عصر آل كومنينوس، الذين فضلوا الإقامة في قصر البلاشيرن. انظر: س. رنسمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة، ١٩٦١)، ص ٢٢٦-٢٢٧؛ Guilland, *Constantinople byzantine,* 249-293; Janin, *Constantinople Byzantine*, 120-121; P. Magdalino, "Manuel Komnenos and the Great Palace", *Byzantine and Modern Greek Studies* 4(Oxford, 1978), 101-114.

106 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٤؛ *Robert of Clari,* 102-103.

107 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٦؛ *Robert of Clari,* 105. Cf. also Carrier, *L'image du Grec,* 111-112.

108 انظر اللوحة رقم ٦.

109 كانت ساحة مضمار الخيل (الهيبودروم) تبلغ ٦٤٠ ذراعا طولا في ١٦٠ ذراعا عرضا. انظر: أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٠. لمزيد من التفاصيل عن الهيبودروم انظر:

Guilland, *Constantinople byzantine,* 396 ff.; Janin, *Constantinople byzantine,* 177-191.

110 كان يؤدي إلى هذه المقصورة الإمبراطورية دهليز طويل يربط بينها وبين القصر الإمبراطوري، ويقع أمام باب الهيبودروم، يسير فيه الإمبراطور البيزنطي وحاشيته من القصر إلى المقصورة الملكية التي تطل على مضمار الخيل. وكانت مساحة هذا الدهليز تبلغ مائة خطوة في عرض خمسين خطوة، وعلى الجانبين من الدهليز أسرّة موضوعة عليها فرش من ديباج ومضربات ووسائد، وعليها قوم من السودان متنصرة، بأيديهم أترسة ملبسة ذهباً، ورماح عليها ذهب. انظر: ابن رسته، الأعلاق النفيسة (ليدن، ١٨٩١)، ص ١٢٠. وبطبيعة الحال أقيم هذا الدهليز لدواعي أمنية بحتة، أو لضمان سلامة الإمبراطور وحاشيته، إذا ما وقع حادث أو ثورة في الهيبودروم، كما حدث في ثورة نيقا عام ٥٣٢م.

111 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٣٠؛ *Robert of Clari,* 109-110

لمزيد من التفاصيل عن مضمار الخيل انظر: نجلاء مصطفى، مدينة القسطنطينية، ص ٩٣-٩٧؛ ليلى عبد الجواد، القسطنطينية في ضوء كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين، المؤرخ المصري، عدد٤(١٩٨٩) ص ١٢٠-١٢٤؛ A. Vogt, "L'hippodrome de Constantinople", *Byzantion* 10(1935), 471-488.

112 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,*207.

عن تماثيل الهيبودروم انظر: S. G. Bassett, "The Antiquities in the Hippodrome of Constantinople", *Dumbarton Oaks Papers* 45(1991), 87-96.

113 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٣١؛ *Robert of Clari,* 110

114 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,* 206.

115 Niketas Choniates, *O the City of Byzantium, Annals of Niketas Choniates*, Eng. trans. H. Magoulias (Detroit, 1984), 305-306.

116 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٨؛ *Robert of Clari,* 107.

117 تحطم تمثال قسطنطين، المرتفع فوق قمة عموده عام ١١٠٦م. حول هذا التمثال انظر: C. Mango, "Constantine's Column", in *Studies on Constantinople* (Aldershot, 1993), no. III, 1-7.

118 الهروي، كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل (دمشق، ١٩٥٣)، ص ٤٩؛ ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرايب (القاهرة، ١٨٥٩)، ص ٧٧؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت، د.ت.)، ص ٤٠٧.

119 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,*200, 201.

كانت القسطنطينية على عهد جستنيان تزينها سبعة أعمدة، بقي منها ثلاثة وفقد أربعة. عن هذا الموضوع وعن تمثال جستنيان انظـر: C. Mango, "The Columns of Justinian and his Successors", in *Studies on Constantinople, Variorum* (Aldershot, 1993), no. X. 1-20; Idem, "Justinian's Equestrian Statue", *The Art Bulletin,* XLI(New York, 1959), 1-16. repr. also in *Studies on Constantinople, Variorum* (Aldershot, 1993), no. XI.

يشير أحد المصادر بالتفصيل إلى التماثيل التي كانت تقع عند كنيسـة آيـا صـوفيا. انظـر: *Constantinople in the Early Eight Century: The Parastasies Syntomoi Chronikai,* ed. and trans. A. Cameron & J. Herrin in con. with Alan Cameron, R. Cormack and C. Roueché, *Coulombia Studies in the Classical Tradition,* X(Leiden, 1984), 70, 72.

120 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٨؛ *Robert of Clari,* 107.

121 أي حوالي خمسون مترا، والارتفاع يبلغ على الأقل مائـة متـر. انظـر: Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 176, n. 283.

122 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٤٨؛ *Robert of Clari,* 124.

123 روبرت كلاري، فـتح القسـطنطينية، ص ١٣١-١٣٢، ١٤٨؛ *Robert of Clari,* 110-111, 124.

124 عن هذا الميدان انظر: R. Janin, "Du Forum Bovis au Forum Tauri etudes topographie", *Revue des Etudes Byzantines* 13(1955), 85-108.

125 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 176, n. 282; Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,* 204.

126 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٤٨-١٤٩؛ *Robert of Clari,* 124.

127 اغتصب مُرزوفليوس الحكم في القسطنطينية من الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الرابـع، بعد أن دبر مؤامرة ضده، عشية الغزو الصليبي لها عام ١٢٠٣-١٢٠٤م. وقد أودع الكسيوس السجن فترة من الوقت ثم اغتاله في نهاية المطاف أعلن موته والحداد عليه بعد ذلك. وقد تمكن من الفرار من المدينة بعد أن هزم من الصليبيين. انظر: فلهاردوان، فـتح القسـطنطينية، ص ١١٧-١٢٠؛ اسمت غنيم، الحملة الصليبية الرابعة، ص ٩٦.

128 Villehardouin, *The Conquest of Constantinople,* 108-109.
انظر أيضا: فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ١٤٦-١٤٨.

129 هذه البوابة شيدها الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير ٣٧٩-٣٩٥م، تخليدا لـذكرى انتصـاره على غريمه مكسيموس عام ٣٨٨م. لمزيد من التفاصيل عـن بوابـات القسـطنطينية انظـر: A.Van Millingen, *Byzantine Constantinople the Walls of the City and Adjoin Historical Sites* (London, 1899), 59-73.

130 لم تكن البوابة الذهبية هي الوحيدة فقط المخصصة لخروج أو عودة الإمبراطور البيزنطي من القتال، كما أشار كلاري، بل كان الإمبراطور يستخدم أحيانا بوابة أدريانوبوليس، التي تقع شمال البوابة الذهبية وتفتح على الميزي، الذي يمر بميدان ثيودوسيوس، حيث كان يعتبر الطريق الذي يمر منه الإمبراطور حينذاك طريقا للنصر. انظر: C. Mango, "The Triumphal Way of Constantinople and the Golden Gate", *Dumbarton Oaks Papers* 54(2000), 174.

131 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٩-١٣٠؛ *Robert of Clari,* 108-109.

132 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٩؛ *Robert of Clari,* 108.

133 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٤؛ *Robert of Clari,* 103.

134 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٤-١٢٥؛ *Robert of Clari,* 103-104.

135 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٦؛ *Robert of Clari,* 105.

136 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٩؛ *Robert of Clari,* 107-108.

137 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٧؛ *Robert of Clari,* 106.

138 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,* 200.

139 Liddell and Scott, *An Intermediate Greek- English Lexicon* (Oxford, 1986), 5, 737.

140 انظر اللوحة رقم ٤.

141 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٧؛ *Robert of Clari,* 106.

142 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٨؛ *Robert of Clari,* 106-107.

143 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,* 200.

144 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,* 202.

145 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٩؛ *Robert of Clari,* 107-108.

146 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٣٣؛ *Robert of Clari,* 112.

147 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,* 208-209.

148 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٣٣؛ *Robert of Clari,* 112.

149 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana,* 172, n. 238.
عن موقع هذا الدير انظر الخريطة الملحقة بالبحث، وكذلك اللوحة رقم ٧.

150 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ٢٩.

151 يظهر من أحد الخطابات البابوية المرسلة في ١٣ نوفمبر ١٢٠٤م إلى رجال الدين المصاحبين للجيش الصليبي بالقسطنطينية أن البابا،"... الذي له السيادة على مملكة الإنسان، كان مبتهجا لتحول إمبراطورية البيزنطيين [حرفيا اليونانيين] من الفخر إلى المذلة، ومن العصيان إلى الطاعة، ومن المنشقين إلى الكاثوليكيين". انظر نص الخطاب في: A. J.

Andrea with contributions by B. E. Whalen, *Contemporary Sources for the Fourth Crusade* (Brill, 2000), 115-126. Cf. also Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 16.

152 وصل قرار الحرمان الكنسي إلى زعماء الحملة الصليبية الرابعة وهم أمام مدينة زارا؛ ومع هذا ضربوا به عرض الحائط، ولم يرحموا المدينة من الأسر. بيد أن الصليبيين راسلوا البابا وتمكنوا من رفع قرار الحرمان عنهم، قبل الوصول إلى القسطنطينية. انظر: روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ٤٨-٥٠؛ *Robert of Clari*, 44-45.

153 كان اللاتين من الأمالفيين والبيازنة والبنادقة والفرنجة والألمان المقيمين في القسطنطينية، على علم كاف بمحتويات المدينة ومعالمها وذخائرها نقلاً عن البيزنطيين أنفسهم، وربما كانوا يعملون مرشدين لذويهم عند زيارتهم للقسطنطينية. انظر: Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze*, 211.

154 تحتل هذه الكنيسة مكانة مهمة بين البيزنطيين لأنها منذ أن نشأت في عهد قسطنطين العظيم، اتخذت مدفنا لمعظم الأباطرة، كما أنها كانت تحوي عددا من رفات القديسين، والذخائر المقدسة الأخرى. انظر: أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٤.

155 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze*, 200-201.

156 انظر: Ciggaar, *Une description de Constantinople dans le Tarragonensis*, 119-128.

157 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze*, 210-211.

158 يقدم هارون بن يحيي رواية مهمة عن هذه الأديرة وعددها ونظمها، حيث يقول: "إن حوالي قسطنطينية ديرات الرهبان، وعلى باب قسطنطينية دير يدعى دير ساطرا ينزله خمسمائة راهب. وهذا النهر الذي يدخل المدينة ينقسم ثلاثة أقسام يجرى في وسطه، وعلى فرسخ مما يلي الشمال من المدينة دير يقال له مونس فيه ألف راهب، ومما يلي شرقي قسطنطينية منها على أربعة فراسخ ، موضع فيه أربعة ديرات فيها اثنا عشر ألف راهب أحدها مونس والثاني فسادر والثالث قوقياى، والرابع دير مريم، ومما يلي غربى المدينة ديران فيهما ستة آلاف راهب، ثم تخرج فتصير في صحراء ملساء فيها مزارع وقرى اثنتى عشرة مرحلة حتى تنتهي إلى مدينة يقال لها سلوقية وهى مدينة عظيمة كبيرة مما يلي مشرق المدينة الجبل وغربيها البحر ولها أربعة أنهار تسقيها وفيها دير يقال له مرقش فيه اثنا عشر ألف راهب". انظر: ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٢٧. انظر أيضا، نجلاء مصطفى، القسطنطينية، ص ١٤٩-١٥٧، ١٨٧-١٩٦؛ ليلى عبد الجواد، القسطنطينية في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين، مجلة المؤرخ المصري، عدد٣(١٩٨٩)، ص ١٨٤-١٩٠؛ طارق منصور، هارون بن يحيي مصدر من مصادر التاريخ البيزنطي، حولية كلية التربية للبنات بالطائف، عدد ٦(١٤٢٥-١٤٢٦هـ)، ص ٥١.

159 الأعلاق النفيسة، ص ١٣١.

160 تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بيروت، د.ت.)، ص ٣٣٦. وقد أشار ابن بطوطة أيضا إلى بعض الأديرة الواقعة بالمدينة. انظر، نفس المصدر، ص ٢٣٥.

161 مختصر كتاب البلدان (ليدن، ١٣٠٢هـ)، ص ١٥٠.

162 فتح القسطنطينية، ص ١٣٢؛ *Robert of Clari,* 112.

163 فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ٨٩؛
Villehardouin, *The Conquest of Constantinople,* 59.

164 روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١٢٢-١٢٣؛ *Robert of Clari,* 100-102.
لقد اتفق نبلاء وسادة الحملة الصليبية على تقسيم أحسن دور المدينة فيما بينهم، دون أن يصل ذلك إلى عامة الصليبيين أو صغار الفرسان، حيث استولوا على القصور والكنائس والأديرة الثرية؛ فقد استولى بونيفاس دي مونتفرات، على سبيل المثال، على قصر بوكليون الإمبراطوري، وعلى كنيسة آيا صوفيا وبيوت البطريرك، وهكذا فعل باقي النبلاء؛ ولعل هذا ما أدى إلى اندفاع عامة الصليبيين إلى نهب المدينة، وتناسيهم القسم الذي أقسموه أما قوادهم، على الآثار المقدسة بعدم نهب الكنائس أو الأديرة بالمدينة.(Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana,* 16.) بل أن فلهاردوان يذكر أن القادة الصليبيين أمروا أعضاء الحملة بعدم المساس بأي من الغنائم إلى أن يعاد توزيعها عليهم طبقا للرتب؛ وهو الأمر الذي أخلوا به جميعا الكبير منهم قبل الصغير.(فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ١٢٩-١٣٠؛ Gunther of Pairis, *HystoriaConstantinopolitana,* 16).

165 لا يمدنا جونتر إلا بالنذر اليسير عن حياته وكيف دخل الدير. وقد أمكن التوصل إلى بعض الإشارات التي تلقي الضوء على حياته، فقد ولد نحو منتصف القرن ١٢ م في وادي الراين الأعلى جنوب شرقي ألمانيا، في منطقة تقع قرب مدينة بازل. وربما كان ينتمي إلى إحدى اسر الفرسان الصغيرة، المعروفة بولائها لأسرة الهوهنشتاوفن؛ ولا يبدو أنه تدرب ليصبح محاربا البتة. ويبدو من مؤلفاته أنه تعلم جيدا، ودرس الآداب الكلاسيكية اللاتينية، وكان عارفا باللغة اليونانية، بحكم كونه راهبا، وأنه كان معلما في إحدى المدارس الكاتدرائية، التي يبدو أنها كانت تقع في أرض الراين. انظر:
Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana,* 4-6.

166 يشير في الفصل الخامس والعشرين من كتابه "تاريخ القسطنطينية" إلى أنه كان راهبا في دير باريس. Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana,* 130-131.

167 هذه الأعمال هي *Historia Iherosolimitana, Ligurinus, Hystoria Constantinopolitana* and *De oratione ieiunio et eleemosyna.*

168 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana,* 3.

169 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana,* 11.

170 كان لقب أبوتAbbot يعطى لمن يرأس اثنى عشر راهبا أو أكثر. وهو مشتق من الكلمة السريانية أبا Abba التي تعود إلى الكلمة العبرية Ab، والتي تعني أب. وكانت في بلاد الشام

ومصر تعطى كلقب شرفي أو للاحترام، ثم صارت تمنح لأي راهب كبير السن. ومن الشرق انتقل اللقب إلى الغرب ليستخدم للإشارة إلى رئيس الدير. انظر:
http://www.catholicencyclopedia.com/a/abbot

171 أرسل البابا أمرا بابويا لمجموعة من رجال الدين للمشاركة في الحملة، ويبدو أن مارتين، رئيس دير باريس، كان من ضمنهم، على حد زعم جونتر الباريسي. Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 21 ff.

172 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 14.

173 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 17.
يختلف هذا الرأي عما ذهب إليه ا.د. حسن حبشي، حيث يرى أن هدف جونتر من تأليف الكتاب كان دراسة الآثار المقدسة والمخلفات الدينية للشهداء والقديسين مما استحضره معه من القسطنطينية. انظر: روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ٢٣.

174 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 109.

175 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 16.

176 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 109.

177 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 15.

178 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 94.
يشير جونتر الباريسي إلى أن القسطنطينية عندما أنشأت لم تكن بهذا الجمال والروعة التي عليها زمن الحملة الصليبية الرابعة، بل كانت مثلها مثل أية مدينة في ذلك الوقت؛ ويشير إلى أن اليونانيين كانوا يطلقون عليها اسم "بيزنطة"، وهو الاسم الذي صارت تحمله العملة الذهبية التي تسك هناك، والتي يطلقون عليها اسم "بيزنط". كما يضيف أنا تبوأت هذه المكانة بفضل رؤية للإمبراطور قسطنطين. انظر: Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 99. ثم ينتقل جونتر للحديث عن هذه الرؤية وكيف كان لها تأثير في روعة وجمال المدينة. انظر: Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 101-102. ويضيف أن قسطنطين أحضر البناءين والنجارين وأمر بتشييد المدينة وتحصينها بالأسوار والأبراج، وزينها بالكنائس والمنشآت الأخرى حتى أصبحت بالجمال التي هي عليه، وجاءت كنسخة من مدينة روما، على حد قول أبنائها. لذا فإن المدينة تسمى أحيانا "روما الثانية"، والأرض المتصلة بها كثيرا ما يطلق عليها اسم "رومانيا". بيد أن قسطنطين أمر أن تحمل المدينة اسمه، فصارت تعرف باليونانية باسم قسطنطينوبوليس، أي مدينة قسطنطين. انظر: Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 102.

179 يذكر روبرت كلاري، فتح القسطنطينية، ص ١١٠، أن القادة الصليبيين "استقدموا جميع رجال الجيش وجعلوهم يقسمون على الآثار المقدسة قسما يجلبون بمقتضاه إلى المعسكر مباشرة كل ما يقع في أيديهم من الأسلاب والغنائم سواء أكانت فضة أم ذهبا، وكذلك الأقمشة الجديدة إذا بلغت قيمتها خمس سوسات أو أكثر ولم يستثنوا من ذلك غير الآلات والمآكل، وألا يستعملوا

العنف مع أية امرأة أو يجردوها من أي لباس ترتديه، ومن يمسك متهما بذلك سيكون جزاؤه القتل، كذلك جعلوهم يقسمون على الآثار المقدسة ألا يتعرضون لراهب أو قس أو كاهن بسوء دفاعا عن النفس، وألا يقتحموا كنيسة أو ديرا". كان الهدف من هذا القسم فقط توحيد صفوف الصليبيين في القتال ضد البيزنطيين وألا ينشغلوا بجمع الغنيمة، وأخيرا حتى يضمن أمراء الحملة مصادر الثراء بين أيديهم. وقد كان الأمراء الصليبيون في طليعة الذين استولوا على القصور والكنائس والأديرة بعد ذلك، دون عامة الفرسان الصليبيين وفقرائهم، دون أن يولوا أي اعتبار لهذا القسم، ومن ثم تبعهم باقي الجند في أعمال العنف والسلب والنهب.

180 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 107.

181 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 99.

182 انظر اللوحات أرقام ٩-١٠، ١١.

183 تجدر الإشارة إلى أن هذه الأسوار تهدمت في الزلزال الشديد والمخيف الذي ضرب مدينة القسطنطينية يوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر عام ٧٤٠م. وقد هدم هذا الزلزال العديد من الكنائس والأديرة ومات فيه كثير من السكان. كما سقط تمثال قسطنطين العظيم، الذي كان مثبتا فوق بوابة أتالوس، وتمثال اتالوس نفسه، وتمثال أركاديوس المثبت فوق عمود اكسرولوفوس، وتمثال ثيودوسيوس الكبير المثبت فوق البوابة الذهبية، ولم تعد هناك سوى كنيسة واحدة في كثير من المدن والقرى الواقعة في تراقيا، ونيقوميديا في بيثينيا، وبراينيتوس، ونيقية. *The Chronicle of Theophanes Confessor,* Eng. trans. C. Mango and R. Scott (Oxford, 1997), 572.

بيد أن ليو الثالث الأيسوري وقسطنطين الخامس قاما بترميم وتجديد هذه الأسوار، وإليهما تعود الكثير من النقوش الموجودة على هذه الأسوار.

Parastasies Syntomoi Chronikai, 59,170.

184 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 99.

تشير المصادر البيزنطية إلى أن الأسوار البحرية كانت مهملة حتى عهد الإمبراطور تيبريوس أبسيمار (٦٩٨-٧٠٥م)، حيث أصلح ورمم هذه الأسوار. *The Parastasies Syntomoi Chronikai*, 59.

185 جونتر هو الوحيد بين الكُتاب الصليبيين الذي يُطلق على هذا العمود مصطلح هرم، وهو خاطئ في هذا لأنه يقصد عمود ثيودوسيوس، الذي سبق الحديث عنه، نقلا عن روبرت كلاري. Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 116, n. 282.

186 يقصد هنا مُرزوفليوس الذي خان الإمبراطور البيزنطي وحلفاؤه من الصليبيين في القسطنطينية، عندما نصب نفسه إمبراطوراً على بيزنطة، بعد أن شنق الإمبراطور وأباه؛ فحكم عليه الملك الصليبي بلدوين ورفاقه بالموت رميا من فوق قمة ذلك العمود. انظر: كلاري، فتح القسطنطينية، ص١٠١-١٠٢، ١٠٦-١٠٩، ١١١-١٢١، ١٤٧-١٤٩.

187 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 116-117.

188 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*,. 117; Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gaze,*206.

189 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 109.

190 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 172, n. 238.
انظر اللوحة رقم ٨.

191 Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 109.

192 انظر: Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 125-126.
انظر أيضا: ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٨٧. تجدر الإشارة إلى أن هذه الآثار الدينية المقدسة قام أبوت مارتين بسرقتها، وحملها معه إلى الأراضي المقدسة ثم منها إلى البندقية ثم أخيرا أودعها دير باريس بالألزاس. انظر: Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 118-123. وقد طاقت شهرتها الآفاق، لدرجة أن الكاردينال بليو الباراتي أصدر مرسوما باسم البابا أوربان السادس يحث على زيارة هذه الآثار والذخائر المقدسة التي بلغت ستين أثرا مقدسا في دير باريس. انظر: Gunther of Pairis, *Hystoria Constantinopolitana*, 179, n. 316.

193 Macrides, *Constantinople: the Crusaders' Gzae*, 195.

194 Villehardouin, *The Conquest of Constantinople*, 59, 76.
انظر أيضا: فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ٨٩، ١٠٨-١٠٩. انظر أيضا: رنسمان، الحضارة البيزنطية، ص ٢٢٧.

195 Villehardouin, *The Conquest of Constantinople*, 60.
انظر أيضا: فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ٩١.

196 Villehardouin, *The Conquest of Constantinople*, 92.
انظر أيضا: فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ١٢٧-١٢٨.

197 كان اليهود مع القرن الثاني عشر الميلادي يشكلون تجمعات سكانية في كل المدن البيزنطية، تتحدث اللغة اليونانية البيزنطية. وتجدر الإشارة غلى انهم كانوا أقليات لا تختلط بغيرها من العناصر السكانية ببيزنطة. انظر: رنسمان، الحضارة البيزنطية، ص ٢١٧-٢١٨.

198 illehardouin, *The Conquest of Constantinople*, 67.
انظر أيضا: فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ٩٨.

199 عن هذه السلسلة انظر: ميخائيل عواد، مآصر بلاد الروم والإسلام (بغداد، ١٩٤٨).

200 Villehardouin, *The Conquest of Constantinople*, 66-67.
انظر أيضا: فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ٩٧-٩٨.

201 Villehardouin, *The Conquest of Constantinople*, 76.

انظر أيضا: فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ١٠٩.

202 Villehardouin, *The Conquest of Constantinople,* 84.

203 Villehardouin, *The Conquest of Constantinople,* 108-109. Cf. also Langille, *La Constantinople de Guillaume de Tyr*, 194.

انظر أيضا: فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ١٤٦-١٤٨.

204 See: Constantine Porphyrogenitus, *De Adminstrando Imperio,* ed. G. Moravcsik, eng. trans. R. H. Jenkins (Budapest, 1949), chap. 13, 65 ff, chap. 26 ; H. Ahrweiler, "Byzantine Concepts of the Foreigner: The Case of the Nomades", in (eds. H. Ahrweiler and A. Laiou), *Studies in the Internal Diaspora of the Byzantine Empire* (Washington, D.C., 1998), 4.

205 انظر: رأفت عبد الحميد، قواعد الدبلوماسية البيزنطيـة، المجلـة التاريخيـة المصـرية، ٣٣(١٩٨٦)، ص ٢٩-٨٢.

206 عن هذه القضية انظر: رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصـليبية (القـاهرة، ١٩٩٨)، ص ٦٧-١٢١؛ Carrier, *L'image du Grec,* 62-75.

207 Odo of Deuil, *De profectione* , 69.

208 فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ١١٨.

209 Villehardouin, *The Conquest of Constantinople,* 85.

210 Villehardouin, *The Conquest of Constantinople,* 85;

انظر أيضا: فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ص ١١٩.

211 عبد العزيز رمضان، مانويل الأول كومنينوس، ص ١٢٥.

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر والمراجع الأجنبية:

- A. Berger, "Streets and Public Spaces in Constantinople", *Dumbarton Oaks Papers* 54(2000), 161-172.
- A. Cameron, "Procopius and the Church of St. Sophia", *The Harvard Theological Review* 58(Cambridge, Mass., 1965), 161-163.
- A. J. Andrea with contributions by B. E. Whalen, *Contemporary Sources for the Fourth Crusade* (Brill, 2000).
- A. Kažhdan & A. Epstein, *Change in the Byzantine Culture in the 11th Century* (London, 1985).
- A. Littlewood, "Gardens of the Palaces", in *Byzantine Court Culture from 829 to 1204,* ed. H. Maguire (Washington, D.C., 1997), 13-38.
- A. Van Millingen, *Byzantine Constantinople the Walls of the City and Adjoin Historical Sites* (London, 1899).
- A. Vogt, "L'hippodrome de Constantinople", *Byzantion* 10(1935), 471-488.
- August C. Krey, "William of Tyre", *Speculum* 16(1941), 149-66.
- C. Mango and J. Parker, "A Twelfth Century Description of St. Sophia", *Dumbarton Oaks Papers* 14(1960), 233-245. repr. also in *Studies on Constantinople* (Aldershot, 1993), no. XVII.
- C. Mango, "The Triumphal Way of Constantinople and the Golden Gate", *Dumbarton Oaks Papers* 54(2000).
- C. Mango, *Studies on Constantinople* (Aldershot, 1993).
- C. Mango, "Constantine's Column", in *Studies on Constantinople, Variorum* (Aldershot, 1993), no. III.
- C. Mango, "Justinian's Equestrian Statue", *The Art Bulletin, XLI* (New York, 1959), 1-16. repr. also in *Studies on Constantinople, Variorum* (Aldershot, 1993), no. XI.
- C. Mango, "The Columns of Justinian and his Successors", in *Studies on Constantinople, Variorum* (Aldershot, 1993), no. X.
- *Constantinople in the Early Eight Century: The Parastasies Syntomoi Chronikai,* ed. and trans. A. Cameron & J. Herrin in

con. with Alan Cameron, R. Cormack and C. Roueché. *Coulombia Studies in the Classical Tradition*, X (Leiden, 1984).
- D. E. Quller and T. F. Madden, *The Fourth Crusade: the Conquest of Constantinople* (Philadelphia, 1997).
- E. M. Langille, "La Constantinople de Guillaume de Tyr", *Byzantion* LXIII(1993), 173-197.
- E. Pears, *The Fall of Constantinople being the Story of the Fourth Crusade* (New York, 1975).
- Fulcher of Chartres, *A History of the Expedition to Jerusalem 1095-1127*, ed. H. S. Fink, Eng. trans. F. R. Ryan (Knoxville, 1969).
- G. Baker, *The Walls of Constantinople* (New York, n.d.).
- G. Majeska, " The Body of St. Theophano the Empress and the Convent of St. Constantine", *Byzantino Slavica* 38(1977), 14-21.
- *Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum*, ed. & Eng. trans. R. Hill (London, 1962).
- Gunther of Pairis, *The Capture of Constantinople, The Hystoria Constantinopolitana*, ed. and trans. A. J. Andrea (Philadelphia, 1997).
- H. Ahrweiler, "Byzantine Concepts of the Foreigner: The Case of the Nomades", in (eds. H. Ahrweiler and A. Laiou), *Studies in the Internal Diaspora of the Byzantine Empire* (Washington, D.C., 1998).
- H. Maguire, "Gardens and Parks of Constantinople", *Dumbarton Oaks Papers* 54(2000), 251-264.
- I. Cinnamus, *Epitome Historiarum*, ed. I. Bekker, *CSHB*, II (Bonn, 1836)
- J. Ebersolt et A. Thiers, *Les églises de Constantinople* (Paris, 1913)
- J. Ebersolt, *Constantinoiple byzantine et les voyageurs du levant* (Paris, 1918)
- J. Ebersolt, *Sainte-Sophie de Constantinople, étude de topographie d'après les cérémonies* (Paris, 1910)
- J. Harris, *Byzantium and the Crusades* (London, 2003).
- J. Jill, *Byzantium and the Papcy 1198-1400* (New Jersey, 1979)

- K. Ciggaar, "Une description de Constantinople traduite par un pèlerine anglais du XII[e] siècle", *Revue des Études Byzantins* 34(1976), 211-267.
- K. Ciggaar, *Western Travelers to Constantinople, the West and Byzantium, 962-1204: Cultural and Political Relations* (Leiden, 1996).
- K. Ciggaar," Une description de Constantinople dans le *Tarragonensis* 55", *Revue des Études Byzantins* 53(1995), 117-140.
- Liddell and Scott, *An Intermediate Greek- English Lexicon* (Oxford, 1986).
- M. Carrier, *L'image du Grec selon les chroniqueurs des croisades: perceptions et reactions face au cérémonial byzantin 1096 à 1204,* Unpublished MA. Thesis, University of Sherbrooke (June 2000).
- M. Kaplan, *Tout l'or de Byzance* (Paris, 1998).
- M. Whitby, "The Long Walls of Constantinople", *Byzantion* 55(1985), 560-583.
- N. Kondakov, "Les costumes orientaux à la cour byzantine", *Byzantion* 1(1924), 7-49.
- Niketas Choniates, *O the City of Byzantium, Annals of Niketas Choniates*, Eng. trans. H. Magoulias (Detroit, 1984).
- Odo of Deuil, *De profectione Ludovici VII in Orientem,* ed. and Eng. trans. V. G. Berry (New York, 1948).
- Otto of St. Blasien, *Ad librum VII chronici Ottonis Frisingensis Episcopi continuatae historiae appendix*, XXI, *MGH.*
- P. Magdalino, " Manuel Komnenos and the Great Palace", *Byzantine and Modern Greek Studies* 4(Oxford, 1978), 101-114.
- R. Guilland, *Études de topographie de Constantinople byzantine*, Berlin (Amsterdam, 1969).
- R. Janin, "Du Forum Bovis au Forum Tauri etudes topographie", *Revue des Etudes Byzantines* 13(1955), 85-108.
- R. Janin, *Constantinople byzantine* (Paris, 1950).
- R. Janin, *Les églises et les monastères des grands centres byzantins* (Paris, 1971).

- R. Macrides, "Constantinople: The Crusaders' Gaze", in *Travel in the Byzantine World, Papers from the Thirty-fourth Symposium of Byzantine Studies, Birmingham, April 2000,* ed. R. Macrides (Aldershot, 2002).
- Robert of Clari, *The Conquest of Constantinople,* Eng. trans. E. H. McNeal (Toronto, London,, 1936), repr. 1996.
- S. G. Bassett, "The Antiquities in the Hippodrome of Constantinople", *Dumbarton Oaks Papers* 45(1991), 87-96.
- S. Runciman, "The Visit of Amalric I to Constantinople in 1171", in (eds.) B. Z.Kedar, R. C. Smail, and H. E. Mayer, *Outremer: Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem* (Jerusalem, 1982).
- Stephen of Novgorod, *The "Wonderer" of Stephen of Novgorod,* in *Russian Travelers to Constantinople in the Fourteenth and Fifteenth Centuries*, Eng. trans. G. Majeska (Washington, D. C., 1984).
- *The Chronicle of Theophanes Confessor,* Eng. trans. C. Mango and R. Scott (Oxford, 1997).
- Villehardouin, *The Conquest of Constantinople*, in: Joinville & Vellehardouin, *Chronicles of the Crusades*, Eng. trans. M. R. B. Shaw (Penguin books, n.d.).
- William Archbishop of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea,* Eng. trans. E. W. Babcock and A.C. Krey, II (New York, 1943).

ثانيا المصادر والمراجع العربية والمعربة:

- ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرايب، القاهرة، ١٨٥٩.
- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، د.ت.
- ابن خرداذبه، المسالك والممالك، بغداد، د.ت.
- ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩١.
- ابن فقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ.
- اسمت غنيم، الحملة الصليبية الرابعة ومسئولية انحرافها ضد القسطنطينية، الإسكندرية، ١٩٨٢.

- أومان، ش.، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣.
- بالار، ميشيل، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر-القرن الرابع عشر، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، ٢٠٠٣.
- رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٩٨.
- رأفت عبد الحميد، قواعد الدبلوماسية البيزنطية، المجلة التاريخية المصرية، ٣٣(١٩٨٦).
- رنسمان، س.، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦١.
- رنسمان، س.، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ج١، بيروت، ١٩٨١؛ ج٢، ١٩٦٨.
- روبرت كلاري، فتح القسطنطينية على أيدي الصليبيين، ترجمة وتقديم حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٤.
- الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، د.ت.
- سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، القاهرة، ١٩٦٣.
- سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٦.
- سمالي، بيريل، المؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة، ١٩٨٤.
- السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ج١، القاهرة، ١٩٦٣
- السيد الباز العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٦٢.
- طارق منصور، الجيش في الإمبراطورية البيزنطية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية آداب بنها، جامعة الزقازيق، ١٩٩٣.
- طارق منصور، دراسة نقدية تحليلية لمصادر تاريخ الدولة البيزنطية في عصرها الأخير، القاهرة، ٢٠٠٥.

- طارق منصور، هارون بن يحيي مصدر من مصادر التاريخ البيزنطي، حولية كلية التربية للبنات بالطائف، عدد ٦(١٤٢٥-١٤٢٦هـ).
- عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، دمشق، ١٩٨٠.
- عبد العزيز رمضان، العلاقات البيزنطية اللاتينية في عهد الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس ١١٤٣-١١٨٠م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٠.
- علية الجنزوري، الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)، القاهرة، ١٩٩٩.
- فلهاردوان، فتح القسطنطينية، ترجمة وتعليق حسن حبشي، جدة، ١٤٠٣هـ.
- فوشيه الشارتري، الاستيطان الصليبي في فلسطين: تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة ودراسة وتعليق قاسم عبده قاسم، القاهرة، ٢٠٠١.
- قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥-١٠٩٩م، القاهرة، ١٩٨٣.
- قدامة بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج، ملحق على كتاب المسالك والممالك، بغداد، د.ت.
- القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، د.ت.
- ليلى عبد الجواد، السياسة الخارجية للملكة اللاتينية في القسطنطينية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٠.
- ليلى عبد الجواد، القسطنطينية في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين، مجلة المؤرخ المصري، عدد٣-٤(١٩٨٩)
- ماير، هانس، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق عماد الدين غانم، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، ١٩٩٠.
- محمود سعيد عمران، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠م، القاهرة، ١٩٨٥.

- ميخائيل عواد، مآصر بلاد الروم والإسلام، بغداد، ١٩٤٨.
- نجلاء مصطفى شيحة، مدينة القسطنطينية في القرن العاشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٩.
- الهروي، كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل، دمشق، ١٩٥٣.
- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، ج١، ١٩٩١؛ ج٣، القاهرة، ١٩٩٤.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، بيروت، ١٩٨٤.

ثالثا مواقع الشبكة الدولية للمعلومات:

- http://www.catholicencyclopedia.com/a/abbot
- www.callisto.si.usherb.ca/~croisade/Byzance.htm

دوقيـــة المـــورة البيـــزنطيـــة
فـــى عهـــد آل باليـــولـــوجـــوس
١٣٨٣م - ١٤٦٠م

د. محمد عثمان عبد الجليل
مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية تربية بورسعيد -جامعة قناة السويس

شهدت شبه جزيرة المورة – دون غيرها من أجزاء الإمبراطورية البيزنطية – خلال العقود الأخيرة من عمر الإمبراطورية حالة من الهدوء والاستقرار ساعدت على قيام نهضة سياسية وحضارية بها، حتـــى أن ميســـترا Mistra حاضـــرتها أصبحت معقلاً لكل ما تبقى من الحضارة البيزنطية، وراح دارســـوها ومفكروهـــا يحاولون جاهدين إبراز قيمة تقاليدها الهللينية، وراحوا يطلقون على أنفســـهم فـــي المورة الهللينيين وليس الرومان كما اعتادوا من قبل أن يفعلوا. وأخذوا في طـــرح النظريات التي تهدف إلى الدعم الاقتصادي للمورة وبناء جيش وطني قوى من أجل درء الخطر العثماني الزاحف نحو البيلبونيز. وهو الأمر الذي دعى الـــبعض لأن يصور الأمر وكأن المورة سوف تصبح الصورة البديلة للإمبراطوريـــة المشـــرفة على الزوال، وسوف توضح الدراسة أحوال المورة خلال عهد أسرة بـــاليولوجوس ومدى تطابق الصورة مع الواقع و أسباب إخفاق تجربة إحياء المجد البيزنطى من جديد.

وجـــدير بالذكـــــر أن الإمبراطـــــور يوحـــنـــــا الســـــادس كانتـــاكوزين John VI Kantakouzenos (١٣٤٧-١٣٥٤م) عشـــية توليـــه حكـــم الإمبراطورية، اعتبر المورة دوقية تتمتع بالحكم الذاتي تحـــت إشـــراف الســـلطة الإمبراطورية. وقام بارسال ابنة مانويـــل Manuel (١٣٤٨ – ١٣٨٠م) عـــام ١٣٤٨م كأول حاكم للدوقية. وكان مانويل موفقاً إلى حد ما خـــلال فتـــرة حكمـــه

الطويلة والتي امتدت أكثر من ثلاثين عاما (١٣٤٨ - ١٣٨٠م) حيث تمكن من بسط نفوذه داخل الدوقية، بعدما نجح في الحد من سلطة البارونات المحليين. وتمكن في الوقت نفسه من إشاعة جو من المودة والوفاق مع اللاتين في المورة المجاورة، والذي أسفر في النهاية عن تكوين تحالف بيزنطي - لاتيني قاده للانتصار على العثمانيين في معركة ميجارا Megara الواقعة غرب أثينا Athena وقد ظلت الدوقية محتفظة باستقرارها حتى وفاة مانويل ١٣٨٠م[١].

وقد أسفر موت مانويل عن حالة من الفوضى التي عمت أرجاء الدوقية نتيجة تمرد البارونات المحليين وهو ما يتطلب قبضة من حديد، خاصة وأن خليفته متى كانتاكوزين Matthew (١٣٨٠ - ١٣٨٣م) كان طاعناً في السن وغير قادر على السيطرة على الموقف. وقد سبب هذا الوضع قلقاً بالغاً للإدارة البيزنطية مخافة سقوط الدوقية من جديد في يد الصليبيين أو في قبضة العثمانيين. وعلى الفور اتخذ الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس John V Palaiologos (١٣٤١ - ١٣٩١م) قراراً بتعيين ابنه تيودور الأول باليولوجوس Theodore I palaiologos (١٣٨٣ - ١٤٠٧م) حاكماً لدوقية المورة. وكانت آمال آل باليولوجوس معقودة على تيودور الأول في بسط النفوذ اليوناني على كل أنحاء البلوبونيز، والعمل على نشر الهلينية التي كان ضوءها آخذاً في الإشعاع بالمورة خلال ذلك الوقت[٢]. خاصة وأنه حسب قول المؤرخ أوستروجورسكى أن المورة تحولت من الحكم الذاتي تحت سلطة كانتاكوزين إلى انفصال تام عن السلطة المركزية لحكام آل باليولوجوس في القسطنطينية[٣].

وجدير بالذكر أن تيودور الأول قد واجه العديد من الصعاب خلال فترة حكمه التي امتدت قرابة ربع قرن من الزمن داخليا وخارجيا، حيث أن البيلبونيز خلال هذه الفترة، كانت بمثابة دائرة صراع وتنافس بين بعض القوى اللاتينية المتطلعة إلى السيطرة والنفوذ، أهمها المغامر الإيطالي نيرى أكيايولى Neri Acciajuoli دوق كورنثة (١٣٧١-١٣٩٤م) ودوق أثينا (١٣٨٨-١٣٩٤م)[٤] وجماعة القطلان Catalan[٥] والنافاريين Navarrese[٦] إلى جانب البنادقة، وأخيراً العثمانيين الطامحين في بسط قبضتهم على البلقان والبيلبونيز. ومما زاد من

صعوبة موقف تيودور انقطاع سبل الاتصال بينه وبين الإدارة البيزنطية التي كانت تعاني هي الأخرى من حالة فوضى داخلية[٧].

وكان على تيودور أن يتعامل مع الموقف من خلال الأوضاع الراهنة، خاصة وأنه أصبح هدفاً للنافاريين الذين اعتادوا الإغارة علـى أراضـيه، إلـى جانـب تحريضهم الدائم للبارونات المحليين من أجل التمرد ضده، وقد دفعه ذلك للبحث عن حليف داخل البيلبونيز لمساعدته في مواجهة هذه التهديدات[٨].

وقد وجد ضالته في المغامر الإيطالي أكيايولى، لما يتمتع به في ذلك الوقـت من قوة ونفوذ ومساندة من البابوية، وقد دعم هذا التحـالف بـالزواج مـن ابنتـه بارثولوميا Bartholomaia عام ١٣٨٤م، وعلى ما يبدو أن تيودور لم يكن موفقاً في هذا الاختيار لأن أكيايولى نفسه لم يكن أحسن حالا منه حيث كان يخشى غضب النافاريين الذين يمثلون الحليف الاستراتيجي له في مواجهة القطـلان مـن أجـل طردهم من دوقية أثينا تمهيداً لسيطرة أكيايولى عليها، ولذلك فإن موقف أكيايولى لم يكن مرضياً، وقد تجلى ذلك بوضوح في أول مواجهة لتيودور مع النافاريين فـي نفس العام ؛ فرغم تظاهره بالخروج مع تيودور بقواته، إلا أنه لم يشارك في القتال بشكل جاد وانسحب بقواته حتى لا يصطدم بالنافاريين مما اضطر تيـودور إلـى الانسحاب خشية الهزيمة[٩].

وقد استشعر المعارضون لسياسة تيودور ضعف موقفه، وعدم جدية صـهره في مساعدته، خاصة وأنه انشغل أيضاً في الصراع مع القطلان خلال العقد الثامن من القرن الرابع عشر. فأخذوا في إعلان التمرد ضده. ولم يجد مخرجاً من هـذه الأزمة إلا عن طريق جلب أعداد كبيرة من المهاجرين الألبان الذين قـدر عـددهم خلال هذه الفترة بحوالي عشرين ألف مهاجر، بقصد استخدامهم كجنود مرتزقة من ناحية، ومن ناحية أخرى كمزارعين لسد العجز في الأيدي العاملة[١٠].

ولكن رغم الدور البارز للألبان في تنشيط الدوقية، إلا أن وجودهم لم يكـن محل رضا من سكان الدوقية، حيث اعتبروهم دخلاء عليهم ومن الممكن أن يشكلوا عقبة أمام جهودهم لإحياء الهللينية التي أخذ نجمها في البزوغ في هذه الفترة.

وقد أراد النافاريون استغلال حالة الاضطراب التي تعيشها الدوقية، فبـادروا بالهجوم على تيودور أملاً في الخلاص منه، فأخذ تيودور في البحث عـن حليـف جديد لمواجهة هذا الخطر خاصة وأنه لن يستطيع الحصول على أي مساعدة مـن القسطنطينية لأنها هي الأخرى كانت تعانى من الخطر العثماني، إلى جانب شعوره بعدم جدوى الاعتماد على صهره أكيايولى لسابق مواقفه السلبية وقد هداه تفكيـره إلى طلب العون من البنادقة مقابل التنازل لهم عن بعض أملاكه، ورغم المغريـات التي قدمها تيودور فقد رفض البنادقة تقديم أي عون له وذلـك مخافـة أن يقـوم النافاريون في هذه الحالة ببيع نافارينو Navarino أحد النقاط الهامة على الساحل الغربي للمورة إلى الجنويين وهو ما يمثل حسب رؤية المؤرخ ديـنس Dennes كارثة وخيمة العواقب بالنسبة للبنادقة(١١).

وقد أدى عجز تيودور الأول عن مواجهة المطـامع اللاتينيـة والمعارضـة الداخلية إلى ارتمائه في أحضان العثمانيين، حيث أرسل في طلـب العـون مـن السلطان العثماني مراد الأول(١٣٦٢ - ١٣٨٩م) Murad I لمواجهة هذا الأمر في أواخر عام ١٣٨٧م في مقابل أن يكون تابعاً له وقد استجاب السـلطان مـراد الأول لطلب تيودور، وأرسل جيشاً بقيادة أفرينوس بك Evrenos Bey الذي نجح في أنزال الهزيمة بأعداء تيودور، وقد أدى تدخل أفرينوس إلى حدوث المزيد مـن الخراب لرعايا تيودور أكثر مما حدث للنافاريين ومعارضيه من النبلاء المحليـين، مما أحدث سخطاً عظيماً لدى سكان الدوقية(١٢).

ويتضح مما سبق عدم قدرة تيودور الأول على التعامل مع الكيانات السياسية اللاتينية في البيلبونيز فالتعارض مع المصالح لن يمكنه مـن الاسـتفادة مـن أي تحالف قام به. كذلك فإن حرمانه من أي مساندة من القسطنطينية وانقطاع الاتصال بينهما جعله يتسرع في كثير من المواقف التي أتت عليه بنتائج عكسية في النهاية .

على أية حال، لم يمض كثير من الوقت حتى دخل تيودور في صراع جديـد مع البنادقة الذين تمكنوا عام ١٣٨٨م من شراء أرجوس وناوبليا Naupliea من مارى من اينهن Marea of Enyhien أرملة بطرس كونارو بعد فشلها في الدفاع عنهما. وقد رأى تيودور أن استيلاء البنادقة على هاتين المـدينتين يحرمـه مـن

الوصول إلى البحر الإيجي، إلى جانب كونهما نقطتان استراتيجيتان في السيطرة على وسط البيلبونيز ، فبادر بالاستيلاء عليهما قبل أن يضع البنادقة أيديهم عليها فأثار ذلك غضب البنادقة، وأرسلوا وفداً بندقياً رفيع المستوى في مطلع عام ١٣٨٩م من أجل إقناع تيودور بالتخلي عن المنطقتين ودياً وكان رد تيودور بالموافقة على التنازل عن ناوبليا فقط، وأعلن تمسكه الشديد بأرجوس نظرا لأهميتها، وهو ما أدى إلى تأزم الموقف بشدة[١٣].

وبناء على رد تيودور الأول أخذت البندقية في دراسة الموقف، لاتخاذ القرار المناسب لردع تيودور خاصة وأن إتباع سياسة الحصار الاقتصادي لا تجدي مع الدوقية لأنها تعتمد على الاكتفاء الذاتي إلى جانب أن تيودور كما هو واضح سلفاً، يتمتع بالحماية العثمانية إلى جانب علاقة المصاهرة مع المغامر الإيطالي أكيايولى وكان لابد على البندقية قبل أن تدخل في مواجهة مباشرة مع تيودور أن تقوم بقطع أواصر الصداقة والتحالفات القائمة بين تيودور من جهة والعثمانيين وأكيايولى من جهة أخرى. وكانت البداية من خلال السفارة التي أرسلتها البندقية إلى السلطان العثماني الجديد بايزيد الأول (١٣٨٩ – ١٤٠٣م) Byazid I لشرح الموقف على الطبيعة وممارسة الضغوط عليه من أجل التخلي عن مساندة تيودور. وقد فشلت السفارة في مساعيها لأن بايزيد لم يكن يضحي بمثل هذا التحالف الهام والذي يمكنه من التواجد في هذه المنطقة الهامة منن الإمبراطورية البيزنطية، الأمر الذي أدى بالبنادقة للتحالف مع النافاريين العدو التقليدى لتيودور وكانت البندقية ترغب من خلال التحالف مع النافاريين إلى ضرب أكثر من عصفور بحجر في المخطط الذي ترمى إلى تحقيقه والذي قد يمكنه في حالة نجاحه من استرداد أراضيها إلى جانب إحداث فرقة كبيرة بين الأطراف الثلاثة أكيايولى وتيودور والنافاريين فمن خلال الزعيم النافارى بطرس بوردو Peter Bordo استطاعت استدراج أكيايولى بحجة التشاور الثنائي حول قضية أرجوس وقامت بإلقاء القبض عليه وأخذت تلوح بتلك الورقة في ممارسة الضغوط على تيودور بالتنازل عن أرجوس مقابل فك أسر صهره. ولكن تيودور لم يبد أي اهتمام بتلك الضغوط، لسابق خيبة أمله في صهره. فلما شعرت البندقية بفشل مخططها قامت بإطلاق سراح أكيايولى في مايو ١٣٩٠م[١٤].

وأمام فشل جميع الخيارات السابقة، لجأت البندقية إلى استخدام القوة لحل هذه المشكلة، وذلك من خلال تحالف مشترك مع النافاريين ومغامر لاتينى من آخايا يدعى أماديو من سافوى، وكان لهذه التحركات أثر فى إثارة المشاكل الداخلية بالدوقية مما جعل تيودور يسرع بالتخلي عن أرجوس عام ١٣٩٤م، حتى يتفرغ لمشاكله الداخلية(١٥).

وقد أخذت المشاكل تتوالى بعد ذلك على تيودور، فالموقف السيئ أثناء أسر صهره أكيايولى جعله يفاضل في توزيع الإرث بين ابنتيه. ففي الوقت الذي حدد فيه إرث ابنته زوجة تيودور بمبلغ ٨٠٠ دوكات بندقية، قام بمنح ابنته الأخرى المتزوجة من كارلوتوكو Carlo Toco كونت كيفالونيا (١٣٨١ – ١٤٥٢م) ودوق أبيروس (١٤١٨ – ١٤٢٩م) معظم أملاكه، خاصة كورنثة وسيكيون Sikyon وميجارا .وقد اعتبر ثيودور ذلك إهانة كما أن زوجته بارثولوميا شرعت في تحريض زوجها على صهره وأختها لينال ما يستطيع من الإرث الضائع وبخاصة كورنثة. فقام تيودور على الفور بفرض حصار على كورنثة ، وتحملت الأخت فرنسيسكا Francesca عبئ الدفاع عنها لحين وصول زوجها من كيفالونيا، والذي استعان بالعثمانيين الموجودين في تلك الأثناء في تساليا Thessaly. واقتصر تدخل العثمانيين في ذلك الوقت للتوفيق بين الطرفين لأنهم كانوا يرغبون في الحفاظ على التوازن السياسي في المورة، وانتهى الأمر ببيع كارلو توكو لمنطقة كورنثة لتيودور(١٦).

وكان على تيودور أن يتحمل نتائج الارتجالية والتخبط اللذان يتبعهما في إدارته لحكم الدوقية، فسياسة التنقل من حليف إلى آخر، والتي وصلت به إلى حد الارتماء في أحضان العثمانيين حتمت عليه دفع ثمن ذلك للعثمانيين. فمع تعدد شكوى أمراء اللاتين للسلطان العثماني بايزيد من ممارسات تيودور الأول العدوانية باعتبار أنه الحامي له، قرر السلطان عقد مجلس في سيرس Seress في ربيع عام ١٣٩٤م، دعى إليه جميع أطراف النزاع وبمشاركة الإمبراطور مانويل الثاني Manuel II Palaiologos (١٣٩١ – ١٤٢٥م) وبالفعل لبى الدعوى الشقيقان مانويل وتيودور، وحضر كذلك عدد من أمراء اللاتين وخلال ذلك ضغط السلطان

بايزيد على تيودور بالكف عن ممارساته العدوانية ضد اللاتين، وطالبه أيضاً بالتنازل عن بعض أملاكه ولكن أعلن تيودور رفضه وفر هارباً وتحصن بالمورة تحسباً لأي هجوم تركي عليه[١٧].

وقد رأى السلطان بايزيد أن الأمر يتطلب التصرف بحزم حيال خداع تيودور وفراره من سيرس، فبادر بإرسال جيش كبير بقيادة إيفرينوز بك Evrenes Bey الذي وصل إلى البيلبونيز مع نهاية عام ١٣٩٤م ومطلع ١٣٩٥م، وقد انضم إليه جماعة النافاريين العدو التقليدي لتيودور الأول. وتمكنوا من هزيمة قواته أسفل أسوار كورنثة ، كما قاموا بالاستيلاء على بعض الحصون البيزنطية مثل Akova, Leontarion وتبع ذلك حالة من الهدوء والاستقرار لانشغال الغرب الأوروبي مع السلطان العثماني بايزيد في معركة نيقوبوليس Nicopolis عام ١٣٩٦م حاول خلالها تيودور إصلاح بعض ما خلفه الجيش التركي من دمار. وتشير بعض الروايات إلى هجوم آخر للجيش العثماني على المورة في العام التالي للمعركة ولكنه لم يثمر عن تغير للوضع الجغرافي للمنطقة لأنه غلف بعمليات السلب والنهب فقط[١٨].

ويمكن القول أن الضربات العثمانية المتتالية على المورة أدخلت المزيد من الرعب في نفس تيودور، الأمر الذي دفعه للإقدام على تصرف يائس وهو وضع الدوقية تحت حماية فرسان الاسبتارية (فرسان القديس يوحنا) المقيمين بجزيرة قبرص. وذلك أملاً في بناء خط دفاع قوى ضد الزحف العثماني نحو المورة. وقد أثار هذا التصرف حفيظة الإمبراطور مانويل الثاني، الذي طلب من أخيه فك هذا الارتباط في أقرب فرصة. كذلك فإنه كان محل معارضة شعبية عارمة داخل المورة، خوفا من نجاح هؤلاء الفرسان في مساعيهم في ممارسة أعمال التبشير للمذهب الكاثوليكي[١٩]. وأمام هذه المعارضة في الداخل والخارج لم يجد تيودور الأول مفراً من فك الارتباط مع الاسبتارية، وقد شجعه على ذلك انشغال السلطان العثماني بايزيد في صراعه مع تيمورلنك والذي انتهى بهزيمته وأسره في معركة أنقرة Ankara عام ١٤٠٢م[٢٠].

وهكذا كان لهزيمة العثمانيين في موقعة أنقرة وانشغالهم بالنزاع الداخلي على الحكم أثره في منح الأمل لدوقية المورة لتعيش في أمان لبعض الوقــت، وعــاش تيودور ما تبقى من عمره حتى وفاته ١٤٠٧م في هدوء تام. ورحل دون أن يضيف أي مزايا للدوقية، حيث إن سياسته الارتجالية جرفته إلى مزيد من المعارك دون أن يكون مهيئاً لها.

وبوفاة تيودور الأول عام ١٤٠٧م انتقل حكم الدوقية إلى ابن شقيقه تيــودور الثاني بــاليولوجوس Theodore II Palaiologos (١٤٠٧م-١٤٤٣م) وكــان وقتها لم يتعد الثانية عشرة من عمره ورغم ذلك فقد كان ملماً بمعظم أحوال الدوقية لأنه قضى بالمورة الفترة الأخيرة من حياة عمه ، بإيعاز من والــده الإمبراطــور مانويل الثاني حتى يكتسب الكثير من الخبرات والحنكة السياسية[٢١].

وقد غلب على هذه الفترة التي كانت محل اهتمام الأباطرة البيزنطيين نزعة قومية ترمى إلى إحياء الهلينية مرة أخرى، وكان بلاط ميســترا مــلاذاً للفلاســفة والمثقفين والإصلاحيين، الذين رغبوا في ازدهار الحياة الثقافية في المورة مثلمــا كان الأمر في بيزنطة منذ مئة عام مضت، وكان هدف الجميع فــي النهايــة هــو محاولة إحياء الإمبراطورية من جديد لمواجهة التهديدات العثمانية المتنامية[٢٢].

وكان أشهر هؤلاء الإصلاحيين الذين حاولوا من خلال كتاباتهم وضع برامج إصلاحية من خلال وجهة نظرهم لإحياء الثقافة الهلنية كل من الفيلســوف بليثــون Plethon[٢٣] والكاتب مزاريس Mazaris[٢٤].

وقد وضع الفيلسوف بليثون الذي كان يحلم بأن تصبح ميسترا نبع الهلينيــة برنامجاً إصلاحياً، وطرح خلاله عدة نظريــات لمعالجــة النــواحي الاجتماعيــة والاقتصادية والعسكرية من خلال عدة رسائل خطها إلى كــل مــن الإمبراطــور البيزنطي مانويل الثاني والدوق تيودور الثاني وكان متأثراً في كتاباتــه بالمدينــة الفاضلة Utapia للفيلســوف اليوناني القديم أفلاطون. ويمكن القول أن فكره كــان يقوم على بعض الأسس الاقتصادية وخياله الفلسفي. وكان برنامجه مــن الناحيــة الاجتماعية يقوم على تقسيم المجتمع إلى طبقتين : الأولى الطبقة العاملة ومعظمهــا

من المزارعين ويطلق عليها لقب Helots، وهى التي تقوم بدفع الضرائب. وبالتالي يتم إعفاء أفرادها من أداء الخدمة العسكرية. والطبقة الثانية وهى طبقة العسكريين، الذين يخول لهم حمل السلاح والدفاع عن الدوقية، ويتم إعفاؤهم من كل أنواع الضرائب[٢٥].

وفيما يتعلق بالنواحي الاقتصادية، فبرنامجه يعتمد على إلغاء الملكية الخاصة للأراضي، فالأرض التي أوجدتها الطبيعة يجب أن تكون ملكيتها مشتركة بين السكان، فكل فرد يستطيع أن يزرع أرضاً أو يبنى منزلاً كيفما يشاء، وقد وضع في نفس الوقت نظاماً مبسطاً لتوزيع إنتاجية الأرض فبعد أن يتم الحصاد يقسم الإنتاج على ثلاثة أجزاء متساوية، ثلث للعمالة، وثلث لأصحاب أدوات الإنتاج، والثلث الأخير وهو الضريبة التي تمنح للمحاربين والطبقة الحاكمة بما فيها الإمبراطور وبعض من كبار رجال الدولة، وكان يقصد من هذا النظام إضعاف سلطة البارونات مقابل تقوية سلطة الدولة[٢٦].

كما أراد أن ينقل وضع الاقتصاد من حالة الاكتفاء الذاتي إلى إيجاد فائض يستخدم جزء منه كمخزون استراتيجي والآخر للتصدير. وكان يرى أن الاكتفاء من الممكن أن يتحقق جزئياً من خلال منع التصدير إلا في حالة الضرورة ومن خلال فرض ضريبة باهظة عليها، وألا يتم التصدير للمنتجات الزراعية إلا للدول الصديقة على أن يضاف لها تعريفة جمركية تعادل ٥٠% من أساس التكلفة. وإذا كانت الدوقية في حاجة إلى سلع غير متوفرة بها مثل الحديد والسلاح، فيتم استيرادها بنظام المقايضة وليس بالنظام النقدي، وكان يقصد من وراء ذلك وجود حالة من التكافؤ بين الصادرات والواردات، كما أنه ألزم الطبقة الحاكمة من كبار رجال الدولة عدم ممارسة الأنشطة التجارية، وإذا أرادوا العمل بالتجارة فعليهم أن يخيروا بينها وبين العمل بالإدارة. وفيما يتعلق بالنواحي العسكرية فقد كان بليثون يفضل عدم اعتماد الجيش في نظام التجنيد على المرتزقة وأن يكون اعتماده كلياً على السكان المحليين لأنهم أكثر ولاءاً وحباً للوطن وإيماناً بإحياء القومية الهلينية[٢٧].

وإذا ما نظرنا لبرنامج بليثون، فهو نتيجة أزمة كانت تعيشها الإمبراطورية، وهو كغيرة من الإصلاحيين على مر العصور يتخذون من المثاليات هدفاً للخروج من الأزمة. فنظريته هي أقرب للنظام الشمولي، حيث افتقــدت لمســائلة الأربــاح ونسبها في الأعمال التجارية، كما أنه تجاهل النشاط الصــناعي وإطــلاق حريــة التصدير لتدفق العملات على الدوقية. كما أنه أخطأ في إتباع نظام المقايضة الــذي لم يعد صالحاً للتطبيق خلال هذه الفترة. ولكن في النهاية يمكن القــول أن رؤيــة بليثون تعد وثيقة ثقافية هامة لعملية الأحياء البيزنطى في عهد آل باليولوجوس.

ورغم ذلك فإنها لم تلق حماساً من قبل الإمبراطور مانويل ولا الدوق تيودور الثاني. ويمكن تفسير ذلك بأن العالم البيزنطى أصبح قــديماً ومتهالكــاً ومتمســك بالماضي بشكل كبير، مما جعله يتوجس خيفة من المستقبل والإقدام على أي حركة إصلاحية.

أما مزاريس فكان ناقد للمجتمع البيلبونيز ى. وكان دائماً ما يقول بأن اســم المورة مرادفاً للبلاهة والسذاجة، وكان ملماً بالخريطة السكانية وغيــر متعصــب للعنصر الهلينى، وكان يصف الإيطاليين من سكان الجزيرة بالجشع، والسلاف بأنهم سفاحين ومتعطشين للدماء، واليهود بأنهم مشاكسين، أما الألبــان فيصــفهم بــأنهم مخادعين. ولكنه على عكس بليثون لم يقدم أي حلول نظرية لمستقبل المورة. ورغم ذلك فإن هذا الإسهام الثقافي ساعد على رقى التعليم في الدوقية، وامتد تأثيرها إلى العمران حيث تم بناء العديد من القصور والكنائس المزينة بالفسيفساء[٢٨].

وإذا ما انتقلنا من عالم المثاليات إلى أرض الواقع، فإن الإمبراطور مانويــل الثاني كان قلقاً على أوضاع المورة، بسبب البارونــات المحليــين، الــذين كــانوا يعتبرون أن حكام الدوقية البيزنطيين دخلاء عليهم يتم استيرادهم من القســطنطينية لحكمهم ليس إلا. لذلك فقد تقطعت أواصر الود بينهما، وكان الإمبراطور مانويــل يستشعر خطورة هذا الأمر ؛ لأن استمرار تمرد البارونات المحليــين والصــراع القبلي الدائر بين القبائل في المناطق الجبلية والوديان شبه المنعزلة عن العاصــمة ميسترا يهدد أمن الدوقية، خاصة وأنهم غالباً ما يســتعينوا بــاللاتين المجــاورين لهم[٢٩].

ولذلك فعندما سنحت له الفرصة مستفيدا من حالة الهدوء مع العثمانيين قام بالذهاب إلى المورة في رحلة قصيرة كان الهدف منها بحث المشاكل على أرض الواقع، وقد وصل في ٢٩ مارس ١٤١٥م، وكان هدف الإمبراطور مانويل من هذه الزيارة هو استعادة سلطة الإمبراطورية على البيلبونيز لتكون حصناً دفاعياً للإمبراطورية، فقام بإبعاد أرباب المطامع الشخصية إلى القسطنطينية، وحد من سلطات البارونات المحليين. كما سمح بتدفق المهاجرين الألبان مرة أخرى لسد العجز في عدد السكان الناتج عن الهجمات العثمانية واللاتينية السابقة خشية توقف العمل في المزارع مما يهدد اقتصاد الدوقية. وحرصاً منه لزيادة القدرات الدفاعية للدوقية قام ببناء سور ضخم عرف باسم الهكسمليون Hexamilion عبر مضيق كورنثة يمتد من Isthms إلى كورنثة Cornth، والذي تم إنجازه في فترة وجيزة لم تتعد خمسة وعشرون يوماً، أما الشواطئ فلم يقم بعمل شيء بها لأنها كانت تحت سيطرة البنادقة الذين تولوا حمايتها(٣٠).

وقبل رحيله في مارس ١٤١٦م، قام باستدعاء ابنه ووريثه في العرش يوحنا لينهي بعض المشاكل العالقة والتي لم يسعفه الوقت لإنجازها، والتي تتعلق بالنافاريين وإمارة آخيا. ولم يخيب يوحنا ظن أبيه، حيث تمكن من هزيمة الطرفين، وأنهى القتال بعد تنازل أمير أخايا سنتريوني زكريا Centurione Zaccaria (١٤٠٤م – ١٤٣٠م) عن مقاطعتي إليس Elis وميسينا Messenia وأثناء ذلك اصطدمت قوات يوحنا وأخيه بتيودور الثاني بالبنادقة، وأسفر هذا الصدام على سلب ونهب مقاطعتي مودن Modon وكورن Coron(٣١).

وأملاً منه في تحسين علاقته بالغرب ضماناً للسكوت عن تجاوزاته في المورة قام تيودور الثاني بالزواج من الأميرة الإيطالية كليوبى مالاتستا Cleope Malatesta ابنة عم البابا مارتن الخامس Martin V (١٤١٧-١٤٣١م). وقد أبدى البابا مارتن تحفظه على تحولها للكنيسة اليونانية إلا أن ذلك لم يؤثر في شيء في العلاقة بينهما، وقد أسهمت بدور فعال في الجوانب الثقافية بالمورة وتفاعلت تماماً مع الفيلسوف الإصلاحي بليثون(٣٢).

ومما هو جدير بالذكر أن ظهور السلطان العثماني مراد الثاني Murad II (١٤٢١-١٤٥١م) أمام أسوار القسطنطينية ١٤٢٢م أدى إلى تسرب الخوف داخل نفس تيودور، مخافة أن يصبح الفريسة التالية للسلطان العثماني في حال سقوط القسطنطينية(٣٣). وقد دفعته تلك الأحداث إلى محاولة الاستعانة بحلفاء من الغرب مستغلاً ما وصل إليه من علاقة طيبة مع البابوية، فلجأ إلى البنادقة الذين اشترطوا عليه التنازل أولاً عن مودن Modon وكورن Corn. وأمام الضغوط البندقية لم يجد مفراً من التنازل عنهما وعقد اتفاق للصلح بين الطرفين نص على أن يتعهدوا بمقتضاه بمد يد العون له في حالة تعرضه للخطر العثماني وكان ذلك في أواخر فبراير ١٤٢٣م(٣٤).

وقد حدث ما كان يخشاه تيودور بالفعل، فقد أدى إخفاق السلطان العثماني مراد الثاني في اختراق أسوار القسطنطينية إلى أن يتجه بجيوشه صوب المورة في ربيع ١٤٢٣م من أجل تحقيق نصرا معنويّ يمحو به هذا الإخفاق. حيث قام السلطان بتدمير سور الهكسمليون. وخرب العديد من أراضي المورة، ولم ينه أعماله إلا بعد موافقة تيودور الثاني على دفع ضريبة سنوية للسلطان إلى جانب التخلي عن بعض المدن التي استولى عليها بعد موقعة أنقره. والغريب في الأمر أن البنادقة تركوا تيودور يواجه مصيره وحيداً دون تقديم أي عون، وبطبيعة الحال فإن ذلك يعود إلى عدم رغبتهم في إغضاب السلطان العثماني(٣٥).

كيفما كان الأمر، فإن الهجوم العثماني الأخير لم يؤثر كثيراً على أحوال الدوقية، حيث استمرت الحياة على طبيعتها ٠ وأراد تيودور الثاني أن يثبت تواجده بالقيام بعمل توسعي على حساب اللاتين بعد انسحاب الجيش العثماني من المورة، فاصطدم مع كارل توكو Carlo Tocco دوق ابيروس نتيجة النزاع حول مقاطعة Clarentza وقد استغل الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوجوس John VIII Palaiologos (١٤٢٥-١٤٤٩م) حالة الهدوء من الجانب العثمانى وقاد بنفسه حملة بحرية ولآخر مرة فى تاريخ بيزنطة وأنزل الهزيمة بكارل توكو عام ١٤٢٧م. ثم دخل الطرفان بعد ذلك في مفاوضات للصلح، تم تدعيمه بزواج

سياسي في العام التالي بين قسطنطين شقيق تيودور ومدلينا ابنة توكو. وكان مهرها التنازل عن مقاطعة Clarentza[٣٦].

وقد كشف الصراع الأخير حقيقة هامة بالنسبة للإمبراطور يوحنا الثامن ، حيث أدرك أن استقرار الأوضاع بالبيلبونيز لن يتم إلا بالقضاء على التواجد اللاتيني فأخذ في الإعداد لمشروع توسعي على حساب الكيانات اللاتينية ، ونظراً لانشغاله بالأمور الداخلية بالقسطنطينية و خشية التعرض لأي هجوم عثماني مفاجيء فقد أرسل في طلب شقيقه قسطنطين، لأنه يعلم قدراته العسكرية لتنفيذ هذه المهمة ولعلمه المسبق بضعف قدرات تيودور الثاني وأخيه توماس ، وأصبح بالمورة ما يشبه الحكومة الثلاثية، وقد تمكن الأشقاء من إنهاء الوجود اللاتيني في البيلبونيز ، فقد استطاع قسطنطين في مطلع ١٤٣٠ من الاستيلاء على بتراس Patras، بعد حصار طويل وبعد عامين وصلت إمارة آخايا إلى نقطة النهاية وبالتالي فقد أصبح كل البيلبونيز في حوزة البيزنطيين باستثناء المستعمرات البندقية في مودن وكورن ونابوليا في جنوب غرب الجزيرة وأرجوس في الشرق .

وقد أوضحت هذه الانتصارات تناقضاً غريباً ؛ ففي الوقت الذي تنحصر أملاك الإمبراطور[٣٧]، يتوسع البيزنطيون في المورة. وبطبيعة الحال فإن إنجازات البيزنطيين في البيلبونيز كانت مصدر قلق وتوتر بالنسبة للعثمانيين[٣٨].

وهكذا فإن الدلائل كانت تشير إلى أن آل باليولوجوس أصبحوا على مقربة من تحقيق حلمهم ببناء الكيان البيزنطي البديل إلا أنهم لم يفلحوا في تحقيق هذا الحلم حيث أصيبوا على غير المتوقع بحمى الصراع والتنافس التي كانت سائدة في البيلبونيز حينذاك وأصبحت شبه جزيرة البيلبونيز غير قادرة على استيعاب آل باليولوجوس، وأدى ذلك في نهاية الأمر عن قيام حكومة ثلاثية ، قسمت خلالها المورة بين الأشقاء الثلاثة ، حيث استقر تيودور في العاصمة ميسترا، بينما أقام توماس في كلارنتزا Clarentza، أما قسطنطين فقد استقر هو الآخر في كالافريتا Kalavryta. وبطبيعة الحال فإن حالة الانقسام العائلي سوف تولد نوعا من الصراع خلال المرحلة القادمة سيؤدى إلى اتساع حالة الفرقة والتمزق بين الأشقاء الثلاثة[٣٩].

وجدير بالذكر أن حمى التنافس انتقلت من الصراع حـول الدوقيـة، إلـى الصراع حول عرش الإمبراطورية ، فالإمبراطور يوحـنا الثامن قد تقدم به السن وكان عقيماً كما كان يفضل شقيقه قسطنطين ، مما أثار حدة التنافس بيـن أشـقاءه لخلافته على عرش الإمبراطورية وأدى ذلك إلى ظهور ما يشبه الحرب الأهلية في الفترة ما بين سبتمبر ١٤٣٥و يونيو ١٤٣٦م. وكان تيودور يرغب في الاسـتحواذ على هذا المنصب فتعلل بمرضه وطلب من أخيه قسطنطين مبادلته بحيث ينال هو مقطعة سليمبريا Selymbria التي تبعد عن القسطنطينية بحوالي خمسين كيلـومتر حتى يكون قريباً منها تحسباً لأي ظروف في حين يحصل قسطنطين على أملاكـه في المورة. وتم التبـادل بالفعل بعد عدة مشاورات، ورغـم ذلك فلم يتحقق حلـم تيودور الثاني، حيث توفـى قبل وفاة الإمبراطور بثلاثـة أشـهر(٤٠).

ومن الواضح أن قسطنطين كان أكثر الأشقاء اطمئناناً لوراثة العرش، لأنـه أقرب الأشقاء للإمبراطور يوحنا الثامن ولإمبراطورة الأم هيلينا Helena (زوجة الإمبراطور مانويل باليولوج)، بدليل أنه حكم نيابة عن الإمبراطور أثنـاء سـفره لحضور مجمع فرارا Ferrara بإيطاليا عام ١٤٣٨ كما أنه بقـى بعـض الوقـت بالقسطنطينية حتى بعد وصول الإمبراطور مما أثار حفيظة بقية أشـقائه . إلـى جانب أن تيودور الثاني رغم أنه كان محب للثقافة والعلوم والآداب، فإنه كـان عصبي المزاج مضطرب ولا يمتلك الكفاءة العسكرية الكافية، بدليل أن معظـم الأعمال العسكرية والدفاعية قام بها أبيه مانويل وأشقاءه(٤١).

وبرحيل تيودور الثاني، استقر الأمر لقسطنطين ومعـه تومـاس، وكـان قسطنطين هو صاحب الكلمة الأولى في الدوقية. وقد أراد قسطنطين استغلال حالة الهدوء العثماني في البلقان لتحقيق بعض النجاحات التي تمكنه من توسـيع رقعـة الدوقية قدر المستطاع. وكان مخطط قسطنطين يهدف إلى السيطرة التامـة علـى البيلبونيز والقضاء على الوجود اللاتيني بها. كذلك تحريضه للكيانات السياسية في البلقان بالخروج على العثمانيين، لإحداث فوضى عارمة تقلل من النفـوذ العثماني في المنطقة خاصة وأن الأوضاع كانت تنبئ باستعداد الغرب للقيام بحملة صليبية

ضد العثمانيين، كما أعاد بناء حائط الهكساملیون عـام ١٤٤٤م بمسـاعدة شـقيقه توماس(٤٢).

وقد نجح مخطط قسطنطين بالفعل، وذلك بسبب قيام مرتد البـاني يـدعى إسكندر بك بحركة تمرد عام ١٤٤٤م في البلقان، سرعان ما انتشـرت فـى بقيـة البلقان، وهو ما يعنى انشغال العثمانيين عنه لأطول فترة ممكنه. كذلك نجح أيضـاً قسطنطين فى الوصول إلى اتفاق مع راجوزه فى دخولها فـى الحملـة الصـليبية المزمع قيامها من الغرب، كذلك مساعدتها له شخصياً فى حالة تعرضـه لهجـوم عثمانى(٤٣).

وبناء على ما سبق أسرع قسطنطين في تطبيق مخططه طمعاً في الاسـتفادة من انشغال العثمانيين عنه لأطول فترة ممكنة. وهى مغامرة قابلة للفشل أو النجاح فقام بإعادة بناء وتحصين سور هكسمليون، واستغل اشتعال معركة فارنا Varna ١٤٤٤م وشن هجوماً مباغتاً على طيبة وأثينا وأجبر دوقها نيرو الثاني أكيـايولى الذي كان تابعاً للسلطان العثماني، على الاعتراف بالتبعية له ودفع الإتاوة التي كان يدفعها للسلطان العثماني(٤٤).

وقد شعر قسطنطين داخل نفسه أنه أصبح نداً للعثمانيين، حيث لـم يبـال بالهزيمة الساحقة للقوات الغربية في فارنا، وأخذ في التقدم داخل البلوبـونيز دون الالتفات لأي رد فعل عثماني واستولى على بؤتيا Boeatia وأخذ في بسط نفوذه حتى وصل إلى جبال Pindus وسط اليونان ٠ وبدا الأمر حتى هذه اللحظة وكأن يونانا جديداً سوف يلوح في الأفق على أرض هيلاس Hellas القديمـة كوريـث لبيزنطة المشرفة على الاحتضار(٤٥).

أدرك السلطان العثماني مراد الثاني خطورة الموقـف، خشـية أن تـؤدى نجاحات قسطنطين إلى نوع من التقارب بينه وبين القوى الغربية ٠ مما يؤدى إلى تحسين أوضاعه العسكرية، وهو ما يمكن أن يؤدى إلى عرقلة الأهداف العثمانيـة في السيطرة على البلقان البيلبونيز من ناحية، والفشل في إسقاط القسطنطينية مـن ناحية أخرى إذا ما استطاعت المورة أن تقدم لها العون اللازم ٠

وقد أخذت الجيوش العثمانية في التحرك صوب البلوبونيز، وكانت أول أعمالها السيطرة على أثينا وإعادة التابع العثماني نيرو الثاني أكيايولى إلى منصبه. ثم اتجهوا بعد ذلك إلى الساحل الشمالي لخليج كورنثة في منتصف مايو ١٤٤٦م واستردوه في الحال، وخلال ذلك لم يجد السلطان مراد أي مقاومة تذكر حتى أصبح أمام سور الهكسميليون • وفى هذه اللحظة شعر قسطنطين بعدم قدرته لمواجهة الجيش العثماني[٤٦].

وقد بادر باستخدام الأساليب الدبلوماسية، فأرسل سفارة إلى السلطان مراد ليعلن له فيها أسفه عن الأحداث السابقة، وقبوله الصلح بشروط السلطان •غير أن السلطان كان جاداً في تأديب قسطنطين، فقام بحبس سفراءه وأخذ في دك حصون سور هكساميليون في مطلع ديسمبر ١٤٤٦م وقد استمرت المدافع في إطلاق قذائفها عليه لمدة أسبوعين، ثم تقدم بعد ذلك نحو بتراس وأنزل بها الكثير من الدمار، وقام بسلب المناطق الريفية المحيطة بها هذا في الوقت الذي قام فيه المرتزقة الألبان بالفرار بعيداً وتركوا قسطنطين يلقى مصيره وحيدا، هنا صدق حدس بليثون في عدم الاعتماد على الجنود المرتزقة في حماية الدوقية • واستطاع السلطان أسر ما يقرب من ٦٠٠٠٠ أسير تم إرسالهم للأسواق العثمانية. وكان السلطان يرغب في مواصلة فتح الدوقية، لولا علمه ببعض الإضطرابات في البلقان، مما جعله يكتف باعتراف قسطنطين بالتبعية له ودفع الجزية. ورغم ذلك فإن المصادر لم تشر إلى توقف المظاهر الثقافية بالدوقية[٤٧].

على أية حال كان لوفاة الإمبراطور يوحنا الثامن في ٣١ أكتوبر عام ١٤٤٨م أثره في تغير الأوضاع في الدوقية، حيث تمكن أخوه قسطنطين بمساعدة الإمبراطورة الأم من تولى عرش الإمبراطورية وتم تنصيبه في ميسترا في السادس من يناير ١٤٤٩م باسم قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٩– ١٤٥٣م) Constantine XI Palaiologos. ورحل بعد ذلك إلى القسطنطينية وقسمت السلطة في المورة بين توماس وديميتريوس، وكان هناك حالة من عدم الوفاق بينهما. فتوماس الذي ظل لعدة سنوات يعيش في الظل في عهد أسلافه السابقين أراد أن يمارس دوراً

مؤثرا ، وفى نفس الوقت كان ديميتريوس دائم الطموح وعاشق للسلطة والزعامة. ولذلك كان من الطبيعي أن تضيق الدوقية بهم رغم اتساعها[٤٨].

وقد حصل توماس على شمال غرب آخيا ومدن بتراس وكلارنتزا ، في الوقت الذي نال فيه ديميتريوس ما تبقى من المورة بما فيها ميسترا ، واقسما أمام الإمبراطورة الأم بعدم مساس أي منهما بأملاك الأخر، وأن يكون السلام والتعاون أساس العلاقة بينهما وهو ما تنافى مع الواقع حيث ما لبث أن نشب الصراع بينهما، الأمر الذي أسرع بالإمبراطور قسطنطين للتدخل بينهما حتى لا يضيع ما تم إنجازه هباء[٤٩].

كيفما كان الأمر فلم يكن لدى أي من الطرفين الرغبة في الحفاظ على وحدة الدوقية وسلامتها قدر رغبته في الانفراد بالزعامة والسلطة ففي الوقت الذي كانت فيه القسطنطينية مهددة بالسقوط نتيجة ضربات المدافع العثمانية، وبدلاً من توحيد الشقيقان لجهودهما لمساعدة الإمبراطورية، دخلا في صراع جديد من أجل الزعامة. وفى تصرف غريب ومثير للمشاعر قام ديمتريوس بطلب مساعدة الأتراك أعداء أمته ضد أخيه توماس، الذي بادر في نفس الوقت بطلب المساعدة من الغرب الأوروبي. ورغبة من السلطان العثماني في الحفاظ على عملية التوازن، وعدم ترك الفرصة لقوى أخرى بالتدخل في الشئون الداخلية للدوقية، قام بإرسال قائده طرخان إلى المورة في خريف عام ١٤٥٢م. وتمكن طرخان بك من تهدئة الأوضاع في الدوقية حتى يحين الوقت الذي يسمح للعثمانيين بالاستيلاء عليها[٥٠].

وسرعان ما تفجر الموقف مرة أخرى في البيلبونيز ، فحالة الضعف والصراع التي يعيشها الشقيقان ساعدت المتمردين للخروج والاستقلال عنهما ؛ فالألبان أعلنوا التمرد، واختاروا دوقاً جديداً يدعى مانويل كانتا كوزين وقاموا بالتفاوض معه لشراء كورنثة وبتراس. وفى نفس الوقت أعلن الفرنجة أيضاً العصيان وقاموا باختيار يوحنا آسين زكريا أميراً لآخيا ، وشعر السلطان العثماني محمد الثاني بحساسية الموقف، حيث أنه يرغب في الحفاظ على الدوقين توماس وديميتريوس إلى أن تحين اللحظة التي تسمح له بالقضاء عليهما والسيطرة على البيلبونيز ، لذلك قام بإرسال جيشاً بقيادة طورخان بك وابنه عمر في نهاية عام

١٤٥٤م لمساعدة آل باليولوجوس ضد الثورات التي نشبت ضدهم، خاصة بعد علم السلطان أن البنادقة كانوا وراء تحريض الألبان في الخفاء. وذلك بهدف الاستيلاء على كورنثة وبتراس في حالة نجاح الألبان في تمردهم، إلى جانب كسر شوكة الفرنجة لقطع الطريق عليهم مسبقاً للحصول على أي عون من الغرب الأوروبي فتصبح البلوبونيز فيما بعد ساحة للفوضى[٥١].

وقد أيقن الشقيقان خلال الأحداث السابقة، حقيقة الموقف العثماني منهما وأن بقائهما على هذا الوضع ما هي إلا مسألة وقت فقط لا أكثر من ذلك. ففكرا فى الالتجاء إلى الغرب، ولكن انفراد كل منهما عن الآخر فى البحث عن حليف غربى أدى إلى علم السلطان العثمانى بهذه المحاولات فوصلت تلك الأخبار إلى السلطان محمد الثانى، الذي غضب من هذا التصرف، وقرر السير إلى البلوبونيز لبحث الأمر بنفسه[٥٢]، وقد وصل السلطان إلى المنطقة في منتصف مايو ١٤٥٨م حيث قام بالاستيلاء على كورنثة التي تمثل عنق الزجاجة بالنسبة للمورة، ثم اتجه بعد ذلك جنوباً إلى ميسترا، حيث أجبر الدوقان على الاعتراف بالتبعية ودفع ما تأخر من الضرائب المفروضة عليهم منذ عام ١٤٥٤م وحذرهما أيضاً من إثارة المشاكل حتى لا يؤدى ذلك إلى تدخل أطراف غربية في شئون المورة. وبعد رحيل السلطان تدخل العديد من رجال الدين والمثقفين للتوفيق بين الأخويين[٥٣].

وجدير بالذكر أن حملة السلطان محمد الثاني لم تغير من سلوك الشقيقين في شيء ، فعادا إلى الصراع من جديد نتيجة تدخل عدد من النبلاء الخبثاء بتدعيم من الألبان فقاموا بمحاولة لتحريض توماس ضد أخيه باعتباره تابع للأتراك وأنه يعمل من أجل تسليم الدوقية للأتراك ، مما أثار الفوضى من جديد، وقام توماس بشن هجمات متتالية على أخيه وضم العديد من أملاكه، ولكنه فشل في نهاية الأمر في القضاء عليه مما أغضب السلطان العثماني[٥٤].

وحتى يضع السلطان محمد الثاني خاتمة للأحداث في المورة فقد تحرك إلى ميسترا مباشرة ودخلها في التاسع والعشرين من مايو ١٤٦٠م، وكأنه أراد أن يحيى ذكرى السقوط من جديد ولم يجد ديميتريوس مفراً من التسليم للسلطان، بينما قام

توماس بالفرار إلى كورفو Corfo في نهاية يوليو ١٤٦٠م، ومنها انتقل إلى روما ليقضى هناك ما تبقى من عمره(٥٥).

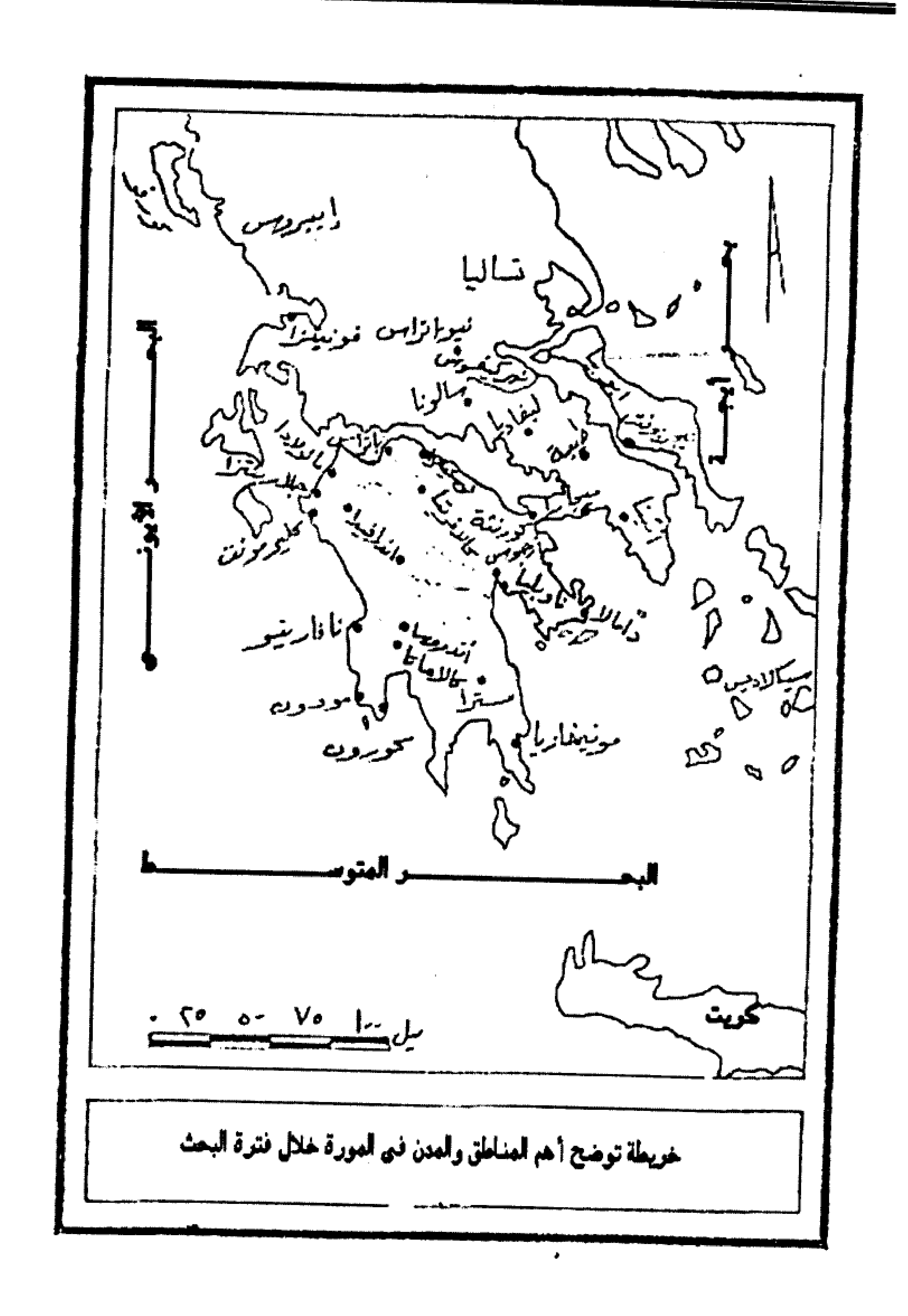
وأخيراً فقد سقطت دوقية المورة في يد العثمانيين كما سقطت القسطنطينية من قبل، وسقط معها الأمل الذي أخذ يراود البيزنطيين لإحياء الهيلينية وبدلاً من ممارسة الدوقية الدور السابق لنيقية وابيروس في استرداد القسطنطينية بعد الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م، أخذ حكامها يتصارعون فيما بينهم حتى ألقوا بها في الهلاك.

ومما لاشك فيه أن السقوط والفشل ليس وليد اللحظة، ولكنه نتيجة عوامل متراكمة منذ سنين. فامتعاض السكان المحليين من الحكام الوافدين من القسطنطينية الذين بحثوا عن صالحهم الشخصي ودخولهم في حروب متتالية استنفدت موارد الدوقية، أدت بالبارونات المحليين للقيام بالثورات وحركات التمرد بين الحين والآخر، وكان القهر والمصادرة هو الأداة الوحيدة المستخدمة في معالجة الموقف دون البحث عن وسائل أخرى تعيد الوئام بين الطرفين .

كذلك كان من الأسباب التي أدت إلى تدهور الأحوال في المورة، الجمود الذي أصاب المحافظين، وعدم تقبلهم الفكر الإصلاحي الذي اعتبروه درباً من خيال الفلاسفة «بينما كان يتضمن بعض الآراء الصالحة للتطبيق، فعدم الاعتماد على السكان المحليين في الدفاع عن المورة واستخدام المرتزقة بدلاً منهم سواء كان من الإسبتارية أو الألبان سبب الكثير من المتاعب، وبخاصة الدور الألباني في قيام العديد من حركات التمرد وبذر الشقاق بين آل باليولوجوس في الأيام الأخيرة للدوقية.

كذلك كان لعدم الاستقرار فيما يتعلق بنظام الحكم الذي تبدل من فردياً إلى ثلاثياً ثم ثنائياً دوراً هاماً في حدوث حالة من التخبط السياسي والإداري، إلى جانب إحياء الصراعات بين آل باليولوجوس بعضهم البعض، وهو ما أدى إلى انعدام قدرتهم على السيطرة على البارونات المحليين، وكان سبباً في كثير من الأحيان في فشل سياستهم الخارجية وتقديم التنازلات في بعض الأحيان للخوف من الانقلابات الداخلية.

وأخيراً فإن هذه الفترة الزمنية من عمر الدوقية لم تكن كافية لرسوخ الفكر الهلليني من جديد، والذي كان يحتاج بطبيعة الحال إلى عدة قرون وليس قرناً واحداً.



خريطة توضح أهم المناطق والمدن في المورة خلال فترة البحث

الهــــوامـــش

(١) تمكن البيزنطيون من استعادة نفوذهم مرة أخرى في المورة عقب الانتصـــار الـــذي حققـــه الإمبراطـــور ميخائيـــل الثـــامن بـــالبولوج Palaiologos VIII Micheal (١٢٥٩-١٢٨٢م) على أمير آخيا ولـــيم فلهـــاردوين William II Villehardouin (١٢٤٦ – ١٢٧٨م) في معركة بلاجونيا ١٢٥٩م والذي وافق على إطلاق سراحه مقابل التنازل عن أهم القلاع في المورة للدولة البيزنطية وأهمها مسترا ومونيمفازيا Monemvasia ومنـــذ ذلك الوقت أصبحت المورة قاسماً مشتركاً بين البيزنطيين واللاتين ، ولمزيد من المعلومات انظر

Gregoras, Byzantina, 72-4 ; Pachymeres, Relations, 122 ; Chronicle of Morea, 197-8 .

(٢) Chalcocondylas, Turcicis, 82 ; Dennis, Manuel II, 41

(٣) Ostrogorsky, State, 474 .

(٤) ينتمي نيرو أكيايولى إلى إحدى العائلات الثرية في مدينة فلورنسا الإيطالية ، والتي كان لها دوراً بارزاً في الأحداث السياسية في البلوبونيز في مطلع القرن الرابع عشر المـــيلادي . وقد بدأ أكيايولى نشاطه السياسي في البلوبونيز مع عام ١٣٦٠م ، عندما صـــاحب أخيـــه جوفانى الذي عين رئيساً لأساقفة باتراس Patras ثم مارس نشاطه السياسي فيما بعد حتى تمكن من الاستيلاء على كورنثه Cornth عام ١٣٧١م وأثينا Athens ١٣٨٨م ، وظـــل يمارس نشاطه السياسي في البلوبونيز حتى وفاته عام ١٣٩٤م ، ولمزيد من المعلومـــات انظـــــــر :

الأمين أبوسعدة : نيرى أكيايولى ، ٢٥-٢٧ ؛ راجع أيضاً :

Setton , Catalan , 66-68 ; ODB , 1 , 10 .

(٥) القطلان مجموعة من المرتزقة ينتمون إلى مملكة قطالونيا في شبه جزيـــرة أيبريـــا ، وقـــد شاركوا في العديد من الحروب ، منها حروب الاسترداد بالأندلس ، وكذلك الحـــرب فـــي صقلية (١٢٨٢– ١٣٠٢م) بين الأراجونيين والأنجويين والتي انتهت بالصلح بينهمـــا . وقد جلبهم الإمبراطور أندرونيقوس الثاني Andronikus II (١٢٨٢ – ١٣٨٢م) لقتال العثمانيين في الأناضول ، ثم استغلوا الظروف واقتطعـــوا أجـــزاء مـــن الإمبراطوريـــة لصالحهم في اليونان . وظلوا يحكمون أثينا حتى سقوطها فـــي يـــد أكيـــايولى ١٣٨٨م ، ولمزيد من المعلومات ، انظر :-

أحمد كامل : الجماعات القطالونية ، ٢٥-٣٣ ؛ راجع أيضاً :-

Setton, Catalan, I ; ODB, 1 , 10 .

(٦) النافاريين مجموعة من المرتزقة من نافارى وجاسكونى تمكنوا من السيطرة على جزء من اليونان بين عامي ١٣٧٨ إلى ١٤٠٢م . وفى البداية انخرطوا تحت زعامة دون لويس ايفروكس Don Luis of Evreux شقيق شارل الثاني النافارى (١٣٩٤- ١٣٨٧م) . وبعد وفاة دون لويس انقسموا على بعضهم ، فريق منهم انضم إلى الاسبتارية والثاني عمل تحت زعامة يوحنا أورتبيا John of Urtubia ، واستولوا على طيبة وليفاديا من القطلان حوالي عام (١٣٧٨- ١٣٨٩م) وظلوا يمارسون نشاطهم حتى كانت نهايتهم مع موت بطرس سيوريان ١٤٠٢م ، ولمزيد من المعلومات انظر :-

ODB, III , 1443; Dennis , Thebes , 42-50 .

(٧) شهدت بيزنطة خلال هذه الفترة صراعاً مريراً على الحكم بين الإمبراطور يوحنا الخـــامس والإمبراطور مانويل في ١٧ سبتمبر ١٣٩٠م . ثم انشغل بعد ذلك بالأوامر التي فرضـــها عليهم السلطان بايزيد الأول باستمرار دفع الجزية وتجهيز قوامة مئة ألف جندي لمساعدة السلطان في حروبه في آسيا الصغرى ، انظر :

Doukas, Byzantium , 81 .

(٨) Zakythons , Despotat, I , 130

(٩) Monumenta Pelopnnesiaca , 46 , 99-100 ; Chalcocondylas, Turcicis , 207 ; Franzius , Byzantine, 401; Dennis, Manuel II , 119 .

(١٠) Chalcocondylas, Turcicis, 83 ; Ostrogorsky, State , 484.

(١١) Dennis, Thessalonica, 124-5

(١٢) Ostrogorsky, State, 484; Dennis, Manuel II, 125

(١٣) Monumenta Peloponnesiaca , 49-50, 107-109, 111 ; Topping, Morea , 152-3 ; Zakythions , Despotat , I, 133- 5 .

(١٤) اشترطت البندقية لإطلاق سراح اكيايولى ، دفع مبلغ مالي كبير ، وأن يتنازل للبندقية عن ميجارا . وأن يضع ابنته فرنسيسكا رهينة لدى البنادقة حتى يتم تنفيذ الشروط المتفق عليها ، ولمزيد من المعلومـــات انظـــر :

Monumenta Peloponnesiaca, 56, 119; Topping, Morea, 154.

(١٥) Monumenta Peloponnesiaca, 62, 125; Zakythions, Despotat, I , 138

(١٦) السيد محمد : الدولة البيزنطية ، ٦-٧ .

Ostrogrosky , State , 488-9 . Nicol, Epiros, , 167 ; Zakythions, Despotat, I, 143-4

الدوكات : هي اسم للعملة الرسمية للبندقية وهى مشتقة من كلمة Ducatus وقد صدر منها نوعان وعرف الأول باسم جروسو Grosso وقد صدر في عام ١٢٠١م ، بينما صدر الثاني وهو الدوكاتوس عام ١٢٨٤م وتزن هذه العملة ٣,٥٦جرام من الذهب واستمرت الدوكات بوزنها ونقائها حتى نهاية الجمهورية البندقية عام ١٧٩٣م .

Logon , Middle Ages , 115 ; Grierson , Coins , 55 .

(١٧) رأى بعض المؤرخين أن القصد من هذا الاجتماع كان استعراض السلطان لقدراته على هؤلاء الحكام الضعاف ، وسرب معلومات بأنه عازم على قتلهم ، ثم تسامح وأعرض عن قتلهم حتى يدينوا له بالولاء ، ولمزيد من المعلومات ، انظر :-
أسد رستم : الروم ،ج ٢، ٢٥٦ ؛ السيد محمد : الدولة البيزنطية ، ٦-٧ ؛ صلاح ضبيع : العلاقات السياسية ، ١٥٨-١٥٩ .

Chalcocondylas, Turcicis, 67-69, 80; Nicol , Last Centuries, 314 ; Naval , Turkey , 284 .

(١٨) أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ٢٥٦ ؛ السيد محمد : الدولة البيزنطية ، ٦-٧ .

Doukas, Byzantuin, 8; Chronicles of Froissart, 442-6 ; Zakythions ,Despotat, I ,153-5; Naval , Turkey , 284 .

(١٩) السيد محمد : الدولة البيزنطية ، ٢٧ ؛ نقولا فاتان : صعود العثمانيين ، ٦٩ .

Monumenta Peloponnesiaca , 278 , 529 ; Chalcocondylas , Turcicis , 97-8; Setton, Papacy, II, 3; Zakythions, Despotat, I , 158-160.

تعتبر جماعة **الاسبتارية** إحدى جماعات الرهبان العسكرية ، وتعرف أيضا باسم فرسان القديس يوحنا St. John . وقد تأسست في الأراضي المقدسة في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي . وقد ساهمت بدور فعال في فترة الحملات الصليبية عن طريق تقديم خدماتها العسكرية . وقد قاموا بغزو جزيرة رودس عشية سقوط عكا عام ١٢٩١م كما استقروا لبعض الوقت في قبرص ولكن ظلت رودس هي قاعدتهم الأساسية حتى ١٥٢٢م عندما استولى عليها العثمانيون . وقد انقسمت هذه الجماعة إلى ثلاث فرق هم الفرسان والأطباء والقساوسة الذين يتولون أداء الطقوس الدينية وكانت هذه الجماعة تتبع البابوية مباشرة وقد حصلت على كثير من الهبات والمنح في أوروبا والأراضي المقدسة .

وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ٢٨٨-٢٩٣؛ يعقوب الفتري : تاريخ بيت المقدس ، ٨٦-٩٥ .

ODB , II , 591-2 .

(٢٠) حاتم الطحاوى : معركة أنقرة ، ١٩-٢٠ ؛ السيد محمد : الدولة البيزنطيـة ، ٢٩-٣١ : صلاح ضبيع ، العلاقات السياسية ، ١٩٥-١٩٦ ؛ راجع أيضـــا :

Sphrantzes , The fall , 21; Doukas, Byzantium, 84; Lavallee, Ottoman, 158; Eversley, The Turkish, 490; Browning, Empire, 177 .

(٢١)

Nicol, The End, 71 .

(٢٢) إلى جانب الفيلسوف المعروف بليثـون والكاتب الشهير مازاريس ، كـان هنـاك أيضـا الراهب ايزدور Isidore آخر أساقفة كييف والذي عمل فيما بعد كردينال فى كنيسة روما ، وبيزاريون النيقى Bessarion of Nicaea الذي أصبح أيضـا كردينـال ، وجـورج سكيولارس G. Scholarios الذي أصبح فيما بعد أول بطريرك للقسطنطينية بعد الفـتح العثمانى وحمل اسم جماديوس الثـاني Gemmadios II ، ولمزيـد مـن المعلومـات ، انظـــر :-

Nicol, The End, 75.

تقع مدينة ميسترا إحدى حصون البليبونيز على حافة بارزة من جبـل تويجيتـوس Toygetus على الجانب المواجه لمدينة أسبرطة القديمة . وكان أول ظهورها فـي التـاريخ أثنـاء الغـزو اللاتيني للمنطقة بعد الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م وظلت مقرا للدوقات البيزنطيين من عـام ١٣٤٨-١٤٦٠م عشية سقوطها في أيدي العثمانيين .

ODB , II , 1382 ; Tozar , Byzantine reformer , 363 .

(٢٣) يعد بليثـون من أهم المفكرين الأصوليين البيزنطيين ، ولد في القسطنطينية حوالي عـام ١٣٦٠م ، وتلقى تعاليمه في القسطنطينية ، ولكن نتيجة لأرائه الدينية واتهامه بالهرطقـه تم نفيـه إلى ميسترا حيث قضى معظم حياته هناك ، وله العديد من المؤلفـات أبرزهـا أوجه الخلاف بين أرسطو وسقراط ، وقد لقيت مؤلفاته الكثير من الترحيب في إيطاليا مع بشائر فترة النهضة ، وقد اهتم السلطان محمد الثاني بمؤلفاته وترجمها إلى اللغة العربية ، وتوفى في ميسترا في ٢٦ يونو ١٤٥٢م ، ولمزيد من المعلومات انظـــر :

ODB, III , 1685 ; Taylor, Gemistus, 84-6 ; Nicolet , Pletho , 42-56 .

(٢٤) من العلماء البيزنطيين الذين وفدوا إلى ميسترا من بيزنطة ، وكان في البداية يعمـل فـي بـلاط الإمبراطـور مانويل الثاني . وقد ألف كتاب رحلـة إلـى الجحـيم Journy of Hades ومن المحتمل أنه كان موجها للدوق تيودور الثاني ، وكان يتخلل ثلاث فصـول

كان أهمها الفصل الذي تناول فيه شرائح المجتمع في المورة ، ولمزيد من المعلومات انظر :

ODB , III , 1324 .

(٢٥) Vasiliev, History, II, 639 ; Nicol, The End, 76

(٢٦) Vasiliev, History, II, 639 ; Laioa, Economic, 1140

(٢٧) Laioa , Economic, 1140

(٢٨) Vasiliev, History, II, 638; ODB, III, 1324

(٢٩) Letters of Manuel II, 212-4; Dennis, Manuel , 121; Barker, Palaeologus, 232 .

(٣٠) Lettlers of Manuel II, 214; Chalcocondylas, Turcicis , 183 ; Housley, Crusades, 172 ; Barker, Palaeologus, 311; Nicol, The End, 76 ; Ostrogorsky , Palaelogi , 379 .

تعود فكرة بناء السور إلى حوالي القرن الثالث الميلادي وتهدف إلى حماية جنوب البليبونيز من هجمات الشمال ، ودخل حيز التنفيذ خلال القرن الخامس الميلادي بعد الهجمات التي قام بها القائد القوطي الاريك (٣٩٥-٤١٠م) Alaric على تسالي وجنوب اليونان فيما بين عامي ٣٩٦ – ٣٩٧ م ويبلغ سمك السور حوالي ثلاثة أمتار وارتفاعه ثمانية أمتار يتخلله بعض الأبراج ، وللمزيد من المعلومات انظر : السيد محمد : الدولة البيزنطية ، ٤٠ .

ODB , II , 927 ; Nicol, The End, 76 ; Ostrogorsky , Palaelogi , 379

(٣١) زبيدة عطا : الترك ، ١٨٠ ؛ السيد محمد : الدولة البيزنطية ،٤٠؛ أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ٢٦٣؛ راجع أيضا :

Sphrantzes, The Fall, 23; Barker, Palaeologus, 436; Zakythions , Despotat, I , 180-181 .

(٣٢) السيد محمد : الدولة البيزنطية ، ٤٧ ، راجع أيضا :

Calcocondylas,Turcicis , 206 ; Runciman, Constantinople, 48 .

(٣٣) استاء السلطان مراد من موقف الإمبراطور مانويل الثاني المدعم لأخيه مصطفى المدعى للعرش العثماني ، وما أن انتهى مراد من القضاء على مصطفى ، حتى التفت إلى مانويل للانتقام منه ، ولكن رغم ضخامة الجيش العثماني الذي كان مراد يقوده بنفسه إلا أنه عجز عن اختراق أسوار القسطنطينية ، ولمزيد من المعلومات ، انظـــــر :-

Doukas, Byzantium , 161 ; Cananns, Constantionpli , 459-60 .

(٣٤) Setton, The Papacy, II, 12 .

(٣٥) Chalcocondylas, Turcicis, 183-4; Sphrantzes, The Fall, 56 .

(٣٦) Sphrantzes, The Fall , 33; Setton, Papacy, II, 18; Nicol, Epiros, , 191; Zakythions, Despotat, I, 200.

(٣٧) Sphrantzes, The Fall , 34-5; Zakythions, Despotate, I, 210-11 .

(٣٨) أخذت أملاك الإمبراطورية في الانكماش حتى أصبحت لا تتعدى القسطنطينية وضواحيها وبعض المساحـــات الصغيرة على البحر الأســود ، ولمزيد من المعلومات انظـــــــر :-

السيد محمد : الدولة البيزنطية ، ٤٤ .

(٣٩) يرى سيتون أن توماس استقر في كالافريتا ، بينما استقر قسطنطين في Vostitza بينمـــا يرى نيقول الأقرب للحقيقة أن كالافريتا آلت فيما بعد إلى ديميتريوس ، وقد قـــام تومـــاس بالاستيلاء عليها أثناء الصراع معه عام ١٤٥٧م ، ولمزيد من المعلومات انظر :

Sphrantzas, The Fall , 77; Settor, Papacy, II, 32-3; Ostrogorsky, State. 498 ; Nicol , Last Centuries , 247 .

(٤٠) السيد محمد : الدولة البيزنطية ، ٤٨ . راجع أيضـــاً :

Chalcocondylas, Turcicis , 319-20 ; Sphrantzes, The Fall , 77 ; Runciman , Constantinople , 48-9 .

(٤١) كلما زادت الضغوط العثمانية على بيزنطة ، كلما نشطت لديهم فكـــرة اتحـــاد الكنيســـتين لاستقطاب الغرب ، وكان هذه المرة مجمع فيـــرارا برعايـــة البابـــا ايجنيـــوس الرابـــع Eugenius IV (١٤٣١ - ١٤٤٧م) الذي عقد أولاً في فيـــرارا ثم انتقل بعد ذلك إلـــى فلورنسا مع مطلع ١٤٣٩م بسبب الظروف المالية . وقد ناقش هذا المجمع أربعة محاور ،

الأول استخدام الخبز بدون خميرة في تقديم قربان المسيح ، الثاني طبيعة المطهر ، الثالث سيادة البابا ، الرابع انبثاق الروح القدس الوحيد أو المزدوج . وفى نهاية المجمع قام البابا بإعلان مرسوم اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ، وتم التوقيع عليـــه بـــاللغتين اليونانيـــة واللاتينية ، كما تعهد البابا إلى جانب تحمله نفقات عودة الوفد البيزنطى إلى وطنـــه ، أن يقوم بإعداد بارجتين وثلاثمائة جندي للدفاع عن القسطنطينية . وأن يستمر في دعمها كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، والضغط على أمراء أوروبا بمساعدة بيزنطـــة ، ولمزيـــد مـــن المعلومات انظـــــر :

جيبـــون : اضمحلال الإمبراطورية ، جـ٣ ، ٣١٥-٣١٩ ؛ السـيد محمـد : الدولـــة البيزنطية ، ١١٠ – ١١٥ ، راجـــع أيضـــــا :

Chalcocondylas, Turcicis, 288-91; Doukas, Byzantium , 179-81; Nicol, The End, 78-9; Browning , Empire, 179 .

(٤٢) اجتمعت عدة أسباب شكلت وجهة نظر متقاربة في قيام الغـــرب بحملـــة صـــليبية ضـــد العثمانيين ، بداية من رغبة فيليب دوق برجندى ، والمجتمعين في مجمع فلورنسا ١٤٣٩م ، وقد ساعد على ذلك الإخفاقات العثمانية في اقتحام بلجراد ١٤٤٤م ومن بعـــدها مدينـــة هرمنستاد Hermanstadt في ترانسلفانيا . وكانت خطوات النجاح الأولى فـــي اســـترداد نيش ، والانتصارات المتوالية في صوفيا وفيليبوبوليس ، والتي انتهت مرحلتها الأولى بعقد اتفاق صلح لعشر سنوات ، ولمزيد من المعلومات ، انظر أيضـــــا :

Chalcocondylas, Trucicis, 319-323 ; Nicol , Last Centnries , 378-9 .

(٤٣) لم يسفر اتفاق سذجد ***Szegedin*** عن توقف مشروع الحملة الصليبية ، المزمع القيام بهـــا ضد العثمانيين ، حيث مارس البابا ايجنيوس الرابع ضغوطه لنقض الاتفاق ، وبالفعل التقى الطرفان في فارنا في العاشر من نـــوفمبر ١٤٤٤م . وبعـــد أن حقـــق الصـــليبيين عـــدة انتصارات سريعة لقوا في النهاية هزيمة ساحقة ، وتعد حملة فارنا آخر محاولات الغـــرب لكبح جماح الزحف التركي ، ولمزيد من المعلومات ، انظـــــــــر :-

عبد الغني عبد العاطي : صليبية فارنا ، ٢٢٠- ٢٢٢ ؛ وراجع أيضاً :

Doukas, Byzantium , 184-185 .

(٤٤) Chalcocondylas, Turcicis, 319-20 ; Doukas, Byzantium, 185; Sphrantzes, The Fall, 56 ; Zakythions ,Despotat , I, 330 ; Nicol, The End, 82 ; Krekic, Dubrovnik, 6-10; Babinger, Mehamed , 48 .

(٤٥) Ostrogorsky, State, 503.

(٤٦) Babinger, Mehamed , 48 ; Zakythions, Despotat , I , 232 ; . Ostrogorsky, State, 503

(٤٧) سرهنك : الدولة العثمانية ، ٣٧ ؛ راجع أيضا :

Doukas , Byzantium , 185-6; Sphrantzes, The Fall , 56; Chalcocondylas , Turcicis , 340; Nicol, The End, 82 ; Vasilieve, History,II, 640; Babinger, Mehamed, 49; Ostrogorsky, State, 504 .

(٤٨)

Doukas, Byzantium, 186; Sphrantzes, The Fall , 57; Ostrogorsky, State , 503 ; Brehier, The Life 59; Zakythions , Despotat , I , 240; Babinger, Mehamed, 49.

السيد محمد : الدولة البيزنطية ، ٥٢ .

(٤٩) Zakythions, Despotat, I , 243; Brehier, The Life , 359-61

(٥٠) Sphrantzes, The Fall, 58; Chalcocondylas , Byzantium, 378; ; Nicol, Last Centuries, 92 Babinger, Mehamed, 80 .

السيد محمد : الدولة البيزنطية ، ١٢٧.

(٥١)Sphrantzes, The Fall, 58; Doukas, Byzantium, 257 ; Brehier, The Life , 360; Topping , The Morea, 165 .

(٥٢)

Chalcocondylas, Turcicis, 413 – 4; Topping, The Morea, 166 ; Zakythions , Despotat , I , 256.

(٥٣) يختلط الأمر لدى دوكاس حول هذه الحملة وحملة ١٤٦٠م ، حيث يعتبر أن السلطان قد تم له الاستيلاء على الدوقية نهائيا ١٤٥٨م ، وهذا مخالف للحقيقة ، ولمزيد من المعلومات ، انظــر :

Doukas , Byzantium , 257; Sphrantzes , The Fall , 76 ; Zakythions, Despotat , I , 257; Topping, The Morea, 166 ; Brehier, The Life , 371.

(٥٤) Sphrantzes, The Fall , 77; Zakythions, Despotat , I , 262 .

(٥٥) Chalcocondylas , Turcicis , 484 – 5 ; Doukas , Byzantium , 257; Sphrantzes , The Fall , 82 – 5 ; Brehier, The Life , 371 ; Ostrogorsky , State , 558 ; Browning, Empire, 183 ; Nicol, The End , 92.

عاشور : العصور الوسطى ، ٦٤٥ ؛ نقولا فاتان : صعود العثمانيين ، ١٠٧ ؛ السيد محمد : الدولة البيزنطية ، ١٥٣ .

قائم المختصرات

CSHB	**Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae**
JA	**Journal Asiatique**
ODB	**Oxford Dictionary of Byzantium**
TPAPA	**Transactions and Proceeding of the American Philological Association .**
VR	**Variorum Reprints .**

أولا المصادر الأجنبيـــة

Cananus , constantinopli : Ioannes Cananus, De Constantinopli Anno 1422 Oppugnata Narratio , CSHB , ed (Bonn – 1838) .

Chalcocondylas , Turcicis : Laonicus Chalkocondylas , De Rebus Turcicis , CSHB , ed (Bonn – 1843) .

Chronicles of Froissart : The Chronicles of froissart , Trans, by J. Brouchier , ed by G.C . Macaulay , (London , 1930) .

Chronicle of Morea : The Chronicle of Morea , Eng. trans. H.E. lurier , (Newyork , 1964) .

Doukas , Byzantium : Doukas , Decline and fall of Byzantium to the Ottman Turkes , trans. from " Historia . Turkes – Byzantion, by H.J . Magoulias (Detroit , 1975) .

Gregoras , Byzantina : Gregoras , N . Byzantina Historia , CHSB ed (Bonn , 1929) .

Letters of Manuel II : The Letters of Manuel II Palaeologus , trans. by G.T Dennes, (Washington, 1977)

Monumenta Peloponnesiaca : Monumenta Peloponnesiaca Documents for the history of the peloponnese in the 14 th and 15 th centurus ,ed J,Chrysostomides, (Surrey – Uk 1995)

Pachymeres , Relations : G . Pachymeres , Relations Historiques , livers I–III , trad . Par , A . Failleret V. laurent (Paris , 1984).

Sphrantzes , The Fall : G. Sphrantzes , The Fall of the Byzantine Empire (140 – 1477) , trans. by Marios , Philippides , (Amherest , 1980) .

ثانيا : المراجع الأجنبية

Babinger , Mehemed : F. Babinger , Mehemed the Conqueror and his time , translated from German by Ralph Manheim , (London , 1978) .

Badenas , philosophy :	P. Badenas , Relation betweeen philosophy and relygion in chritain Mediaval world , htt://www.filo.csic.es/bizantinos/mehmet.ht l
Barker , Manuel :	J.W. Barker , Manuel II Polaeologus (1391 – 1425) : A study in late Byzantine state smanship , (NewJerscy , 1969) .
Brehier , The Life :	L . Brehier , The Life and death of Byzantium , Eng , trans , M . Vaugha , (Amsterdam , 1977)
Browinng , Empire :	R. Browinng , The Byzantine Empire , (Newyork , 1980) .
Debolt , Gemistos :	D. Debolt George Gemistos Plethon on god : Heterodoxy in Defense of Orthodoxy , http//:wwwbu.edu/wcp/papers/Medi/Medi Debo.Htm.
Dennis , Thessalonica :	G. Dennis , The Reign of Manuel II palaeologus in Thessalonica (1382-1387) , (Rome , 1960) .
Thebes :	The Capture of Thebes by the Navarrese , in , Ocp , (1935) .
Eversley , The Turkish :	L , Eversley , The Turkish Empire It's growth and Decay , (London , 1917) .
Franzus , Byzantine :	E. Franzus , History of Byzantine Empire, (New York , 1967) .
Hously , Crusades :	N. Hously , The Later Crusades , 1274-1580 , (Oxford , 1992) .
Krekic , Dubrovnik :	B , Krekic, Dubrovnik's , Participation in the war against the Ottomans 1443 and 1444 in, in , V R , 1-17 , (London on , 1980) .
Laiou , Economic :	A. Laiou , The Economic , History of Byzantium , From the seventh through the

fifteenth century , 3 vols , <u>DOB</u> , Washington , D.C. 2000 .

Lavallee , <u>Ottoman</u> : Lavallee , <u>Histoire L ' Empire ottoman</u> , (Paris, 1855) .

<u>ODB</u> : <u>The Oxford Dictionary of Byzantium</u> , 3 vols, (New york , Oxford , 1991) .

Ostrogorsky , <u>State</u> : G. Ostrogorsky , <u>History of the Byzantine state</u> , Eng. Trans , J.Hussy , (Oxford, 1968) .

Runciman , <u>Constantinople</u> : S. Runciman , <u>The Fall of Constantinople 1453</u> , (Cambridge , 1965)

Nicol , <u>Epiros</u> : <u>The Despotate of Epiros</u> , (1267-1479) (Cambridge , 1984) .

Nicol , <u>End</u> : D.Nicol , <u>The End of The Byzantine Empire</u> , (London , 1979) .

Nicol , <u>Last</u> : <u>The Last Centuries of Byzantium 1261 - 1453</u> , (Cambridge , 1993) .

Nicolet , <u>Pletho</u> : J. Nicolet , Plethoarabicus , Identification et Contenu du manscrit Arabe d' istanbul , in , <u>JA</u> , vol 18 (1980), 42-56 .

Setton , <u>Catalon</u> : K. Setton , <u>Catalon Domination of Athens (1311-1388)</u> , (Variorum , 1975) .

Setton , <u>Papacy</u> : <u>The Papcy and the Levant</u> , vol 2 , (Philadelphia , 1997)

Taylor , <u>Cemistus</u> : J . Taylor , Cemistus Pletho as a Moral philosopher , in ,<u>TPAPA</u> , vol.51 (1920) 84-100 .

Topping , <u>Morea</u> : P, Topping , The Morea (1364 -1460) , in , K.Setton , (ed) , <u>A hitory of crusaded</u> . III , 141-164 , (Madison 1969) .

Vasilieve , History : N. Vasilieve, A History of the Byzantine Empire AD 344 - 1453 , 20 vol 5 (Madison , 1971 – 73).

Zakythions , Despotat : D. Zakythions , le Despotat Grec de Moree , (Paris , 1932).

ثالثاً : المراجع العربية

أحمد كامل : الجماعات القطالونية : أحمد كامل عبد المقصود ، الجماعات القطالونية في الإمبراطورية البيزنطية ، رسالة ماجستير غير منشورة ،جامعة المنصورة، ١٩٩٦م.

إسماعيل سرهنك : الميرالاى إسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، تقـديم ومراجعـة الدولة العثمانية الدكتور حسن الزينى ، بيروت ، د . ت .

الأمين أبو سعده : نيرى أكيايولى : الأمين عبد الحميد أبو سعده ، نيرى اكيايولى : الحياة السياسية لمغامر إيطالي في بلاد اليونان في القرن الرابع عشر الميلادي ، مجلة بحـوث كلية الآداب ـ جامعة المنوفية ، العدد(٥٥) ، أكتوبر٢٠٠٣م ، ٢٥-٧١.

السيد محمد : السيد محمد المتولي ، الدولة البيزنطية في عالم القرن الخامس عشـر ، الدولة البيزنطية رسالة ماجستير غير منشـورة ،جامعـة المنصـورة ، ١٩٩٨م .

جيبون : اضمحلال : إدوار جيبـون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد سليم سالم ، جـ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

حاتم الطحاوي : معركة أنقرة : حاتـم عبد الرحمن الطحـاوى ، معركة أنقرة ، ٨٠٤هـ /١٤٠٢م ، مقدماتها ونتائجها ، مجلة كلية الآداب – جامعة الزقازيق ، مايو ٢٠٠١، ١-٧٣ .

زبيدة عطا : زبيدة عطا ، الترك في العصور الوسطي ، " بيزنطة وسـلاجقة الـروم التـرك والعثمانيون " ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

صلاح ضبيع : صلاح محمد ضبيع ، العلاقات السياسية بين العثمانيين والإمبراطوريـة العلاقات السياسية البيزنطية في عصر باليولوجوس ١٢٦١ -١٤٥٣م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة جنوب الوادي ، ١٩٩٨م .

عبدالغنى عبدالعاطى: عبد الغنى محمود عبد العاطى ، معركة فارنا الصليبية ، مجلة كلية التربية بدمياط ، العدد ١٧ ، ص٢ ، يوليو ١٩٩٢م ، ١٨٥-٢٣٤ .



خريطة توضح أهم المناطق والمدن في المورة خلال فترة البحث

دور نساء القصر

في البلاط الجلائري

د.هويدا عبدالمنعم سالم إدريس
مدرس التاريخ الإسلامي
قسم التاريخ ــ آداب القاهرة

نالت المرأة مكانة عالية في عهد الدولة الجلائرية[١] (٧٣٦/٨٣٥هـ) (١٣٣٦/١٤٣٢م) وكانت لها إسهامات واضحة في صنع أحداثها وبخاصة نساء القصر اللائي كان لهن دور هام في البلاط الجلائري، وساهمن من خلاله بدور فعال في كل من الحياة السياسية والاجتماعية.

يرجع تدخل نساء القصر في الحياة السياسية إلى ما قبل قيام الدولة الجلائرية، حيث كان لبعض نساء آل جلائر دور هام في سير الأحداث الأخيرة من حكم الدولة الإيلخانية وبخاصة في عهد السلطان أبي سعيد[٢] بهادرخان. ومن بين هؤلاء الخواتين : الأميرة بغداد خاتون[٣]: ابنة الأمير جوبان[٤] وزوجة الأمير الشيخ حسن الجلائري مؤسس الدولة الجلائرية.

كانت بغداد خاتون تتمتع بقدر كبير من الجمال والذكاء، وعندما وقعت عين السلطان أبي سعيد[٥]عليها لم يستطع مقاومة جمالها وهام بها حبًا وأخذ ينظم الشعر[٦] الذي يصف فيه عشقه لمحبوبته[٧].

ولما كان قانون السلطنة الجنكيزخانية وتقاليد المغول منذ القدم تقضي بأن كل امرأة يقع نظر السلطان عليها ويعجب بها فعلى زوجها أن يطلقها طوعًا ويرسلها إلى الحرم السلطاني بطيب خاطر، لذلك بادر السلطان بإرسال مبعوث خاص سرًا إلى الأمير جوبان يطلعه على حبه وهيامه بابنته ويطلب منه أن يجبر الشيخ حسن الجلائري على تطليقها حتى يتزوجها[٨].

وعندما اطلع الأمير جوبان على هذا الطلب اشتعلت نار الحمية في عروقه

وأخذ يراوغ في الرد وطلب من الشيخ حسن الجلائري أن يأخذ زوجته إلى قراباغ[9]، كذلك طلب من السلطان أبي سعيد أن يقضي الشتاء في بغداد فربما يزول ما علق بقلب السلطان من عشق لبغداد خاتون، لكن ذلك لم يخفف من لوعة السلطان ولم ينسه هواها بل ازداد حبه وشوقه إليها وظهر أثر ذلك عليه فآثر العزلة والابتعاد عن الناس[10].

ولما علم السلطان أبو سعيد أن الأمير جوبان لم يوافق على رغبته أساء الظن به وعول على التخلص منه[11] نظرًا لزيادة نفوذه وسيطرته على مقاليد الحكم[12]. وحاول بالفعل القبض عليه حين ذهب مع ابنه حسين إلى الحدود الشرقية لصد الغارات التي قام بها مغول بلاد ما وراء النهر على خراسان لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا[13].

استغل بعض الحاقدين فرصة غياب الأمير جوبان ووشوا بابنه دمشق خواجه " وزير المماليك الإيلخانية " واتهموه لدى السلطان بأنه على علاقة غير مشروعة مع إحدى نساء[14] البلاط السلطاني وأنه علاوة على ذلك صار يفكر في الثورة والانقلاب عليه، فوجدت هذه الوشاية صدى لدى السلطان أبي سعيد وأمر بقتله وتعليق رأسه على قلعة سلطانية[15].

وعندما وصل خبر مقتل دمشق خواجه إلى والده أدرك الأمير جوبان أن السلطان أبا سعيد أضمر له الشر، وزادت رغبته في استئصال الأسرة الجوبانية، لذلك سار الأمير جوبان على رأس نحو سبعين ألف مقاتل صوب بغداد، وأثناء الطريق أحدث جيشه كثيرًا من الضمار حتى وصل إلى قرية " سمنان "[16] التي كان يعيش فيها أحد مشايخ الصوفية الكبار وهو الشيخ ركن الدين علاء[17] الدولة السمناني، فتوجه إليه الأمير جوبان وأرسله يتوسط لدى السلطان أبي سعيد كي تعود العلاقات بينهما إلى ما كانت عليه من قبل[18] ، وعندما وصل " الشيخ ركن الدين السمناني " إلى السلطان أبي سعيد ـــ الذي اشتهر بحبه للصوفية ـــ تلقاه بكل احترام وتقدير ورغم ذلك رفض وساطته[19].

ولما يئس الأمير جوبان من مصالحة السلطان أبي سعيد رأى أنه لا مفر من محاربته، ومن ناحية أخرى بادر السلطان أبو سعيد إلى لقائه بجيوشه الجرارة.

وعندما وصل جيش الأمير جوبان إلى الري انحاز عدد من قواده إلى المعسكر السلطاني الأمر الذي اضطر الأمير جوبان إلى العودة إلى خراسان قبل وقوع الصدام والقتال بينهما مفضلاً اللجوء إلى الملك غياث الدين كرت(٢٠) حاكم هراة الذي بادر بقتله تنفيذاً لأمر السلطان أبي سعيد، ولم يكتف السلطان بذلك بل أمر بالتخلص من بقية أبنائه(٢١).

وبموت الأمير جوبان زال أكبر عائق في طريق تحقيق رغبات السلطان أبي سعيد الذي قام بتكليف مباركشاه قاضي قضاة المدينة بأن يذهب إلى الشيخ حسن الجلائري ليأمره بتطليق زوجته، فما كان من الشيخ حسن إلاّ الإذعان لأمر السلطان، وبعد انتهاء العدة تزوج السلطان أبو سعيد بهادرخان بغداد خاتون وأقام لها حفلاً كبيراً(٢٢)، وصفه لنا عبدالرازق السمرقندي(٢٣) بقوله : " وعقد قران تلك الدرة النفسية وفقاً للدين الإسلامي وسنة الرسول، وأعدوا مجلس البهجة والنشاط وفتحوا نشاط السعادة والانبساط بأجمل صوره، وجعلوا الليل بإشعال المشاعل والمصابيح كالنهار المضيء، وتغنى المغنون ورددوا الألحان الجميلة فوصلوها للفلك الدوار، فكان كوكب الزهرة من سماع لحنهم المنعش للروح كالفلك في السماء، وكان الفلك يزداد حيرة لرؤية تلك الخيمة التي تحتوي على مائة لون ".

تمتعت بغداد خاتون بحظوة كبيرة لدى السلطان أبي سعيد الذي فضلها على بقية نسائه وأطلق عليها لقب " خدا وندكار " أي " السلطان "(٢٤)، وصار لها مكانة عالية في البلاط الإيلخاني.

يقول ابن حجر العسقلاني(٢٥) : " وصارت عنده في أعلى مكانة ... وصار لها في جميع الممالك الكلمة النافذة، وكانت تركب في موكب حفل من الخواتين وتشد في وسطها السيف ... "، مما كان له أبلغ الأثر في تدخلها، واشتراكها في تدبير أمور المملكة الداخلية بمساعدة الوزير غياث الدين(٢٦) محمد الذي كان يقوم بمهامه في الوزارة وفقاً لرغبات وتوجيهات بغداد خاتون(٢٧).

وفي تلك الأثناء كان الشيخ حسن الجلائري يحكم أذربيجان وأران(٢٨) وموغان(٢٩) وشيروان(٣٠) وكان دائمًا موضع بغض وحقد سائر الأمراء(٣١)، وقد انتهز بعض الحاقدين عليه الفرصة واتهموه عام (٧٣١هـ/١٣٣٠م) بأنه يراسل

زوجته السابقة بغداد خاتون سرًا بغرض قتل السلطان، فأمر أبو سعيد بالقبض عليه وقتله، غير أن عمة السلطان وأم الأمير الشيخ حسن الجلائري توسطت لابنها فعفا عن قتله لكنه حكم عليه بالسجن وأرسله مع أمه إلى سجن قلعة كماخ " إحدى مدن الروم بالقرب من أذربيجان "[٣٢]. أما بغداد خاتون فقد اضـمحلت مكانتهـا لـدى السلطان، ولم تعد تحظى بعطفه ورعايته[٣٣].

وبعد حوالي عام من تلك الوشاية انكشفت الحقيقة أمام السلطان أبي سـعيد، وتبين له أن هذه المسألة لم تكن أكثر من تهمة ملفقة مـن أعـداء الشـيخ حسـن الجلائري فأمر بقتل هؤلاء المغرضين وأمر بإطلاق سراح الشيخ حسن الجلائري. وفي عام (٧٣٤هـ/١٣٣٣م) عينه حاكمًا على بلاد الروم[٣٤]. أما بغداد خاتون فبعد أن ثبتت براءتها علت مكانتها مرة أخرى في البلاط الإيلخـاني[٣٥]، ويـذكر لنـا عبدالرازق السمرقندي[٣٦] تلك المكانة بقوله : " فارتفعت مرة أخرى مرتبة وجـاه بغداد خاتون وكانت هي والوزير صاحبي الأمر في الأمور الكلية والجزئية ".

ومهما يكن من أمر فقد بدأ عشق السلطان أبي سعيد يخبو تـدريجيًا لبغـداد خاتون، وفي عام (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) تزوج ابنة[٣٧] أخيها دلشاد خاتون ابنة دمشق خواجه الكبرى، وكانت إمرأة جميلة شديدة الذكاء والحكمة[٣٨].

وفي العام نفسه توجه السلطان أبو سعيد بجيوش جرارة لمحاربة أوزبـك[٣٩] خان ملك القبجاق " القبيلة الذهبية " الذي قام بمهاجمة تلك البلاد، وعنـدما وصـل السلطان إلى أران كان الجو شديد الحرارة فانتشرت الأمراض والأوبئة بين جـيش السلطان فقضت على أكثر الجند، وأصيب السلطان نفسه بمـرض شـديد ألزمـه الفراش مدة أسبوعين حتى تماثل للشفاء، ولكنه اضطر إلى الاستحمام فعـاد إليـه المرض بشدة، فظن بعض الأطباء المعالجين له أنه مسموم، وعجزوا عن علاجـه فمات في شهر ربيع الآخر من ذلك العام[٤٠].

وبعد عدة أيام من وفاة السلطان شاع بين الناس أن بغداد خاتون هـي التـي دست له السُم تدريجيًا وبطريقة مخجلة[٤١] انتقامًا منها لمقتل أبيهـا وأخوتهـا[٤٢]، ولأنه آثار كوامن حقدها وغيرتها بعد أن تزوج من ابنة أخيها دلشاد خاتون[٤٣].

ولما لم يكن للسلطان أبي سعيد بهادرخان أولاد من الذكور تـولى السـلطنة أرباخان ــ أحد أحفاد أريق بوكا بن تولي خان بن جنكيز خان ــ بفضل مساعدة الوزير غياث الدين محمد(٤٤)، وعندما جلس أرباخان على عرش السلطنة الإيلخانية رأى أنه لن يستطيع السيطرة على مقاليد الحكم ما لم يتخلص من كبـار الأمـراء وأصحاب النفوذ الذين كانت لهم سلطة ومكانة في عهد السلطان أبي سعيد(٤٥)، لهذا قرر أرباخان فور توليه الحكم التخلص من بغداد خاتون التي أعلنت رفضها لتوليه السلطة، وكانت تنظر إليه باستخفاف، فألصق بها تهمة دس السُّم للسـلطان أبـي سعيد، واتهمها أيضًا بحب الملك أوزبك خان حاكم القبيلة الذهبية وتحريضـها لـه على غزو فارس(٤٦).

استغل أرباخان تلك التهم وأصدر أوامره بقتلها، فقتلت بغداد خاتون بالفعـل على يد خواجه لؤلؤ " كاتم أسرار السلطان أبي سعيد "(٤٧)، ويحدثنا ابن بطوطة(٤٨) عن قتلها فيقول : " أجمعوا على قتلها وبدر لذلك الفتى الرومي خواجه لؤلؤ وهـو من كبار الأمراء وقدمائهم، فأتاها وهي في الحمام فضربها بدبوسه وقتلها ... ".

الأميرة دلشاد خاتون :

كان للأميرة دلشاد خاتون أرملة السلطان أبي سعيد دور أيضـًا فـي سـير أحداث تلك الفترة المشحونة بالكثير من القلاقل والاضطرابات، فعقب مقتل بغـداد خاتون خشيت دلشاد من أن يلحق بها ما لحق بعمتها بغداد خاتون ويتخلص منهـا أرباخان كي يصفو له عرش الإيلخانية، فهربت ولجأت إلى الأمير علي بادشاه خال السلطان أبي سعيد " وحاكم بغداد ورئيس قبيلة الأويرات "(٤٩)، الذي أكرم وفادتهـا ورحب بها(٥٠)، وعقب وصولها إلى بغداد أشيع أنها تحمل في أحشائها طفلاً(٥١) من السلطان أبي سعيد(٥٢)، فأعلن علي بادشاه أن عرش الإيلخانية مـن حـق الطفـل المنتظر(٥٣)، لذلك انضمت دلشاد وسائر الأمراء المعارضين لأرباخان إلـى علـي بادشاه(٥٤).

غير أن دلشاد خاتون سرعان ما عزفت عن المطالبة بالعرش لطفلها، وذلك لأنها شعرت أن الأمير علي بادشاه سوف يسيطر على الأمور بمفرده(٥٥)، كـذلك علمت أن طائفة الأويرات صاحبة أطماع، وأنها إذا ظفرت بالملك خرّبت العـالم،

فكرهت أن تجعل نفسها سببًا في هلاك الناس وأعلنت عدم حملها[٥٦] من السلطان أبي سعيد وتنحت عن الدخول في هذا الأمر ... "[٥٧].

ولما رأى علي بادشاه أن دلشاد خاتون قد تنصلت منه وخافت العاقبة، قام بتنصيب موسى خان حفيد " بايدو " سلطانًا في بغداد وضم إليه الأعراب والأكراد وقاموا جميعًا بمحاربة أرباخان وتمكنوا من الانتصار عليه وقتله في شوال عام (٧٣٦هـ/١٣٣٥م)[٥٨].

لم تستقر الأمور في دولة المغول بفارس بتولية موسى خان الذي قام مع علي بادشاه وقوم الأويرات بفرض نفوذهم على البلاد، الأمر الذي آثار بعض الأمراء المعادين لعلي بادشاه وعلى رأسهم " حاجي طغاي بن الأمير سنتاي " حاكم أرمينيا وديار بكر الذي قام بتحريض الشيخ حسن الجلائري حاكم الروم من قِبل السلطان أبي سعيد على مخالفة موسى خان وحليفه علي بادشاه، ودعاه للحضور إلى إيران والإمساك بزمام الأمور بها[٥٩].

ولما كان الشيخ حسن الجلائري رجلاً شديد الطموح فقد لاقى هذا التحريض قبولاً في نفسه ورشح للسلطنة أحد أحفاد هولاكو ويدعي " محمد بن يولقتلغ " ثم سار بجيشه لمحاربة علي بادشاه وموسى خان، فأرسل إليه علي بادشاه ينصحه بأن يترك موسى خان ومحمد بن يولقتلغ يتحاربان ثم ينضمان للمنتصر[٦٠].

وعندما وصل الشيخ حسن الجلائري إلى أذربيجان انضم إليه الأمير سيورغان بن جوجان حاكم " كرجستان " وقامت الحرب وانتصر موسى خان أول الأمر ثم انشغل جنوده بجمع الغنائم[٦١]، وسعد علي بادشاه بهذه النتيجة فنزل إلى النهر ليجدد وضوءه، لكن الشيخ حسن الجلائري انتهز الفرصة وانقض عليه بألفين من جنده وقاموا بقتله، ولما سمع موسى خان بما حدث فر إلى بغداد وتعقبه الشيخ حسن، وتمكن من قتله ونصب " محمد بن يولقتلغ " سلطانًا على الإيلخانيين في شهر ذي الحجة عام (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) وبذلك أصبح الشيخ حسن مسيطرًا على شمال غربي إيران[٦٢].

وعندما استتب الأمر للشيخ حسن الجلائري عزم على الزواج من دلشاد

خاتون أرملة السلطان أبي سعيد بهادرخان الذي كان قد أجبره من قبل على طلاق امرأته السابقة بغداد خاتون، وهكذا انتقم[٦٣] الشيخ حسن لنفسه من السلطان[٦٤].

ازداد نفوذ دلشاد خاتون التي كانت تتمتع بالكثير من الذكاء والعقل بعد زواجها[٦٥] من الشيخ حسن الجلائري ولعبت دورًا هامًا في السياسة الداخلية، حيث تدخلت في كافة شئون الدولة، وصار لها في كل ما يحكم زوجها نائب[٦٦]. وتحدثنا شيرين بياني[٦٧] عن تلك المكانة بقولها : " وعندما كان الشيخ حسن بزرك[٦٨] ينشغل في المعارك الكبيرة والصغيرة كانت تقوم هي بإدارة الأمور الداخلية ... وكان لها نفوذ غير عادي على الأمراء والشخصيات الهامة في الدولة ... " ويتضح من ذلك أنها كانت الحاكم الفعلي في مملكة العراق، وقد أثنى دولتشاه على كرمها وأدبها وجمالها وبيَّن أن السلطة كانت في يدها ولم يكن للسلطان أمر ولا نهي إلا الاسم[٦٩]، ومن ناحية أخرى ذكرها سلمان الساوجي الشاعر المشهور في معظم الأشعار[٧٠] المتعلقة بزوجها في قصائده[٧١].

كذلك قامت دلشاد خاتون بدور فعال في الدفاع عن الدولة الجلائرية والتصدي للطامعين فيها، ويتضح ذلك من قيامها بتشجيع زوجها الشيخ حسن الجلائري على تحصين مدينة بغداد والصمود أمام حصار الملك أشرف بن تمرتاش الجوباني له[٧٢].

وكان الملك أشرف الجوباني الذي تولى الحكم في أذربيجان خلفًا لأخيه "حسن كوجك "[٧٣] قد حرص على مواصلة سياسة أخيه في إخضاع العراق العربي ولهذا اتجه عام (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) إلى بغداد للاستيلاء عليها[٧٤]، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الشيخ حسن الجلائري أصابه الهلع وأراد ترك المدينة والذهاب إلى قلعة كماخ، لكن زوجته دلشاد خاتون أصرت على بقائه في المدينة والدفاع عنها[٧٥].

وفي ذلك الحين خرج الملك أشرف الجوباني من قراباغ واتجه أولاً إلى قلعة كماخ لكنه لم ينل منها مأربًا لشدة حصانتها[٧٦]، فمال نحو بغداد لكنه وجدها قوية التحصين ففرض عليها حصارًا دام شهرين، لكنه في النهاية عجز عن فتحها[٧٧]، وذلك لصمود الشيخ حسن بزرك في الدفاع عنها، وقيام بعض الخيالة البغداديين

بالهجوم عليه وهزيمته، الأمر الذي اضطره إلى الفرار بجيشه إلى تبريز. وقد حاول بعض أمراء بغداد تعقب أثرهم والنيل منهم أثناء هروبهم لكن دلشاد خاتون أمرت بمنعهم خوفًا عليهم من الخدعة، وعقب ذلك قامت دلشاد خاتون بإيواء كل من مال إلى بغداد من عسكر المنهزمين(٧٨).

ونظرًا لذلك الدور السياسي الذي قامت به دلشاد خاتون في عهد الدولة الجلائرية فقد صارت تخاطب في الرسائل الرسمية بالعديد من الألقاب الملكية، وقد أوردت لنا شيرين بياني(٧٩) نموذجًا لتلك الألقاب، تقول : " ومن الألقاب التي كانت تُعطى للملكة : (صاحبة الجلالة)، (سيدة نساء العالم)، (سيدة إيران وتوران)، (ركن السلطنة ومسند الملك والعظمة) ".

وهكذا ظلت دلشاد خاتون تحظى بتلك المكانة الرفيعة في بلاط الدولة الجلائرية حتى وفاتها عام (٧٥٥هـ/١٣٥٤م)(٨٠).

ومن بين نساء القصر اللائي كان لهن أثر فعال في أحداث التاريخ الجلائري: **وفا قتلغ خاتون**، خالة ومربية السلطان " أحمد بن أويس ". كان لهذه المرأة مكانة رفيعة بين نساء الأسرة الجلائرية لذلك طلب منها السلطان " حسين بن أويس " الجلائري التدخل لإنهاء النزاع الذي حدث بينه وبين شقيقه أحمد الذي خرج عليه في البصرة.

كان السلطان حسين قد عجز في أواخر أيامه عن تدبير أمور الحكم وضبط شئون الدولة فضلاً عن وقوعه تحت تأثير " عادل آقا " حاكم السلطانية من قبله فخرج عليه شقيقه أحمد بن أويس في البصرة(٨١) لضيقه من اضطراب الأمور وزيادة نفوذ عادل آقا في دولة الجلائريين(٨٢).

وعندما علم السلطان حسين بذلك أرسل إليه " وفا قتلغ خاتون " في محاولة للصلح بينهما، وبالفعل حاولت هذه الخاتون إقناع أحمد بن أويس بالذهاب إلى أخيه السلطان حسين في تبريز لإنهاء الخلاف الذي حدث بينهما، لكن أحمد رفض ذلك لخوفه على نفسه من الغدر(٨٣)، وعقب فشل " وفا قتلغ خاتون " في مهمتها نهض أحمد لطلب الحكم من أخيه وخرج إلى أردبيل وجمع ما يزيد على ثلاثة آلاف من العسكر وتمكن من دخول تبريز التي وجدها خالية من الجند، واختفى السلطان حسين

عدة أيام ثم تمكن أخوه أحمد من القبض عليه وقتله عام (٧٨٤هـ/١٣٨٢م)[٨٤].

الأميرة دُندي[٨٥] بنت السلطان حسين :

كانت بارعة الجمال، وقدمت مع عمها السلطان أحمد بن أويس إلى مصر فتزوجها الظاهر برقوق، ثم فارقها فتزوجها ابن عمها " شاه ولد بن شاه زاده علي ابن أويس " الذي آل إليه أمر الدولة الجلائرية عقب وفاة السلطان احمد بن أويس[٨٦].

أخذت الدولة الجلائرية طريقها إلى الانهيار في عهد شاه ولد حيث أحاطت بها الأخطار الخارجية والداخلية وبخاصة عندما انتهزت دولة القراقيونلية[٨٧] فرصة مقتل السلطان أحمد بن أويس وقام الشاه محمد بن قرا يوسف بمحاصرة بغداد، فتصدى له شاه ولد وظل يقاوم مدة عام ونصف حتى قُتل عام (٨١٤هـ/١٤١١م)[٨٨]، وعقب وفاته أمسكت زوجته الأميرة دُندي ــ التي عُرف عنها العقل والذكاء ــ بزمام الأمور، وواصلت الحرب ضد شاه محمد بن قرا يوسف[٨٩].

وفي أثناء هذا الحصار واجهت الأميرة " دُندي " خطرًا آخر داخليًا قام به بعض الأمراء وعلى رأسهم بخشايش ــ والي بغداد من قِبل السلطان أحمد ــ الذي طمع في الحكم بعد وفاة السلطان أحمد وطلب من الأميرة دُندي أن تزوجه ابنتها، فأجابته إلى طلبه ثم دبرت له مؤامرة انتهت بقتله يوم عُرسه، وذلك حتى لا ينفرد بالحكم دون آل جلائر ثم أعقبته بقتل مجموعة أخرى من الأمراء الذين أثاروا بعض القلاقل الداخلية[٩٠].

حاولت الأميرة دُندي التخلص من الحصار الذي طال على بغداد فأطلقت شائعة تقول إن السلطان أحمد لا يزال على قيد الحياة، الأمر الذي شجع أهل بغداد على مقاومة الحصار، وعندما طالت فترة غياب السلطان أحمد وتحقق للجميع من أن الشائعات السابقة ليس لها نصيب من الصحة وأن السلطان أحمد قُتل بالفعل سارعت دُندي إلى تكذيب تلك الأقاويل وأمرت بتزيين البلد لاستقبال السلطان أحمد عند عودته[٩١].

وعندما أيقنت الأميرة دُندي عدم قدرتها على بذل مزيد من المقاومة هربت ليلاً مع أبنائها وأمرائها وحملت معها مجوهراتها وأموالها[٩٢]، واتجهت إلى واسط[٩٣] ومنها إلى تستر[٩٤]، ولما علم أكابر البلد برحيلها مضوا إلى الشاه محمد ــ الذي كان قد ملَّ أيضًا من طول الحصار على بغداد فرفعه عنها ومضى إلى بعقوبة[٩٥] ــ ودعوه إلى البلد فدخلها في الخامس من المحرم عام (٨١٤هـ/١٤١١م)، وبذلك انتهى حكم الجلائريين في بغداد وبدأ حكم قراقيونلوا[٩٦].

أما الأميرة دُندي فقد تمكنت عقب وصولها إلى تستر من فرض سيطرتها على تلك الناحية وقامت بإقرار ابنها السلطان محمود بن شاه ولد على حكومة تستر، وظلت تدبر معه أمور الحكم مدة عامين، وعقب وفاته قامت هذه الخاتون بتدبير أمور المملكة واستطاعت أن تضم إليها الحويزة[٩٧] وواسط، وارتفعت مكانتها وصار يُدعى لها في خطبة الجمعة[٩٨] ويضرب اسمها على السكة[٩٩] واستمرت على هذا الحال حتى وفاتها عام (٨٢٢هـ/١٤١٩م)[١٠٠].

وهكذا يرجع الفضل إلى الأميرة دُندي في إحياء الدولة الجلائرية مرة أخرى عقب سقوطها في بغداد.

كان لنساء القصر دور هام أيضًا في تدعيم العلاقات السياسية بين الدولة الجلائرية وغيرها من الدول المعاصرة لها، حيث شرع حكام كل منها في عقد المصاهرات لإنهاء المنازعات والحروب التي تنشأ بينهم أو لطلب التأييد السياسي والحربي، ولا عجب في ذلك فقد كانت المصاهرة السياسية إحدى الوسائل الدبلوماسية التي توطد العلاقات بين الدول بعضها وبعض.

ويتضح لنا ذلك من دراستنا للصراع الذي نشب بين أبناء الأسرة المظفرية[١٠١] بفارس حيث قام كل من الشاه شجاع[١٠٢] المظفري وأخيه الشاه محمود بمحاولة لتدعيم موقف كل منهما ضد الآخر وذلك بطلب الزواج من " دُندي" ابنة السلطان أويس الجلائري[١٠٣] ومن الطريف حقا أن كلا الشقيقين فكرا في وقت واحد في مصاهرة هذا السلطان طمعًا في كسب وده وطلب تأييده[١٠٤].

ولهذا السبب أرسل شاه شجاع أهم رجال بلاطه وهو " اختيار الدين حسن القورجي " إلى بلاط السلطان أويس حاملاً معه الهدايا العديدة من مسكوكات ذهبية، ومجوهرات، وجياد عربية أصيلة، فضلاً عن الرسالة التالية : " ... لما كانت للسلطان أيام وأوقات يقضيها في اللهو والمرح فإنني سأقيم في ضواحي سلطانية حتى لا يشغل باله بمضايقات المعارضين وأي عدو يظهر للممالك سأتكفل بدفعه، ولتكن أيام لهو ومرح أخي السلطان صافية وسعيدة وليعش السلطان في هناء ونجاح وسرور.. "(١٠٥).

ومن جهة أخرى قام شاه محمود بإرسال وزيره " تاج الدين محمد " ـ الذي اشتهر بين الخاصة والعامة بذكائه ودهائه ـ إلى السلطان أويس محملاً بالعديد من الهدايا والأموال ومفوضًا إياه في تقديم رسالته ومضمونها : " العبد وما في يده لمولاه، ونحن وكل ما لدينا ملك يمينك منذ مدة طويلة، والعبد محمود يتمنى خدمة ذلك البلاط ويأمل أن يزين عنقه بطوق المحبة والولاء وأذنه بحلقة العبودية.."(١٠٦).

وبالإضافة إلى هذه الرسالة فقد بذل الخواجه " تاج الدين محمد " جهدًا كبيرًا في تحقيق هدفه حيث أوضح للسلطان أويس أن غرض شاه شجاع كما يُفهم من مضمون رسالته هو الطمع في المملكة والأميرة معًا، أما شاه محمود فسوف يُسلم كل ممالك العراق للأميرة الجلائرية، وأنه ينوي الاستيلاء على كافة ممالك إيران الجنوبية بمساعدة السلطان أويس ويضمها إلى الممتلكات الجلائرية(١٠٧).

ويبدو أن هذا الكلام كان له أثر بالغ في نفس السلطان أويس، فعلى الرغم من تفوق شاه شجاع على شقيقه محمود في السن واتساع المُلك وشوكة الدولة إلاَّ أن السلطان أويس فضل عليه محمود لما أظهره من فروض الطاعة والولاء له، وفي نهاية الأمر وافق على خطبته(١٠٨)، وأعلن ذلك في مواجهة الأمير " اختيار الدين حسن " فقال له " إذًا كان شاه شجاع يريد صلة النسب فلم يكن بحاجة لأن يبعثك بالطبل والعلم، إلا إذا كانوا في أذربيجان لم يروا الطبل والعلم، بالإضافة إلى أن شاه شجاع لم ينزل من كرسي الغرور وسمي نفسه في رسالته " الأخ المشتاق " وأنا لن أعطي ابنتي للأخ المشتاق، وسأعطيها للعبد والخادم لأن شاه محمود قد سمي نفسه " بالعبد والخادم "(١٠٩).

وهكذا رحلت الأميرة دُندي إلى أصفهان بمنتهى العظمة والأبهة عقب إتمام الزواج عام (٧٧١هـ/١٣٦٩م)[١١٠]، وأرسل خلفها الجيش الجلائري لتدعيم شاه محمود[١١١]، ومنذ ذلك الحين امتلأ قلب شاه شجاع بكراهية السلطان أويس وتبادل الاثنان أشعار الهجاء والذم، وظل شاه شجاع يتطلع إلى اليوم الذي يدخل فيه تبريز وينتقم من السلطان أويس الجلائري[١١٢].

تهيأت الفرصة لشاه شجاع عقب وفاة أخيه شاه محمود واستيلائه على أصفهان عام (٧٧٦هـ/١٣٧٤م)[١١٣]، وفي نفس العام أيضًا توفى السلطان أويس الجلائري[١١٤]، فتطلع شاه شجاع إلى تحقيق حلمه القديم بالاستيلاء على ولاية أذربيجان وإخضاع تبريز عاصمة الدولة الجلائرية[١١٥]، وبخاصة عندما اعتلى عرش الجلائرية السلطان حسين بن أويس الذي عجز عن القيام بمهام الحكم كما ينبغي، الأمر الذي أدى إلى اضطراب أمور الولاية وسخط أهلها عليه وقيام بعضهم بمراسلة شاه شجاع وشجعوه على الزحف إليهم[١١٦]، فتحرك شاه شجاع بجيش كبير وتمكن من إلحاق الهزيمة بالسلطان حسين الجلائري عند ضواحي " جاما خواران " وجلس على عرش تبريز، وعلى الفور قام بتولية الأمراء من قِبله على سائر الأنحاء في أذربيجان[١١٧].

مكث شاه شُجاع في تبريز حوالي أربعة أشهر، لكن ما لبث أن عجز أمراؤه عن الاحتفاظ بما في أيديهم، وقام الأعداء بمداهمتهم من كل ناحية وأوقعوا بعضهم في الأسر، هذا فضلاً عن إصابة شاه شجاع بآلام شديدة في قدمه من أثر البرودة، فكان ذلك كافيًا لأن يقنع شاه شجاع بالعودة إلى شيراز[١١٨]، وعقب عودته اغتنم السلطان حسين الجلائري هذه الفرصة وأسرع بالخروج من بغداد بجيش كبير واتجه نحو تبريز وتمكن من استردادها[١١٩]، فأسرع شاه شجاع إلى طلب الصلح بين الطرفين، وقاموا بتبادل الأسرى وتوج هذا الصلح بزواج " دلشاد خاتون " أخت السلطان حسين بن أويس من " زين العابدين بن شاه شجاع "[١٢٠]، وعلى الرغم من عقد هذه المصاهرة الثانية فإن العداء ظل مستمرًا بين الدولتين.

كان للمصاهرة بين الحكام دور أيضًا في العلاقات السياسية بين الدولة الجلائرية وقبيلة قراقيونلوا التي دخلت في خدمة الدولة الجلائرية في عهد السلطان

أويس وأصبحت تابعة لها(١٢١).

وعقب وفاة السلطان أويس تمكن خواجه بيرام زعيم هذه القبيلة من الاستيلاء على الموصل وسنجار، وبعض المواضع الأخرى في أذربيجان عام (٧٧٧هـ/١٣٧٥م)(١٢٢)، وبهذا العمل أعلن خروجه عن طاعة الجلائريين وعدم الاعتراف لهم بالتبعية.

وعندما استقر السلطان حسين بن أويس في الحكم تمكن من إدخال قبيلة قراقيونلوا مرة أخرى في طاعة الجلائريين، وذلك بعد هزيمته لكل من خواجه بيرام وابنه قرا محمد تورمش، واستيلائه على بعض القلاع التابعة لهما وتعهدهما بدفع ضريبة سنوية قدرها ٢٠,٠٠٠ رأس من الغنم(١٢٣).

لما آل الحكم للسلطان أحمد بن أويس توطدت العلاقة بين الدولة الجلائرية وقبيلة قراقيونلوا عقب زواج السلطان أحمد من ابنة قرا محمد تورمش، ولاشك أن هذه المصاهرة كان لها دور في مساندة السلطان أحمد أثناء محاربته للأمراء الذين ثاروا عليه في بغداد بسبب سياسته الجائرة وقيامه بالقبض على بعضهم وقتلهم، فقرروا عزله وتنصيب أخيه الشيخ علي بدلاً منه(١٢٤). وعقب ذلك قاموا بالزحف على أذربيجان والتقوا بالسلطان أحمد عند هفت رود " الأنهار السبعة " وتمكنوا من هزيمته، فهرب السلطان أحمد والتحق بصهره قرا محمد تورمش كي يستنجد به، فوافق على مساندته بشروط منها : أنه ليس له أن يتقدم إذا رأى النصر دون أمر منه، وأنه إذا فتح عليهم تكون الغنائم خالصة لهم فلا يطمع فيها، وعقب موافقة السلطان أحمد على تلك الشروط قام قرا محمد بتجهيز جيش كبير واتجه لمحاربة الشيخ علي بن أويس، فتمكن من هزيمته وقتله وغنم التركمان غنائم وفيرة(١٢٥)، وعاد السلطان أحمد مرة أخرى إلى مقر حكمه في تبريز(١٢٦).

وهكذا أصبح لحكام هذه القبيلة مكانة كبيرة، فبعد أن كانوا يدينون بالتبعية للجلائريين أصبحوا هم الذين يقومون بحمايتهم.

كذلك كان للمصاهرة بين آل جلائر ودولة المماليك في مصر دور هام في مساندة السلطان أحمد بن أويس عقب استيلاء تيمورلنك على مدينة بغداد.

وتفصيل ذلك عندما اقترب الأمير تيمور من بغداد عام (٧٩٥هـ/١٣٩٣م) استعد له السلطان أحمد بجيش كبير[١٢٧]، أسند قيادته إلى ابنه اقبغا ومعه الأمير "سنتاي" لكن عجز هذا الجيش عن الصمود أمام الجيش التيموري[١٢٨].

وعندئذ خشي السلطان أحمد من هجوم الأمير تيمور على بغداد فأرسل إليه المفتي " الشيخ نور الدين عبدالرحمن " برسالة يعرض عليه فيها الصلح، فاستقبله الأمير تيمور، وأكرمه وقال له " أنا أترك بغداد لأجلك "، ورحل بريد السلطانية فبعث نور الدين بالبشارة إلى بغداد[١٢٩]، ولكي يزيد الأمير تيمور من طمأنينة السلطان أحمد ويصرفه عن الاستعداد للقائه أرسل إليه طالبًا مصاهرته، يقول ابن إياس[١٣٠] : " فأرسل إلى ألقا آن أحمد بن أويس كتابًا وهو يترفق فيه ويقول : أنا ما جئتك محاربًا وإنما جئتك خاطبًا في أختك، ففرح ألقا آن أحمد بذلك وظن أن هذا الكلام صحيح " وأمر على الفور بصرف جنده[١٣١].

غير أن الأمير تيمور خدعه وسار إلى بغداد عبر طريق آخر، وفوجئ السلطان أحمد في ٢٩ من شوال عام (٧٩٥هـ/١٣٩٣م) بوصوله قرب بغداد، فحطم السلطان أحمد جسر دجلة حتى لا يتمكن تيمور من العبور بجيشه، ولكن تيمور تمكن من العبور، وعلى الفور جمع السلطان أحمد أمواله وحريمه وهرب إلى قلعة " النجق " الحصينة بالقرب من شيروان، وأمر ابنه طاهر بالتحصن مع أهله وأبنائه في تلك القلعة[١٣٢].

أما السلطان أحمد فقد أسرع بالفرار بما استطاع حمله من أموال وذخائر وبعض المقربين إليه إلى بلاد الشام، غير أن جنود تيمور لحقوا به في مدينة الحلة وتمكنوا من هزيمته ونهب ماله وسبي حريمه وقتل وأسر كثير ممن كانوا معه، ونجا السلطان بطائفة منهم إلى حلب وطلب اللجوء إلى سلطان مصر، فكتب والي حلب إلى الظاهر برقوق يخبره برغبة السلطان أحمد في اللجوء إليه[١٣٣]، وبعد أن تشاور السلطان الظاهر برقوق مع أمرائه وافق على حضوره إلى مصر[١٣٤]، يقول ابن خلدون[١٣٥] : " ثم قدم أحمد ابن أويس على السلطان بمصر في شهر ربيع سنة ست وتسعين مستصرخًا به على طلب ملكه والانتقام من عدوه فأجاب السلطان صريخه ... ".

أحسن السلطان الظاهر برقوق استقبال السلطان أحمد وأكـرم وفادتـه[١٣٦] وطلب مصاهرته فزوجه ابنة أخيه الأميرة " تُندي " بنت السلطان حسين بن أويس[١٣٧] على صداق قدره ثلاثة آلاف دينار[١٣٨].

كان زواج السلطان الظاهر برقوق من الأميرة " تُندي " من بين العوامل التي ساندت السلطان أحمد في تلك الفترة الحرجة من حكمه، وبخاصة عندما أرسل الأمير تيمور رسالة تهديد ووعيد للظاهر برقوق ينكر عليه فيها إيواءه لأحمد بن أويس، ويأمره بإرساله إليه والدخول في طاعته[١٣٩].

لكن الظاهر برقوق رد عليه برسالة شديدة اللهجة ورفض الدخول في طاعته[١٤٠].

لم يكتف الظاهر برقوق بذلك بل رحل مع السلطان أحمد إلى بلاد الشام وأعد له جيشًا كبيرًا، وعندما وصلت الأخبار بخروج تيمور إلى سمرقند أمر الظاهر برقوق السلطان أحمد بالتوجه إلى بغداد وكتب له تقليدًا بسلطنة بغداد من قبله[١٤١] وعندما وصل السلطان أحمد إلى بغداد خرج إليه مسعود سبزاوي ـ نائب تيمورلنك في حكم بغداد ـ فحاربه وانتصر عليه وأسرع مسعود بالفرار إلى شوشتر، وتمكن السلطان أحمد من دخول بغداد واستعادتها مرة أخرى من يد التيموريين عام (٧٩٧هـ/١٣٩٤م)[١٤٢].

دور نساء القصر الجلائري في المجتمع :

يتجلى هذا الدور في الأعمال الخيرية ومساعدة الفقراء والمحتاجين ورعاية العلماء والأدباء من خلال البلاط الخاص بهن.

ذلك أن الخواتين " زوجات الحكام " كان لهن بلاط صغير خاص بهن، وكن يمتلكن الأراضي الزراعية الشاسعة، والحوانيت والحمامات، والبيوت في معظم أنحاء الدولة، وكانت هذه الممتلكات تدر عليهن دخلاً كبيرًا، وكان لهن موظفون وعمال يقومون بتنظيم تلك الأعمال ومباشرتها وتوصيل عائداتها إلى الخواتين[١٤٣]. وكان على رأس هؤلاء الموظفين " المؤتمنون " أو " كاتمو الأسرار " وكما يبدو من تسميتهم كانوا موضع ثقة كاملة من الخواتين، وكانوا يحافظون على أموالهن

ومجوهراتهن[١٤٤].

كانت الخواتين تحرصن دائمًا على الاهتمام بالأعمال الخيرية ومنهن دلشاد خاتون التي كانت تميل إلى الغُرباء وتحسن إليهم[١٤٥]، وتبعتها في ذلك ابنتها دُندي التي حرصت أيضًا على مساعدة الفقراء[١٤٦]، كذلك قامت بعض الخواتين بمشاركة أزواجهن في نذر النذور الثمينة والأوقاف المدرة على الأماكن المقدسة[١٤٧]، فضلاً عن قيامهن برعاية جماعة الصوفية، فكن يرسلن النذور والهدايا القيمة إلى شيوخ الخانقاهات ومنهن بغداد خاتون التي كانت تجري بعض المقررات على خانقاه الشيخ صفي[١٤٨] الدين الأردبيلي[١٤٩].

بالإضافة إلى ذلك فقد اهتمت الخواتين بإقامة المنشآت العمرانية وأوقفن عليها من أموالهن، ومنهن بغداد خاتون التي أمرت ببناء عمارة الدمشقية في عهد زوجها السلطان أبي سعيد بهادرخان، وكانت هذه العمارة غاية في العلو والارتفاع، وقد دفن بها كل من دمشق خواجه بن جوبان ــ الذي نسب إليه اسم هذه العمارة ــ والشيخ حسن والسلطان حسين، والسلطان أحمد أبناء السلطان أويس الجلائري[١٥٠].

كذلك قامت دلشاد خاتون ببناء العديد من المنشآت والمباني ذات المنفعة العامة[١٥١] ، وساهمت أيضًا مع زوجها الشيخ حسن الجلائري بجهود عظيمة لإعادة تعمير بغداد وتزيينها ويحدثنا عباس العزاوي[١٥٢] عن تلك الجهود بقوله : " وفي هذه المرة عادت بغداد عاصمة الملك وصار " الشيخ حسن " يبذل لزينتها جهودًا عظيمة .. ولا ينسى أن لزوجته النفوذ العظيم في هذا الإعمار ... "، أيضًا حرصت ابنتهما دُندي على إقامة العديد من المنشآت والمباني العمرانية[١٥٣].

من ناحية أخرى حرصت بعض الخواتين على استمرار المنفعة العامة لبعض المنشآت العمرانية ومنها جامع مرجان[١٥٤] ببغداد الذي أوقفت عليه " حاجة ماما خاتون " زوجة السلطان أويس صدقات ونذورًا كثيرة[١٥٥].

ولم يقتصر دور هؤلاء الخواتين على القيام بالأعمال الخيرية بل وجهن اهتمامهن أيضًا إلى رعاية العلماء والأدباء، وكن يشاركن أزواجهن في إرسال الهدايا الثمينة إليهم ووضع بعض الأوقاف تحت تصرفهم، فضلاً عن صلتهن

الدائمة بهم(١٥٦)، وكن يستقبلنهم في بلاطهن بالحفاوة، ويقضين معهم أوقات فراغهن، ومن بين هؤلاء الخواتين " دلشاد خاتون التي كانت تقضي أوقات فراغها في الحوار والحديث مع الشعراء والأدباء(١٥٧)، وقد امتدحها بعضهم ومنهم خواجوي الكرماني(١٥٨) بقصيدة مطلعها :

وإذن اسعد قلبي مرة واحدة يا رسول الصبا

وتوجه إلى بغداد عبر طريق تدليل الخدم(١٥٩).

أما الشاعر سلمان الساوجي(١٦٠) فقد اتصل بها قبل زواجها من الشيخ حسن الجلائري ومدحها بقصيدة شعرية، وبعد زواجها صار محل إنعامها واهتمامها الخاص حتى أصبح شاعرًا للبلاط الجلائري ومربيًا لابنها أويس، وكان سلمان يقرنها دائمًا بزوجها الشيخ حسن الجلائري في أشعاره(١٦١) التي يهنئه فيها على فتوحاته(١٦٢)، كذلك يحدثنا سلمان عن المكانة التي بلغتها دلشاد خاتون في البلاط الجلائري حيث قال عنها : " كعبة أركان الدولة، قبلة أركان الدين، ناصرة شرع النبي، ظل اللطف الإلهي "(١٦٣) ، وظل سلمان الساوجي يمتد(١٦٤) دلشاد خاتون طوال حياتها، وعندما توفيت رثاها بالعديد من القصائد يقول في قصيدة منها : " شاه دلشاد، لا تلومي، كم كان الحزن عليك عميقا، لم يكن هناك أقصر من عمرك المبارك "(١٦٥).

وبعد وفاة دلشاد خاتون خلفتها ابنتها دُندي في الاهتمام بالشعراء والأدباء، وكان لديها بلاط منفصل تجمع فيه الشعراء والأدباء وتقضي الأيام بينهم(١٦٦).

ومما تجدر الإشارة إليه أن المكانة المرموقة في البلاط الجلائري لم تكن قاصرة على نساء القصر بل كانت هناك نساء أخريات لهن مكانة عظيمة في الدولة، منهن : " مخد ومشاه " مرضعة السلطان أويس التي كانت تلقب بـ " ايكجي " وكانت هذه المرأة تُعد من الأميرات وهي عظيمة الشأن، صائبة الرأي، وكان يُهرع إليها في حل القضايا الهامة والخطوب الجسيمة(١٦٧).

ونظرًا لتلك المكانة الرفيعة فقد كلفها السلطان أويس بتوصيل بعض الهدايا الثمينة إلى مكة المكرمة أثناء سفرها لأداء فريضة الحج، ومن بين هذه الهدايا

قنديل جميل وثمين جدًا أرسله إلى الكعبة المشرفة، فضلاً عن بعض الهدايا للأمير عجلان حاكم مكة. ولهذا السبب أمر الأمير عجلان " أبا الفضل النويري " قاضي قضاة مكة المكرمة بذكر اسم السلطان أويس في الخطبة(١٦٨).

ولما كان للسلطان أويس اهتمام كبير بالبقاع المقدسة فقد وجه عنايته إلى ترميم وتوسيع تلك البقاع، وكلف مخدومشاه بإقامة العديد من الأعمال الخيرية في الحجاز(١٦٩).

تزوجت مخدوماشاه بأمر من السلطان أويس عام (٧٦٢هـ/١٣٦٠م) بشخص يدعي " سليمان بك " الذي ارتفعت مكانته باقترانه بها ونال منصب الإمارة، وصار يدعي " سليمان أتابك " وهو منصب أمير الأمراء(١٧٠).

شاركت مخدومشاه نساء القصر في بناء العمائر والمدارس والمستشفيات، وأوقفت عليها من مالها الخاص، ومن أهم أثارها في مدينة بغداد :

١- **عمارة الأيكجية** : ويرجح عباس العزاوي أنها هي عمارة سوق الغزل، ولفظ أيكجية يعني أصحاب المغازل، ويبدو أن مخدومشاه لقبت باسم عمارتها هذه فقيل لها " أيكجية "، كذلك قامت هذه الخاتون بإعادة تعمير جامع الخلفاء الذي لا يزال يسمى جامع سوق الغزل.

٢- **المدرسة الأيكجية** : ويذكر العزاوي أنه لا يعرف مكانها بالتحديد.

٣- **دار الشفاء** : وكانت تقع على جانب نهر دجلة(١٧١).

ومن النساء اللائي ساهمت أيضًا في إقامة المنشآت العمرانية وفا خاتون التي ينسب إليها مسجد الوفائية الجامع، ويقع هذا المسجد في سوق بيع الكتب، وتذكر شيرين بياني أن هذا البناء كان أحد مساجد بغداد القديمة، وكان يُعرف في أول الأمر بالإسماعيلية على اسم مؤسسه(١٧٢).

وهكذا يتضح لنا إسهامات نساء القصر في النهوض بالمجتمع الجلائري.

الخاتمة :

- كان لنساء آل جلائر دور هام في سير الأحداث الأخيرة من حكم الدولة الإيلخانية، حيث استغل السلطان أبو سعيد بهادرخان عشقه لبغداد خاتون زوجة الأمير الشيخ حسن الجلائري، وقضى على والدها وبقية أسرتها ـ الذين كانوا مسيطرين على مقاليد الحكم في الدولة الإيلخانية ـ وذلك بحجة موقف الأمير جوبان الرافض لطلاق ابنته.
- نجح السلطان أبو سعيد في تحقيق رغبته بالزواج من بغداد خاتون ورفع مكانتها في البلاط الإيلخاني فتدخلت في شئون الحكم، وصارت لها الكلمة النافذة في جميع أرجاء الدولة.
- تمكن الأمير الشيخ حسن الجلائري من الانتقام لنفسه عقب وفاة السلطان أبي سعيد فتزوج أرملته دلشاد خاتون وقام بتأسيس دولته على أنقاض الدولة الإيلخانية.
- قامت نساء القصر بدور هام في البلاط الجلائري حيث شاركن في تدبير أمور الدولة الجلائرية، وقمن بدور فعال في الدفاع عنها والتصدي للطامعين فيها، وقمن كذلك بدور الوساطة لإنهاء الخلاف بين حكام الأسرة المتنازعين على الحكم، وفي أواخر عهد الدولة الجلائرية نجحت إحدى أميرات هذه الأسرة في إحياء الدولة مرة أخرى عقب سقوطها في بغداد.
- كان لنساء القصر أيضًا إسهامات واضحة في تدعيم العلاقات السياسية بين الدولة الجلائرية وغيرها من الدول حيث شرع حكام كل منها في تبادل المصاهرات لإنهاء الحروب التي تنشأ بينهم أو لطلب التأييد السياسي والحربي في حروبهم مع أعدائهم.
- لم يقتصر دور نساء القصر في البلاط الجلائري على الأمور السياسية بل شاركن الحكام في النهوض بالمجتمع، فحرصن على القيام بالأعمال الخيرية وتشييد العديد من المنشآت العمرانية، والمباني ذات المنفعة العامة التي أوقفن عليها من أموالهن الخاصة، كذلك وجهن اهتمامهن إلى رعاية العلماء والأدباء وعقد المجالس العلمية والأدبية، ولم يقتصر هذا الدور على زوجات الحكام بل شاركتهن بعض نساء طبقة الخاصة في ذلك الدور الحضاري.

هوامش البحث :

(١) كان الجلائريون من الدول الوارثة للإيلخانيين في فارس، فقد خلفوهم فيما كان تحت أيـديهم من أراض في العراق وأذربيجان، ويبدو أن الجلائريين كانوا في الأصـل إحـدى القبائـل المغولية التي تفرعت عن ذرية هولاكو، ومؤسس هذه الأسرة هو الشيخ حسـن الجلائـري المعروف بـ [حسن بزرك] أي الكبير. وقد كان حسن بزرك حاكمًا على الأناضول مـن قبل السلطان أبي سعيد، ثم ما لبث أن بسط سلطانه على الجوبانيين واتخذ من بغداد مركـزًا لحكمه، غير أنه في الوقت نفسه واصل اعترافه بالسيادة الاسمية للإيلخـانيين حتـى عـام ٧٤٧هـ/١٣٤٦م حين خول ابنه أويس القيام بكامل سلطاته الشخصية.

وفي عام ٧٦١هـ/١٣٦٠م قام (أويس) بفتح أذربيجان وأكد سيادته في إقليم فارس علـى المظفريين المتنازعين، غير أنه كان على خلفائه أن يواجهوا تلك القوة القراقيونلية التركمانية الصاعدة التي ظهرت في ديار بكر، كما كان عليهم بالمثل أن يواجهوا ذلك الغزو الذي قـام به خانات القبيلة الذهبية الطموحون لأذربيجان عبر القوقاز، كما دخل أحمد بن أويـس فـي مواجهة مع تيمور حين ظهر الأخير في شمالي فارس والعراق، غير أنه فر من وجهه إلـى مصر ليعيش تحت رعاية المماليك، ثم تمكن بمساعدتهم من استعادة ملكـه، وعقـب وفـاة السلطان أحمد ضعف شأن الدولة الجلائرية فسرعان ما سقطت أذربيجان في يد القراقيونليين ثم وقعت بغداد نفسها في أيديهم عام ٨١٥هـ/١٤١٢م، وفي العراق الجنوبي ظل عدد مـن صغار أمراء الجلائريين يحكمون في واسط والبصرة وشوشتر إلى أن قتل حسين الثاني عام ٨٣٥هـ/١٤٣٢م.

- بوزورث (كليفورد ١٠) : الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسـلامي، ترجمـة علـي اللبودي، مؤسسة الشراع العربي ١٩٩٥م، ص٢٢٧-٢٢٨.
- عباس إقبال : تاريخ عمومي وايران، تهران ١٣١٩هـ.ش، ص١٨٥ وما بعدها.
- Sykes (Sir Percy) : History of Persia, v.2, London, 1930, p. 115.
- The New Encyclopaedia Britannica, Chicago, 1990, v. 6, p. 476, 477.

(٢) السلطان أبو سعيد بهادرخان : بوسعيد بن خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو خان المغلي ملك التتار، صاحب العراق والجزيرة وخراسان والروم، كان بوسعيد مسلمًا، حسن الإسلام، جيد الخط، جوادًا عارفًا بالموسيقى، سبغضًا في الخمر، وهو أخر بيـت هولاكـو، انقضـوا بهلاكه، أقام في الملك عشرين عامًا، وكانت وفاته عام ٧٣٧هـ.

- ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج٢، مطبعة بولاق بالقاهرة، ١٢٨٥م، ص٣١٣.
- ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، د.ت، ص٣٥.

(٣) خاتون : لفظ تركي معناه السيدة، دخل العالم الإسلامي عن طريق الأتراك، وقد استعمل في النقوش والمؤلفات بهذا المعنى، فجاء على صيغة الجمع خاتونات أو خواتين للتعبير عن الحريم.

- حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٢٦٤، ٢٦٥.

(٤) الأمير جوبان : دخل في خدمة غازان خان ثم أولجايتو، وعظمت مكانته بزواجه من دولندي خاتون ابنة أولجايتو، وبعد وفاتها تزوج من اختها ساتي بك، وعندما جلس السلطان أبو سعيد بهادرخان على الحكم وكان صبيًا صغيرًا أمسك الأمير جوبان بزمام الأمور، وصار يتصرف في الدولة وكأنه السلطان الحقيقي.

- شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، تهران، دانشكاه تهران ١٣٤٥هـ.ش، ص١٣.
- عباس إقبال : تاريخ عمومي وإيران، ص١٢٨.

(٥) يبدو أن المرأة المغولية كانت لا تزال تسير دون حجاب، وأن التأثيرات الإسلامية والشرقية لم تكن لترسخ إلا بالتدريج.

- برتولد شبولر : العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، مراجعة سهيل ذكار، دمشق ١٩٨٢م، ص٧٩.

(٦) من الأبيات التي نظمها :

تعالي إلى مصر قلبي حتى ترى دمشق الروح

فإن أمل قلبي في هوى بغداد

(٧) خواند مير : تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد بشر، جلد سوم، كتابخانة خيام ١٣٣٣هـ.ش، ص٢٠٩.

- شرف خان البدليسي : شرفنامه، ترجمة محمد علي عوني، ج٢، نشر دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢م، ص٢٩.
- رضا بازوكي : تاريخ إيران، طهران، ١٣٠٦هـ.ش، ص١٢٧، ١٢٨.

- إدوارد براون : أز سعدي تاجامي، ترجمة وحواشي علــى أصــغر حكمــت، تهــران ١٣٢٧هـــ.ش ص١٩٠.
- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، بغداد، ١٩٣٥م، ص٤٩٤.
- Howorth. H. : History of the Mongols, Part 3, London, 1888, p. 605.

(٨) خواندمير : حبيب السير، جلدسوم، ص٢٠٩.
- عباس إقبال : تاريخ عمومي وايران، ص١٢٨.
- دائرة المعارف الإسلامية، ج٦، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٩٩٨م، ص١٧٩٦.

(٩) قراباغ : مصيف يقع بين السلطانية وتبريز (عباس العزاوي : تارخ العراق بين احتلالــين، ج١، ص٤٢٨).

(١٠) حافظ أبرو : ذيل جامع التواريخ رشيدي، تهران ١٣٥٠هـــ.ش، ص١٦٣، ١٦٤.
- خواندمير : حبيب السير، جلدسوم، ص٢٠٩، ٢١٠.

(١١) عندما ساءت العلاقة بين السلطان أبي سعيد والأمير جوبان استغل صائن الوزير الملقــب بـــ " نصرة الدين عادل " فرصة تغير مزاج السلطان ناحية الأمير جوبان وذكر له بعــض أفعال جوبان وأتباعه، وقال إن زمام تجارة محاصيل الولايات في يد الجوبانيين وأنه لا قيمة لأحد من أمراء ووزراء وأركان الدولة في وجوده، فاستقر كلام هذا الوزير في قلب صاحب التاج والعرش وعول على التخلص منه.
- خواندمير : حبيب السير، جلدسوم، ص٢٠٩، ٢١٠.

(١٢) أخذ الأمير جوبان يضيق على السلطان أبي سعيد حتى لم يبق له من الحكم إلا الاسم، وبلغ من تضييقه عليه أنه احتاج في أحد الأعياد إلى المال فلم يجده، فأعطاه اياه أحد التجار.
(انظر ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأســفار، مصــر، د.ت، ص١٤٤).
- فؤاد عبدالمعطي الصياد : مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضــل الله الهمــذاني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٧م، ص١٩٣.
- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص٤٩١.

(١٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون فــي مصــر، دار الفكــر العربــي، د.ت، ص٢٠٩.

- Sykes (Sir Percy) : History of Persia, v. 2, P. 115.

(١٤) أقبلت دنيا خاتون " أرملة السلطان محمد خدابنده " على السلطان أبي سعيد وقالت له : لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه، فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام، فقالت له: لقد انتهى أمر دمشق خواجه بن جوبان إلى أن يفتك بحرم أبيك، وأنه بات البارحة عند طغاخاتون، وقد بعث إليّ وقال لي : الليلة أبيت عندك، وما الرأي إلا أن تجمع الأمراء والعساكر، فإذا صعد إلى القلعة مختفيًا امكنك القبض عليه، وأبوه يكفي الله أمره ــ وكان جوبان إذ ذاك غائبًا بخراسان ــ فملأت الغيرة قلب السلطان أبي سعيد وبات يدبر أمره، فلما علم أن دمشق خواجه بالقلعة أمر الأمراء والعساكر أن يطوفوا بها من كل ناحية.. وفي النهاية أحاطت به العساكر، ولحق أمير من الأمراء الخاصكية يُعرف بمصر خواجه وفتى يُعرف بلؤلؤ بدمشق خواجه فقتلاه وأتيا السلطان أبي سعيد برأسه.

(عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص٤٩١م).

(١٥) خواندمير : حبيب السير، جلدسوم، ص٢١١.

- عباس إقبال : تاريخ عمومي وايران، ص١٢٨.
- برتولد شبولر : العالم الإسلامي في العصر المغولي، الترجمة العربية، ص٧٩.
- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص٤٩١.

(١٦) سيمنان : بكسر أوله وتكرار النون، بلدة بين الري ودامغان.

(ياقوت الحموي : معجم البلدان، مج٣، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤، ص٢٥١، ٢٥٢).

(١٧) ركن الدين علاء الدولة السمناني : هو أحمد بن محمد بن أحمد السمناني، ويلقب بعلاء الدين، وركن الدين، ولد في ذي الحجة عام ٦٥٩هـ، وتفقه وطلب الحديث، وسمع من الرشيد بن أبي القاسم وغيره، وبرع في العلم، واتصل بأرغون بن أبغا .. وكان مليح الشكل حسن الخلق، غزيز الفتوة كثير البر .. وذكر أن مؤلفاته تزيد على ثلاثمائة .. مات في رجب عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م.

(ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٢٥١).

(١٨) حافظ ابرو : ذيل جامع التواريخ رشيدي، ص١٧٤، ١٧٥.

- عبدالرازق السمرقندي : مطلع السعدين ومجمع البحرين، ترجمة ودراسة أحمد رياض، رسالة ماجستير ١٩٩٧م، ص٢٣٤، ٢٣٥.
- عباس إقبال : تاريخ عمومي وايران، ص١٢٩.

(١٩) حافظ ابرو : ذيل جامع التواريخ رشيدي، ص١٧٥.

- خواندمير : حبيب السير، جلدسوم، ص٢١٢

- عباس إقبال : تاريخ عمومي وإيران، ص١٢٩.

(٢٠) غياث الدين كرت : أحد ملوك هراة من بني كرت التي يرجع أصلها كما يقول المؤرخون إلى سنجر من سلاجقة خراسان أي أن أصلهم تركي، وقد عين أولجاتيو غياث الدين كـرت على ولاية هراة خلفا لأخيه فخر الدين عام ٧٠٦هـ/١٣٠٦م.

(ستانلي لين بول : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، ترجمة أحمد السـعيد سليمان، ج٢، دار المعارف بمصر، د.ت، ص٥٣٢).

(٢١) خواند مير : حبيب السير، جلدسوم، ص٢١٢، ٢١٣.

- عبدالرازق السمرقندي : مطلع السعدين، ص٢٣٧، وما بعدها.

- شيرين بياني : تاريخ آلا جلاير، ص١٥.

(٢٢) حافظ أبرو : ذيل جامع التواريخ، ص١٨٤.

- خواندمير : حبيب السير، جلدسوم، ص٢١٥.

- رضا بازوكي : تاريخ إيران، ص١٢٩.

(٢٣) مطلع السعدين، ص٢٤٩.

(٢٤) ميرخواند : روضة الصفا، جلدجهارم، بمباي ١٢٧١ هـ.ش، ص١٥٥.

- شعبان ربيع طرطور : الدولة الجلائرية، دار الهداية، ١٩٨٧م، ص١٢.

- Howorth. H. : History of The Mongols, Part 3 , p. 611.

(٢٥) الدرر الكامنة، ج٢، ص١٣.

- محمد رضا كحالة : أعلام النساء، ج١، مؤسسة الرسالة، ١٩٥٩م، ص١٣٦.

(٢٦) غياث الدين محمد بن الوزير رشيد الدين : فوض إليه السلطان أبو سعيد الوزارة ومكنـه من الأمور، وألقى إليه مقاليد الممالك إلى ان صار في مرتبة نظام الملك .. وكـان جميـل الصورة، وافر العلم، صائب الرأي .

(ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج٤، ص٢٥٢، ٢٥٣).

(٢٧) محمد صالح داود القزاز : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعـة القضاء بالنجف الأشرف، ١٩٧٠م، ص١٩٢، ١٩٣.

(٢٨) أران : بالفتح وتشديد الراء وألف ونون، اسم لولاية واسعة وبلاد كثيرة، وهي من أصقاع أرمينية.

(ياقوت الحموي : معجم البلدان، مج١، ص١٣٦).

(٢٩) موغان (موقان) بالضم ثم السكون والقاف وآخره نون، وأهله يسمونه موغان بالغين المعجمة، ولاية فيها قرى ومروج وتقع بأذربيجان.

(ياقوت الحموي : معجم البلدان، مج٥، ص٢٢٥).

(٣٠) شيروان : بالكسر ثم السكون ثم راء وواو وألف ونون، قرية بجانب بمجكث من نواحي بخاري.

(ياقوت الحموي : معجم البلدان، مج٣، ص٣٨٢).

(٣١) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٥.

(٣٢) حافظ أبرو : ذيل جامع التواريخ رشيدي، ص١٨٦.

- عبدالرازق السمرقندي، مطلع السعدين، ص٢٥٨.
- عباس إقبال : تاريخ عمومي وإيران، ص١٣١.

(٣٣) عباس إقبال : تاريخ عمومي وإيران، ص١٣١:

- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة، ١٩٨٧م، ص٤٧١.

(٣٤) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٦.

- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي، ص٤٧١.

(٣٥) عبدالرازق السمرقندي : مطلع السعدين، ص٢٥٨.

- عباس إقبال : تاريخ عمومي وإيران، ص١٣١.
- دائرة المعارف الإسلامية، ج٦، ص١٧٩٦.

(٣٦) مطلع السعدين، ص٢٥٨.

(٣٧) اعتقد عدد كبير من المؤرخين أن السلطان أبا سعيد جمع بين بغداد خاتون وابنة أخيها دلشاد خاتون في عصمته في وقت واحد، وهو ما أثار حنق وغضب بغداد خاتون، ويبدو أن هذا الأمر بعيدٌ عن الصحة لأنه لا يجوز لمسلم متمسك بالشريعة الإسلامية الجمع في الزواج بين العمة وابنة أخيها في وقت واحد : أما الأقرب إلى الصحة أن السلطان قام بتطليق بغداد خاتون في أول الأمر ثم تزوج من دلشاد خاتون بعد ذلك.

(انظر خواندمير : حبيب السير، جلدسوم، ص٢١٨).

(٣٨) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٦.

- رضا بازوكي : تاريخ ايران، ص١٣١.

(٣٩) أوزبك خان : أوزبك بن طقطاي وقيل ابن طفرلجا بن منكوتمر بن طغان بن باتو بن دوش ابن جنكيزخان، القان صاحب الدشت وبلاد المشرق، أسلم لما ملك، وحسن إسلامه وحث رعيته على الإسلام، وكان شجاعًا كريمًا، مليح الصورة، ذا هيبة وحرمة، ومملكة واسعة، حكم نحو ثلاثين عامًا، وكانت وفاته عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م.

(ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، سعيد عبدالفتاح عاشور، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٤م، ص٣٤٣، ٣٤٤).

(٤٠) شرف خان البدليسي : شرفنامه، ج٢، ص٣٤، ٣٥.

- رضا بازوكي : تاريخ إيران، ص١٣٠.

- محمد علاء الدين منصور : تاريخ إيران بعد الإسلام، دار الثقافة بالقاهرة، ١٩٨٩م، ص٤٩٥.

(٤١) ذكر ابن بطوطة : أن السلطان أبا سعيد تزوج من امرأة أخرى تسمى دلشاد أحبها حبًا شديدًا وهجر بغداد خاتون، فغارت لذلك وسمته في منديل مسحته به بعد الجماع، فمات وانقرض عقبه.

(انظر تحفة النظار، ص١٤٥).

(٤٢) فؤاد عبدالمعطي الصياد : مؤرخ المغول الكبير، ص١٩٧.

- Howorth. H. : History of the Mongols, Part 3, p.624.

(٤٣) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٦.

- دائرة المعارف الإسلامية، ج٦، ص٥٩.

(٤٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي، ج٢، ص٢٩٠.

- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص٥١٦.

- رضا بازوكي : تاريخ إيران، ص١٣١، ١٣٢.

(٤٥) خواندمير : حبيب السير، جلدسوم، ص٢٢٢.

(٤٦) عبدالرازق السمرقندي : مطلع السعدين، ص٢٨٦.

- دائرة المعارف الإسلامية، ج٦، ص١٧٩٦.

(٤٧) براون : أزسعدي تاجامي، ص١٩٠.

- شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٦.

(٤٨) تحفة النظار، ص١٤٥.

(٤٩) قبيلة الأويرات : كانت هذه القبيلة تسكن في شرقي المغول عند فروع " نهر انقارا " يقيمون في فروعه ولكل فرع منها اسم، وهذه القبيلة كان رئيسها قد عارض جنكيزخان في بادئ الأمر ثم أطاعه، وتزوج كل منهما بنت الآخر ... وظهرت هذه القبيلة للوجود في عهد أرباخان وكان أميرها علي بادشاه والي بغداد فقام بدوره وانقرضت على يده حكومة المغول.

(عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص٥٢٢، حاشية ٢).

(٥٠) شيرين بياني : تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص٥٢٣.

(٥١) ذكر محمد صالح القزاز : " أن السلطان أبا سعيد كان عاقرًا، وأن الغرض من ادعاء حملها كان سياسيًا لدعم مركز علي بادشاه في صراعه مع الإيلخان الجديد أرباخان ".

(الحياة السياسية في العراق، ص١٩٤، حاشية ٣).

(٥٢) عبدالرازق السمرقندي : مطلع السعدين، ص٢٨٨.

- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص٥٢٣.

(٥٣) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص٥٢٣.

- يمنى رضوان : الدولة الجلائرية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص١٣٤.

(٥٤) ميرخواند : روضة الصفا، جلد جهارم، ص١٥٩.

- شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٨.

(٥٥) يمنى رضوان : الدولة الجلائرية، ص١٣٤.

(٥٦) ذكر أن دلشاد خاتون كانت حاملا وأنها وضعت بنتًا في السادس من شوال عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م.

- عبدالرازق السمرقندي : مطلع السعدين، ص٢٩٢، ٢٩٣.

- علي أكبر دهخدا : لغت نامة، تهران، ١٣٥٣ هـ.ش، ص١٦٠.

(٥٧) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص٥٢٥.

(٥٨) شرف خان البدليسي : شرفنامه، ج٢، ص٣٥.

- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص٥٢٥، ٥٢٦.

(٥٩) عبدالرازق السمرقندي : مطلع السعدين، ص٢٩٣.

- شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٨.

(٦٠) حافظ أبرو : ذيل جامع التواريخ رشيدي، ص١٩٧.

- عبدالله رازي : تاريخ كامل إيران، تهران د.ت، ص٣٣٤.

- شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٨.

(٦١) عبدالعظيم رضايي : تاريخ ده هزارساله ايران، جلدسوم، تهران ١٣٧٣م، ص٢٠٦.

- شعبان ربيع طرطور : الدولة الجلائرية، ص١٤.

(٦٢) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٩.

- رضا بازوكي : تاريخ إيران، ص١٣٣.

(٦٣) ذكر عبدالرازق السمرقندي انتقام الشيخ حسن الجلائري بالزواج من أرملة السلطان أبي سعيد بقوله : " ... وبدل خيال بغداد خاتون بوصال دلشاد خاتون، زيادة على ذلك استولى على إيران، وفي هذه الأطوار اعتبارًا لأولي الألباب ... فكما تدين تدان ويفعل الله ما يشاء".

- مطلع السعدين، ص٢٩٥، ٢٩٦.

(٦٤) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٢٠.

- علي أكبر دهخدا : لغت نامة، ص١٦٠.

- Howorth. H. : History of the Mongols, Part 3, p. 654.

(٦٥) أنجبت دلشاد خاتون بعد زواجها من الشيخ حسن الجلائري أربعة أبناء، هم : أويس : الذي جلس على عرش السلطنة بعد وفاة أبيه، الأمير قاسم : توفى في ريعان شبابه بمرض السُل ودفن جثمانه بالنجف الأشرف، الشيخ زاهد : توفى أيضًا في عنفوان شبابه على أثر سقوطه من سطح عمارة أوجان بأذربيجان. الأميرة دندي : كانت تضارع أمها في سلطتها.

(عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص٦٨، ٦٩).

(٦٦) عباس إقبال : تاريخ عمومي وإيران، ص١٨٦.

(٦٧) تاريخ آل جلاير، ص٣١، ٣٢.

(٦٨) أطلق عليه بزرك أي الكبير تمييزًا له عن عدوه ومنافسه حسن كوجك أي الصغير.
(كليفورد أ. بوزورث، الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص٢٢٧).

(٦٩) دولتشاه سمرقندي : تذكرة الشعراء، لاهور، ١٩٢٣م، ص١٧٥.

(٧٠) ومن الأشعار التي قيلت فيها :

الملك مطيـــــع لك وملـــــوك العـــالـــم	كلهـــم اليـــــوم ممنـــــون لفضلك
الملكة دلشاد شريفة الأصل على وجه الأرض	لم ير الفلك القديم مثلها رغم كل عيونه

(٧١) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣٢.

(٧٢) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣٠.

(٧٣) هو حسن بن تيمور تاش بن جوبان كان مختفيًا في بلاد الروم، وقد طمع في أن يكون لـــه نصيب من السلطنة، فجمع جيشًا وتحارب مع الشيخ حسن الجلائري، وأثناء الحـــرب أســـر السلطان " محمد يولقتلغ " الذي كان قد ولاه الشيخ حسن الجلائري على عـــرش الإيلخانيـــة وقتل، وهرب الشيخ حسن الجلائري إلى ناحية أذربيجان، وبعد هذه الواقعـــة اتفـــق حســـن كوجك مع إحدى الأميرات وتدعي ساتي بيك شقيقة السلطان أبي سعيد وقاما بطـــرد حســـن الجلائري من تبريز وأجلس ساتي بيك على العرش وزوجها من سليمان خان أحد أخـــلاف هولاكو، أما حسن الجلائري فقد أجلس شخصًا يدعي " جيهان تيمور " واستولى على ديـــار بكر وملحقاتها، ولما رأى عدم كفاءته عزله. وظلت الحرب قائمـــة ومشـــتعلة بـــين حســـن الجلائري وحسن كوجك إلى أن قتل حسن كوجك بصورة بشعة على يد زوجته.

- شرف خان البدليسي : شرف نامة، ج٢، ص٣٨ وما بعدها.
- رضا بازوكي : تاريخ إيران، ص١٣٤.

- Encyclopedia de L'Islam, tome 2, Paris, 1927, p.297, 298.

(٧٤) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص٥٣.

(٧٥) شرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣٠.

(٧٦) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص٥٣.

(٧٧) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص٥٢، ٥٣.

- شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣٠، ٣١.

(٧٨) عباس العزاوي : تاريخ العراق، بين احتلالين، ج٢، ص٥٤.

(٧٩) تاريخ آل جلاير، ص٢٨٦.

(٨٠) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣١، ٣٢.

(٨١) عباس إقبال : تاريخ عمومي وإيران، ص١٨٩.

(٨٢) شعبان ربيع طرطور : الدولة الجلائرية، ص٣٩.

(٨٣) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٦٦، ٦٧.

(٨٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٥، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م، ص١١٧١.

- رضا بازوكي : تاريخ ايران، ص١٤٠.
- عبدالعظيم رضايي : تاريخ ده هزارساله ايران، جلدسوم، ص٢٠٧.

(٨٥) ذكرها ابن حجر العسقلاني خطأ أنها أخت السلطان أحمد بن أويس.

(انظر إنباء الغُمر بأنباء العُمر، ج٢، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧١م، ص٤٦٦) والصحيح ما أورده ابن العماد الحنبلي أنها تندو بنت حسين بن أويس (شذارت الذهب في أخبار من ذهب، ج٧، تحقيق لجنة إحياء التراث، بيروت، د.ت، ص١٥٥).

(٨٦) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج١١، بيروت، ١٩٦٦، ص١٦.

- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج٧، ص١٥٥.

- Howorth. H. : History of the Mongols, Part 3, p. 620.

(٨٧) القراقيونلية : دولة أصحاب الخراف السود في أذربيجان والعراق، وهي إحدى القبائل التركمانية التي هاجرت موطنها زمن أرغون خان وعاشت في كنف الإيلخانية، ثم دخلت في خدمة الدولة الجلائرية في عهد السلطان أويس.

- ستانلي لين بول : تاريخ الدولة الإسلامية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، ج٢، دار المعارف بمصر، ص٥٣٥.
- سليمان عطية : العلاقات السياسية بين مصر وغرب أسيا، رسالة ماجستير، القاهرة، ١٩٥٢م، ص٢٠.

(٨٨) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٠٩.

- Howorth. H. : History of the Mongols, Part 3, p. 678.

(٨٩) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٠٩.

- شعبان طرطور : الدولة الجلائرية، ص٥٥.

(٩٠) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص٣٠٩.

(٩١) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢ ص٣١٠.

(٩٢) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٠٩.

(٩٣) واسط : سميت بهذا الاسم لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة.

- ياقوت الحموي : معجم البلدان، مج٥، ص٣٤٧.

(٩٤) تستر : بالضم ثم السكون وفتح التاء الأخرى وراء : أعظم مدينة بخوزستان.

- ياقوت الحموي : معجم البلدان، مج٢، ص٢٩.

(٩٥) بعقوبة (بعقوبا) قرية كبيرة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان.

- ياقوت الحموي : معجم البلدان، مج١، ص٤٥٣.

(٩٦) حافظ أبرو : زبدة التواريخ، جلد أول، تهران، ١٣٧٢ هـ.ش، ص٤٤٨.

- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص٣١٠.

(٩٧) الحويزه : تصغير الحوزه .. وهي موضع بين واسط والبصرة وخوزستان.

- ياقوت الحموي : معجم البلدان، مج٢، ص٣٢٦.

(٩٨) السخاوي : الضوء اللامع، ج١١، ص١٦.

- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج٧، ص١٥٥.

(٩٩) عباس العزاوي : تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية، بغداد، ١٩٥٨م، ص٨٣.

(١٠٠) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج٧، ص١٥٥.

(١٠١) الأسرة المظفرية : إحدى الأسر الحاكمة في إيران عقب وفاة السلطان أبي سعيد بهادرخان، وقد امتد حكمها ٧٧ عامًا من سنة ٧١٨-٧٩٥هـ / ١٣١٨-١٣٩٢م وشملت مناطق نفوذها يزد وكرمان وفارس وخوزستان ولرستان وأصفهان، كما امتدت مرتين لفترة قصيرة إلى قزوين وزنجان، وعدة أيام فقط إلى أذربيجان.

- بوزورث : الأسرات الحاكمة، ص٢٢٥، ٢٢٦.

- ستانلي لين بول : تاريخ الدولة الإسلامية، ج٢، ص٥٢٦، ٥٢٧.

(١٠٢) خلف الشاه شجاع ــ ثاني حكام الأسرة المظفرية ــ والده على الحكم في فترة تاريخية

تتسم بالاضطراب الشديد، فارتبط اسمه بميادين القتال وأمضى حياته وسط أسرة ملكية يسودها الصراع المرير على الحكم والتكالب على السلطة.

(انظر هويدا عبدالمنعم إدريس : الوضع السياسي الداخلي في الدولة المظفرية في عهد الشاه شجاع ٧٦٠-٧٨٦هـ/١٣٥٨-١٣٨٤م، مجلة المؤرخ المصري، العدد ٢٥، يناير ٢٠٠٢م، ص١٦٩ وما بعدها).

(١٠٣) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٤٤.

- رضا بازوكي : تاريخ إيران، ص١٣٩.

(١٠٤) عبدالرازق السمرقندي : مطلع السعدين ومجمع البحرين، ص٥٤٧.

- ملكة علي التركي : الشاه شجاع شاعرًا، القاهرة، ١٩٩٢م، ص١٢.

(١٠٥) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٤٤.

(١٠٦) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٤٤، ٤٥.

(١٠٧) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٤٥.

(١٠٨) عبدالرازق السمرقندي : مطلع السعدين، ص٥٥٠.

- حسينقلي ستوده : تاريخ آل مظفر، جلد أول، انتشارات دانشكاه تهران، ١٣٤٧ هـ.ش، ص١٦٧.

(١٠٩) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٤٦.

(١١٠) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٤٦.

(١١١) ميرخواند : روضة الصفا، جلدجهارم، ص١٥٤، ١٥٥.

(١١٢) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٤٧.

(١١٣) البدليسي : شرفنامه، ج٢، ص٥٨.

(١١٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٥، ص١١٦٩.

- محمد علاء الدين منصور : تاريخ إيران بعد الإسلام، ص٥٥٦.

(١١٥) أربري (أرثر) : شيراز مدينة الأولياء والشعراء، ترجمة سامي مكارم، بيروت، ١٩٦٧م، ص٢١٩.

- إبراهيم أمين الشواربي : حافظ الشيرازي (شاعر الغناء والغزل في إيران) مطبعة المعارف بمصر، د.ت، ص١٤٦.

(١١٦) قاسم غني : بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، جلد أول، تهران، ١٣٢١هـ، ص٢٩٣.

(١١٧) ميرخواند : روضة الصفا، جلد جهارم، ص١٥٨، ١٥٩.

- عباس إقبال : تاريخ مفصل ايران، جلد أول، طهران، ١٣١٢هـ.ش، ص٤٣٢.

(١١٨) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٦٠، ٦١.

- عبدالله رازي : تاريخ كامل إيران، ص٣٣٥.

(١١٩) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٥، ص١١٧٠.

(١٢٠) محمود الكتبي : تاريخ آل المظفر، ترجمة وتعليق ملكة علي التركي، دار الزهراء للنشر، ١٩٩٢م، ص١٨٠.

- قاسم غني : بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، جلد أول، ص٣٠٠.

(١٢١) ستانلي لين بول : تاريخ الدول الإسلامية، ج٢، ص٥٣٥.

- سليمان عطية : العلاقات السياسية، ص٢٠.

(١٢٢) ستانلي لين بول : تاريخ الدول الإسلامية، ج٢، ص٥٣٥.

- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص١٤٤.

(١٢٣) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص ص٥٥، ٥٦.

- رضا بازوكي : تاريخ إيران، ص١٤٠.

(١٢٤) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأنباء العُمر، ج٢، ص٤٦٥.

- محمد علاء الدين منصور : تاريخ إيران بعد الإسلام، ص٥٥٩.

(١٢٥) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٧١.

- رضا بازوكي : تاريخ إيران، ص١٤١.

(١٢٦) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٥، ص١١٧٢.

- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص١٧١.

(١٢٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٥، ص١١٧٤.

(١٢٨) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص٢٠٠، ٢٠١.

(١٢٩) المقريزي (تقي الدين أحمد) : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكتب ١٩٧٠م، ص٧٨٨.

- الخطيب الجوهري : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشـــي، القاهرة، ١٩٧٠م، ج١، ص٣٦٣.

- Howorth. H. : History of the Mongols, Part 3, , p. 662.

(١٣٠) بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيــق محمــد مصـــطفى زيـــادة، ج١، ص١٩٦٣م، ص٤٦١.

(١٣١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٢، القـــاهرة، ١٩٦٣م، ص٤٤.

- عبدالعظيم رضايي : تاريخ ده هزارساله إيران، ص٢٠٧.

(١٣٢) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٨٩، ٩٠.

- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص٢٠١، ٢٠٢.

- Howorth. H. : History of the Mongols, Part 3, p. 663.

(١٣٣) ابن عربشاه : عجائب المقدور في نوائب تيمور، مصر، د.ت، ص٤٧.

- ابن اياس : بدائع الزهور، ج١، ص٤٦١.

(١٣٤) المقريزي : السلوك، ج٣، ص٧٨٩.

- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج١١، ص٤٤، ٤٥.

(١٣٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٥، ص١١٧٥.

(١٣٦) عندما وصل السلطان أحمد إلى مصر ركب الظاهر برقـــوق إلـــى لقائـــه ونـــزل مـــن المصطبة، وأسرع أحمد في تقبيل يده، فلم يوافق وعانقه وبكى وطيب خاطره وأجلسه علـــى البساط بغير كرسي، ثم خلع عليه وأركبه فرسًا وسايره إلى أن وصل القلعة، فأرسله إلى بيت أعده له مطل على بركة الفيل، ثم أرسل إليه الظاهر بنحو عشرة آلاف دينار ومائتي قطعـــة قماش وعدة خيول وعشرين مملوكًا وعشرين جارية.

(ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر، ج٢، ص٤٦٥، ٤٦٦).

(١٣٧) ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ص٤٦٦.

- Howorth. H. : History of the Mongols, Part 3, p. 666.

(١٣٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٥٢، ٥٣.

- شعبان ربيع طرطور : الدولة الجلائرية، ص٤٦.

(١٣٩) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص٢٢٠.

(١٤٠) المقريزي : السلوك، ج٣، ص٨٠٥ وما بعدها.

(١٤١) المقريزي : السلوك، ج٣، ص٨١٤.

- ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر، ج٢، ص٤٦٦.

(١٤٢) ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر، ج٢، ص٤٦٦.

- شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٩٣.

(١٤٣) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٢٢.

- شعبان ربيع طرطور : الدولة الجلائرية، ص٥٩.

(١٤٤) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٢٢.

(١٤٥) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص٦٩.

(١٤٦) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣٢.

(١٤٧) شعبان طرطور : الدولة الجلائرية، ص٦٠.

(١٤٨) الشيخ صفي الدين الأردبيلي : ولد في أردبيل عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م وحصل العلم في موطنه، ثم انخرط في سلك التصوف وسافر إلى شيراز، وتوفى عام ٧٣٥هـ/١٢٣٧م.

(شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٥٠).

(١٤٩) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٥١.

- شعبان ربيع طرطور : الدولة الجلائرية، ص٦٩.

(١٥٠) محمد جواد مشكور : تاريخ تبريز تاپايان قرن نهم هجري، انتشارات انجمن آثار ملي، تهران، ١٣٥٢هـ، ص٥٩٤.

(١٥١) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣٢.

(١٥٢) تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص٧٩.

(١٥٣) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣٢.

(١٥٤) كان طوشيا من موالي السلطان أويس استنابه على بغداد، ثم استوحش مرجان منه فأعلن استقلاله ببغداد، وكاتب الأشرف صاحب مصر يخبره أنه خطب له ببغداد، فأرسل إليه الأعلام والخلع، لكن السلطان أويس تجهز إليه بعساكره وتغلب عليه عام ٧٦٥هـ/١٢٦٦م.

- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص١٢٨.

(١٥٥) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣١٠.

(١٥٦) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص١٢٤.

(١٥٧) علي أكبرد هخدا : لغت نامه، ص١٦٠.

(١٥٨) خواجوي كرماني : هو كمال الدين أبو العطاء محمود بن علي الكرماني، ولد في كرمان عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م. وبعد تحصيله العلوم في موطنه سافر لزيارة الكعبة وتوجه إلى بغداد وتبريز وأصفهان، ثم توجه إلى شيراز وأقام فيها حتى وفاته عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م. وقد امتدح شخصيات كثيرة منها السلطان أبو سعيد، والشيخ حسن الجلائري، وزوجته دلشاد خاتون.

- رضا زاده شفق : تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة محمد موسى هنداوي، دار الفكر العربي، ١٩٤٧م، ص١٦١، ١٦٢.
- شعبان ربيع طرطور : أعلام الشعر والنثر الفارسي، د.ت، ص١٢٣.

(١٥٩) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣٧٨.

(١٦٠) سلمان الساوجي : هو ملك الشعراء خواجه جمال الدين بن علاء الدين محمد الساوجي، ولد في مدينة ساوه ودرس مقدمات العلوم وآداب الديوان، ثم التحق بخدمة غياث الدين محمد وزير السلطان أبي سعيد، ثم توجه إلى بغداد والتحق بالشيخ حسن الجلائري وظل بقية عمره في بلاط الجلائريين ومداحًا لسلاطينهم، وممدوحوه الخصوصيون هم الشيخ حسن الجلائري وزوجته دلشاد خاتون وابنهما السلطان أويس الذي نال في عهده مكانة عالية وثروات طائلة، انظر :

- سلمان الساوجي : ترجيعات سلمان، دار المعارف، ١٩٨١م، ص٧ وما بعدها.
- سلمان ساوجي : فراقنامة، تحقيق شعبان طرطور، دار المعارف، ١٩٩٢م، ص١١ وما بعدها.
- شعبان طرطور : من أعلام الشعر والنثر الفارسي، ص٦٧، وما والها.

- Jan Rypka : History of Iranian Literature, Leyden, 1969, p. 261.

(١٦١) من الأشعار التي قيلت في دلشاد خاتون :

أتعلم ممن يكون مصدر هذه السعادة   من صفاء عقيدة الحاكم ناشر الدين

ملكة الحق دلشاد شاه ذلك الشخص الذي حضرته   ملجأ كل ملك ومرجـــع كل حاكم

- شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣٨٠.

(١٦٢) سعيد نفيسي : تاريخ نظم ونثر در ايران ودر زبان فارس تاپايان قرن دهـم هجـري، تهران، ١٣٤٤هـ.ش، ص٢٠٢.

(١٦٣) شعبان طرطور : الدولة الجلائرية، ص٥٩.

(١٦٤) ومن القصائد التي قالها سلمان في مدح جمال دلشاد خاتون :

بياض وجهك وسواد جديلتك   أنشأ في العالم نظام الليل والسحر

- سلمان الساوجي : ترجيعات سلمان الساوجي، ص٣٨.

(١٦٥) سلمان الساوجي : ترجيعات سلمان الساوجي، ص٣٨.

(١٦٦) شرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣٢.

(١٦٧) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص١٠٤.

- شعبان طرطور : الدولة الجلائرية، ص٥٩، ٦٠.

(١٦٨) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٥٠.

(١٦٩) شيرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٥٠.

(١٧٠) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص١٠٤.

- شعبان طرطور : الدولة الجلائرية، ص٦٠.

(١٧١) عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص١٠٥.

- شعبان طرطور : الدولة الجلائرية، ص٦٠.

(١٧٢) شرين بياني : تاريخ آل جلاير، ص٣١٠.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع الفارسية :

١- بـــــــراون (إدوارد) : - أز سعدي تاجامي : تاريخ أدبي إيران أز نيمة قرن هفـتم تا أخر قرن نهم هجري عصر استيلاي مغـول وتاتـار، ترجمة وحواشي على أصغر حكمـت، تهـران، ١٣٢٧ هـ.ش.

٢- حافظ أبرو (ت ٨٣٣هـ): - ذيل جامع التواريخ رشيدي، جلد أول، تصحيح وتعليـق سيد كمال حاج سيد جوادي، تهران، ١٣٧٢هـ.ش

- زبدة التواريخ، جلد أول، مقدمة وتصحيح وتعليق، سـيد كمال حاج سيد جوادي، تهران، ١٣٧٢هـ.ش

٣- حســـــينقلي ســـــتودة : - تاريخ آل مظفر، جلد أول، انتشارات دانشـكاه، تهـران، ١٣٤٧هـ.ش

٤- خواندمير (غياث الدين محمد بن همام الحسيني ت ٩٤٢هـ) :

- تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد بشـر، جلـد سـوم، تهران، ١٣٣٣هـ.ش

٥- دولتشـــــاه ســـــمرقندي : - تذكرة الشعراء، لاهور، ١٩٢٣م.

٦- رضـــــا بـــــــازوكي : - تاريخ إيران، طهران، ١٣٠٦ هـ.ش

٧- ســــــعيد نفيســــــي : - تاريخ نظم ونثر در ايران ودر زبان فارس تابايان قـرن دهم هجري، جلد أول، تهران، ١٣٤٤هـ.ش

٨- ســـــلمان ســـــاوجي : - ترجيعات سلمان، باهتمام شـعبان ربيـع طرطـور، دار المعارف، ١٩٨١.

- فراقنامه، تحقيق شعبان ربيع طرطـور، دار المعـارف، ١٩٩٢م.

٩- شـــــيرين بيـــــاني : - تاريخ آل جلاير، دانشكاه، تهران، ١٣٤٥هـ.

١٠- عبـــــاس إقبـــــال : - تاريخ عمومي وإيران، جابخانه شركة مطبوعات، تهران، ١٣١٩هـ.ش

- تاريخ مفصل إيران (از اسـتيلاي مغـول تـا اعـلان

مشروطيت) جلد أول، مطبعة مجلس، طهران، ١٣١٢هـ.ش

١١- عبدالعظيم رضابي : - تاريخ ده هزار ساله ايران جلد سوم، دار نشر إقبال، تهران، ١٣٧٣هـ.ش

١٢- عبدالله رازي : - تاريخ كامل ايران، دار نشر إقبال، تهران، د.ت

١٣- علي أكبر دهخدا : - لغت نامه، تهران، ١٣٥٣هـ.ش

١٤- قاسم غني : - بحث در آثار وأفكار وأحوال حافظ، جلد أول، مقدمة بقلم محمد قزويني، تهران، ١٣٢١هـ.ش

١٥- محمد جواد مشكور: - تاريخ تبريز تاپايان قرن نهم هجري، انتشارات إنجمن آثار ملي، تهران، ١٣٥٢هـ.ش

١٦- ميرخواند (محمد بن سيد برهان الدين خواند شاه) :

- روضة الصفا، جلد جهارم، طبعة بمباي، ١٢٧١م

ثانيًا : المصادر والمراجع الفارسية المعربة :

١٧- رضا زاده شفق : - تاريخ الأدب الفارسي، ترجمة محمد موسى هنداوي، دار الفكر العربي، ١٩٤٧م.

١٨- شرف خان البدليسي : - شرفنامه، ترجمة محمد علي عوني، ج١، ٢، نشر دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢م.

١٩- عباس إقبال : - تاريخ إيران بعد الإسلام (من بداية الدولة الظاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية)، ترجمة محمد علاء الدين منصور، مراجعة السباعي محمد السباعي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م.

٢٠- عبدالرازق السمرقندي : - مطلع السعدين ومجمع البحرين، ترجمة ودراسة أحمد رياض (رسالة ماجستير)، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢١- محمود الكتبي : - تاريخ آل المظفر، ترجمة وتعليق ملكة علي التركي، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ١٩٩٢م.

ثالثا : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

٢٢- إبراهيم أمين الشواربي : - حافظ الشيرازي (شاعر الغناء والغزل في إيران) مطبعة دار المعارف بمصر، د.ت.

٢٣- آربـــري (آرثـــر) : - شيراز مدينة الأولياء والشعراء، ترجمة سـامي مكـارم، بيروت، ١٩٦٧.

٢٤- ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ت ٩٢٨هـ/١٥٢٣م) :

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٣م.

٢٥- ابن بطوطة (محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :

- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مصر، د.ت

٢٦- بوزورث (كليفورد آدموند): - الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين علي اللبودي، مراجعة إبراهيم العسكري، مؤسسة الشراع العربي، ١٩٩٥م.

٢٧- ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) :

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي تحقيق محمد محمد أمين، سعيد عبدالفتاح عاشور، ج٢، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٤م.

٢٨- ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)

- إنباء الغمر بأنباء العمر، ج٢، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧١م.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، د.ت.

٢٩- حسـن الباشـا : - الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.

٣٠- الخطيب الجوهر (علي بن داود الصيرفي ت ٩٠٠هـ)

- نزهة القلوب والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٧٠م.

٣١- ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد الحضرمي ت٨٠٨هـ/١٤٠٥-١٤٠٦م) :

- العبر وديوان المبتدأ والخبر، مج٥، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت

٣٢- **دائرة المعارف الإسلامية**، ج٦، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٩٩٨م.

٣٣- **زامباور (إدوارد فون) :** - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في الإسلام، ترجمة زكي محمد حسن وأخرين، بيروت، ١٩٨٠م.

٣٤- **سليمان عطية :** - العلاقات السياسية بين مصر وغرب آسيا، رسالة ماجستير، القاهرة، ١٩٥٢م.

٣٥- **شبولر (بارتولد) :** - العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، مراجعة سهيل ذكار، دمشق، ١٩٨٢م.

٣٦- **شعبان ربيع طرطور :** - أعلام الشعر والنثر الفارسي، دار المعارف، د.ت.

- الدولة الجلائرية، دار الهداية، ١٩٨٧م.

٣٧- **عباس العزاوي :** - تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ٢، بغداد، ١٩٣٦م.

- تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية، بغداد، ١٩٥٨م.

٣٨- **ابن عربشاه (شهاب الدين أحمد بن عبدالله الدمشقي ت ٨٤٦هـ) :**

- عجائب المقدور في نوائب تيمور، مصر، د.ت.

٣٩- **ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبدالحي ت ١٠٨٩هـ)**

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٢، لجنة إحياء التراث، بيروت، د.ت

٤٠- **فؤاد عبدالمعطي الصياد :** - الشرق الإسلامي في عهد الايلخانيين (أسرة هولاكوخان) الدوحة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- مؤرخ المغول الكبير (رشيد الدين فضل الله الهمداني)، دار الكتاب العربي بالقاهرة، ١٩٦٧م.

٤١- **لين بول (ستانلي) :** - تاريخ الدول الإسلامية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، ج٢، دار المعارف بمصر، د.ت.

٤٢- **محمد جمال الدين سرور:** - دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، د.ت

٤٣- **محمد رضا كحالة :** - أعلام النساء، ج١، مؤسسة الرسالة، ١٩٥٩م.

٤٤- محمد صالح داود القزاز: - الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء في النجف الأشرف، ١٩٧٠م.

٤٥- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م.

٤٦- ملكة على التركي : - الشاه شجاع شاعرًا، القاهرة، ١٩٩٢م.

٤٧- هويدا عبدالمنعم إدريس: - الوضع السياسي الداخلي في الدولة المظفرية في عهد الشاه شجاع، مجلة المؤرخ المصري، العدد ٢٥، يناير ٢٠٠٢م.

٤٨- ابن الوردي (زين الدين عمر بن المظفر ت ٧٤٩هـ/١٣٦٠م) :

- تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، ج٢، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

٤٩- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) :

- معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م.

رابعًا : المراجع الأجنبية :

50- **Encyclopedia de L'Islam**, tome 2, paris, 1927.

51- **Howorth : Henry H.** : History of the Mongols, part 3, London, 1888.

52- **Rybka, Jan** : History of Iranian Literature, Leyden, 1969.

53- **Sykes (Sir Percy)** : History of Persia v.2, London, 1930.

54- **The New Encyclopaedia Britannica**,v. 6, Chicago, 1990.

رؤيـة تاريخيـة لتفادى

مخاطر العولـة على عالمنا العربي المعاصـر

د. وجيــه عبد الصادق عتيق
أستاذ تاريخ الحديث
بقسم التاريخ بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

- تهب على عالمنا العربي المعاصر – منذ سقوط الاتحاد السوفيتي – ريــاح العولمــة العاتية، التي تحمل فيما تحمل عدد من المخاطر التي تهدد سيادتنا الوطنيــة و كذلك تطلعاتنا القوميــة. و من الجديــر بنا وقبل فوات الأوان تدارك هذه المخاطر والعمل بكل جدية على تفاديها.

- وتتعدد مفاهيــم وأشكال العولمــة لتشمل كل جوانــب الحيــاة السياســيــة والاقتصادية والاجتماعية والثقافيــة، و من ثم يصعب تحديــد تعريــف موحــد للعولمــة. وفي تقديرنــا وفي ضوء الهيمنة الشاملــة التي ترمــي إليها العولمــة الأمريكية ، يمكن لنا تعريف هذه العولمة هنا في دراستنا بأنها تعني:- إذعان جميع دول العالم لمشيئة قوة أحاديــة. و في هذا الإطــار تكمن المخاطر التي تمثلها تلك العولمة على عالمنا العربــي المعاصــر أن يواجههــا.

- ومما لا شك فيه هناك قوى بعينها تسعى وراء الولايات المتحدة الأمريكيــة منذ فتــرة لتطبيق العولمــة بأشكالها المختلفــة، لما في ذلــك مــن فوائــد جمــة تجنيها من وراء انفراد دولة واحدة بشئون العالم و دوران الجميع في فلكهــا. و تؤكد لنا المعطيــات الحاليــة أن الحركة الصهيونيــة وجــدت منذ الحرب العالميــة الثانية في الرأسماليــة الأمريكيــة حليفا مناسبا يمكن عن طريق العولمة تحقيق مصالحهما المشتركــة، خاصة و أن الفكــرتين الصهيونية و الرأسماليــة تجمعهما أرضيــة مشتركــة في الانتقاص مــن

سيادة الدول و تطلعات شعوبها القوميـــة. و من ثم تحالفت الصـهيونيـــة مع الرأسماليـــة الأمريكيـــة من أجل هيمنة الإدارة الأمريكيـــة علـــى شـــئوون العالم السياسيـــة لخدمة أهدافهما معا.

* وفي الواقع تقدم لنا تجربتنا التاريخية الذاتيـــة، وكذلك علاقاتنا التاريخيـــــة بعدد من القوى الدولية الكثير من عناصر القوة التي يجب أن نتسلح بها فـــي مقاومة مخاطر العولمة الأمريكية علينا.. فمن المعروف أن دولا عديـــدة و خاصة في أوربـــا تستشعر مثلنا الخطر من العولمـــة، وتبحث مثلنا عن سبل تفادى ذلك الخطر كما تعارض هيمنة قوة أحاديـــة على مقـــدرات العـــالم، ومن ثم علينا أن نتقارب مع هذه الدول، التي يجمعنـــا معهـــا نفـــس ذلـــك الهـــدف.

* ومن هنا يسعى هـــذا البحث إلى إبراز جوانب القوة في حياتنا مثل تســـامح ديننـــا الحنيف، وارتباطنـــا ببيئتنـــا العربيـــة المعطاءة. لكي نؤكـــد أننـــا نقبل من الآخر مالا يتعارض من أصول ديننا، ولكي نؤكد أيضا أننا نملـــك ثروات متنوعـــة تعيننا على التمسك بشخصيتنا و عزتنا القومية. كما يسعى هذا البحث إلى استحضار إيجابيات علاقة عالمنا العربي المعاصـــر بكبرى الدول المناهضـــة للعولمـــة وهما في تقديرنا : ألمانيـــا و فرنســـا، اللتان تناضلان من أجل سيادتهما الوطنيـــة و من أجل المحافظة علـــى هويتهمـــا القوميـــة.

* و يعتمـــد هذا البحث على مصـــادر صحفيـــة متنوعـــة، كما يعتمد علـــى المراجـــع المتخصصة في العلاقـــات العربيـــــة الألمانيـــة و العلاقـــــات العربيـــة الفرنسيـــة، و ذلك بهدف استخـــلاص أسس واضحـــة ورؤيـــــة محددة يمكن من خـــلالها تفادى مخاطر العولمـــة علـــى عالمنـــا العربـــي المعاصـــر.

رؤية تاريخية لتفادى مخاطر العولمة

يتردد بقوة منذ انهيار المعسكر الشرقي في أوائل تسعينات القرن العشـــرين مصطلح العولمـــة، ذلك المصطلح الذي أصبح مضمونه يهـــدد كيـــان و ثقافـــات غالبية مجتمعات العالم، التي تطلعت للعيش في سلام بعد توقف الحـــرب البـــاردة وزوال خطر الصدام بين القطبين النوويين الكبيرين. إلا أن السياسة التي انتهجتها القوة الدافعة لتطبيق العولمة – في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد – أدخلت العالم في مزيد من الارتباك والخوف نادرا ما شهد مثله من قبل.

وفى الوقت الحاضر تشعر مجتمعاتنا العربية إنها مهددة في مستقبلها أكثر من أي وقت مضى من جراء ما تحمله العولمة معها من مخاطر جمة، الأمـــر الـــذي يعكسه على سبيل المثال انعقاد العديد من المؤتمرات و الندوات العلمية التي تعالج مختلف جوانب تلك العولمة، وهي ظاهرة ايجابية على كل حال وتؤكد فـــي نفـــس الوقت أننا مازلنا أمة حية وقادرة على إيجاد أفضل السبل لتجاوز المخـــاطر التـــي تتهددها و تلمس المنافع التي ترجوها.

على الرغم من أن العالم لا يزال يخطو خطواته الأولى فيما يسمى بالنظـــام العالمي الجديد، الذي انفردت فيه قوة وحيدة بشئونه، فان مضمون سياسة العولمـــة التي تقودها تلك القوة قد أتضح الكثير من جوانبها، وتأسست العديد من مفاهيمها، و جميعها تؤدى إلى هيمنة هذه القوة الوحيدة سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا على العـــالم، وإجباره على السير في فلكها و خدمة مصالحها.

وفى الحقيقة تمتلك الأمة العربية والإسلامية العديد من المقومات التي تمكنها من تجاوز ما تحمله موجة العولمة من مخاطر. ولا يتأتى ذلك بالجمود أو الانغلاق والتخوف من المجهول، ولكن يتأتى بالنهوض والتعامل وتفعيل مقوماتنـــا الذاتيـــة. كما أن موجة العولمة لا تخلو من مواطن ضعف وتعترضها تيارات أخرى تحـــد من عنفوانها، الأمر الذي يزيد من قدرتنا على مقاومة سلبياتهـــا والاستفادة في نفس الوقت من منافعها.

وتسعى هذه الدراسة إلى التعرف على إبعاد العولمة الأمريكية وتبيان حقيقـــة

القوى التي تقف من ورائها وإبراز مخاطرها على مجتمعاتنا العربية، كما تسعى إلى استكشاف مواطن الضعف التى تكتنف هذه العولمة والقوى الدولية الأخرى التى تعارضها. و تهدف الدراسة أيضا إلى تحليل مصادر قوة مجتمعاتنا العربية الذاتية، و تقديم رؤية تاريخية تعيننا على تفادى المخاطر التى تحملها إلينا تلك العولمة.

ونظرا لحداثة موضوع العولمة في الدراسات والمعالجات التاريخية فقد اعتمدنا في إعداد دراستنا هذه على مصادر و مراجع معاصرة بالإضافة إلى مصادر صحفية خليجية متعددة.

وعلى اعتبار أننا ننطلق من أن العولمة التي تنشدها الولايات المتحدة تعني باختصار هيمنتها كقوة وحيدة على شؤون العالم، فعلينا أن نتتبع أولاً الدوافع التي أدت بهذه القوة الوحيدة والمنتصرة في الوقت الحاضر للسير في اتجاه الهيمنة ومن ثم الوصول إلى تصورها الخاص لهذه العولمة.

فعلى مدى العشر سنوات الماضية تتبلور في الأفق ملامح سياسة خارجية أمريكية على أيدي من يعتقدون أن بلادهم يجب أن تنتهز الفرصة التاريخية التي أتاحها انهيار الاتحاد السوفييتي لكي تجنى ثمار انتصارها في الحرب الباردة على كافة الصعد.

وفي البداية كان الاعتقاد السائد لدى النخب الأمريكية الحاكمة، أن بلادهم عليها أن تمارس مسؤولياتها كقوة وحيدة في العالم في إطار أخلاقي يرتكز على الواقعية السياسية ومغلف بشيء من الاعتدال وحتى لا يتناقض هذا الدور الجديد مع ما يمثله "الحلم الأمريكي" القديم من طموحات إنسانية ومثاليات منشودة بالرفض من قبل القوى الدولية الأخرى.

كما ساد الاعتقاد لدى تلك النخب بأن هذا الدور الجديد سوف يؤدي بالضرورة إلى هيمنة بلادهم على شؤون العالم، وسوف يكون في مقدورهم إسكات قوى المقاومة لهذا الدور الجديد على المسرح العالمي، عن طريق الحوار والضغوط الاقتصادية والسياسية، أو عن طريق استخدام القوة العسكرية المبررة في نصرة القضايا العادلة في نظر المجتمع الدولي.

وهناك أكثر من مشهد يؤكد هذا الرأي، فقد حاول الرئيس بوش الأب في بداية عهده إحياء سياسة الوفاق الدولي مع الاتحاد السوفييتي، كما حاول اتباع سياسة الاحتواء التقليدية ضد القوى المعارضة الأخرى للولايات المتحدة الأمريكية، ولكنه في نفس الوقت قاد تحالفاً دولياً لردع عدوان العراق على الكويت. كما صبغ الرئيس كلينتون سياسته الخارجية بصبغة إنسانية واضحة، وقاد حملة للدفاع عن حقوق الإنسان والبيئة، وأظهر تحمساً ملموساً لحل المشكلة الفلسطينية، وقاد أيضاً تحالفاً مبرراً لردع الصرب عن ممارساتهم في منطقة البلقان.

وطوال تلك الفترة كان معظم العالم ينظر بشيء من الارتياح لسياسة الولايات المتحدة على أساس أنها أصبحت الشرطي الوحيد على ظهر الأرض القادر على ردع العدوان. ولكن نظر البعض الآخر بكثير من الشك والارتياب في هذا الدور الجديد أو ما سُمي بالنظام العالمي الجديد. وأشد ما تخوف منه أصحاب الفكر والرأي في العالم آنذاك هو أن يؤدي هذا النظام الجديد إلى الهيمنة الأمريكية المطلقة، وما قد يتبعها من أضرار بالمصالح القومية والثقافات المحلية لشعوب العالم. كما تخوف البعض أيضاً من أن ينجرف الساسة الأمريكيين تحت شعور القوة والانتصار عن العقلانية والحوار في التعامل مع القوى الدولية المعارضة لسياستهم. ولكن ظلت هذه المخاوف تتردد بين المفكرين والباحثين كما ظلت محصورة بين قلة من كتاب المقالات الصحفية والمهتمين بدراسات المستقبل، دون أن يبرز على السطح مظاهر أي معارضة سياسية حقيقية لهذا النظام الجديد من جانب أي من القوى الدولية الأخرى.

وفي الواقع تأكد في الآونة الأخيرة كل تلك المخاوف حيث تغير النهج الأمريكي كثيراً بعد أن صعد إلى مراكز القرار في الإدارة الأمريكية الحالية مهندسين جدد لتلك الإدارة. ومنذ أن سيطر هؤلاء على المناصب الأمريكية الحساسة وهم يدعون لإعادة صياغة النظام الدولي الجديد لكي يقوم على أساس عدم إقامة أي وزن لمسألة ازدواجية المعايير عند ممارسة السياسة الخارجية، كما ينادون بالاستخدام الفظ للقوة العسكرية في إزاحة القوى المعارضة للولايات المتحدة من على الساحة الدولية من أجل إثبات هيمنتها السياسية والاقتصادية والثقافية

الفعلية على العالم. وقد نجح دعاة هذا الاتجاه المتشدد في إبعاد دعاة التسامح في النخب الأمريكية عن مراكز الصدارة، كما نجحوا في أواخر تسعينات القرن العشرين في إحداث انقلاباً فكرياً في رؤية النخب المؤثرة في صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية.

ومما يعزز هذا الرأي انتقام هؤلاء المتشددين من الرئيس كلينتون وأركان إدارته في الحزب الديموقراطي من خلال فضيحة لوينسكي قبيل الانتخابات الرأسية الأخيرة، كما يعززه اعتماد هؤلاء المتشددين خطاباً أيديولوجياً عنصرياً يسوغ التحولات التي تريد الولايات المتحدة إحداثها على مسرح السياسية الدولية، وقيادة حملة إعلامية واسعة النطاق لتشخص شعوب بعينها على أنها مصدر الإرهاب.

ويؤكد البعض على أن الكتابات التي تبرر النهج العنصري صارت الآن مرجعاً للسياسيين الأمريكيين، وعلى رأس هذه الكتابات كتاب أصدره ريتشارد هيرنستين وشارلز موري عام (١٩٩٤)، استنتج فيه المؤلفان أن التفوق والذكاء يعود إلى طبيعة اختلاف جينات البشر، وأن الأغنياء البيض المؤثرين في المجتمع الأمريكي سجلوا أفضل النتائج في اختبارات الذكاء على غيرهم من السود والملونين، ومن ثم فالنجاح الذي أصابه هذا المجتمع الأمريكي الأبيض يخول له ازدراء ما دونه من مجتمعات وفي مقدمتها شعوب العالم الثالث[١].

كما يسيطر على صناع القرار في الولايات المتحدة الآن اعتقاد مفاده : أن من حق بلادهم لوحدها أن تجني ثمار انتصاراتها في الحرب الباردة، وثمار تفوق قوتها على القوى العالمية مجتمعة. تماماً كما حدث في التجربة البريطانية الفرنسية، عندما قامتا البلدان بعد الحرب العالمية الأولى بتقسيم غنائم تلك الحرب بينهما من خلال اتفاقيات سرية مشبوهة باركتها القوى الدولية الأخرى[٢].

ونستخلص مما سبق أن النهج الأمريكي السائد حالياً يتسم بنفس خصائص العنجهية والعنصرية اللتين عرفتهما أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين، وهما داء لا شفاء لأصحابه منه. كما أن مثل هذا الداء لا بد وأن يدفع الآخرين على الساحة الدولية إلى الابتعاد عن أصحابه، أو ينفرهم من التقارب أو التعاون معهم على أقل تقدير. ومن ثم في تقديرنا سوف تواجه الإدارة الأمريكية الحالية

صعوبة شديدة في تمرير مشروعاتها الخارجية، بل وسوف تحفز الآخرين لمقاومة خطط هيمنتها السياسية على المسرح العالمي.

من ناحية أخرى حدث تغيير نوعي خطير في تركيبة المسئولين في الإدارة الأمريكية. ومنذ مطلع عام (٢٠٠١) أصبحت غالبية هؤلاء المسئولين من اليهود المتشددين. ويؤكد البعض أن نائب الرئيس ديك تشيني، الموصوف بأنه الرئيس الحقيقي للولايات المتحدة، هو الذي تولى اختيار معظم أركان الإدارة الحالية وسادة البنتاجون من الأمريكيين المتصهينين المنحدرين من المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي، الذي تأسس عام (١٩٧٦) على يد أمريكيين مسيحيين ويهود من معتنقي الفكر الصهيوني، وذلك في أعقاب تجربة انكسار إسرائيل في حرب أكتوبر/ تشرين (١٩٧٣). وقد ظل تشيني من كبار المشرفين على هذا المعهد حتى توليه منصب نائب الرئيس الأمريكي[٣].

وفي ضوء تتبع نشاط ذلك المعهد منذ تأسيسه، نلاحظ أن مهمات أعضائه وخاصة صناع الخطط الاستراتيجية منهم قد تطورت وتنوعت لكي تتلخص في ثلاث مهام رئيسية. المهمة الأولى: هي إقناع الشعب الأمريكي بأنه لا تمايز في المصالح إطلاقاً بين أمريكا وإسرائيل، وأن أمن الطرفين يتحقق بالهيمنة أولاً على الشرق الأوسط ثم العالم. والمهمة الثانية: هي دعم إسرائيل المتواصل بالسلاح والمال لكي تتمكن من سحق كل أعدائها عسكرياً. أما المهمة الثالثة: فهي وصم العرب والمسلمين بالعجز الثقافي واستحالة اندماجهم مع الديموقراطية الغربية، وبالتالي فإن الحل معهم هو التدخل واستخدام القوة لإخضاعهم للإرادة الأمريكية.

كما نلاحظ من خلال تتبع نشاط دعاة الصهيونية في الإدارة الأمريكية أن إسرائيل أصبح لها نفوذ مهم في ترتيب أولويات الاستراتيجية الأمريكية. وفيما يشبه عملية اختطاف لهذه الاستراتيجية، يدفع هؤلاء الدعاة بقوة في اتجاه توجيه ضربات عسكرية وقائية لعدد من الدول العربية والإسلامية في الشرق الأوسط أولاً. بحجة أن في هذا وحده رسالة لباقي دول العالم المعارضة للهيمنة الأمريكية، مفادها أنه لا جدوى من وراء هذه المعارضة، في حين أن هدف إسرائيل الحقيقي من وراء ذلك هو تغيير ميزان القوى في المنطقة لصالحها[٤].

ومن الغريب أن الحزب الديموقراطي المعارض في الولايات المتحدة سار في نفس اتجاه تصعيد اليهود والصهاينة إلى أرقى المواقع القيادية فيه، ويأمل زعيمه البارز ليبرمان أن يكون أول رئيس يهودي للولايات المتحدة عام (٢٠٠٤). وفي الواقع تثير هذه التطورات جدلاً ملموساً بين أبناء الشعب الأمريكي، قد يكون هذا الجدل ما زال محدوداً الآن بسبب قوة تأثير أحداث (١١ سبتمبر) التي أسكتت الجميع، والتي يسعى دعاة الصهيونية لتذكير الشعب الأمريكي بها على الدوام، إلا أن بعض التململ من مغبة السياسة الأمريكية الخارجية والداخلية بدأ يطفو على السطح بين الرأي العام الأمريكي. وقد عبر عدد من الخبراء الذين أدلوا بشهادتهم أمام لجنة العلاقات الخارجية في أواخر يوليو وأوائل أغسطس (٢٠٠٢) عن مخاوفهم من أن تؤدي السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط إلى زرع المزيد من بذور العواطف المناوئة لأمريكا، وإثارة المزيد من أعمال الإرهاب ضد الأمريكيين الأبرياء[٥].

ونعتقد أن استمرار تدهور الاقتصاد الأمريكي في الوقت الحاضر لا بدّ وأن يثير حفيظة مزيد من الرأي العام الأمريكي، الذي سوف يكتشف تعارض مصالحه مع المصالح الصهيونية. ومن ثم سوف يجبر حكومته على تغليب مصالحه على مصالح الآخرين مهما كانت قوة جماعات الضغط اليهودية. وتاريخ العلاقات الأمريكية الإسرائيلية فيه أمثلة عدة لوقوف الإدارات الأمريكية في وجه المطامع الإسرائيلية عندما تتضارب مصالح البلدين معاً. فقد أمر أيزنهاور عام (١٩٥٧) بن جوريون بالانسحاب الفوري من قطاع غزة وسيناء، وأمر كارتر عام (١٩٦٨) بيجن بالانسحاب من منطقة الليطاني اللبنانية، كما لم يبال ريجان عام (١٩٨١) باعتراضات إسرائيل على تزويد السعودية بطائرات الأواكس، ومنع بوش الأب عام (١٩٩١) شامير من الرد على الصواريخ العراقية.

وعلى كل حال نستخلص من ذلك كله أن الهيمنة التي تنشدها النخبة الأمريكية الحاكمة الآن لها أبعاد مختلفة، كما تحمل في طياتها على منطقتنا العربية مخاطر عدة. وإذا تتبعنا هذه المخاطر طبقاً للمحاور التقليدية: السياسية والاقتصادية والثقافية، فيمكن لنا أن نرصدها على النحو التالي:

المخاطر السياسية: تفكيك الكيانات السياسية الحالية في المنطقة، وفرزها، ثم تصنيفها وإعادة تشكيلها ورسم خريطتها من جديد وفق الأهواء الأمريكية والصهيونية المشتركة. وهي أطماع ستدخل المنطقة في اضطراب كبير، وستكون لها أفدح النتائج منها: تكوين كنتونات عربية ليس لها أي شبه بالدول المستقلة، ولا تحمل أية إمكانية للنمو أو الازدهار[٦]. ومن ثم ستتعرض الوحدة القومية والسيادة الوطنية للدول العربية عامة لتهديد واضح، الأمر الذي سيتلاشى معه كل أمل في إقامة وحدة عربية مستقبلاً، ناهيك عن تصفية النظام العربي الرسمي القائم ومؤسساته الإقليمية المختلفة.

وهذا ما يؤكده التحول الذي شهدته السياسة الأمريكية فيما يتعلق بمفهوم الاستقرار الإقليمي في منطقتنا العربية. ففي عام (١٩٩٩) وكما جاء في تقرير لوزير الدفاع آنذاك كان الاستقرار الإقليمي في هذه المنطقة يعد مطلباً حيوياً لمصالح الولايات المتحدة وهدفاً رئيسياً ضمن أوليات حكوماتها. ولكن الاستراتيجية المعمول بها حالياً في المنطقة استغلت أحداث (١١ سبتمبر) لتثير الشكوك في الأنظمة العربية القائمة، وتكيل لتلك الأنظمة العديد من الاتهامات. كما تراجعت عن عملية السلام بين العرب وإسرائيل، وأحيت دور إسرائيل القديم كوكيل عن عمليات الباب الخلفي، يساعد على عدم استقرار المنطقة لضمان تدفق البترول[٧].

المخاطر الاقتصادية: السيطرة على منابع ومخزون النفط في الخليج العربي، على شكل لا يختلف كثيراً عن أشكال اللصوصية، المبررة بأفكار وحجج ساذجة تحتاج جهداً عظيماً لتصور أنها يمكن أن تصدر عن عقلاء. وطبقاً لبعض التصورات فقد تتم هذه السيطرة من خلال الاحتلال العسكري المباشر لتلك المنابع، أو من خلال الشركات الأمريكية العملاقة ومتعددة الجنسية. كما تحمل الهيمنة الاقتصادية خطر القضاء على القدرة الإنتاجية العربية وجعل أسواقها أسواقاً استهلاكية، وكذلك القضاء على كل أشكال الحماية التجارية والاندماج في منظومة العولمة الرأسمالية التي تقودها الولايات المتحدة[٨]. وهذه المخاطر سوف تجلب معها لا شك عدم الاستقرار، والاضطرابات الاقتصادية وتراجع التنمية في البلدان العربية.

المخاطر الثقافية: القضاء على الخصوصيات الثقافية والهوية الاجتماعية للدول العربية، التي تتعرض يومياً عبر كل الوسائل البصرية والسمعية والمقروءة لاختراقات فادحة تمس حياتها الدينية وأصولها التاريخية وبرامجها التعليمية. وحيث أن خصوصيات الثقافة العربية تعد أصلب ما يملكه العرب، والقلعة الوحيدة التي لم تتصدع بعد، على حد تعبير بعض المراقبين، ومن ثم فإن هذه القلعة تتعرض لهجمة شرسة مبكرة وتهديدات علنية يومية(٩). ليس أقلها اتهامها بأنها منبع للإرهاب. واتهام اللغة العربية بأنها ليست لغة تقدم أو تطور.

وبالطبع تتخطى الهيمنة التي تنشدها النخبة الأمريكية الحاكمة حدود الوطن العربي والعالم الإسلامي، لتشمل في مرحلة لاحقة الهيمنة على أنحاء العالم ومنظماته الدولية. فعلى سبيل المثال ظلت منظمة الأمم المتحدة طوال أكثر من (٥٠) عاماً تمثل نظاماً دولياً متعدد الأطراف والمصالح، وكثيراً ما كان توازن القوى الدولية داخلها سببا في حيويتها واستمرارها، كما ظلت وحدها صاحبة قرار الحرب والسلام في العالم كما ينص ميثاقها المُلزم لجميع الأعضاء الكبار منهم والصغار. إلاّ أن النخبة الحاكمة الآن في الولايات المتحدة لا تخفي رغبتها في تخطي هذه المنظمة، وتعتبرها عقبة تقف في طريق تدشين النظام الجديد الذي تريده لنفسها. وتعتبر هذه النخبة أن مجلس الأمن والدول التي تتمتع فيه بحق النقض من بقايا نظام قديم، الذي يجدر بالولايات المتحدة أن تقفز كلياً فوقه.

ومن هنا خولت الحكومة الأمريكية لنفسها حق اتخاذ قرار الحرب والسلام بعيداً عن منظمة الأمم المتحدة، كما تعمل على إضعافها وتفريغها عن مضمونها. فعدم الوفاء بالتزاماتها المالية للمنظمة أحد الدلائل على ذلك. كما كان موقفها من محكمة الجزاء الدولية دليلاً ثانياً، كما يعد التنكر لقرارات هذه المنظمة حول القضية الفلسطينية، وتنكرها لمعاهدة جنيف التي تحكم معاملة الأسرى دليلاً ثالثاً(١٠). وقد أغضب هذا المسلك المتعجرف العديد من الدول وفي مقدمتها الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن، وخاصة فرنسا وروسيا والصين، التي تجاهد من أجل الحفاظ على وزنها الدولي ومقاومة الأحادية الأمريكية في التعامل مع شؤون العالم، عن طريق التمسك بحق مجلس الأمن في حل المنازعات الدولية. وهذا الغضب ما زال في

طور التفاعل، ولكن من المتوقع أن يفرز تحدياً واضحاً لمثل هذه السياسات الأمريكية، كما ستعارض هذه الدول دفاعاً عن مصالحها عملية قلب القوانين التي حكمت الحياة الدولية طوال الخمسين عاماً الماضية.

ومن الملاحظ أن المنظرين للسياسة الأمريكية الحالية، الذين يتطلعوا لأن ينتهي التاريخ عندهم وحدهم ويروجون لمسألة الحرب الوقائية، فاتهم أنهم يرسون عقيدة حربية جديدة، تبرر للآخرين القيام بمهمات عبر الحدود الدولية. الأمر الذي سوف يشجع دولاً عدة على العدوان على بعضها البعض، وبالتالي يبرز على السطح نظاماً دولياً غير مستقر، يرى البعض أنه سوف يهدد المصالح الأمريكية نفسها[11]. في حين يرى هؤلاء المنظرين في ذلك النظام فرصة لبسط الهيمنة الأمريكية على العالم. كما أنهم يدعون إلى تغيير مفاهيم ومقاييس المصالح الوطنية والقومية المعمول بها منذ أمد بعيد، ليحل محلها مفاهيم ومقاييس أخرى، لا تقيم اعتباراً للشأن الداخلي للدول، ولا تراعي عادات وتقاليد شعوبها. وتلك هي الهيمنة أو صورة العولمة التي تريدها الولايات المتحدة.

ولقد بدأ الرأي العام الدولي يعبر عن امتعاضه من سياسة الهيمنة الأمريكية، كما تتم الآن محاكمة العولمة على أساس أنها أصبحت أداة لهذه الهيمنة، التي ستطال كل ناحية من نواحي الحياة، وتحول كل نشاط ومورد طبيعي في الدول إلى سلعة مملوكة لحفنة من الأثرياء، الذين يعملون تحت مظلة الرأسماليين الأمريكيين الكبار، وهذا ما عكسته احتجاجات سياتل الأخيرة. ويؤكد البعض أن العولمة طبقاً للنموذج الأمريكي لا يمكن أن تكون مفيدة للجميع كما يروج لها، ولكن سوف تكون مفيدة فقط للأقوياء والرأسماليين. وأن العالم المفتوح أو القرية العالمية التي تدعو لها الرأسمالية سوف تحكم من جانب حكومة واحدة أكبر من كل الحكومات الحالية[12]. وإذا كان العالم يسير باتجاه دولة عالمية واحدة فالبعض الأخر يطرح سؤلاً مفتوحاً على المستقبل، حول ما إذا كان الفرنسي أو الصيني أو العربي مثلاً يقبل التخلي عن دولته الخاصة وقوميته لصالح هذه الدولة العالمية الواحدة[13].

من استقراء التاريخ يمكن لنا أن نجيب على هذا السؤال بالنفي. فلم ينجح نابليون الأول في القضاء على القومية الألمانية أو الإيطالية، كما لم تنجح فرنسا في

القضاء على الهوية الثقافية للجزائريين. ثم هل حالت هزيمة اليابان وألمانيا القاسية في الحرب العالمية الثانية دون نهضتهما الاقتصادية وسعيهما لإعادة بناء وحدتهما القومية ؟. وهل نجح الاتحاد السوفييتي ونظامه الشيوعي في القضاء على الطموحات القومية لشعوب وسط آسيا الإسلامية؟. وإذا كان الأمر كذلك فهل تستطيع الولايات المتحدة من الآن فصاعداً وقف عملية التاريخ، وتمنع ظهور قوى منافسة لها مستقبلاً في أي مكان من العالم؟.

وتتعرض سياسة الولايات المتحدة الخارجية لانتقاد شديد من جانب الشخصيات الدولية المعروفة مثل : نيلسون مانديلا والمستشار الألماني والرئيس الفرنسي وغيرهم من الذين يرون في محاولات انفراد الإدارة الأمريكية الحالية بشؤون العالم عملاً لا أخلاقي يتحدى العدالة والحرية والسلام في هذا العالم(١٤). كما امتد هذا الانتقاد ليشمل قطاع عريض من الأكاديميين الأمريكيين، حتى أن واحد من أبرزهم وصف مسلك هذه الإدارة بأنه اندفاع طائش ومتهور تسعى من ورائه لثأر تافه، وتهمل في نفس الوقت مطاردة مرتكبي أحداث (١١ سبتمبر) الحقيقيين(١٥).

وهناك قوى دولية عديدة بدأت تتذمر من خطط الهيمنة الأمريكية، وتقف فرنسا على رأس تلك القوى. وحول هذا التذمر تتحدث بإسهاب جل التقارير السياسية الدولية الحالية، التي تشير لفرنسا ومن يصطف معها بالمتمسكين بالشرعية الدولية، وتشير للولايات المتحدة بالخارجة على تلك الشرعية(١٦).

وفيما يتعلق بالعولمة تطرح فرنسا شكل آخر من أشكالها، يختلف إلى حد كبير عن تلك التي تريدها الولايات المتحدة. عولمة يتم إعدادها بصورة عادلة وبمشاركة الجميع. كما أنها عولمة ذات نفحة إنسانية، وذات أبعاد إيجابية أوسع وسلبيات أقل(١٧). وهذه الرؤية للعولمة تتصادم مع الرؤية الأمريكية التي يترتب عليها تراجع حقوق الإنسان أمام جشع الرأسمالية في نهب الفقراء. وهناك بالتالي أكثر من جانب لأوجه التباين بين هاتين الرؤيتين. وتأتي في مقدمتها تضارب المصالح القومية والثقافية والسياسية والاقتصادية. ومن هنا أخذت فرنسا في الآونة الأخيرة تقدم رؤيتها لعولمة تقدر إلى حد كبير الحوار بين الحضارات وتحترم

التنوع الثقافي. وتستند فرنسا في هذا إلى خصوصياتها التاريخية، وتراثها الثقافي ونقلها على المسرح الدولي. ففي مواجهة العولمة الأمريكية "الأنجلوساكسونية"، التي تستمد جذورها من كتابات آدم سميث وتعكسها حالياً كتابات فرنسيس فوكوياما صاحب نظرية نهاية التاريخ، نجد أن العولمة الفرنسية "الفرنكفونية"، التي تستمد جذورها من كتابات فولتير ومبادئ ثورة (١٧٨٩) تقدم نفسها بقيم كونية وأطر إنسانية واضحة تلقي قبولاً واسعاً بين الأسرة الدولية[١٨].

وعلى الرغم من أن الرؤية الأمريكية للعولمة المدعومة بالتفوق الأمريكي الساحق في مجالات القوة العسكرية والاقتصاد لديها في الوقت الحاضر قوة دفع تفوق ما لدى الرؤية الفرنسية لهذه العولمة، فإن العديد من المراقبين يتوقعون في المستقبل القريب أن تلتف أوروبا حول فرنسا من أجل كبح جماح الانطلاقة الأمريكية. وليس بالضرورة أن يكون هذا الالتفاف قبولاً بالفرانكفونية الفرنسية، ولكنه التفافاً ضد نزعة المصلحة النفعية الانفرادية التي تتبعها الإدارة الأمريكية الحالية.

ويعتقد هؤلاء المراقبون أن أوروبا الموحدة مؤهلة تاريخياً وثقافياً للنهوض بالدفاع عن قيم الحضارة الإنسانية الكلاسيكية، وإعادة بناء التوازن العالمي من جديد. وهنا تأتي أهمية المناطق الإقليمية المتأزمة، وفي مقدمتها المنطقة العربية، في أن تحفز – من منطلق مصلحتها القومية – الدور الأوروبي لمواجهة نزعة الهيمنة الأمريكية[١٩]. خاصة وان السياسة الأوروبية التي تقودها فرنسا الآن والمدعومة بألمانيا تجد ترحيباً واضحاً بين الرأي العام العربي، لما يلمسه فيها من عقلانية واستنارة. ويبقى أيضاً في تقديرنا أن تترجم الحكومات العربية مجتمعة مواقف رأيها العام إلى استراتيجية اقتصادية وسياسية تقدم التعاون مع أوروبا على التعاون مع الولايات المتحدة. إذا حدث هذا فسوف يكون في مقدر العالم العربي التعامل والتعاون مع عولمة عادلة، تلتزم بالقانون الدولي وتحترم الهوية الثقافية لكافة المجتمعات.

ومن المؤشرات التي تعكس انصراف المستهلك العربي عن الإقبال على المنتجات الأمريكية منذ أحداث (١١ سبتمبر) وما تبعها من تهجم على العرب ما

أوردته صحيفة الخليج من أن الكثير من التجار السعوديين بدؤوا في العزوف عن المنتجات الأمريكية، لا سيما الصناعية منها. وأن نسبة العزوف تلك بلغت (٤٥%)، مما أدى إلى انخفاض الصادرات الأمريكية إلى السعودية بشكل كبير. كما ذكرت الصحيفة أن هناك عمليات هروب للأموال والاستثمارات العربية من الأسواق الأمريكية تجاوزت (٤٠٠) مليار دولار تتجه حالياً نحو الاستثمار في فرنسا[٢٠].

وفيما يبدو بدأت ألمانيا من ناحية أخرى في الآونة الأخيرة تتملص من عبء تاريخي أثقل كاهل سياستها في الشرق الأوسط وتجاه العرب ردحاً من الزمن، حيث تمثل هذا العبء في علاقتها الخاصة بإسرائيل، تلك العلاقة التي تحملت من أجلها الكثير. ولكنها أدركت أخيراً أن عليها أن تخدم مصالحها الاقتصادية المتنامية باستقلالية أكثر، وعليها أن تمارس دوراً أكثر أهمية ونشاطاً في السياسة الدولية. ومن مصلحتنا في العالم العربي أن نسعى لتوثيق علاقات التعاون مع ألمانيا، وخاصة في المجالات الصناعية والثقافية، حتى نساعدها على التحرر من النفوذ الأمريكي والصهيوني. خاصة وأن تاريخ العلاقات العربية الألمانية مليء بأمثلة التعاون والتفاهم المشترك، كما أن العرب لا يخفون إعجابهم بالصناعة الألمانية والثقافة الألمانية على الدوام[٢١].

ومن مصلحتنا أيضاً أن نشجع الألمان على اتخاذ مواقف أكثر صلابة تجاة سياسة الهيمنة الأمريكية. ولعل الانتقادات اللاذعة التي وجهها المستشار الألماني جيرهارد شرويدر للسياسة الأمريكية في المنطقة العربية، عندما صرح بأنها خطأ فاحشاً ولا يمكن مسايرته، دليلاً واضحاً على رغبة ألمانيا في التخلص من نتائج الحرب العالمية الثانية[٢٢]. ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا أن توسيع مجال التعاون الاقتصادي مع ألمانيا وغيرها من القوى الدولية، التي تريد الولايات المتحدة تهميشها، سوف يساعد على تكوين جبهة دولية عريضة لمناهضة نموذج العولمة الأمريكية، الأمر الذي يزيد من قدرتنا على تقادي مخاطر هذه العولمة.

ولكننا في الحقيقة لسنا من دعاة الانتظار لحين بروز دور الآخرين الرافضين للعولمة الأمريكية. بل علينا أن نعالج مواطن ضعفنا ونتسلح بمقومات قوتنا، لكي

تكون في طليعة هؤلاء المناهضين الرافضين لهذه العولمة الأمريكية. وأي كانت العولمة التي علينا مقاومة مخاطرها أو علينا التعامل معها، فكلاهما منقولتان إلينا عبر ثورة تقنية هائلة، تحمل معها فيما تحمل أسباب التقدم ومظاهره في آن واحد، وكذلك الهيمنة بأشكالها المختلفة. ومن ثم يجب علينا قبول الصالح منها واستبعاد الطالح. وفي هذا الاتجاه أشار أحد المفكرين العرب البارزين إلى أن العقل والمنطق لا يسمح بالقبول الكلي لكل ما هو جديد كما لا يمكنه السماح بالرفض الكلي، فالاعتدال والحكمة هما ضالتنا عندما نتعامل مع تيار العولمة[٣٣].

ومن ثم علينا أن نتعامل مع هذا التحدي التقني بعقول مفتوحة، حتى ننفض عن أنفسنا صفة تكاد أن تلتصق بنا وهي صفة الأمية التقنية. فليس من المقبول أن يكون (٢%) فقط من بين سكان الوطن العربي يستخدمون الانترنت، وليس من المقبول أيضاً أن تكون الدول العربية من أقل دول العالم إنفاقاً على الأبحاث العلمية، وأكثرها فقراً في مراكز الأبحاث الإستراتيجية التي تتعلق بالعلوم وتقدمها[٣٤]. ولما كانت إسرائيل تعد نفسها لتصبح أداة من أدوات العولمة الأمريكية، والخطر الأكبر الذي يتهدد مستقبل العالم العربي، فقد حذر رئيس إدارة المعلومات في جامعة الدول العربية من مخاطر اتساع الفجوة بين العرب وإسرائيل في مجال تكنولوجيا المعلومات وصناعتها. فإسرائيل تنفق (٥%) من إجمالي دخلها القومي على التعليم وحده، لأنها تدرك أن العلم والبحث العلمي هما أساس بناء قوتها الذاتية، في حين أن إجمالي ما تنفقه الدول العربية على التعليم يقل عن (٤%) وعلى البحث العلمي أقل من (٠,٥%)[٣٥].

فمن واجبنا أولاً أن نرصد مبالغ أكبر للتعليم والبحث العلمي، حتى يمكن لنا بناء الكوادر البشرية المتخصصة. ومن واجبنا ثانياً أن نؤسس بنية تحتية تكنولوجية حديثة لخدمة التنمية وتبادل المعلومات والمعرفة في الوطن العربي، حتى يمكن لنا أن نتدارك الفجوة التقنية الواسعة بيننا وبين الدول المتقدمة. ومن واجبنا ثالثاً دعوة علمائنا العرب المتواجدين في أوروبا وأمريكا للمساهمة في صناعة الإلكترونيات في بلداننا العربية. ومما لا شك فيه أنه عندما نحقق هذه الخطوات سوف يكون في مقدورنا إلى حد كبير تفادي مخاطر العولمة أي كان مصدرها.

كما يتحمل المثقف العربي مسؤولية كبيرة في مواجهة تلك المخاطر، وعليه القيام بدور فاعل في اتجاهين.

الأول: الوقوف في وجهة ثقافة الهيمنة التي تتخذ من العولمة إطاراً لها، عن طريق إشاعة روح العقلانية وروح الإبداع، وليس روح التبعية[٢٦].

الثاني: الدفاع عن خصوصياتنا الثقافية في وجه الحملات المسيئة لها، عن طريق تقديم صورة سليمة وصحيحة للعالم عن هذه الثقافة الأصيلة، التي يسودها العدل والسلام.

ولما كان من غير الصحيح أن ندير ظهورنا للعولمة، بل علينا التعامل معها، وحرصاً على لغتنا العربية من المخاطر الثقافية لهذه العولمة، فإننا نضم صوتنا للأصوات المنادية بتفعيل دور المؤسسات الرسمية من مجامع لغوية وغيرها المنوط بها حماية اللغة العربية في مجتمعاتنا العربي لكي تسارع بإنشاء مواقع لها على شبكة المعلومات، تكون منابر لمعالجة الاهتراء اللغوي الشائع وانعكاساته الخطيرة على الأجيال القادمة، ولكي تسارع أيضاً بتعريب وتدويل المصطلحات التي تفرزها ثورة التقنيات والمعرفة المعاصرة[٢٧].

وفي ظل طغيان الإعلام الأمريكي الحالي على الشبكات المرئية، وتسلطه على الفضاء الإلكتروني، فإن الإعلام العربي وقنواته الفضائية يتحمل عبئا كبيراً في مخاطبة أنحاء المعمورة، وتوضيح الصورة المشرفة عن الإسلام وحقيقة تعاليمه، والرد على الافتراءات التي يثيرها أعداؤه. خاصة في تلك الآونة التي أصبح فيها العالم الإسلامي يتعرض لهجوم وتشويه سافرين على يد الإعلام المعادي، الذي هو في الحقيقة بمثابة اليد الطويلة للعولمة.

ولكي نواجه خطر الاقتلاع الثقافي، الذي يعد من أخطر آثار العولمة الأمريكية، فيجب علينا أن نعتني بتراثنا الشعبي، ونتمسك بهويتنا العربية، ونبرز عمقها الحضاري أمام شعوب العالم. فنحن في الواقع نملك تراثاً غنياً، وهوية ذات خصائص وقيم إنسانية أصيلة، لكنها في حاجة لجهد منظم يتبع أصول منهج البحث العلمي في اتجاهين.

الأول: تعميق الانتماء لتراثنا وهويتنا في نفوس أجيالنا الصاعدة، لكي تبتعد هذه الأجيال عن التسطيح الفكري والنمط الاستهلاكي، الذين تروج لهما العولمة الأمريكية.

الثاني: الاستفادة من الإمكانات اللامحدودة التي توفرها التقنيات الحديثة في التأكيد على العمق الحضاري لثقافتنا، والانخراط في تحديث مجتمعاتنا لكي نشارك في بناء الحضارة الإنسانية المعاصرة.

وفي الختام يتبين لنا أن العولمة الأمريكية مرفوضة من جانب العديد من القوى والمجتمعات الكونية، وذلك لما فيها من مخاطر عدة تعكسها آليات الهيمنة التي تمارسها الولايات المتحدة في الوقت الحاضر على الساحة الدولية. كما يتبين لنا أننا لا نرفض التعامل مع العولمة، ولكننا نرفض قبول الجانب الهيمني الانفرادي فيها. ولذا نحن نطور معرفتنا التقنية لكي تواكب أمتنا العربية العصر في هذا الجانب، كما أننا نتمسك بقيم وتراث هذه الأمة الأصيلة على الجانب الآخر.

مراجع وحواشي البحث

أولاً: المراجع:

- **السيد ياسين وآخرون**، العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٨.
- **الطيب تيزيني وآخرون**، الواقع العربي وتحديات الألفية الثالثة، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان ٢٠٠١.
- **أمين هويدي**، لعبة الأمم في الشرق الأوسط، دار المستقبل العربي، بيروت ١٩٨٤.
- **عبد القادر فهمي**، النظام الإقليمي العربي، دار وائل للنشر، عمان ١٩٩٩.
- **فواز جرجس**، النظام الإقليمي العربي والقوى الكبرى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٧.
- **لطفي الخولي وآخرون**، المأزق العربي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٨٦.
- **محمد سعيد طالب**، النظام العالمي الجديد والقضايا العربية الراهنة، الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق ١٩٩٤.
- **ناصيف يوسف حتي**، القوى الخمس الكبرى والوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٧.

ثانياً: الحواشي:

١- شوقي أبو شعيرة، صحيفة الخليج، بتاريخ ١٦ ديسمبر ٢٠٠٢.

٢- رضا محمد حرب، المصدر السابق.

٣- شوقي أبو شعيرة، المصدر السابق، بتاريخ ١٧ ديسمبر ٢٠٠٢.

٤- محمود مرتضى، الملف الأسبوعي لصحيفة البيان، بتاريخ ١٨ أكتوبر ٢٠٠٢.

٥- وليام بيرس، ترجمة: عمر عدس، صحيفة الخليج، بتاريخ ١٦ نوفمبر ٢٠٠٢.

٦- أناتول لايفن، ترجمة: أسعد حليم، المصدر السابق، بتاريخ ١٠ ديسمبر ٢٠٠٢.

٧- عاطف الغمري، صحيفة الخليج، بتاريخ ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٢.

٨- سوزان أريل أرنسون، "بيان الكتب" الصادر من صحيفة البيان، بتاريخ ١٨ نوفمبر ٢٠٠٢.

٩- محمد خالد، صحيفة الخليج، بتاريخ ١٨ نوفمبر ٢٠٠٢.

١٠- محمد مشموش، صحيفة البيان بتاريخ ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٢

١١- أنطونيولوس، ترجمة : ضرار عمير، صحيفة البيان، بتاريخ ١٨ نوفمبر ٢٠٠٢.

١٢- ناعومي كلاين، ترجمة : حاتم حسين، المصدر السابق، بتاريخ ٥ نوفمبر ٢٠٠٢.

١٣- فيليب لوغران، "بيان الكتب"، المصدر السابق، بتاريخ ١١ نوفمبر ٢٠٠٢.

١٤- رضوان السيد، صحيفة الاتحاد، بتاريخ ١ ديسمبر ٢٠٠٢.

١٥- أناتول لايفن، مصدر سابق.

١٦- انظر: ملفات ٢٠٠٢ "التقرير الاستراتيجي"، صحيفة الخليج، بتاريخ ١ يناير ٢٠٠٣.

١٧- سيرج أرنو وآخرون، "بيان الكتب"، صحيفة البيان، بتاريخ ٢١ أكتوبر ٢٠٠٢.

١٨- المصدر السابق.

١٩- صلاح سالم،، صحيفة الخليج، بتاريخ ٩ ديسمبر ٢٠٠٢. وانظر أيضاً: ادوارد سعيد، المصدر السابق، بتاريخ ١١ نوفمبر ٢٠٠٢.

٢٠- المصدر السابق.

٢١- فولكر بيرتس، "بيان الكتب"، صحيفة البيان، بتاريخ ١٤ أكتوبر ٢٠٠٢.

٢٢- محمد جلال عناية، صحيفة الخليج، بتاريخ ١٥ سبتمبر ٢٠٠٢.

٢٣- الدكتور سلطان بين محمد القاسمي، صحيفة الخليج، بتاريخ ٢ أكتوبر ٢٠٠٢.

٢٤- محمد خالد، مصدر سابق.

٢٥- صحيفة الاتحاد، بتاريخ ١٥ ديسمبر ٢٠٠٢.

٢٦- محمود أمين العالم، "الثقافي"، صحيفة الخليج، بتاريخ ٣٠ أكتوبر ٢٠٠٢.

٢٧- رمضان أحمد عبد النبي عامر، المصدر السابق، بتاريخ ٨ ديسمبر ٢٠٠٢.

مدخل لفهم المجرى

العميق للعلاقات العربية – الأمريكية

د. فؤاد شهاب،
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك
بجامعة البحرين

حاولت نظرية التبعية Dependency Theory في العلاقات الدولية دراسة العلاقة بين الشمال الصناعي والجنوب النامي من خلال التركيز على سيطرة الغرب على اقتصاديات العالم الثالث، وبصورة خاصة سيطرته على سياسات التنمية الاقتصادية بما يخدم الشمال الصناعي فقط. وقد اختبرت هذه النظرية على العلاقة بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية منذ الستينات في القرن العشرين ولكنها شملت دول العالم الثالث الأخرى في مناطق متعددة في العالم.

وخلاصة النظرية التي طورها راؤول بريبش وجيمس كابوراسا واندريه غونديرفرانك، ومايكل توداورو[١] أن تبعية الدول النامية الاقتصادية في الجنوب على للشمال الصناعي قد خلقت فجوة كبيرة بين العالمين لصالح الغرب الرأسمالي. ولعل أبرز ميزة لهذا التفاوت بين العالمين هو اعتماد الدول النامية على الغرب الصناعي ليس على الصناعات التكنولوجية المتطورة فقط وإنما على الأسواق الغربية لبيع مواردها الطبيعية التي تموّل قدرتها المالية لشراء التكنولوجيا الغربية الحديثة. وهكذا، فإن مصير الدول النامية في الجنوب مرتبط بالدول الثرية في الشمال الصناعي.

يجب ألا يبعدنا الجانب الاقتصادي في العلاقة بين الجنوب والشمال عن العلاقة السياسية بينهما. فالاقتصاد السياسي هو ميدان ملتصق بالسياسة الداخلية والخارجية للدول النامية. علينا أن نتذكر أن استمرارية الاستغلال الرأسمالي الغربي للجنوب يمكن ضمانه بالاعتماد على نخبة سياسية معينة في الدول النامية.

بأن بقاء هذه النخبة يعتمد، أولاً وأخيراً، على مدى خدمتها للمصالح الاقتصادية للشمال الصناعي.

ولكن اعتماد النخبة السياسية في العالم النامي على السياسات الخارجية للشمال الصناعي ليس دائماً، لأنه مرتبط بحاجة الغرب الرأسمالي لهذه النخبة في مكان وزمن معُينين فقط.

يحاول هذا البحث أن يلقى ضوءاً على العلاقات الأمريكية – العربية استناداً إلى نظرية التبعية من خلال التركيز على علاقة "بينوتشيه" بالقوى الغربية الرأسمالية ليخلص البحث إلى أوجه تشابه بين علاقة تشيلي بالقوى العظمى في الشمال الصناعي مع الاشارة إلى أمثلة أخرى من النخبة السياسية في العالم العربي.

من الواضح أن هذا البحث يؤكد، بين الحين والآخر، على أن ضعف بعض القيادات السياسية العربية، متمثلاً بافتقادها الى الشرعية السياسية في بلدانها، قد أعطى الغرب الرأسمالي القدرة على جعل تبعية العالم العربي للغرب الرأسمالي حقيقة واقعية تخدم المصالح الغربية ورمزها في العالم العربي: إسرائيل(٢).

وعلى الرغم مما ذكرته آنفا، فإن دراسة العلاقات بين العرب وأمريكا ليس أمرا سهلاً، وسبب ذلك أن نمط العلاقات العربية – الأمريكية يستند إلى اتفاقيات وبنود سرية ويحاط بكثير من السرية من الجانب الأمريكي، والجانب العربي ايضاً. والنوايا الأمريكية ليست نوايا طوبائية أو عشوائية، وإنما هي قراءة في استراتيجيتها. أما الأماني العربية، فهي تفسير لأحلامنا في منامنا الحضاري الراهن الذي بدأ، ربما منذ خمسة قرون، عندما بدأ الغزو العثماني لمعظم العالم العربي.

ولنتقدم خطوة في هذا الشأن الذي نحاول معالجته. إن الوثائق شيء، و ما يحدث وراء الكواليس شيء آخر. ونستطيع القول إن الشواء هو وراء الكواليس بينما المنشور ليس إلا رائحة غامضة لشيء يحترق. هذه الرائحة هي ما تقدمه لنا الدراسات الأكاديمية سواء عندهم أو عندنا.

والآن فلنفحص الشكل الخارجي للعلاقات العربية – الأمريكية. إن الشكل الخارجي للعلاقات ينفي ضرورة هذا البحث، لأنه باختصار لا توجد علاقات عربية أمريكية. فأمريكا تقيم علاقات منفردة مع كل دولة عربية، وترفض بشكل مطرد الاعتراف بأي دور للجامعة العربية أو لأي تجمع عربي قائم أو محتمل. وإذا حدث التعامل مع أي تجمع عربي فتلك حالة استثنائية وبشرط أن يكون التجمع مؤقتاً أو شكلياً وبلا فاعلية، بجانب أن يكون صناعة أمريكية. وهي حالة غير متكررة إلا في التعامل مع أفريقيا السوداء. إذاً، لماذا نكتب الآن ونزعم وجود علاقات عربية – أمريكية؟ الإجابة تكمن في مفارقة حقيقية لا تختص بالولايات المتحدة وحدها، ولكن بالعالم الغربي ومن يسير في ركابه (أوربا الغربية والشرقية، نمور آسيا، والمعسكر الأمريكي اللاتيني). إنّ جميع هؤلاء يتحدثون عن العالم العربي باعتباره عالماً واحداً. يغرقه نموذج نمطي عربي ثابت Stereo Type. هكذا نبدو في وسائل الاعلام الغربية شيئا واحدا، وعالماً واحداً. ولكن هل نحن كذلك في وسائل الاعلام الغربية دون القوى التي تقف وراءها؟ وهل هذا الموقف الإعلامي شيء من الشواء أم من رائحته، ولاسيما أن الأمر معقد جداً ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال، يستحسن أن نبتعد قليلا عن العالم العربي، حتى نفهم أحد الأساليب الأمريكية الهامة. إن دولة شيلي في أمريكا الجنوبية شهدت انقلابا عسكريا في سبتمبر ١٩٧٣ ضد الرئيس الماركسي المنتخب سيلفادور إلليندي (الذي أُنتخب في ١٩٧٠)، بقيادة جنرال اسمه اوجستو بينوتشيه. وظل هذا الرجل يحكم شيلي حتى عام ١٩٨٩. لقد كان الانقلاب صناعة امريكية مائة في المائة ولسبب رئيسي واحد هو سيطرة الولايات المتحدة الامريكية على صناعة النحاس الأرجنتينية التي يعتمد عليها الاقتصاد الارجنتيني، بالاضافة الى سبب آخر هو احتواء الحركات اليسارية في اميركا اللاتينية[٣]. ومع ذلك فقد انبرت وسائل الاعلام الغربية تهاجم بينوتشية وسط ضجيج من تصريحات أمريكية ضد الانقلاب. ولم تتردد الحكومات الغربية الأخرى في المشاركة في مهرجان التصريحات المضادة، بينما ينعم الجميع على تلك الحكومة غير الشرعية بالمساعدات والنصائح والمباركة. وقد وقفت كل المؤسسات المالية والاقتصادية الغربية وراء حكومة بينوتشيه بعد أن ألغى السياسة الاقتصادية للرئيس المخلوع إلليندي، مستعينا بعدد

من الشباب ال\اي درس في الولايا ت المتحدة ، من صبيانه الذين أطلق عليهم لقب شيكاكو بويز Chicago Boy لتحقيق أنجح نموذج للإصلاح الاقتصادي في النصف الثاني من القرن العشرين يعتمد على الاقتصاد الرأسمالي الحر الذي طالبت به شركات النحاس الاميريكية في شيلي(٤). بل إن صبيان بينوتشية اليوم تُدفع إليهم أعلى الرواتب، كأهم خبراء في الإصلاح الاقتصادي والتحول الحقيقي والعميق نحو اقتصاد السوق الحر، الذي حمل النظام السياسي العسكري حملا تطوعيا نحو الديمقراطية، ويسقط بينوتشيه في عملية التحول نحو الديمقراطية، بينما يبقى نفوذه يشل حركة الحكومة الجديدة الديمقراطية، التي كانت تمثل المعارضة أيام بينوتشيه، وهي حركة ربيبة أمريكا، تم تشكيلها على هوى أمريكا فوق نار باردة، كما يقال في فترة حكم بينوتشيه.

ولأن دور بينوتشيه – أكبر عدو للشيوعية بعد فرانكو في أسبانيا، انتهى بانتهاء الحرب البادرة، فإن سقوطه عام ١٩٨٩ كان يبشر بسقوط الاتحاد السوفيتي. وكان لابد أن يكتمل بعد وقوع زلزال السقوط السوفيتي، ومن هنا يتم القبض عليه عام ١٩٩٨ في لندن عند ذهابه إليها للعلاج. ويشهد العالم مسرحية بائسة تنطبق عليها بشكل كامل عبارة الإمام علي الخالدة "كلمة حق يراد بها باطل". لقد قبض عليه بتهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية أثناء رئاسته لشيلي. وقد تم القبض عليه بناء على طلب قاضٍ أسباني، وكان من المفترض تسليمه إلى اسبانيا لمحاكمته. أما التكييف القانوني للقبض على رئيس جمهورية سابق وحامل جواز سفر دبلوماسي وذي حصانة برلمانية، فتلك قصة أخرى. خلاصة الموقف أن الولايات المتحدة دفعت بريطانيا لهذا العمل غير السديد لضرب عدة عصافير بحجر واحد. إنه إرهاب لكل حكام العالم الثالث تمهيداً لابتزازهم. وهو أيضاً دفع للدماء في جسم الديمقراطية الضعيفة في شيلي، ربيبة أمريكا، للأهمية القصوى لهذا البلد باعتباره المفتاح الأوحد لدخول القارة المتجمدة الجنوبية، والمفتاح الاستراتيجي للقمع الجنوبي من القارة اللاتينية. نخلص من تجربة بينوتشية إلى ما يلي:

١. إن الولايات المتحدة هي التي أوقعت بريطانيا في مثل هذا الفخ. والدولة الوحيدة التي لم تظهر على مسرح الحدث هي أمريكا لأنها المستفيد الأكبر من

هذه اللعبة. بمعنى آخر، إن كثيرا من برامج الاستراتيجية الأمريكيـــة ينفـــذه الآخرون.

٢. كانت أمريكا تقيم علاقة صداقة مع بينوتشيه وتدعمه في الوقت الذي يهاجمـــه الإعلام الأمريكي. وفي نفس الوقت، كانت تهيئ معارضة لبينوتشـــيه لتحـــل محله في الوقت المناسب، لكنها دعمت هذه المعارضة بالضربة القاضية على يد بريطانيا.

٣. سواء ظهرت أمريكا على مسرح الأحداث أم لم تظهر، فإنهـــا تصـــمم علـــى تحريك هذه الأحداث برسم استراتيجية لأصدقائها، ربما تحـــت ظـــل تشـــكيل استراتيجيات مشتركة أو بوسائل أخرى.

٤. إن الشخصية البريطانية الوحيدة التي وقفت إلى جانب بينوتشيه كانت تاتشـــر، رئيسة الوزراء السابقة، التي أعلنت أن الرجل كان صديقاً لبريطانيا، وأنه قدم مساعدة قيمة لها خلال حرب الفوكلانـــد (أو لاس مالبينـــاس كمـــا يســـميها الأمريكيون الجنوبيون). والحقيقة أن تحالف بينوتشيه (السري) مع أمريكا هو الذي أعطى نصرا غالياً لبريطانيا ضد الأرجنتين. وهو أمر لم يكن يعرفـــه أحد قبل إعلان تاتشر له، لأن بينوتشيه كـــان يُعلـــن حينـــذاك تعاطفـــه مـــع الأرجنتين. ألا يطرح ذلك ألف شك في صداقة أمريكا لحلفائها؟

لقد عرضتُ قضية بينوتشية لسبب واحد هو فهم السياسة الأمريكيـــة بصـــفة عامة وقواعد اللعبةالسياسية التي تديرها على المسرح العالمي سواء بوجه سافر أو بقناع آخر اسمه بريطانيا (في حالة بينوتشيه) ثم عراق صدام حسين حيناً ثانيا، أو البرازاني مرة والطالباني مرة أخرى.

واذا تأملنا النقاط السابقة، وتأملنا وقائع السياسة الأمريكية تجاه العالم العربي وسياسة العالم العربي تجاه أمريكا، ثم قمنا بشئ من المقارنة، يتضح لنـــا عنصـــر الخصوصية، إذا كان ثمة موضعٌ للخصوصية في العلاقات العربية – الأمريكية.

بادئ ذي بدء، تكاد تفضح خصوصية العلاقات العربية – الأمريكية نفســـها، ولربما تصل حد الطرافة لأن المنطقة المعتمة من تلك العلاقات هي القاسم المشترك

الأعظم في كل علاقات أمريكا مع غيرها لاسيما اذا كان هذا الغيـر مـن العـالم الثالث، مثل العرب. معنى ذلك: أن العامل المشـترك لـن يكشـف أبـداً عـن خصوصية العلاقات العربية الأمريكية؟ كيف؟

إن خصوصية العلاقات العربية – الأمريكية هي النتيجة الحتميـة لأعظـم خصوصية وأعمق تميز في علاقات أمريكا الخارجية وهو أن إسرائيل هي الدولة رقم(١) من حيث الأولوية والأهمية في الشرق الأوسط عند أمريكا(٥). وقد لا نبالغ اذا قلنا: إن أولوية اسرائيل عند المؤسسات الأمريكية تسبق أولوية ما هو أمريكي. إن إسرائيل مزروعة في الجسم العربي، وينبغي ضمان أن يضخ في كيانها دمـاء الحياة، ولا يحدث ذلك إلا بأسلوب السرطان في جسم الإنسان. وقد نجحت أمريكا في تحقيق معادلة مستحيلة نظرياً، لكنها عمليا ممكنة. فإسـرائيل صـبي نـزق عدواني، لكنه ابن شرعي للسيد الأكبر "أمريكا". ولابد من صداقة أمريكـا لصـد عدوان هذا الصبي القادر على كل شئ تقريبا بفضل أبوّة أمريكا لـه. إن العـرب يضخون دماء الحياة في ورمهم السرطاني بإرادتهم لأن هذه الإرادة مسلوبة تمامـا لصالح الصديق الأمريكي، وغالبا لا يعي مسلوب الإرادة ذلك. ثم إن تغذية الجسم السرطاني (اسرائيل) تتم بالخلافات العربية – العربية على جميع أصعدة العلاقات العربية – العربية حتى علي مستوي علاقات الأفراد العرب ببعضهم بعضا .

وإذا عدنا إلى النقاط السالفة الخاصة بقضية بينوتشيه سندرك وظيفـة هـذه الخصوصية. وبالنسبة للنقطة الأولى، إذا كانت أمريكا تدفع بريطانيـا العظمـى للتورط في القبض على صديقها بينوتشيه الذي ذهب إليها للعلاج واثقا من أياديـه البيضاء، متوقعاً أن يستقبل بَطلاً، أليس من باب أولى أن تدفع العراق للدخول فـي حرب ضد إيران، ثم تدفع كل الدول العربية، وبصفة خاصة دول الخليج، لمعاونته إلى أن تفلس دول الخليج من أجل عيون البوابة الشرقية، ثم بعد ذلك تدفع العـراق لغزو الكويت، ثم تطلب إلى العالم كله تقريبا تحرير الكويـت وتـدمير العـراق، وعندما يتم تحرير الكويت تصبح أمريكا الأمل الوحيد لضحاياها من نزوات صدام حسين وطموحات إيران الحقيقيّة مرة والمزعومة مرات(٦). لقد نجحت أمريكا في استقطاب أهم المراكز العربية، ونقصد بذلك مصر، بتقديم أكبر رقم من مساعدات

أمريكية يقدم لدولة باستثناء اسرائيل. ونتساءل: لماذا مصر؟ الإجابة معروفة، والخلاصة سواء كانت مساعدات أمريكا اقتصادية و عسكرية (لمصر) أو عسكرية (للخليج)، فإنها تكشف عن خصوصية العلاقات الإسرائيلية – العربية، وأن ذلك وراء كثير من الخلافات العربية – العربية، والهرولة العربية نحو اسرائيل.

أما فيما يخص النقطة الثانية فلا بأس من العودة إلى أفلام هوليوود في الفترة الأخيرة، ومسلسلات التلفزيون، والبرامج الإخبارية، والصحف الأمريكية، ووكالات الأنباء، كلها تؤكد على صورة الإرهابي في الوقت الذي تتدفق الاضواء على أي خبر إرهابي له علاقة بالعرب سواء كان صحيحاً أم لا. ثم يتجاوز رسم هذه الصورة للعرب ليشمل المسلمين في كل مكان[٧]. وهكذا، أمريكا الصديقة للعرب تهاجمهم وتشوه صورتهم كما فعلت مع صنيعتها وصديقها الجنرال أوجستو بينوتشيه. لقد هاجمته دائما بتهمة انتهاك حقوق الإنسان، ذلك الاتهام الذي أدى إلى القبض عليه في لندن، لأنها قررت (منذ أن صنعته) استخدامه لتحسين صورتها وذلك بتصوير الولايات المتحدة باعتبارها النبي الأوحد المدافع عن حقوق الانسان. ولقد بالغت في ذلك بالحق مرة وبالباطل مرات. ولكن لماذا تهاجم العرب في صورتهم النمطية Type Stereo التي اخترعتها لهم، بجانب صور الحريم والمقامرة، وقضاء العمر في مشاهدة رقصة البطن وأكل الخراف الكاملة والتآمر والغدر؟ الإجابة عن هذا السؤال تكمن في خصوصية العلاقات العربية – الأمريكية[٨] : إن هذه الصورة تبيح لإسرائيل نازيتها وقتلها للفلسطينيين الآن. بل إن هذه الصورة تقنع الجندي الإسرائيلي بأن يقتل ويعذب مثلما تقنع رجل الشارع الإسرائيلي بالرعب من العرب أو تقنع العالم كله بأسطورة الأمن الإسرائيلي المهددة للمرة الثانية بعد تهديد هتلر لأمن الإسرائيليين كطائفة في المرة الأولى.

لقد كانت أمريكا تدعم بينوتشيه على أرض الواقع وتهاجمه على أرض الإعلام، فهل تدعم العرب على أرض الواقع؟ ونشهد ما يحدث للعراق وليبيا والسودان والصومال، لعله دعم التربية والتعليم لهؤلاء البدو الأجلاف الفاسدين العدوانين ، أما ما عدا ذلك فإن قصة الدعم العسكري للخليج تجعلنا نتأمل خطة أمريكية طويلة الأمد لسلب أموال النفط العربية (وليس في الخليج فحسب) لإفقار

العرب لصالح إسرائيل من ناحية أخرى. بل إن الأعجب من ذلك هو أن المساعدات الأمريكية لمصر على ضخامتها تصب لصالح أمريكا مثلما يفعل الدعم العسكري في الخليج. إن إسرائيل تقبض مليارات الدولارات من المساعدات الأمريكية نقداً، أما مصر فإنها تحصل على بضائع أمريكية وآلاف الخبراء ذوي المرتبات الباهظة(٩). إن مثل هذا الدعم الأمريكي يصب في صالح أمريكا (وربما إسرائيل بشكل مباشر، ويقينا بشكل غير مباشر) وليس في صالح العرب. كما أنه يتحول إلى قوة سحرية مثل الريموت كنترول (بجانب أدوات أمريكية متعددة) لإطلاق سياسات عربية مطلوبة من الأمريكان أو الإسرائيليين. لقد دعمت أمريكا إيران وصدام حسين معا في حربهما، ثم دعمت غزو الكويت في لحظاته الأولى (لقد صرح صدام حسين(١٠) أن الكويت جائزته نظير حربه مع إيران Its my Prize). ثم وقفت ضد صدام حسين، تماماً مثلما فعلت مع بينوتشيه. ثم أن دعم المعارضة العراقية يذكرنا بدعم أمريكا للمعارضة الشيلية، ثم الابتعاد عنها في الوقت المناسب. أريد أن أقول إنّ الدعم الأمريكي لأي طرف في العالم الثالث محدود بوظيفة معينة سرعان ما يتحول الدعم إلى عداء. فمتى يحدث ذلك لمصر والخليج؟ وهل خطاب بوش حول الديمقراطية في المنطقة بداية لشيء ما؟

أما بخصوص النقطة الثالثة، وهي الخاصة بإصرار أمريكا على رسم استراتيجية أصدقائها الحاليين (وأعدائها السابقين أو المحتملين في المستقبل)، فإن من المفيد هنا العودة إلى التاريخ مرورا ببينوتشيه للتعرف على حقيقة حاضرة غائبة في ظل منظومة لغوية جديدة للتعبير عن الأشياء، كذلك التحولات التي مرت بها هذه الأشياء من أجل التنكر لأداء وظيفة جديدة مشتقة من وظيفتها السابقة التي اتسع مداها ، وتعقد معناها. إن الحقيقة التي يجب الإشارة إليها هي أن أمريكا وريثة الاستعمار الغربي القديم، من ثم فإننا لا نتوقع تخليها عن قوانينه جملة، بل سوف تطورها في هدوء وبراعة. وعندما نتحدث عن صداقتنا مع أمريكا تغيب عنا هذه الحقيقة. وعندما تتمادى أمريكا في ضرب العراق والمحافظة في نفس الوقت وبإصرار على بقاء النظام الذي تجعل منه سببا لضرب العراق، وعندما تتمادى امريكا في دعم سياسة إسرائيل المعادية للعرب دون وجه حق، ثم تجعل من إسرائيل الدولة الصغرى، أكبر دول المنطقة تسليحا فإن هذا يعني أن أمريكا

الصديقة دولة استعمارية وتسلطها الاستعماري موجه إلينا[١١].

إن حقيقة السلوك الأمريكي الاستعماري تجاه العرب من الناحية الظاهرية يشبه التيار الكهربائي المتقطع بين الحضور والغياب. بل هو، أحيانا، مثل شروق الشمس وغروبها. هذا يعني أنه في الوقت الذي تغازل فيه أمريكا إحدى الدول العربية فإنها تهاجم الأخرى. أي عند بروز وجهها الاستعماري القبيح في دولة عربية، يبتسم الوجه الوسيم للصداقة في دولة أخرى . وقد يظهر الوجهان في مكان واحد. فيدها اليمنى تصافح وجها لوجه، بينما الخنجر الخفي تدسه اليد اليسرى مخترقا ظهر من تصافحه.

وتشاء المصطلحات الجديدة أن تغيّر الكلمات ولكنها لم تستطع إلغاء فحواها. فمثلا، حلت العولمة محل الاستعمار لتغيير الوجه فقط، وليس السلوك[١٢]. فقط أصبح الاستعمار في ظل العولمة شرعيا تحت مظلة الأمم المتحدة ومظلة المعاهدات الدولية (الجات) أو المنتديات السيادية (دافوس) أو التحالفات التي تتزعمها أمريكا (تحالفات المحيط الباسيفيكي والأطلنطي الاقتصادية تارة والعسكرية تارة أخرى). كما تشير المصطلحات الجديدة إلى سلوك المستعمر مثلاً التوقيع على الجات، قبول المعيار المزدوج مثل انصياع العرب لقرارات مجلس الأمن بينما ترفضها إسرائيل، التفاني في التحول غير المنضبط والمتكافئ للسوق الحرة، الاندفاع (بالجبر والضغط في الأحوال) لشراء أسلحة لا قيمة لها سوى توفير فرص عمالة للمستعمر، اللجوء لأمريكا من أجل السلام مع إسرائيل التي تعتدي على العرب لخدمة الاستراتيجية الأمريكية (وكأننا نطلب من الصديق الأمريكي العون ضد المستعمر الأمريكي) واشتراك العرب جميعاً في مقاطعة ليبيا والعراق. هذا مجرد مثال، فقد حلت السوق الحرة محل مصطلح العالم الحر، كما حل مصطلح النظام العالمي الجديد محل توازن وتصارع القوى بين الشرق والغرب. بل حل أخيراً مصطلح الإفراط في استخدام القوة لوصف عمليات الإبادة المتعمدة دون رحمة للأطفال أو الشيوخ أو النساء في فلسطين.

وفيما يخص النقطة الثالثة فإننا بالعودة إلى التاريخ مرورا ببينونتشيه نستطيع فهم ما تمليه أمريكا على العرب (وعلى غيرهم) باسم العولمة. وسوف نعود

لتاريخ استعمار الغرب لأجزاء من العالم العربي فيما بعد. لقد بدأ هذا الاستعمار استيطانيا، وأخذ مرة اسم حرب الاستعادة عندما بدأ في الأندلس واستمر ثمانية قرون، ثم أخذ مرة أخرى اسم الحروب الصليبية في فلسطين وأجزاء أخرى من الشام ومصر.

هذا في العصور الوسطى، أما في العصر الحديث فكان استعماراً عسكريا لحراسة مصالح اقتصادية، مع شذوذ عن هذه القاعدة في الجزائر ثم أخيرا في فلسطين. وقد تم فعليا تحرر العالم العربي من هذا الاستعمار، بينما كان نصيب فلسطين أشبه بمصير الأندلس. أما مصير الجولان فهو في غياهب الغموض، مثل جزر الإمارات التي احتلتها إيران بمباركة أمريكية[١٣]، ومازالت هذه المباركة رغم موقف أمريكا المعادي لإيران. أليس كل شئ الآن معقدا وغامضا؟! بل إن العمالة الأجنبية في الخليج قد تتحول فجأة إلى معضلة تمهد لاستعمار استيطاني، لأن الجديد أن مصالح أمريكا في المنطقة تحققها في إبداع إسرائيل (وهي استعمار استيطاني)، فما يدرينا ماذا تخبئ أمريكا من وسائل لحماية مصالحها في الخليج؟ إن وجودها العسكري الحالي قد يحل محلة استعمار استيطاني من نوع ورثته أمريكا وتجدد فيه كثرا. وإني أخشى أن الضغط لإلغاء نظام الكفالة هو بداية لهذا الاستعمار الاستيطاني الجديد، كما أن المكاسب التي يحققها نظام الكفالة للمواطن الخليجي هو طريق لجهنم، حيث يبالغ المواطنون في استحضار عمالة بعقود وهمية ليملأ شوارع الخليج عاطلون أجانب يبحثون عن مسمار جحا للبقاء إلى الأبد.

التاريخ يحدثنا عن الاستعمار الاستيطاني في الأندلس، الذي عندما أنهى دوره بدأ في استكشاف العالم الجديد لاستيطانه، وفرض المسيحية الكاثوليكية دينا، والأسبانية لغة (ثم بعد ذلك البروتستانتينية الإنجيلية والإنجليزية عندما لحقت بريطانيا بأسبانيا).

وقد نجح هذا الاستعمار كما يحدثنا تاريخ الأندلس بثلاث وسائل:

١. الإيقاع بين دويلات الطوائف الأندلسية من ناحية، ثم إشعال الفتن الداخلية من ناحية أخرى بتحريض بعض أقارب الملوك والحكام على الثورة وإمدادهم بالمال والسلاح والرجال، مما يجعل الجميع، بشكل ما، محتاجا لحماية ملك

قشتالة، الدويلة المسيحية التي وحدت أسبانيا، وأنهت المرحلة الأخيرة من القضاء على الأندلس العربية الإسلامية.

٢. ادعاء الحرص على مصالح الدويلات العربية، والسعي المخلص (ظاهريا) للدفاع عنها، وعقد السلام معها لفرض وتشجيع استرخائها العسكري ووعيها ببؤس مصيرها، مع التلويح بالويل لمن يحاول أن يستقل بقراره أو التفكير بمعاداته إخوانه ثم كسر هذا السلام فجأة، وابتلاع جزء من الأراضي، للعودة للصداقة والسلام، لكن في جميع الأحوال يرسم ملك قشتالة استراتيجية الدويلات الاسلامية، ويحدد لها الخطوط العامة لسياستها باعتباره الأخ الأكبر لكل حاكم من حكامها بمعنى أن اللعبة مثلا هي لاعب شطرنج واحد يلاعب نفسه بتحريك قطعة سوداء، أما القطع البيضاء فللاعب مفترض لابد أن ينهزم في النهاية.

٣. الحرص على التفوق التكنولوجي، وحرمان الطرف الأندلسي منه، ثم جعل السلام خيارا استراتيجيا للأندلسيين يقبلون دائما يديه من أجل أن ينعم به عليهم مقابل الجزية والتخلي يوما بعد يوم عن الحصون، حتى بقيت مملكة أندلسية وحيدة هي مملكة غرناطة قرنين ونيّف من الزمان لدفع أسبانيا للوحدة تحت خطر محتمل من وجود هذه المملكة الضعيفة الرمزية التي استسلمت في النهاية دون قتال، عندما قرر ملك قشتالة الاستيلاء عليها بعد أن فقدت وظيفتها لتتوحد كل أسبانيا تحت رايته[١٤].

لقد رسمت أمريكا لبينوتشيه سياسته حتى تنازله السلمي الديمقراطي عن الحكم، ثم رسمت لمعارضته التي تحكم الآن سياستها التي أنهت اليوم بإسقاط الحكومة الشيلية الحصانة الدبلوماسية عن بينوتشيه، بفضل الضربة التي وجهتها بريطانيا (السكرتارية الخاصة لأمريكا) إليه. وإذا نظرنا إلى بينوتشيه في سياسته مع دول امريكا اللاتينية سنرى صورة لاتينية تشبه الخلافات العربية. أما الذي يختص به العرب فهو إضافة الاستعمار الاستيطاني المتمثل في إسرائيل لوسائل أمريكا في حديقتها العربية الخلفية، في الوقت الذي تُشجع البلقنة العربية بينما تحافظ على وحدة دول أمريكا الجنوبية.

هل إضافة هذه العناصر الثلاثة (الاستعمار الاستيطاني، تجميد الأوضاع، الاتجاه نحو البلقنة العربية) له علاقة بخصوصية العلاقات العربية – الأمريكية التي سبق إيضاحها في مطلع هذه الدراسة؟ لاشك. ولاشك أن الاتجاه نحو البلقنة خطر يهدد لبنان وبسببه تلاشت في ظله الصومال، ويعاني من شبحه العراق والجزائر والسودان، بينما وقعت فلسطين ضحية الاستعمار الاستيطاني. والبلقنة أيضاً، تهدد السودان الذي يستقبل ملايين من العناصر الزنجية عبر حدوده دون القدرة على وقفها. يضاف إلى ذلك موقف معاد للسودان من الكونجرس الأمريكي والمندوب الدائم (وربما المندوب السامي الجديد) لأمريكا في السودان. كل ذلك يشير إلى أن شبح الاستعمار الاستيطاني قريب من السودان كما أنه قريب من دول الخليج التي تشكو أيضا من عدد غير قليل من وجود العمالة الآسيوية.

أما النقطة الرابعة المشتقة من دورس بينوتشيه فتتعلق بالاكتشاف المفاجئ المهول عن وقوف بينوتشيه مع بريطانيا ضد الارجنتين في حرب فوكلاند والذي دعا تاتشر إلى إعلان ذلك لايضاح تأييدها لموقفها من الجنرال المتهم بجرائم ضد الإنسانية. علينا أن نتذكر أن بينوتشيه لم يقف علناً إلى جانب بريطانيا لأن دعمه لبريطانيا كان سرياً، ولنا أن نتخيل نوع هذا الدعم الذي لا يمكن إلا أن يكون ماديا أمريكياً تشيلياً، ونحن لا نشك أنه دعم الأسطول الأمريكي وبتسهيل من تشيلي لأن الإبحار في مياه تلك المنطقة يكاد يكون كارثة دون عون من تشيلي. استناداً إلى ذلك هل لنا أن نسأل عن حجم العون الذي تلقاه أمريكا كل يوم بشكل غير معلن من أطراف عربية تؤدي أكيداً إلى مساعدة اسرائيل؟ إن بيع أراضي فلسطينية لليهود يدخل ضن ذلك، وهو بيع مازال جاريا، حيث يعود كثير من الفلسطينيين المهاجرين لأمريكا الجنوبية لفلسطين لتوقيع عقود بيع موثقة لأملاك آبائهم الأولين في فلسطين نظير أموال مسكينة تدفعها لهم إسرائيل. ألا يساوي ذلك فعل الكفيل الذي يحضر إلى وطنه عمالة لا يحتاجها نظير أموال مسكينة أيضا؟ ألسنا نخدم المستعمر بتنفيذ ما يقوله لنا التاريخ من أن ذلك استراتيجية مرسومة لنا كأنه القدر الذي نخطه بأيدينا؟

فإذا تجاوزنا منظور الفعل السياسي الأمريكي في العالم العربي، بما يحمل

من أبعاد عسكرية واقتصادية واجتماعية تؤثر فينا يومياً باعتبارها تكتيكاً ينفذ بهدوء فلا بد أن نعي أنها إستراتيجية طويلة الأجل في مداها المستقبلي منذ أن حلت أمريكا محل بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا في المهمة الاستعمارية، وإذا تصورنا ذلك باعتباره عملية وراثة عادية حيث يحل الابن الشاب (الولايات المتحدة) محل الأوطان الأوربية الأم للسيطرة على المساحة الشاسعة التي كانت تستعمرها القارة العجوز حسب تعبير رامسفيلد ، ومنها لسوء الحظ عالمنا العربي. فقط أصبح الابن الشاب مسئولا عن مصالحنا، ثم يغدو بعد ذلك مخترعا لأنواع من السلوك المعوج في ثياب السلوك المستقيم. لقد اخترع الابن الشاب معيارين في التعامل مع ضحاياه: العصا والجزرة. فهو يتدخل لحماية حقوق الإنسان تارة ولحماية الديمقراطية تارة أخرى بينما هو، تارة ثالثة، ينشئ أنظمة معادية لحقوق الإنسان والديمقراطية مثل نظام بينوتشيه، والأنظمة الأخرى في كل مكان[١٦]. وهو الذي اخترع فكرة تفكيك الدول واستثمار القنابل الموقوته التي تركها الاستعمار القديم مثل الحدود المائعة بين الدول، والأقليات، وانقسام القبائل وتوزعها على عدد من الدول المتجاورة، والخلاف العجيب حول مصادر الثروة ومصادر المياه الخ، وليس بغائب عن الذاكرة أن الاستعمار الجديد قد استثمر في هذا الوضع الكثير في العالم العربي.

وإذا تجاوزنا الموقف الأمريكي وتذكرنا موقفنا تجاه أمريكا فإني أكاد أجزم أنّ موقفنا هو انصياع كامل لأمريكا بوعي أو بدون وعي. إن غزو إيران والكويت كان انصياعا عراقيا لأمريكا[١٧]، وإن غزو صدام الفاشل لايران لاقى تأييدا شاملا من العرب (مع وجود فريق محدد معارض للغزو لاستحالة توحد العرب كما أن توحدهم غير مقبول أمريكيا، بينما لقي غزو الكويت رفضا شاملا من العرب (مع وجود فريق محدود مؤيد له). إننا، كعرب، نكاد نفعل ما يُراد لنا وليس ما نريده لأنفسنا إلا إذا حولوا ما يراد لنا إلى إرادة ذاتية عربية. بمعنى أدق، أنهم يرسمون لنا استراتيجيتنا ويتركون لنا مهمة التطوع لتنفيذها ، فينطبق علينا القول الذي ردده مؤرخو الأندلس كثيراً "يخربون بيوتهم بأيديهم". لقد كان بابا روما يرسم الخطط للعالم المسيحي للتوحد من أجل القضاء على الإسلام في أوربا، فيحدثنا الغني بالله، ملك غرناطه، عندما قال "ويضطر أخي ملك قشتالة لتنفيذ سياسة

كبيرهم".

وهكذا يضطر الغني بالله للانهزام أحيانا لتغطية موقف أخيه ملك قشتالة أمام البابا، بينما ... هذا الأخ، كما يقول ابن عاصم، ".. يظهر أنه ساع لغرناطة في العاقبة الحسنى، وأنه منطو لأهلها على المقصد الأسنى، ومهتم بمراعاة أمورهم، وناظر بنظر المصلحة لخاصته وجمهورهم، وهو يسر حسوا في ارتغائه ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وابتغائة، فتبا لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال، وليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه، وعرض هذا المسموع على مدركات حسه، وراجع أوليات عقله وتجريبيات حدسه وقاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه(١٨) ".

إن هذا النص يذكرنا بقرارات الكونجرس المتوالية وتهديداته ضد مصر والسودان وليبيا وسوريا وغيرها وبخاصة قرار نقل السفارة الأمريكية إلى القدس. وهذا القرار الخير هو نموذج على صدق نص ابن عاصم: إن الرئيس الأمريكي لا ينقل السفارة من أجل عيون العرب، ويؤجل ذلك في عصيان ظاهر للكونجرس، وعلى العرب أن يجاملوه بما يكفي على حساب كرامتهم الوطنية لتغطية موقفه أمام الكونجرس ... وهلم جرا ...

ولعبة الرئيس الأمريكي والكونجرس تكشف أيضا عن تعقد اللعب مع أمريكا، فلا بد من أن ينهك الطرف الأجنبي الراغب في اللعب مع أمريكا نفسه وجيبه في إقناع الإدارة الأمريكية بمطالبه وطموحاته، وإقناع الكونجرس، وعدد لا يحصى من المؤسسات المدنية والدينية بنفس الشيء، بينما العرب يكتفون بوضع كل بيضهم في سلة الإدارة الأمريكية التي تحقق انتصارات داخلية كثيرة بفضل ضمانها لورقة العرب وولائهم في يدها(١٩)، على الرغم من عونها السافر لإسرائيل لضرب العرب والاستيلاء على أراضيهم.

ماذا تريد أمريكا، وماذا نريد منها، وما حدود حرية حركة سياسة عربية جيدة التخطيط والأداء يرسمها العرب لأنفسهم؟ وما علاقة ذلك بالوعي العربي بقوانين الفعل ورد الفعل في العالم المعاصر؟ تلك قضية أخرى، لكن الوضع الآن يشير إلى أن العالم العربي غائب عن ساحة الفعل إلا في حدود حمراء وضعتها

أمريكا له، ويعتقد الجميع أن من العقل عدم تجاوزها وأمريكا لا تريد من العـــرب أكثر من ذلك. أما العرب فيفكرون بالحلم، ويعملون فرادى في جد في محاولة فهم لمعرفة ما يرضي أمريكا أكثر.

الخاتمة :

يتضح مما تقدم أن هناك علاقة واضحة بين نظرية التبعية من جهـــة وبـــين الولايات المتحدة الأمريكية والعالم العربي. وكما أشار هذا البحث في مقدمته، فإن العلاقة وثيقة بين الاقتصاد السياسي والسياستين الداخلية والخارجية لدول الجنوب. ومن أجل ديمومة علاقة الاستغلال الرأسمالي في العالم النامي، تحـــاول الولايـــات المتحدة خلق قيادات في الجنوب ذات سياسات تخدم المصالح الرأســمالية. ولكـــن مثل هذه القيادات ذات طابع زمني خاص. فهي ثمينة للولايات المتحدة الأمريكيـــة ما دامت تخدم الاقتصاد السياسي الأمريكي. وإذا شعرت الولايات المتحدة أن قيادة ما أصبحت بغيضة أمام الرأي العام الوطني، فإنها تلجأ إلى تتويج نوع جديد مـــن قيادات الدول النامية مقبول لدى الرأي العام المحلي. ومثال ذلك، مواقف الولايات المتحدة المضادة للصديق القديم بينوتشية، وللصديق القديم الآخر صدام حسين ، و قبلها الصديق ملك الملوك شاة ايران . ورغم تغيير الوجوه السياسية، فإن ما يهـــم منظري السياسة الخارجية الأمريكية هو ديمومة التبعية الاقتصادية، ومن ثم التبعية السياسية، لـــ الولايات المتحدة الامريكية.

الحواشي :

(١) ينظر مؤلفات بعض رواد مدرسة التبعية:

Caporaso, James A. (1987) " International Political

Economy: Fad or Field? " International Studies

Notes 13 (Winter) "1–8.

_________________ (1980) "Dependency Theory: Continuities and Discontinuities in Development Studies, International Organization 34 (Autumn): 605–628

_________________ (ed) "Dependence and Dependency in the Global System. "Special Issue, International organization 32 (Winter): 1–300.

Todaro, Michael P. (1981) Economic Development in the Third World. New Yourk: Longman.

Frank, Andre Gunder. (1969) Latin America: Underdevelopment or Revolution – New York Monthly Review Press.

(٢) حول العلاقة بين الامبريالية الغربية وتأسيس اسرائيل، يُنظر الفصل السابع في.

James A. Bill and Robert Springborg, Politics in the Middle East. Fourth Edition. New York:

HarperCollins, 1994: 298–373.

(٣) للمزيد عن انقلاب بينوشيه الذي شجعته الولايات المتحدة ضد سيلفادور اليدني "أسبابه ونتائجه: يُراجع

Paul E. Sigmund, "chile," Ch.10, in Howard

J. Wiarda and Harrey F. Kline, Latin American Politics and Development. Boulder, Colorado: West View Press, 1990): 201–230.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠٣.

(٥) أنظر تحليل جيمس بل وروبرت سبرنغبورغ للعلاقة الخاصة بـين الولايـات المتحـدة وإسرائيل في المصدر الذي سبق ذكره ص ص – ٣٧١ – ٣٦١.

أنظر أيضا تشومسكي ، "ضبط الرعاع" حوارات أجراها معه ديفيد بارساميان، ترجمه هيثم علي حجازي، الأهلية للنشر والتوزيع ص ص ١٢٧-١٢٩.

(٦) ميشال بوغنوم – موردان "، أميركا التوتاليتارية، الولايات المتحدة والعالم: إلـى أيـن؟ عرّبَة: خليل أحمد خليل، دار الساقي، الطبعة الأولى ٢٠٠٢، بيروت. ص ص ٢٧٢-٢٧٥.

(٧) لمزيد من التفصيل أنظر ناعوم تشومسكي، "الإرهاب الـدولي، الأسـطورة والواقـع"، ترجمة لبنى صبري، سينا للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٠، القاهرة، ص ص ٤٧-٩٤.

(٨) أنظر بوب وودوارد، "الهدف، الشرق الأوسط! الحروب السرية للمخابرات المركزيـة الأمريكية "دراسة سامي الرزاز، سينا للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٠، القاهرة.

(٩) فيما يخص رأسمالية الدول في الشرق الأوسط وبرنامج المسـاعدات الامريكيـة فـي المنطقة، انظر:

Alan Richards and John Waterbury, A Political Economy of the Middle East: State, Calss, and Economic Development. Boulder, Colorado 1990: 214,215 – 216,223,224. 409,410, and 220.

(١٠) بيار سالينجر، إريك لوران، "حرب الخليج الملف السري"، دار آزال للتوزيع والنشـر، بيروت، الطبعة الأولى شباط ١٩٩١.

(١١) أنظر هنري فورد، "اليهودي العالمي، المملكة اليهودية،. نظرة أمريكية"، ترجمة أميمـة عبد اللطيف، ثلاثة أجزاء، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

– الإمبراطورية الأمريكية الجزء الثاني، "الأساطير المؤسسة للسياسة الأمريكية، روجيـه جارودي، مكتبة الشروق ، الطبعة الأولى ٢٠٠١، القاهرة، ص ص ١٦٥-١٨٥.

(١٢) لمزيد من التفصيل أنظر، محمد حسنين هيكل، "كلام في السياسة، الزمن الأمريكي: من نيويورك إلى كابول"، المصرية للنشر العربي والدولي، القاهرة، الطبعة الأولى: ينـاير ٢٠٠٢م، ص ص ٨-٦٣".

– الإمبراطورية الأمريكية، الجزء الأول "الولايات المتحدة ومبدأ حرية التجارة"، محمـود عبد الفضيل، مصدر سابق ص ص ١٢٧-١٣٦.